فاتحة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

— ١ —

هذا كتاب "النثر الفنى فى القرن الرابع" وهو كتاب شغلت به نفسى سبع سنين، فان رآه المنصفون خليقا بأن يغمر قلب مؤلفه بشعاع من نشوة الاعتزاز فهو عصارةُ لجهود عشرين عاما قضاها المؤلف فى دراسة الأدب العربى والأدب الفرنسى، وإن رأوه أصغر من أن يورث المؤلف شيئا من الزهو فليتذكروا أنى ألفته فى أعوامٍ سُودٍ لقيت فيها من عَنَت الأيام ما يقصم الظهر، ويقصف العمر: فقد كنت أشطر العام شطرين، أقضى شطرة الأول فى القاهرة، حيث أؤدى عملى، وأجنى رزقى، وأقضى شطره الثانى فى باريس، كالطير الغريب، أحادث العلماء، وأستلهم المؤلفين، الى أن ينفد ما ادخرته أو يكاد، ثم صممت على أن أنقطع الى الدرس فى جامعة باريس حتى أنتصر أو أموت، وكانت العاقبة أن أنعم علىّ الله — عز شأنه — بالنصر المبين.

ولكنى أحب أن أكون فى طليعة المنصفين لمؤلف هذا الكتاب، وهل من العدل أن أظلم نفسى وأنصف الناس؟

إن هذا الكتاب أول كتاب من نوعه فى اللغة العربية، أو هو — على الأقل — أولُ كتاب صُنِّف عن النثر الفنى فى القرن الرابع، فهو بذلك أول منارة أقيمت لهداية السارين فى غيابات ذلك العهد السحيق.

ولن يستطيع أى مؤلف آخر — مهما اعتز بقوته، وتعامى عن جهود من سبقوه — أن ينسى أنى رفعت من طريقه ألوفا من العقبات والأشواك.

وهل يمكن الارتياب فى أن مؤلف هــذا الكتاب هو أول من كشف النقاب عن نشأة النثر الفنى فى اللغة العربية ، وقهر المستشرقين ومن لَفَّ لَفَّهـم من أهل الشرق على الاعتراف بأن القرآن صورة من صور النثر الجاهلى ، وأنه دليلٌ على أن العرب كان لهم نثر فنيٌّ قبل عصر النبوة بأجيال ؟

وهل يمكن الشك فى أن مؤلف هذا الكتاب هو أول من رَجَع الصور الفنية فى نثر كُتّاب الصنعة والزخرف الى أصول عربية صميمة ، وكان الباحثون يظنونها أثرا من آتصال العـرب بالفرس واليونان ؟

وهل يمترى منصــف فى أن ما كتبته عن أطوار السجع والنسيب فى النثر الفنى بابٌ من البحث جديد ؟

وهل يتردد أريبٌ فى الاعتراف بأن الفصول التى كتبتها عن نشأة المقامات وعن الأخبار والأقاصيص فصولٌ مبتكرةٌ كُتبتْ لأول مرة فى اللغة العربية ؟ ٥

والفصول التى أنشأتها عن كُتّاب النقــد الأدبى؟ لقد جلوت فى تلك الفصــول طوائف من الحقائق الأدبية لم يهبها أحدٌ ما تستحق من العناية قبل اليوم .

والمؤلفون المنسيون الذين بعثهم هذا الكتاب ؟

لقد مرت أجيال طوال نسى فيها أبو المغيرة بن حزم نسيانا تاما حتى كاد يطوى من صفحة التاريخ ، الى أن كشف عنه مؤلف هذا الكتاب .

وكان أساتذة الأدب العربى فى الشرق والغرب يعتقدون أن (رسالة الغفران) أول مَسلاة فى اللغة العربية ، ويظنون أن آبن شهيد حاكاه حين ألف رسالة (التوابع والزوابع) فجاء مؤلف هذا الكتاب وأثبت أن رسالة آبن شهيد ألفت قبــل رسالة المعرى بنحو عشرين عاما ، وأن المعرى هو الذى حاكى آبن شهيد .

وكان كتاب أبى محمــد بن حزم فى (فن الحب) مجهولا فى الشرق ، فلما جاء مؤلف هــذا الكتاب وأظهره عدّه المصريون أعجوبة ، وتألفت لجنــة من علماء الأزهر برياسة الشـيخ

محمد عرفة وكيل كلية الشريعة لتبرئة ابن حزم مما نسب اليه! ثم انفضت اللجنة وانزوى أعضاؤها الفضلاء! أليس ذلك دليلا على أن هذا الكتاب فاجأ الشرقيين بنبأ عظيم ؟

وما كتبته عن ابن دريد؟ هل كان ينتظر أحد أن يكون هذا الرجل هو واضع الأقصوصة فى اللغة العربية، والملهم الأول لبطل المقامات بديع الزمان ؟

تلك ملامح من شمائل هذا الكتاب، أقف عندها ولا أزيد !

ومعاذ الأدب أن أمنّ على لغة العرب التى أعزنى بها الله . وإنما هى ثورة نفسية أنطقنى بها ما أراني زماني من غدر وعقوق . والله المستعان، على إفك هذا الزمان !

— ٢ —

وأنا، بعد ذلك، مسئول عن عَرض المؤاخذات التى وُجِّهت الى هذا الكتاب .

وأذكر، أولًا، أن فى هذا الكتاب عيبا يجله الأساتذة فى جامعة باريس، وهو غلبة النزعة الوجدانيـة، وقد اعتذر عنى المسيو ماسينيون يوم أداء الامتحان فى السوربون، فذكر أنى شاعر، والشعراء لا يستطيعون الفرار من نزوات الوجدان .

وأذكر، ثانيا، أنى قصرت تقصيرا ملموسا فى عرض الشواهد، ولم أذكر شاهدا كاملا غير مناظرة الخوارزمى والهمذانى ، واكتفيت بالإشارة فى الهوامش الى مراجع الشواهد . وعذرى فى ذلك أن هـذا الكتاب لم يؤلف إلا للخواصّ، ومن السهل عليهـم أن يرجعوا الى الشواهد فى مصادرها حين يشاءون . يضاف الى هذا أن الشواهد لو ذكرتْ كاملةً لوصل حجم الكتاب الى أكثر من أربعة مجلدات . وأين الناشر الذى ينفق على نحو ألفى صفحة من هذه الصفحات الطوال العِراض[1] ؟!

وأذكر، ثالثا، أن منهج العرض والتأليف يختلف فى هذا الكتاب بعض الاختلاف . والسبب فى هذا أن الكتاب لم يؤلف فى عام واحد، وإنما كتبت فصوله كما أسلفت فى خلال سبع سنين، وهى مدّة طويلة يتحول فيها العقل والذوق من حال الى حال .

(١) تردد الحاج مصطفى محمد أولا فى نشر هذا الكتاب لطوله وضخامة نفقاته، ولم تصح عزيمته على نشره إلا بعد أن علم أن حضرة صاحب المعالى الأستاذ محمد حلمى عيسى باشا وعد بطبعه على نفقة وزارة المعارف العمومية .

وأذكر ، رابعـا ، غلبـة الاستطراد فى صلب الكتاب ، وهو عيب لامنى عليـه الأساتذة فى باريس . وعذرى فى ذلك أنى أميل الى هـذا النحو الموروث فى التأليف ، لأن مؤلفاتنا القديمة كان أكثرها كذلك ، والقارئ هو الغانم على أى حال ، والفهرس المفصل[1] الذى ألحقته بالجزء الأول والجزء الثانى سيمكّن القارئ من تعقب ما فى الكتاب من شتيت الفوائد الأدبية والتاريخيـــة .

— ٣ —

عُنينا فى هذا الكتاب بدرس النثر الفنى ، أما الزمان فهو القـرن الرابع ، وأما المكان فهو الأمصار الاسلامية لذلك العهد . فهل كان يمكن أن يتفق العرب والمستعربون فى القرن الرابع على اصطناع أسلوب واحد أو مقارب فى التعبير عن مختلف المعانى والأغراض ؟

ذلك سؤال وجهه الينا المسـيو ديمومبين ، وأجبنا عنه فى النص الفرنسى[2] ، ونعرض له فى هذه المقدمة بشىء من البيان .

لا جدال فى أن الموضوعات كانت تختلف كثيرا أو قليلا ، فالمشاكل العقلية والوجدانية التى كانت تعرض لكتاب الأندلس تغاير بعض المغايرة ما كان يعرض لأمثالهم فى مصر والشام وفارس والعراق .

أما اللغة والأسلوب فالاختلاف فيهما قليل . لأن العرب الذين هاجروا فاتحين الى مصر والمغرب والأندلس نقلوا تقاليدهم الأدبية الى تلك البـلاد ، وكان من همّ المؤلفين فى المغرب والأندلس أن ينقلوا الى مواطنيهم أدب أهل المشرق . والتاريخ يحـدثنا " أن الصاحب بن عباد سمع بكتاب العقد فحرص حتى حصل عنده ، فلما تأمله قال : هذه بضاعتنا رُدّت الينا ، ظننت أن هذا الكتاب يشـتمل على شىء من أخبار بلادهم ، وإنمـا هو مشـتمل على أخبار بلادنا ، لا حاجة لنا فيه[3] " .

---

(١) الفهرس المفصل هو الترجمة المقبولة لعبارة Table analytique

(٢) ص ٤١ و ٢٣١ — ٢٣٢ (٣) معجم الأدباء ج ١ ص ٦٧

ولهذا الخبر الصغير وجهان على جانب من الأهميـة : فالصاحب كان يتشوف الى أدب أهل الأندلس، لأنه لم يكن منشورا فى المشرق ، وكان يرى أن أول ما ينبغى أن يشـغل به رجل كأحمد بن عبد ربه هو تدوين أدب أهل الأندلس . أما ٱبن عبـد ربه فكان أعرف بحاجة بلاده من الصاحب، فٱجتهـد فى أن ينقل اليهـم أدب أهل المشرق، وكانوا يرونهـم اساتذةً فى الشعر والبيان . وٱهتمام أمثال ٱبن عبد ربه بجمع الآداب المشرقية يؤيد ما نراه من محافظة أهل الأندلس على الأساليب العربية التى كان يصطنعها كتّاب الشام وكتّاب العراق .

وما وقع فى الأندلس وقع مثله فى المغرب، فان مؤلف زهر الاداب يحدّثنا فى مقـدّمة كتابه أن العباس بن سليمان ٱرتحـل الى المشرق فى طلب الكـتب "باذلًا فى ذلك ماله، متعذبا فيه تعبه، الى أن أورد من كلام بلغاء عصره، وفصحاء دهره، طرائف طريفـة، وغرائب غريبة" وسأله أن يجمـع له "من مختارها كتابا يكتفى به عن جملتها" فألف كتاب زهر الآداب .

وكما خلا العقد الفريد من أدب أهل الأندلس خلا زهر الآداب من أدب أهل المغرب.

أيكون معنى ذلك أن الأندلسيين والمغاربة كانوا يستخفّون بآثارهم الأدبية ؟

لا، ولكن معناه أنهم كانوا يرون المثل الأعلى عند أهل المشرق، فكانوا يجدّون فى نقل ما أُثِر عن أهل الشرق من القصائد والرسائل وا لِحكم والأمثال .

وكذلك كان زهر الآداب المرجع الأول الذى ٱعتمدت عليه فى أكثر الشواهد المشرقية مع أنه لرجل تونسىّ من أهل القيروان .

— ٤ —

ويمكن الحكم بأن حظ بغداد فى الأيام الخالية كان شبيها بحظ القاهرة فى هـذه الأيام ألسنا نرى العرب والمستعربين فى مختلف الأقطار الإسلامية يتأثرون ما يجـدّ فى القاهرة من ضروب الآداب والفنون ؟ ألسنا نرى مناهج النشر والتأليف التى يبدعها أهل القاهرة تنتشر فى أكثر الأمصار الإسلامية بشيء من التغيير قليل ؟

والمسيو ديموبين يحدثنا أن زرياب حين رحل الى الأندلس آستطاع أن يؤثر فى الأغانى الأندلسية و يصبغها بصبغة شرقية ؛ أفيرتاب أحد فى أن أغانى محمد عبد الوهاب تعطر الأغانى الشرقية بنفحة مصرية ، وتنقل الى أكثر البلاد العربية أسرار الغناء فى وادى النيل ؟

يضاف الى هذا نظام الرحلة فى طلب العلم ، وكان أهل الأندلس معروفين بذلك ، وكان الأخذ عن علمـاء المشرق ممـا يرفع رأس الرجل حين يعود الى بلاده موفور العـلم والعقل ، وكان يتفق لأهل الأندلس أن يقيموا زمنا بمصر فى طريقهم الى المشرق ، ليأخذوا عن علماء مصر ما يرون فى أخذه فضلا وعائدة . وقصة المنذر بن سعيد البلوطى معروفة ، وهى لا تخلو من فكاهة ، فقد حضر مجلس آبن النحاس فى مصر وهو يملى هذه الأبيات :

خليلىّ هل بالشام عينٌ حزينةٌ ... تُبكّى على ليلى لعــلى أعينهـا

قد آسلمها الباكون إلا حمامةً ... مطوّقةً باتت و بات قرينهـا

يجاوبهـا أخرى على خيزرانةٍ ... يكاد يدنّيهـا من الأرض لينها

فقال ابن سعيد : يا أبا جعفر ! ماذا ، أعزك الله ، باتا يصنعان ؟ فقال آبن النحاس : وكيف تقوله أنت يا أندلسىّ ؟ فقال : بانت وبان قرينها .

وبالطبع ما كان يتفق لجميـع من وفد على مصر من أهل الأندلس ما آتفق لآبن سـعيد مع آبن النحاس ولكن المهم أن نشـير الى أن آبن النحاس آستثقل آبن سعيد بعـد ذلك حتى منعه كتاب العين وكان يذهب فينتسخ من نسـخته ، فآنصرف عنه الى الانتساخ من نسخة أبى العباس بن ولاد[1] .

وفى أمثال هذا الخبر ما يدل على أن الأندلسـيين والمغاربة فى رحلتهم الى المشرق كانوا يجمعون بين فائدتين : الاستماع الى الرجال وآنتساخ ما يظفرون به من نادر المصـنفات ، حتى إذا عادوا الى بلادهم آشـتغلوا بالوراقة والتدريس ، أما الوراقة فلكسب الرزق ، وأما التدريس فلطلب المجد .

---

(١) أنظر معجم الأدباء ج ٢ ص ٧٢ ، ٧٣

و بعض هذا كافٍ لصبغ أذواقهم بالصبغة المشرقية فى الشعر والبيان .

أيكون عجيبا بعد هذه الأدلة أن نحكم بأن أساليب الكتّاب فى القرن الرابع كانت متقاربة فى السمات والخصائص و إن آفترقت مساكنهم بين المغرب والمشرق ؟

— ٥ —

مرت المناقشات هادئة فى هذا الكتاب، ولم يستعرْضر يهما إلا حين آتصلت برجلين من كرام الرجال، هما المسيو مرسيه والدكتور طه حسين .

أما المسيو مرسيه فعالم واسع الآطلاع ، وهو رأس المستشرقين الفرنسيين لهذا العهد ، وكانت له آراء مدوّنة عن نشأة النثر الفنى عند العرب . وما كدت أصل الى باريس حتى هممت بمهاجمته، فنصحنى المسيو ماسينيون وأفهمنى أنه رجلٌ صعب المِراس، وأن منزلته فى المعهد العلمى عظيمة، وأن المستشرقين جميعا يجلونه أعظمَ الإجلال . ولكن كتب الله أن لا أنتصح برأى المسيو ماسينيون ، فابتدأت رسالتى التى قدّمتها للسوربون بفصلين فى نقض آرائه من الأساس ، فغضب الرجل وثار ، وصمم على حذف الفصلين بحجة أنهما لونٌ من الآستطراد لا يوائم الروح الفرنسى فى البحث، وصممت على إبقاء الفصلين بحجة أنهما العماد الذى تنهض عليه نظريتى فى نشأة النثر الفنى .

وكأنما عزّ على الرجل أن أهاجمه فى عُقر داره فمضى يعادينى عِداءً خفيا كانت له آثار بشعة لا اتذكرها إلا آنتفضتُ رُعبًا من عجز الرجال عن ضبط النفس وقدرتهم على تقويض دعائم الإنصاف .

وقد قابلت خصومته بلدَدٍ أقسى وأعنف، ورأيت الحرص على آرائى أفضل من الحرص على رضاه، فأبقيت الفصلين اللذين أغضباه ، وأضفت الى البحث الذى قدّمته الى مدرسة اللغات الشرقية فصلا كان أشار بحذفه لأنى هاجمته فيه، وآنتهينا الى عاقبة أفصح عنها المسيو ماسينيون كل الإفصاح إذ قال حين لقيته أخيرا فى باريس :

" إن المسيو مرسيه لا يحبك، ولكنه لا يستطيع أن ينساك " .

أما أنا فأحب هذا الرجل وأذكره بالجميل ، لأنه من خيرة الأساتذة الذين تلقيت عنهم فى باريس ، ولأنه كان رئيس لجنة الامتحان الذى ظفرت فيه بدبلوم الدراسات العليا فى الآداب من مدرسة اللغات الشرقية . والله سبحانه هو القادر على أن ينسينى ما لقيت على يديه من ظلم وإجحاف !

أما الدكتور طه حسين فما أدرى والله ما ذنبه حتى يهاجَم أعنف الهجوم فى هذا الكتاب !

إن هذا الرجل تربطنى به ألوف من الذكريات، يرجع بعضها الى العهد الذى كنت طالبا بالجامعة المصرية القديمة، يوم كان يصطنع العدل الذى يلبس ثوب الظلم فى آمتحان الطلاب، فقد ساعد مرة على إسقاطى فى آمتحان الجغرافيا ووصف الشعوب ، وأسقطنى مرة ثانية فى آمتحان تاريخ الشرق القديم . والسقوط فى الآمتحان مما يحفظه الطالب المخلص لأستاذه المنصف .

ويرجع بعض الذكريات الى العهد الذى كنت فيه مدرسا بالجامعة المصرية الجديدة ، حين كنت أحمل اليه على أكتافى أحجار الأساس لنرفع القواعد من كلية الآداب .

وأدق ما يصل بيننا من الذكريات ما وقع فى ربيع سنة ١٩٢٦ يوم ظهر كتاب الشعر الجاهلى ، وثارت الأمة والحكومة والبرلمان ، وكان أصدقاؤه وزملاؤه بين خائف يترقب ، وحاسد يتربص، وكنت وحدى صديقه الذى لا يهاب، وزميله الذى لا يخون .

ولكن حماستى للفكرة التى أدافع عنها ، وغرام الدكتور طه بنقضها فى رسائله وأحاديثه ومحاضراته ، كان مما حملنى على مقاومته بعنف وقوة ، حتى ليحسب القارئ أن بيننا عداوة سقيت لأجلها القلم قطرات من السم الزعاف حين عرضت لدحض آرائه فى فصول هذا الكتاب .

أكتب هـذا وقد شرّق الدكتور طه وغرّبت ، ولم يبق بيننا إلا أطيافٌ من كرائم الذكريات، قلبي بها ضنين .

— ٦ —

يشتمل هـذا الكتاب على مقدّمة وستة أبواب ، أما المقدّمة فتبحث عن نصيب النثر الفني من عناية النقاد ، وتبين الغـرض من تأليف هـذا الكتاب ، وفى الباب الأول يتكلم المؤلف عن النثر الجاهلي والنثر الاسـلامى وأطوار السجع والآزدواج، وكان من الضرورى فى نظر المؤلف أن ينشىء هذا البـاب،وهو أصل الخصومة بينه و بين أستاذه المسيو مرسيه . وحجـة المؤلف أنه من الواجب تعرف مذاهب النثر من عصر النبوة الى القـرن الرابع لتظهر خصائص النثر فى العصر الذى ألف عنه الكتاب، وفى الباب الثانى يدرس المؤلف خصائص النثر فى القرن الرابع فيبين ما فيه من الظواهر الفنية والعقلية، ثم يمضى فيتكلم فى الباب الثالث عن كُتّاب الأخبار والأقاصيص، و يتحدث فى الباب الرابع عن كُتّاب النقد الأدبى ، ويشرح فى الباب الخامس بعض الجوانب المهمة من كُتّاب الآراء والمذاهب ، ويختم الكتاب بالباب السادس عن كُتّاب الرسائل والعهود .

والمؤلف مطمئن الى صحة هذا التقسيم،و يعترف بأنه لم يتكلم عن البلاغة الدينية إلا قليلا، فقد حملته الأَثَرَة على أن يستبقى هذا الجانب لكتابه "أثر التصوف فى الأدب والأخلاق" الذى يرجو أن يوفق الى إتمامه بعد قليل .

— ٧ —

راعينا روح العصر فى تأليف هذا الكتاب،فتجنبنا ألفاظا وتعابير كانت تستساغ فى القرن الرابع ولا تستساغ اليوم ، ولكنا فى الوقت نفسه لم نهمل واجب الدقة فى التأليف فأشرنا الى نوازع اللهو والمجون، ودللنا القارئ على مصادرها إن كان يهمه آستقصاء الظواهر الآجتماعية التى حفظها التاريخ . والأدب فى رأينا أصدق مصدر للدراسات الفلسفية والتاريخية، ومثل هذا الكتاب يقدّم للخواص الذين يُعدُّ التحفظ فى مخاطبتهم ضربا من الجمود .

— ٨ —

بين الأصل الفرنسى وبين هذا الكتاب آختلاف قليل ، ففى النسخة الفرنسية أشياء تكتب لأهل الغرب ولا يحتاج اليها أهل الشرق، وفى هذه النسخة العربية تفاصيل لا يحتاج اليهـا أهل الغرب وتنفع أهـل الشرق، ويمكن القول بأن فى النسخة العربيـة حرية لم تكن فى النسخة الفرنسية ، لأن الأصل الفرنسى كتب لأداء آمتحان الدكتوراه فى جامعة باريس، تحت إشراف أستاذين فيهما صرامة وقسوة، وهما المسيو مرسيه والمسيو ديمومبين، فالأصل الفرنسى وُجِّه وجهة العلم الصرف، أما هذا الكتاب فوُضع لغرض التعليم والتثقيف .

— ٩ —

أيرانى القارئ أحسنت التمهيد لهذا الكتاب ؟

قد يكون ذلك وقد لا يكون ، ولكن ممـا لا ريب فيه أنى رفعت عن كاهلى عبئًا ثقيلا باخراجه الى الناس ،فقد كان من الواجب أن ينشر بالعربية بعد نشره بالفرنسية .وقد قضيت عاما فى طبعه بمطبعة دار الكتب المصرية ، وآستوجب تحقيقه وتصحيحه جهـودا لم تكن تخطر بالبال ،وصبر ناشره الحاج مصطفى محمد صبرا جميلا ،وآحتمل عمال المطبعة ضجرالإفراط فى المراجعة والتصحيح .

وأرى من الواجب أن أشكر صاحب العزة الأستاذ برادة بك على التسهيلات التى آختصنى بها فى تيسير طبع هـذا الكتاب على الطريقة الفنية التى آستطعت بهـا ربط أصول الكتاب بعضها ببعض ، وأن أسدى الثناء الى صـديقى المفضال محمد افندى نديم على معونته فى إنجاز الطبع على أحسن حال .

والله أسأل أن يقينى شر الفتنة ، فتنـة النفس والقلب والعقـل ، وأن يهـدينى الصراط المستقيم، وأن يمنح هذا الكتاب من القبول ما يكافئ ما أضعت فى تأليفه من العمر والعافية، إنه قريبٌ مجيب ما

مصر الجديدة فى { ٦ شوّال سنة ١٣٥٢ / ٢٢ يناير سنة ١٩٣٤ } محمد زكى عبد السلام مبارك

نقد النثر الفنى

١ — ينبغى أن نقيد فى صدر هذا الكتاب أن النقاد لم يعطوا للنثر ما أعطوا للشعر من العناية : فلسنا نجد فى كتب النقد تلك الأبحاث المطوّلة التى يراد بها ردّ معانى الكتّاب الى مصادرها الأولى على نحو ما فعلوا فى درس معانى الشعر وبيان المبتكر منها والمنقول . فقد نجدهم يتعقبون المعنى حين يرد فى بيت من الشعر فيذكرون أجديدٌ هو أم قديم ، ثم يذكرون مَن أُخِذ عنه إن كان قديما ، ويبينون الفرق بين المعنى فى صورته الأولى وبينه فى صورته الثانية . وقد يزيدون فيذكرون الأدوار التى مر بها المعنى منذ عُرِف عن الجاهليين ويبينون درجات من تناوله من الشعراء . وهذا الذى نقوله يبين وجها من الفروق بين النثر والشعر من الوجهة الفنية : فالشعر فى نظر النقاد من العرب أكثر حظا من الفن وأولى بالنقد والوزن . والنثر مهما احتفل أصحابه باتقانه وتجويده لم ينل من أنفس النقاد منزلة الشعر . ولذلك قلّت العناية بتقييد أوابده والنص على ما فيه من ضروب الإبداع والابتكار أو دلائل الضعف والجمود.(١) وليس فى اللغة العربية كتاب منثور شغل به النقاد غير القرآن ، على أن شغل النقاد بالقرآن لم يكن عملا فنيا بالمعنى الصحيح للنقد الأدبى : فقد كان مفروضا فى كل من يكتب عن القرآن أن يظهر عبقريته هو فى إظهار ما خفى من أسرار ذلك الكتاب المجيد . وليس هذا

---

(١) ومع هذا نجد فى مطالعاتنا إشارات الى سرقات الكتّاب فقد كان أحمد بن أبى طاهر يقول فى سعيد بن حميد « لو قيل لكلام سعيد وشعره ارجع الى أهلك لما بقى معه شىء » — الفهرست ص ١٧٩ — و(الكلام) هنا هو النثر الذى يسمى أيضا (الكتابة) وقد سمى النثر (كلاما) فى عدّة مواطن منها قول بديع الزمان « البليغ من لم يقصر نظمه عن نثره ، ولم يزر كلامه بشعره » ...

وعرض الثعالبى لبعض المعانى التى وردت فى نثر الصاحب بن عباد مسروقة من شعر المتنبى — اليتيمة ص ٨٧ ج ١

وعرض الثعالبى كذلك لاحدى رسائل الصابى فبين أن بعض ألفاظها مأخوذ من فصل كتبه جعفر بن محمد بن ثوابة عن المعتضد الى ابن طولون — اليتيمة ص ١٩١ ج ١

وفى وفيات الأعيان — ج ١ ص ١٥ و ١٦ — كلام لابراهيم الصولى عما أضاف الى نثره من معانى الشعراء .

من النقد فى شىء . إنما النقد أن يقف الباحث أمام الأثر الأدبى موقف الممتحن للحاسن والعيوب . من أجل ذلك وُسم أكثر ما كتب عن القرآن باسم الإعجاز لأن النقاد اطمأنوا الى أن القرآن هو المثل الأعلى الذى تقف عنده حدود الطبيعة الانسانية فى البلاغة والبيان .

٢ — فاذا خلينا القرآن جانبا وانتقلنا الى غيره من غرر النثر وجدنا البدائع النثرية قليلة الحظ من عناية النقاد : فنحن نستطيع أن نجد طائفة صالحة من المؤلفات تدور حول أبى تمام والبحترى ومسلم بن الوليد وأبى نواس و بشار والمتنبى، بحيث نستطيع أن نجزم بأن الشعراء الكبار الذين شُغل بهم الناس كانوا سببا فى نشاط النقد الأدبى و إمداده بتلك الحيوية العظيمة التى ظهر أثرها فى مثل مؤلفات أبى هلال العسكرى وابن الأثير وابن رشيق وأبى الحسن الجرجانى وغيرهم من فحول النقاد الذين شُغلوا بالموازنة بين الشعراء . ولكن قلّ أن نجد أثرا لمثل ذلك الاهتمام اذا شئنا أن نعرف ما صنع النقاد فى الموازنة بين كاتبين كالبديع والخوارزمى، أو الصاحب والصابى ، أو عبد الحميد وابن المقفع ، أو الصولى وابن الزيات ، أو ابن زيدون وابن شهيد، وغيرهم من الكتاب الذين شغلوا معاصريهم من المتأدبين والناقدين[1] .

---

(١) ولا ننكر مع هذا أنه وضعت كتب كثيرة فى نقد النثر أشهرها كتاب قدامة بن جعفر الذى نشرته الجامعة المصرية بتحقيق الدكتور طه حسين والاستاذ عبد الحميد العبادى . وكتاب (المذهب فى البلاغات لابن العميد) — ١٩٤ فهرست — وكتاب (غرر البلاغة) أورد منه صاحب صبح الأعشى شواهد — ٢٨٠ و ٢٨٥ ج ٩ — و (تحفة الكتاب فى الرسائل) — ٢٧٤ ج ٦ ياقوت — و (كتاب الكتاب) — ٢٧٩ ج ٦ ياقوت — و (غلط أدب الكاتب) و (مصابيح الكتاب) — ٢٨١ ج ٦ ياقوت — و (الاختيار من الرسائل) أو (فقر البلغاء) — ١٣٠ ج ياقوت — و (علم النثر) — ٢٥١ ج ١ ياقوت . و (أنواع الأسجاع) — ٧٥ ج ٤ ياقوت — و (الرسائل السلطانيات والاخوانيات) و (الفرق بين المترسل والشاعر) — ٢٥٧ ج ٢ ياقوت .

وفى مطالعاتنا نجد كتبا كثيرة ألفت فى النثر : لا نعرف أهى من قبيل المجموعات أم من باب النقد أم من علم البيان، لأن أصولها لم تصل الينا . وهى تدل على أن المتقدمين اهتموا بالدراسات النثرية . ولكنا لا نزال نرى أن الشعر استبد بجهود أكثر النقاد ولم يخلص للنثر من عنايتهم إلا القليل .

ولنقيد أن نقد النثر الذى انصرف عنه أكثر الباحثين هو فن غير الفن الذى عرف بأدب الكتاب ووضعت فيه أبحاث كثيرة منها « الرسالة العذراء » التى قدمناها مع مقدمة بالفرنسية الى مدرسة اللغات الشرقية فى باريس ونشرناها فى سنة ١٩٣١ و (أدب الكتاب) للصولى . و (كتاب الكتاب) لابن درستويه، وما الى ذلك من الدراسات التى تتصل =

٣ — وإيثار الشعر على النثر له مظاهر كثيرة فى البيئات العربية ، فهذا أبو بكر الخوارزمى الذى كان يحفظ نحو خمسين ألف بيت من الشعر لم يعرف عنـه أنه آهتم بحفظ الرسائل حتى ذكروا أنه لم يحفظ غير رسالة واحدة هى كتاب الصاحب الى ابن العميد جوابا عن كتابه عليه فى وصف البحر (١) : والواقع أن الشعر أقرب الى النفس من هذه الناحية ، وهو بالذاكرة أعلق ، وعلى الألسنة أسير ، بفضل القوافى والأوزان .

٤ — ولنذكر هنا أن فى كتاب القرن الرابع من نظر فى هـذه المسألة وفاضل بين الشعر والنثر وبيّن مقام الكتّاب ومقام الشعراء . وأهم مالفت نظرى فى تحرير هذا الموضوع ما كتبه الثعالبى فى تفضيل النثر وما كتبه ابن رشيق ردا عليـه فى تفضيل الشعر . والثعالبى يبنى حكمه على أن طبقات الكتّاب كانت ولا تزال مرتفعة عن طبقات الشعراء « فان الكتّاب وهم ألسنة الملوك إنمـا يتراسلون فى جباية خراج ، أو سدّ ثغر ، أو عمارة بلاد ، أو إصلاح فساد ، أو تحريض على جهاد ، أو آحتجاج على فئة ، أو دعاء الى ألفـة ، أو نهى عن فرقة ، أو تهنئة بعطية ، أو تعزية فى رزية ، أو ما شاكلها من جلائل الخطوب ، ومعاظم الشئون ، التى يحتاجون فيها الى أن يكونوا ذوى آداب كثيرة ، ومعارف مفننة (٢) » .

وهذا حق من جانب وخطأ من جانب آخر : هو حق من حيث تنويهه بفضل النثر فى المصالح المعاشية والسـياسية والادارية ، لأن النثر هو الأداة الصالحة للتفاهم فى شئون الحرب والسلم والتجارة والزراعة والصناعة وما الى ذلك من شئون العمران ، ولكنه خطأ من حيث يعطى للنثر جوانب هى أقرب الى الشعر : فالدعاء الى الألفة والنهى عن الفرقة والتهانى بالعطايا والتعازى فى الرزايا من الموضوعات التى كان الشعر فيها أصلح أداة من النثر وأقدر على تسجيل العواطف والأحاسيس ، وآمتلاك القلوب والنفوس .

= فى الأغلب بأحوال الكتّاب من الوجهة الديوانية والاجتماعية . وأهم كتاب فى هذا الباب هو (صبح الأعشى) الذى يعـدّ أنفع ما صنف فى أدب الكتّاب . على أن هذا النوع من التأليف حافل بالملاحظات الفنية التى تقربه من (النقد الأدبى) وإن لم تسم به الى المصنفات الممتعة التى قصرها أصحابها على دراسة آثار الشعراء .

(١) ص ٨٧ ج ٣ نثر من يتيمة الدهر . (٢) ص ٣ نثر النظم .

والثعالبي صدق فى نصه على أن ما يشتغل به الكتّاب يقضى بأن يكونوا ذوى آداب كثيرة ومعارف مفننة : فانه يكاد يغلب على جمهور الشعراء فى اللغة العربيـة فراغ الأفئدة وفقر الرءوس . والشعراء المتفوّقون عنـد العرب هم الشعراء المثقفون الذين آستطاعوا أن ينافسوا كبار الباحثين من أصحاب المذاهب وأرباب الأقلام . فأبو نواس وبشار بن برد ومسلم بن الوليد وابن المعتز وابن الرومى وأبو تمام والبحترى والشريف الرضى والمتنبي، كل أولئك كانوا من أهـل العلم الوافر العميق، وكانوا فوق ذلك أصحاب مطامع وأهواء فى الملك والسياسـة، وكانوا لا ينامون إلا على سر مبيّت أو غرض دفين .

ونظرةٌ الى شعراء العصر الحاضر تعطينا ما يؤيد هذه الفكرة، فالشعراء النابهون فى عصرنا هم الذين لابسوا رجال الملك وآتصلوا بالجماهير آتصال آستثار وآستغلال: فقد كان شوقى شاعر القصر، وكان حافظ شاعر الشعب، كما كان البارودى شاعر السيف، وقد خمل من خمل من الشعراء الذين قعدت بهم ثقافتهم و وقفت بهم هممهم عند الاكتفاء بمضغ الكلام الموزون !

٥ ــ والثعالبي بعد كلماته تلك يذكر فى أسباب تقديم النثر على الشعر أن الشعر تصوّن عنه الأنبياء وترفّع عنـه الملوك . وهى حجة واهية وسبب ضعيف ، فالشعر أقرب الفنون الى أرواح الأنبياء، وأنا لا أتصوّر الأنبياء إلا شعراء، وإن جهلوا القوافى والأوزان، لأن الشعر الحق روحٌ صرف، والنبوّة الحقة شعرٌ صُراح . أما الملوك فترفّعهم عن الشـعر لا يحط من قدره، ولا يغض من شأنه، والملوك لو آستطاعوا أن يضموا إلى قواهم المـادية تلك القوّة الروحية لكان حظهم أوفى الحظوظ . ولكن شواغل الملك وتكاليف السياسة اليومية تصرف العقل والحس والخيال عن إجادة الشعر الذى يتطلب صفاء النفس وجلاء الوجدان .

٦ ــ وربما كان أظرف نقد وجه للشعر والشعراء ما قصه الثعالبي إذ قال : وقد أفصح عبد الصمد بن المعـذل عن حقيقة الحـال فى انحطاط رتبة الشاعر لآشتغاله بخلاف المراشد حيث قال لأبى تمام وقد قصد البصرة وشارفها :

أنت بين آثنتين تبرز للنا س وكلتـاهما بوجه مُذالِ

لست تنفك طالبا لوصال من حبيب أو طالبا لنوال

أى ماء لحـر وجهك يبقى بين ذل الهوى وذل السؤال

فلما بلغت الأبيات أبا تمام قال : صدق والله وأحسن ! وثنى عنانه عن البصرة وحلف أن لا يدخلها أبدا [1] .

وهذه الأبيات التى قالها ابن المعذل تصور حياة الشعراء الأقدمين أصدق تصوير . وقد رأيت أن أرجع بمناسبة هذه الأبيات الى وصية أبى تمام للبحترى لأرى الأغراض التى كان يهتم بها مثل ذلك الشاعر البليغ ، فلم أجده نص على غير النسيب والمديح إذ قال :

"وإن أردت التشبيب فاجعل اللفظ رقيقا ، والمعنى رشيقا ، وأكثر من بيان الصبابة وتوجع الكآبة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق . فاذا أخذت فى مدح سيد ذى أياد فأشهر مناقبه ، وأظهر مناسبه ، وأبن معالمه ، وشرف مقامه [2] " .

فالشاعر على هـذا الوضع لا يبرح دامع العين فى سبيل الحب ، أو قلق النفس فى سبيل المـال ، وحياته إذن مقسمة بين ذلين : ذل الهوى وذل السؤال .

٧ — غير أنه ينبغى أن لا نفتن بهـذا الكلام فتنة باقية ، وأن نفهم أن جماله يرجع الى أنه سخرية تدل على براعة وذكاء ، فانه إن جاز لنا أن نلوم الشعراء على إسفافهم حين يطمعون فى عطايا الملوك فانا لا نستطيع أن نأخذ عليهم أن تُفتَن عيونهم بالحسن ، وأن تخفق قلوبهم بالوجد ، فان للشاعر رسالة يؤديها الى العالم هى فهمه العميق لأسرار الجمال ثم غناؤه الساحر فى تقديس الحسن المصون . والشـاعر الملهم حين يفهم المعانى الروحيـة لصباحة الوجود وأسالة الخدود ، ورشاقة القـدود ... وهو قيثارة إلهية يمضى رنينها ساحرا أخاذا لا يملك الغض منه إلا صُمّ المسامع أو غُلْف القلوب .

٨ — أما ابن رشيق فيفضل الشعر على النثر لأسباب فنية ، وهو يذكر أن كلام العرب نوعان : منظوم ومنثور ، ولكل منهما ثلاث طبقات : جيـدة ومتوسطة وردية ، وفى رأيه

(١) ص ٤ من نثر النظم . (٢) ص ١٠١ ج ١ زهر الآداب .

أنه اذا آتفق الطبقتان فى القــدر وتساوتا فى القيمة، ولم يكن لإحداهما فضــل على الأخرى كان الحكم للشعر ظاهرا فى التسمية : لأن كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه فى معترف العادة ، فالدر — وبه يشبّه اللفظ — اذا كان منثورا لم يؤمن عليه ولم ينتفع به فى الباب الذى كسب له وآنتخت من أجله، وكذلك اللفظ اذا كان منثورا تبدّد فى الأسماع ، فاذا أخذه سلك الوزن وعقد القافية تألفت أشتاته وآزدوجت فرائده (١) .

وهذا كلام ضعيف لا يتناسب مع عقل مثقف كعقل ابن رشيق، لانه اذا صح أن يشبّه الشعر بالعقد المنظوم فانه لا يصح أن يشبه النثر بالدر المنثور : لأن النثر منظوم أيضا، والكاتب يؤلف بين الكلمات و يزاوج بين الألفاظ بنفس الدقة التى يعنى بها ناظم العقد، واللؤلؤ المنثور له قيمته دائما، لأن اللؤلؤة هى هى فى قيمتها ونفاستها، ولن يضيرها أن تسقط من بين حبات العقد وأن تقع حيث يشاء الإغفال. أما اللفظة فتفقد قيمتها الأدبية وهى مفردة إذ كان سحرها يرجع الى موقعها من التركيب بلا فرق بين الشعر والنثر. وقد نص عبد القاهر الجرجانى فى دلائل الاعجاز على أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هى ألفاظ مجرّدة، ولا من حيث هى كلم مفردة، وانما تثبت لها الفضيلة وخلافها فى ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلّق له بصريح اللفظ، وذكر أننا نرى الكلمة تروق وتؤنس فى موضع، ثم نراها تثقل وتوحش فى موضع آخر، وأننا قد نرى رجلين آستعملا كلما بأعيانها ثم نرى هذا قد فرع السِّماك، ونرى ذاك قد لصق بالحضيض (٢) .

٩ — على أنه يخيل الى أن تقــديم الثعالبى للنثر كان أثرا لغرض شخصى، فلا يبعد أن يكون خوارزمشاه الذى قدم اليه "نثر النظم وحل ال[illegible]" كان من هواه أن يقدّم النثر على الشعر إيثارا لبعض الكتّاب، أو حقدا على بعض الشعراء . وهذا الذى نقوله ليس بغريب من كتّاب ذلك العصر، فعهدى بهم يصوّرون الحقائق حسبما توحى الأهواء، حتى أننا نجد آبن رشيق الذى فضل الشعر على النثر يقول: "ولم أ[illegible] بهذا الرد وأورد هذه الحجة لولا أن السيد أبقاه الله

(١) ص ٤ و ٥ من كتاب العمدة .

(٢) راجع ص ٣٨ و ٣٩ من دلائل الاعجاز .

قد جمع النوعين، وحاز الفضيلتين، فهما نقطتان من بحره، ونوارتان من زهره[١]" فهذه الفقرة صريحة فى أن أحكامه تتأثر بأهواء من يعاشر من الرؤساء .

١٠ — وأبو هلال العسكرى أكثر دقة من الثعالبى فى الكلام على الشعر والنثر، فعنده أن الرسائل والخطب متشاكلتان فى أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية ، وقد يتشاكلان أيضا من جهة الألفاظ والفواصل، فألفاظ الخطباء تشبه ألفاظ الكتاب فى السهولة والعذوبة، وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل، ولا فرق بينهما إلا أن الخطبة يشافه بها، والرسالة يكتب بها، والرسالة تجعل خطبة، والخطبة تجعل رسالة، فى أيسر كلفة، ولا يتهيأ مثل ذلك فى الشعر من سرعة قلبه وإحالته الى الرسائل إلا بتكلف، وكذلك الرسالة والخطبة لا يجعلان شعرا إلا بمشقة[٢] .

١١ — هذا فهم أبى هلال للنثر والشعر من الوجهة الفنية، أما من الوجهة الاجتماعية فالنثر فى رأيه عليه مدار السلطان، والشعر يغلب عليه الزور والبهتان، وليس يراد من الشاعر إلا حسن الكلام، أما الصدق فيطلب من الأنبياء[٣] .

وفضل الشعر على النثر — عند أبى هلال — يرجع الى استفاضته فى الناس، وبعد سيره فى الآفاق ، والى تأثيره فى الأعراض والأنساب ، والى أنه ليس شىء يقوم مقامه فى المجالس الحافلة، والمشاهد الجامعة، والى أن مجالس الظرفاء والأدباء لا تطيب ولا تؤنس

---

(١) ص ٦ العمدة . (٢) ص ١٠٢ — وهذا صريح فى أن نقاد العرب يفهمون أن الرسائل والخطب فن واحد أو فنان متقاربان يقابلهما الشعر، فالكلام ينقسم الى قسمين منظوم ومنثور، والمنثور منه الخطب والرسائل . وقد عرض القلقشندى للتعليق على كلمة أبى هلال فى صبح الأعشى — ج ١ ص ٢٢٦ — فقال : "إن الخطب جزء من أجزاء الكتابة ونوع من أنواعها يحتاج الخطيب إليها فى صدور بعض المكاتبات وفى البيعات والعهود والتقاليد والتفاويض وكبار التواقيع والمناشير" . ومن هذا يتبين أن المسيو مرسيه تكلف شططا حين زعم أن الكلام ينقسم الى ثلاثة أصول أساسية : هى النظم والنثر والخطب، ليصح له أن يحكم بأن الجاهليين عرفوا فن الشعر وفن الخطابة ولم يعرفوا فن النثر . والمعقول أن الذى يحسن إعداد الخطبة يحسن بسهولة إنشاء الرسالة . وقد بقى صدى خطباء الجاهلية لأن الخطب كانت لا تلقى عادة إلا فى المواسم أو عند كبريات الحوادث . أما الرسائل فكانت تنقل من قبيلة الى قبيلة على أيدى الرسل وكانت فى الأغلب مما يكتمه المرسلون . (٣) انظر الصناعتين ص ١٠٣

إلا بانشاد الأشعار، والى أن الشعر أصلح للألحان التى هى أهنى اللذات، ولا تتهيأ صنعتها إلا على كل منظوم من الشعر فهو لها بمنزلة المادة القابلة لصورها الشريفة[1] .

قال أبو هلال : ومن صفات الشعر التى يختص بها دون غيره أن الانسان اذا أراد مديح نفسه فأنشأ رسالة فى ذلك أو عمل خطبة فيه جاء فى غاية القباحة، وإن عمل فى ذلك أبياتا من الشعر احتُمِل . ومن ذلك أن صاحب الرياسة والأبهة لو خطب بذكر عشيق له ووصف وجده به وحنينه اليه وشهوته فى حبه وبكاه من أجله لاستُهجِن منه ذلك وتنقص به فيه، ولو قال فى ذلك شعرا لكان حسنا[2] .

١٢ — وهذا كلام يحتمل النقض ، فان مدح الرجل نفسه، إن جرى مجرى الدفاع والمفاخرة ، صح وقوعه فى النثر، وشواهد ذلك كثيرة من خطب الخلفاء والولاة ورسائلهم، فليست خطب على بن أبى طالب فى جملتها إلا إشادة بشرفه وتنويها بقربه من الرسول . أما الفخر الذى يجرى مجرى الزهو والخيلاء فهو مردود فى الشعر والنثر . وان كان الشعر أصلح الفنين للتغنى بكرم الأعراق وشرف الأحساب .

أما الغزل فمن الحق أن الشعر أولى به ،لأن الغزل غناء،والشعر أقرب الى الأنين والرنين، ولكنا لانجد بدا من الاشارة الى أن من الكتاب من اتخذ النثر أداة تشبيب فوقع تشبيبه موقع القبول ، وفى رسالة الجاحظ الى ابراهيم بن المدبر[3] ورسالة اسحاق بن [illegible]شيم الى على بن هشام[4] وما نقله صاحب زهر الآداب فى الجزء الأول والثالث من و[illegible]ف النساء والغلمان ورسائل الشوق دليل على أن النثر يصلح أيضا للمعانى الغرامية . ولا م[illegible]ى لتضييق المجال أمام الكتاب بمثل ذلك الاصطلاح ، ولكن هيهات أن تنجو ا[illegible]لأدبية أو الاجتماعية من أثقال التقاليد التى تسيطر على الذوق، وتجعل مقياس القب[illegible] والحسن تابعا لما ألف الجمهور من ملابسات الحياة .

---

(١) ص ١٠٣ (٢) ص ١٠[illegible] (٣) ص ٦٧ ج ٦ ياقوت ،

(٤) ص ٢١٩ ج ٢ ياقوت .

١٣ — بعد هذا البيان أحب أن أدوّن رأيى فى الفرق بين منزلة الشعر ومنزلة النثر وهو رأى لم أُسبَق اليه : رأيى أن الموضوعات هى التى تحدّد نوع الصياغة ، فليس ينبغى أن يفترض أن الشعر صالح لكل موضوع ، ولا أن النثر صالح لكل موضوع ، فهناك مواطن للقول لا يصلح فيها غير النثر ، ومواطن أخرى لا يصلح فيها غير الشعر . والبليغ الموفّق هو الذى يفهم سياسة الفطرة فى مثل هــذه الشئون . ففى بعض الأحوال يكون الإفصاح بالشعر نوعا من العىّ ، كما يكون أحيانا أسمى أنواع البيان . وقد أذكر أننى كنت أحاور المسيو مرسيه فى تطوّر السجع فأخرج رسائل الجاحظ وفيها هذه العبارة :

" إن معاوية مع تخلفه عن مراتب أهل السابقة أملى كتابا الى رجل فقال فيه : لهو أهون من ذرة ، أو كلب من كلاب الحرة) ثم قال : امح (من كلاب الحرة) واكتب (من الكلاب) كأنه كره اتصال الكلام والمزاوجة وما أشبه السجع ، ورأى أنه ليس فى موضعه "[1]

وكان المسيو مرسيه يظن أن فى هذه العبارة دلالة على أنهـم كانوا إذ ذاك لا يستحبون الكلام المسجوع ، فوجهت نظره إلى أن لهذه العبارة معنى آخر : ذلك أن السجع فن رقيق ، لا يصلح فى مثل ذلك المقام وهو مقام تهديد ووعيد .

وفهم الظروف وما تقتضيه من شـعر أو نثر هو أساس التوفيق عند من يفرض عليهـم القول . فكم موطن يظهر فيه الشعر غريبا ، وكم موطن تظهر فيه الرسائل والخطب وكأنهـا بعيدة عما يجب أن يقال . ولو تتبعنا آثار الكتّاب الذين مُنِحوا موهبة الشعر لرأيناهم يجنحون إلى القريض فى مواضع لا يغنى فيها النثر شيئا . فبديع الزمان يمضى فى رسائله ومقاماته ناثرا، ثم ينتقل إلى الشعر بغتة حيث يرى الشعر أقرب إلى ما يريد . وقـد رأينا عبـد العزيز بن يوسف يراسل الصاحب بن عباد فيبدأ خطابه ناثرا ثم يميل إلى النظم ولا يفـوته أن يعلل ذلك الميل فيقول : "ابتدأت أطال الله بقاء مولاى الصاحب بكتابى هـذا وفى نفسى إتمامه نثرا، فمال طبعى إلى النظم، وأملى خاطرى على يدى منه ما كتبت، ونعم المعرب عن الضمير مضمار القريض"[2] .

(١) ص ١٥٥ رسائل الجاحظ .

(٢) اليتيمة ص ٩١ ج ٢

١٤ — قلنا إن الموضوعات هى التى تحدد نوع الصياغة فلنعد إلى ذلك بكلمة حاسمة فنقول : إذا كان موضوع القول متصلا بالمشاعر والعواطف والقلوب كان الشعر أوجب لأن لغته أقدر على التأثير والإمتاع ، وإذا كان الموضوع متصلا بأعمال العقل والفهم والادراك كان النثر أوجب ، لأن لغته أقدر على الشرح والإيضاح والإفهام والتبيين والإقناع ، ومن أجل ذلك نرى الفقهاء واللغويين والنحويين ورجال العلوم الصرفة كالفلكيين والرياضيين لايجيدون الشعر إلا قليلا ، لأن اتجاهاتهم العقلية تصرفهم عن تلقى الوحى والإلهام إذ كان الشعر فى صميمه ينفر من النفوس المعقدة ويأنس بالنفوس الصافية التى تسيطر عليها القوة أو الوداعة وتغلب على أصحابها الثورة أو السكون ، ولا يفهمون من العالم إلا جوانبه الأخاذة التى تصرخ بالعظمة البالغة أو ترمى بالقلب فى سعير الحب وفتنة الجمال .

* * *

١٥ — ونعود فنذكر أن كتاب القرن الرابع كان يغلب عليهم الشعر ، فكانوا يلجأون إلى القريض فى المواطن التى لا يحسن فيها غير القريض . وحرص كتاب القرن الرابع على إجادة الشعر يدل على مغالاتهم فى الصنعة فان الشعر أدخل فى الفن من النثر . ولكن ليس معنى هذا أنهم كانوا جميعا من الشعراء المتفوقين . كلا ! فان عبد العزيز بن يوسف الذى كان يقرنه الصاحب إلى الصابى لم يكن جيد الشعر ، والقطع التى وصلت إلينا من شعره باردة الأنفاس ، والتوحيدى أثر عنه شعر قليل ، وهو مع قلته ضعيف . وهناك كتاب كان شعرهم أجود من نثرهم وكانوا من المبرزين فى الصناعتين ، منهم أبو العلاء المعرى صاحب اللزوميات وسقط الزند وهما من دواوين الشعر الممتازة فى اللغة العربية ، وصاحب رسالة الغفران التى تعدّ من من آيات النثر العربى ، ومنهم الشريف الرضى وهو من أفراد الشعراء ، وينسب إليه جزء كبير من نهج البلاغة ، ومنهم أبو عامر بن شهيد أحد كتاب الأندلس وشعرائها وهو من أفراد المجيدين فى المنظوم والمنثور ، والشعر عليه أغلب .

أما الكتاب الذين غلب عليهم النثر وكان لهم مع ذلك شعر جيد فهم عديدون منهم على ابن عبد العزيز الجرجانى ، وأبو بكر الخوارزمى ، وأبو الفضل بن العميد ، وأبو اسحق الصابى ،

و بديع الزمان الهمذانى ، وأبو اسحق الحصرى[١] ، وأبو الفرج الببغاء ، وهؤلاء كانوا يجيدون الشعر إجادة تامة فى موضوعات لا يحسن فيها غير القريض .

١٦ — ولنذكر نماذج من شعر هؤلاء الكتّاب لندل على تفوقهم فى الصناعتين تفوقا يجعل منزلتهم فى النثر الفنى أعلى وأرفع ؛ إذ كان النثر عند هؤلاء فنا خالصا لا يفضله الشعر بغير القوافى والأوزان .

فمن ذلك قول ابن العميد فى معشوقه وقد فُصِد :

ويح الطبيب الذى جست يداه يدك ... ما كان أجهله فيما قد آعتمدك

بأى شىء تراه كان معتذرا ... من مسه بحديد مؤلم جسدك

لو أن ألحاظه كانت مباضعه ... ثم آنتحاك بها من رقة فصدك

وقال الصاحب بن عباد فى رجل كثير الشرب بطئ السكر :

يقال لماذا ليس يسكر بعد ما ... توالت عليه من نداماه قرقفُ

فقلت سبيل الخمر أن تنقص الحجا ... فان لم تجد عقلا فماذا تحيَّف

وقال بديع الزمان فى طبائع الناس :

كذلك الناس خدّاعٌ ... إلى جانب خدّاع

يعيشون مع الذئب ... ويبكون مع الراعى .

١٧ — والقلقشندى من الذين رجحوا النثر على الشعر : فقد ذكر فى كتابه (صبح الأعشى) أن الشعر وإن كانت له فضيلة تخصه من حيث تفرده بآعتدال أقسامه وتوازن أجزائه ، وتساوى قوافيه ، مع طول بقائه على تعاقب الأزمان ، وتداوله على ألسنة الرواة لسهولة حفظه ، وجمال إنشاده بمجالس الملوك ، فان النثر أرفع منه درجة ، وأعلى رتبة ، وأشرف مقاما ، وأحسن نظاما[٢] .

---

(١) الحصرى مقل فى كتابته وشعره ، ولكن الفقرات التى تتفق له أحيانا فى (زهر الآداب) تنم عن ذوق فى الانشاء . وآهتمامه بأدب القرن الرابع هو الذى أوحى الينا فكرة تأليف هذا الكتاب .

(٢) صبح الأعشى ص ٥٨ ج ١

والنظام الذى يظهر حسنه فى النثر غير واضح، ولكن القلقشندى يفسره فيذكر أن الشعر محصور فى وزن وقافيه يحتاج الشاعر معهما الى زيادة الألفاظ والتقديم فيها والتأخير، وقصر الممدود، ومدّ المقصود، وصرف ما لا ينصرف، ومنع ماينصرف من الصرف، الى غير ذلك مما تلجئ إليه ضرورة الشعر فتكون معانيه تابعة لألفاظه، والكلام المنثور لا يحتاج فيه الى شيء من ذلك فتكون ألفاظه تابعة لمعانيه .

وتفسير القلقشندى لرأيه غير كاف ولا سديد، فان الشعر الذى نوازن بينه وبين النثر ليس هو الشعر الذى تكون معانيه تابعة لألفاظه، وإنما هو الشعر المحكم الذى تكون فيه الألفاظ دائما تبعا للمعانى، والنظم الجيد يفرض ذلك فى الشعر والنثر على السواء .

ومما تنبه له القلقشندى خطر الموضوعات التى يعرض لها النثر حيث يراه مبنيا "على مصالح الأمة وقوام الرعية" لما يشتمل عليه من مكاتبات الملوك وسراة الناس فى مهمات الدين وصلاح الحال، وما يلتحق بذلك من ولايات السيوف وأرباب الأقلام[1] .

ونقل القلقشندى عن "مواد البيان" أن العرب كانت أحست بانحطاط رتبة الشعر عن الكلام المنثور، كما حكى أن امرأ القيس بن حجر هم أبوه بقتله حين سمعه يترنم فى مجلس شرابه بقوله :

إسقيا حجرا على علاته من كميت لونها لون العلق[2]

وما روى أن النابغة الجعدى كان سيدا فى قومه لا يقطعون أمرا دونه وأن قول الشعر نقصه وحط رتبته[3] .

ونحن نرى مسألة امرئ القيس تحتاج الى تعليل، أما مسألة النابغة الجعدى فصحيحة من حيث دلالتها على بعض التقاليد الاجتماعية . وقد تحادثت مرة مع الأستاذ ابراهيم مصطفى

---

(١) ص ٥٩ (٢) الكميت الخمر فى لونها كمتة وهى حمرة فى سواد، والعلق بالتحريك الدم الشديد الحمرة.
(٣) ص ٦٠ و ٦١

فى مثل هذا الموضوع وكنا نتكلم عن شخصية الأستاذ محمد نجيب الغرابلى باشا ، وكان الأستاذ ابراهيم مصطفى يرى أن اهتمام الغرابلى باشا بقرض الشعر يحط من قيمته كزعيم سياسى، ولم أفلح فى إقناع صديقى ابراهيم بأن الشعر قد يكون من مميزات كبار الرجال[1] .

١٨ — وخلاصة هذا الفصل أن التأليف فى نقد النثر كان قليلا بالإضافة الى التأليف فى نقد الشعر، ويرجع ذلك الى أن القدماء كانوا يرون الشعر أرفع فنون الجمال، أما النثر فكان فى نظرهم أداة من أدوات التعبير عن الأغراض العلمية والسياسية والدينية، ولذلك كانوا حين ينقدونه يتوجهون فى الأغلب الى ما فيه من معان وأغراض قبل أن يعنوا بالنظر فى أساليب الإنشاء، ظنا منهم أن الدقة لا تطلب إلا من الشعراء .

١٩ — ونحن نرى أن الوقت حان للعناية بالنثر ونقده و إحلاله المحل الأول من جهود الباحثين والناقدين، فان النثر اليوم هو صاحب السلطان فى المشرق والمغرب، والكتاب يحتلون اليوم مكانة يصعب أن يتسامى اليها الشعراء، لأن النثر هو الأداة الطبيعية لنشر الآراء والمذاهب والعقائد ، وزماننا مجنون بالسرعة فى كل شىء ، والشعر — كفن دقيق مثقل بالقوافى والأوزان — غير خليق بتقديم ما تحتاج إليه العقول صباح مساء من ألوان الغذاء العقلى والوجدانى، وهو حين يجود يظل مقصورا على بعض النوازع القلبية والنفسية التى لا تستريح إليها الجماهير إلا فى أوقات الفراغ . وليس معنى هذا أن الشعر دالت دولته، لا، فانه لا تزال لدينا جوانب وجدانية تتشوف الى التغنى بالشعر البليغ ، لأن الطبيعة لا تزال تتأنق فى خلق دواعى الشعر، ولا يزال فى الدنيا نجوم تتألق، وأزهار تتفتح، ولا تزال الأرض تذلل خدها لمن يمشى عليها من أسراب الظباء .

---

(١) وقد تصاولت مرة مع الأستاذ عبد العزيز البشرى بمناسبة ما كنت أثرته فى جريدة البلاغ عن شرح نهج البردة فقال الأستاذ وهو غاضب : «إن أبى أجل قدرا من أن يشرح قصيدة لشاعر» وهذا شاهد جديد على فهم العلماء لقيمة الشعر . وقديما زعموا أن الشافعى قال :

ولولا الشعر بالعلماء يزرى لكنت اليوم أشعر من لبيد

وإنما نريد أن نقدر النثر حق قدره، وأن نبين مناهجه ومذاهبه ممثلة فى كتاب القرن الرابع، لأنه فى رأينا أول عصر فى اللغة العربية أراد فيه الكتاب أن يستبدوا بمعانى الشعراء وألفاظهم وتعابيرهم؛ وأن يروضوا القلم الطليق على التحليق فى جميع الأجواء .

٢٠ — وليعلم الناظر فى كتابنا هذا أن أول ما يهمنا هو المعانى والأغراض، وليست الألفاظ والتعابير إلا وسائل لتجلية المعانى وكشفها وتوضيحها بحيث يستطيع القارئ أن يشارك الكاتب فى حسه وشعوره، وذوقه ووجدانه، وضلاله وهداه . ومن أجل هذا آهتممنا اهتماما بالغا بتحليل آراء الكتاب ومذاهبهم الاجتماعية ، واتجاهاتهم العقلية ، وثوراتهم النفسية والوجدانية، ولم نشترط من حيث الصورة إلا أن يكون الكاتب كاتبا (écrivain) أى رجلا قديرا على تلوين أفكاره وخواطره تلوينا يستهوى العقول والألباب ، فليس كل مفصح عن غرضه بقادر على جذبنا إليه، وإنما يستميلنا الكتاب الفنانون الذين يجمعون بين جودة المعنى وجمال الأداء .

الباب الأول

تطور النثر الفني

من عصر النبوة إلى القرن الرابع

---

١ — النثر الجاهلى

١ — هل كان للعرب نثر فنىّ فى عصور الجاهلية ؟ وهل كانوا يفصحون عن أغراضهم بغير الشعر والخطب والأمثال ؟

لقد آتفق مؤرخو اللغة العربية وآدابها كما آتفق مؤرّخو الإسلام على أن العرب لم يكن لهم وجود أدبى ولا سياسىّ قبل عصر النبوّة، وأن الإسلام هو الذى أحياهم بعد موت ونبههم بعد خمول .

وهذا الآتفاق يرجع إلى أصلين : فهو عند مؤرّخى الإسلام من المسلمين تأييد لنزعة دينية يراد بها إثبات أن الإسلام هو الذى خلق العرب خلقا وأنشأهم إنشاء : فنقلهم من الظلمات إلى النور، ومن العدم الى الوجود . وهو عند مؤرّخى اللغة العربية وآدابها يرجع إلى الشك فى كثير من النصوص الأدبية التى أُثِرت عن العرب قبل الإسلام من خطب وأسجاع وأمثال .

٢ — وقد وقع للأستاذ خليل مطران وهو يحاور الدكتور محمد هيكل فى الجامعة المصرية سنة ١٩٢٨ أن أشار إلى أن مجموعة الأدب التى أُثِرت عن الجاهليين لم تكن تزيد عن كراس، وأنها على ضآلتها كانت مُمِدّة فى تثقيف الأدباء لذلك العهد أمثال على بن أبى طالب وعمر بن الخطاب . وهذا خطأ من الأستاذ مطران فان الثقافة التى ظهر أثرها فى خطباء العرب لعهد النبوّة كانت تشهد بوجود مجموعات كبيرة جيدة من الشعر والنثر والخطب والأمثال .

٣ — وهناك رأى مثقل بأوزار الخطأ والضلال وهو رأى المسيو مرسيه ومن شايعه كالدكتور طه حسين . وذلك الرأى يقضى بأن العرب فى الجاهلية كانوا يعيشون عيشة أوّلية (Primitif) والحياة الأوّلية لا توجب النثر الفنى لأنه لغة العقل وقد تسمح بالشعر لأنه لغة العاطفة والخيال . وهذا الرأى أعلنه المسيو مرسيه فى المحاضرة التى آفتتح بها دروسه

فى مدرسة اللغات الشرقية فى باريس منذ أعوام، ثم أذاعه مطبوعا فى كراس خاص[1] . وقد اختطف الدكتور طه حسين هذا الرأى وأذاعه فى دروسه بالجامعة المصرية ثم أثبته فى كتاب (المجمل) الذى اشترك فى وضعه للمدارس الثانوية[2] . وكان ينتظر أن يتنبه المسيو مرسيه ومشايعه الدكتور طه حسين إلى أن العصر الذى وسموه بالأولية عند العرب هو القرن الخامس للميلاد . وفى ذلك العصر كان النثر الفنى موجودا عند أكثر الأمم التى جاورت العرب أو عرفوها كالفرس والهنود والمصريين واليونان ، وليس بمعقول أن يكون لتلك الأمم نثر فنى قبل الميلاد بأكثر من خمسة قرون ثم لا يكون للعرب نثر فنى بعد الميلاد بخمسة قرون ، كأن العرب انفردوا فى التاريخ القديم بالتخلف فى ميادين العقل والمنطق والخيال .

والمسيو مرسيه يؤمن بوجود الخطب فى العصر الجاهلى ، وينكر إنكارا مطلقا أن يكون هناك نثر فنى كالذى يلجأ إليه الرجل لإذاعة فكرة ، أو دفع شبهة ، أو إيضاح مشكلة . وفاته وفات أشياعه أن القرآن يشير إلى أنه كانت هناك كتب دينية وأدبية لم يطلع عليها النبى عليه السلام حتى يتهم بأنه لفق القرآن مما نقل إليه من علوم الأولين ﴿ وما كنت [تتلو] من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون ﴾[3] .

وكانت حجة المسيو مرسيه التى واجهنى بها فى صيف سنة ١٩٢٧ [أ]نه لو كانت هناك مؤلفات نثرية لدونت وحفظت ونقلت إلينا كلها أو بعضها كما هو الشأن [فى] آثار الهند والفرس والروم . وقد أجبته يومذاك بأن فقدان تلك الآثار لا يكفى لإنكا[ر أنه] كان لها نصيب من الوجود . على أن فى القرآن الكفاية وهو أثر جاهلى كما سنبينه [بع]د قليل .

٤ — وخلاصة ما أراده أنه كان للعرب قبل الاسلا[م] نثر فنى يتناسب مع صفاء أذهانهم ، وسلامة طباعهم ، ولكنه ضاع لأسباب أهمها ش[يو]ع الأمية ، وقلة التدوين ، وبعد ذلك النثر عن الحياة الجديدة التى جاء بها الاسلام ودو[ن] القرآن .

---

(١) يمكن الرجوع الى نص هذه المحاضرة فى
(Revue Africaine—Nos 330 & 331 (1er & 2e trimestres 1927)

(٢) المجمل ص ١٥ و ١٦ (٣) سو[رة] القصص .

وما نقله الرواة من النصوص لا يكفى لتعيين أساليب النثر فى العصر الجاهلى، وبيان الاتجاهات العقلية التى كان يرمى اليها الكاتبون إذ ذاك، وهو على قلته مما وضع فى العصر الأموى وصدر العصر العباسى لأغراض دينية وسياسية ، وهو لهذا لا يعين مدرسة نثرية ، ولا مذهبا اجتماعيا ، ولا رأيا عاما ، وإنما يعين أذواق واضعيه ، ومذاهبهم السياسية ، واتجاهاتهم الدينية .

ومن أمثلة ذلك حديث خنافر الحميرى، وهو منقول عن ابن الكلبي ، ومثبت فى الجزء الأول من الأمالى[1] : وهو حديث مختلَق وضع بعد الاسلام . وقد أضفته إلى النثر المنسوب إلى العصر الجاهلى مع أنه قيل — على فرض صحته — فى عصر النبوة : لأننى أدخل تلك الفترة فى الجاهلية ، إذ لم يكن الاسلام استطاع أن يمحو الآثار التى سبقته فى الشعر والكتابة وأن يبدع مناهج جديدة للانشاء والتفكير تغاير مذاهب الجاهليين .

والذى وضع هذا الحديث أراد أن يثبت رسالة النبى إلى الجن ، وهى مسألة لا نعرض لها برفض و[لا] قبول ، وانما نقرر أن واضعها قصد إلى هذه الغاية مستعينا فى سبيل الوصول إليها بمحاكاة ال[لغة] اليمنية، فذكر "الزخيخ" و"الهوب" بدل النار، و"الواهر" بدل الساكن و"ابجمتين" بدل العينين، ليوقع فى رُوع القارئ صحة الرواية، مع أنه يبعد أن تكون اللغة اليمنية فى ذلك الحين شديدة القرب من اللغة العدنانية بحيث لاتخالفها إلا فى بعض الألفاظ.

وكل ما يمكن استخلاصه من مثل هذا الحديث هو اطمئنان الرواة إلى أن لغة الكهان كانت مسجوعة، وأنه كان من المألوف أن يتبع النثر بشىء من الشعر. ولهذا قيمته فى تصوّر حالة النثر الفنى فى العصر الجاهلى، وإن لم يصل بنا إلى تحديد ما كان عليه من قوة أو ضعف و وضوح أو غموض .

٥ — والحكم الذى أجريناه على حديث خنافر هو الحكم الذى نقضى به فى تقدير خطبة قس بن ساعدة الإيادى ، وهى الخطبة التى زعم الرواة أنه تنبأ فيها بظهور الرسول ، وهى بلا

(١) ص ١٣٣ ج ١ طبع بولاق .

شك خطبة وضعت لإيهام الجمهور أن نبوّة محمد كانت مما يجرى على ألسنة الخطباء الموفّقين من أصحاب الحكمة فى عهد الجاهلية . وهى كذلك خطبة مسجوعة ختمت بقطعة من النثر على نمط الحديث المنسوب إلى خنافر بن التوأم الحميرى .

٦ — ومن أهم ما نسب إلى العصر الجاهلى من آيات النثر الفنى خطب وفود العرب عند كسرى . وهى خطب طويلة فصيحة مثبتة فى الجزء الأوّل من العقد الفريد[1] . وأنا أرى أن هذه الخطب منحولة وضعها الرواة بعد الاسلام لأغراض سياسية ، حين أرادوا أن يثبتوا فضل العرب فى الجاهلية ، وانهم كانوا قادرين على مقاومة الفرس بالسيف واللسان . وأكبر الظن أنها وضعت فى العصر الإسلامى ، فان لغتها تشابه تمام المشابهة للغة التى كتبت بها مشاورة المهدى لأهل بيته فى بغداد سنة ١٧٠[2] . ويكفى أن [illegible]ون الباحث إلى نصوص تلك الخطب وهاته المشاورة ليقتنع بأن التشابه بين الأ[illegible] . وفاته واضح من حيث الألفاظ والتعابير والأسلوب . وتدلنا خطب الوافدين [illegible] النبى عليه
تصوّر العرب بعد الاسلام لما كان عليه أسلافهم من المَنَعة وقوة الجانب [illegible] ومن قبله من
يصفوهم به من الثورة على كسرى والتأهب لمقاومته والخروج على سلطانه
صورةٌ لشمائل العرب وعاداتهم وأخلاقهم وطباعهم ، وتفسيرٌ لما أُخِذ [illegible] نه لو كانت هناك
فى بعض الأوضاع الاجتماعية .
[illegible] آثار الهند والفرس

ويؤيد ما ذهبت إليه من أنها كتبت بعد الاسلام أننا نجد [illegible] كان لها نصيب من
موضوعا فى لغة تماثل تمام المماثلة لغة أولئك الخطباء ، مما [illegible] قليل .
ما جرى فى تلك الوفادة . ولسنا نستطيع إثبات أن ذلك [illegible] نثر فنى يتناسب مع صفاء أذهانهم ،
به كيف كان النعمان ينظم ديوان التحرير فى قصره[3] [illegible] الأمية ، وقلة التدوين ، وبُعدُ ذلك النثر
[illegible] دونه القرآن .

(١) ص ١٠١ — ١٠٦ ج ١

(٢ [illegible]

(٣) هذا لايمنع انه كان فى قصر النعمان ديوان للا[illegible] على مجاراة من يتصلون بهم من الفرس والروم فى التحلى [illegible] سبل القصص .

نظموا دواوين الرسائل ، وأعدوا لكل فن من فنون الكتابة رجالا إخصائيين ، ولذلك نجد مشاورة المهدى لأهل بيته مثلا ختمت بهذه العبارة :

"وكتب فى شهر ربيع الآخر سنة سبعين ومائة ببغداد"

٧ — والذى قلناه فى خطب الوفود يمكن أن نقوله فى أكثر القصص والمحاورات التى نسبت إلى أهل الجاهلية ، وتكلف واضعوها أن ينشئوا لها من الشعر وأن يضيفوا إليها من الأمثال ما يتناسب مع الغرض الذى وضعت له والظرف الذى قيلت فيه .

والنتيجة أننا لا نستطيع أن نعطى النثر الفنى فى العصر الجاهلى لونا نطمئن إليه . لأن أكثر ما نسب إلى الجاهليين غير صحيح . ومؤرخو الآداب مطمئنون إلى أن الشعر بقى منه أضعاف

وأن يبقى من النثر : لأن الشعر موزونٌ مقفًّى يسهل حفظه ، ولأن أكثره قيل فى حوادث

والذى ...ة أعدت على ترديده ، ولأن التدوين كان قليلا جدا فلم يحفظ به من النثر إلا اليسير . (١)

لها برفض و ... القدماء من ارتاب فى صحة أكثر الشعر الجاهلى مثل محمد بن سلام ، وفى المحدثين

إليها بمحاكاة ا... برفض ذلك كله كالدكتور طه حسين .

و "المحتمين" بدر... الشعر الجاهلى مهددا بمثل هذا الرفض مع اتفاق الباحثين على أنه كان وحده موضع

اليمنية فى ذلك الحي... الحفاظ والناسخين ، فكيف يمكن الاطمئنان إلى صحة ما نسب إلى الجاهليين من

وكل ما يمكن أسـ... النثر ... الرواية به كانت قليلة ، ومع أن من خطباء الإسلام نفسه من ضاعت آثارهم

كانت مسجوعة ، وأنه كان ... لم ... صورة مستفيضة جدا مثل سحبان وغيره من الخطباء الذين حدثنا عنهم

حالة النثر الفنى فى العصر الجاهلى . ... تاريخ أصول الآداب .

و وضوح أو غموض . ... شواهد نثر الجاهلية ، ثم عدنا فأثبتنا أن شواهد ذلك النثر ليست

٥ — والحكم الذى أجريناه على حديث ... كيف ... يستقيم مع ذلك ما نراه من أنه كان للعرب نثر

قس بن ساعدة الإيادى ، وهى الخطبة التى زعم

---

(١) ص ١٣٣ ج ١ طبع بولاق .

... تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد ... راجع البيان والتبيين ص ١٥٨ ج ١

فليعلم القارئ ان لدينا شاهدا من شواهد النثر الجاهلى يصح الاعتماد عليه وهو القرآن .

ولا ينبغى الاندهاش من عدّ القرآن أثرا جاهليا، فانه من صور العصر الجاهلى : إذ جاء بلغته وتصوّراته وتقاليده وتعابيره، وهو — بالرغم مما أجمع عليه المسلمون من تفرّده بصفات أدبية لم تكن معروفة فى ظنهم عند العرب — يعطينا صورة للنثر الجاهلى، وإن لم يمكن الحكم بأن هذه الصورة كانت مماثلة تمام المماثلة للصور النثرية عند غير النبي من الكتّاب والخطباء .

وقد قدّمت هـذا الشاهد للمسيو مرسيه الذى يرى أن النثر الفنى يبتدئ بابن المقفع ، فأخذ يبحث عن مخرج ولكنه لم يهتد الى الآن . أما الدكتور طه حسين فقد اهتدى الى مخرج لطيف، وذلك إعلانه أخيرا فى دروسه بالجامعة المصرية أن القرآن لا هو شعر ولا هو نثر، وإنما هو قرآن (1) .

وقد بلغتنى عنه هذه الكلمة وأنا فى باريس، فحسبته يمزح، والمزاح مما يباح [illegible] فلما عدت راجعته فوجدته يصر على أن الكلام ينقسم الى ثلاثة أقسام : شعر ونثر وقرآن [illegible] وقد حسب الدكتور طه أنه ينجو بهذا التأويل ! وكان الظن به أن يؤيدنا فيما رأيناه من [illegible]دم النثر الفنى عند العرب ، وأن لا يستكثر علينا أن ننقض بعض ما يرى المستشرقون، [illegible]نهم يرون بلا حق أن العرب لم تكن لهم ذاتية أدبية، وإنما أخذوا طرائق النثر الفنى عن الفر[illegible] [illegible]آن واليونان (2) .

---

(1) وهى متابعة غير موفقة للمسيو مرسيه الذى يرى أن القرآن ليس حليقا بأن [illegible]مى نثرا ويقول :

On est donc fondé à r[illegible] [illegible]user à la langue du Coran le nom de prose au sens plein et strict du mot.

وذنب القرآن عند المسيو مرسيه أنه فى الأغلب مسجوع وموزون [illegible] rimé et cad[illegible] ولا يخرج من قيد إلا ليقع فى قيد ، ولو صح رأى المسيو مرسيه لأنكرنا أن يكون فى آثار كـ[illegible] القرن الرابع والخامس ما هو حليق بأن يسمى نثرا : لأن أغلب كلام أولئك مسجوع وموزون .

(٢) الدكتور طه لا يقف عند العصر الجاهلى فى نف[illegible] النثر الفنى ، فقد صرح فى إحدى محاضراته بالجامعة الأمريكية — مارس سنة ١٩٣٣ — أن القرن الأول بعد الهـ[illegible]رة لم يكن فيه نثر يعتدّ به ولم تكن للكتّاب أهمية اجتماعية ، وإنما كان الشأن للشعر والشعراء . وسيرى القارئ ان هذا [illegible] رأى قليل الحظ من الصواب .

٩ — القرآن شاهد من شواهد النثر الفنى ، ولو كره المكابرون، فأين نضعه من عهود النثر فى اللغة العربية ؟ أنضعه فى العهـد الإسلامى ؟ وكيف والاسلام لم يكن موجودا قبل القرآن حتى يغير أوضاع التعابير والأساليب !

فلا مفر إذن من الاعتراف بأن القرآن يعطى صورة صحيحة من النثر الفنى لعهد الجاهلية، لأنه نزل لهـداية أولئك الجاهليين ، وهم لا يخاطَبون بغير ما يفهمون . والنبي جاء لإرشاد قومه وأمرهم بالمعـروف ونهيهم عن المنكر فى الحـدود التى رسمها الدين الحنيف ، ولم يكن القرآن إلا أداةً لنشر تلك الرسالة الكريمة التى أعزت العرب بعد ذل، وهدتهم بعد ضلال .

وفى القرآن نص صريح على أن الرسول لا يرسل ﴿ إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ . وتلك إشارة تلوح بها لمن لا يكفيهم المنطق ، وإلا فكيف يعقل أن يحدّث النبي قومه بما ينبو عن أذواقهم وأفهامهم، وهو رجل مسئول لا يستطيع أن يقصد الى الإغراب فى الألفاظ والتعابير، أو قهر اللغة على الالتواء عما ألف العرب من طرائق البيان .

إنه لواضح أن اللغات يتميز بعضها عن بعض بشيئين اثنين : اللفظ والتعبير . وقد تتحد طائفة من الألفاظ فى بعض اللغات كما يقع ذلك فى العربيـة والتركية والفارسية والعبرية والهندية . ثم لا يقال إن وحدة الألفاظ تقتضى وحدة اللغات ، لأن سر اللغة هو فى طريقة الأداء لا فى أعيان الألفاظ ، ومن هنا صح لك أن تنظر فى صفحة من كتاب تركى فتجد ثلاثة أخماسها مفردات عربيـة ثم لا يغنيك ذلك فى فهم ما أفصح عنـه الكاتب من المعانى والأغراض .

وقد نزل القرآن بلغة العرب ففهموه أسرع فهم ، ووصـل الى قرارة نفوس المؤمنين فملأها روحا ويقينا، واستثار الدفائن من صدور المشركين فأعلنوا ما فى قلوبهم من غيظ وما فى رءوسهم من عناد. أفكان شيء من ذلك يقع لو نزل القرآن بأساليب لا يفقهها أهل الجاهلية؟

١٠ — القرآن ليس بشعر، لأنه خال من القوافى والأوزان، وهذا موضع اتفاق .

ولكن أيمكن القول بأنه ليس بنثر أيضا كما يتوهم الدكتور طه حسين ؟ وليت شعرى لمن يقال هذا الكلام ! أيقال لرجال الدين ؟ وكيف وهذه مسألة لغوية لا دينية ، وليس فى أصول الدين ما يقهرنا على القول بما لم يقل به أحد من علماء اللغات ! أيقال لمؤرخى اللغة العربية؟ وكيف وهم متفقون على أن القرآن كلام منثور وإن تفرد ببعض الخصائص والمميزات.

أيقال إن الكتاب العزيز لا هو شعر ولا هو نثر وإنما هو قرآن لتصدق أوهام من يقولون بأن العرب لم يكن لهم نثر فنى قبل الإسلام ، لأن النثر الفنى لغة العقل ، وأولئك قوم كانوا يحيون حياة أولية لا تبيح لأمثالهم غير التغنى بعواطف الأطفال ؟

إذا كانت ميزة النثر الفنى أنه أداة لشرح الحقائق التى توحى بها العقول ، فمن ذا الذى يستطيع أن ينكر أن القرآن عرض لكثير من المعضلات العقلية والاجتماعية والروحية التى كانت تغزو أفئدة العرب فى الجاهلية ؟ أو من ذا الذى يرتاب فى أنه خاطب العرب باسم العقل لا باسم الخيال ؟

ومن موجبات الغلط عند الدكتور طه حسين أنه يرجع كلمة قرآن إلى أصلها فى اللغة السريانية ، فهى هنالك معناها الجهر ، وهو يؤكد أنه لذلك كان المسلمون فى الصدر الأول يجهرون بتلاوة القرآن .

وهذا منطق لا قيمة له ، وكان يصح لو أن القرآن كان مجموعة من الأناشيد ومزامير يرتلها المسلمون فى أعقاب الصلوات ، وكيف والقرآن لم يكن مما يتسع للتسبيحات والتهليلات كما هو العهد بكثير من الكتب الدينية ، وإنما نزل لدفع عادية المشركين ونقض أوهام النصارى واليهود ، وإن كان هذا لا يمنع أنه اشتمل على سور قصيرة مسجوعة صالحة للتلاوة فى سبيل الدعاء والابتهال .

١١ — وأنا مع هذا أقرر أن القرآن — بالرغم من وضوح لغته وقربها أشد القرب من الآثار الأدبية لعهد الإسلام — يعد أثرا أدبيا يختلف بعض الاختلاف عن الآثار التى جاءت بعده ، ويتفرد بالصفات الآتية :

(أوّلا) خلوه من الشعر الموزون خلوّا تاما ، بخلاف ما كان قبله وبعده من النثر : فقد كان يمزج غالبا بأبيات من الشعر تأتى فى أثناء الرسائل ، وقد تكون فاتحة أو خاتمة .

(ثانيا) نظام الآيات الذى يسمح فى الغالب بوقف كامل يستريح عنده نفَس القارئ ، وهو نظام يخالف نظام النثر المرسل ونظام السجع الذى أثر عن الجاهليين وشاع بعد الاسلام .

(ثالثا) ضرب الأمثال وسَوق القصص . وهى طريقة لم تعرف إلا قليلا فى الآثار الأدبية لتلك العصور . والقرآن يستبيح تكرار القصة الواحدة كلما دعت مناسبة ، فى تصرف قد يكون قليلا فى كثير من الأحيان .

رابعا — الابتداء بألفاظ غير مفهومة مثل الم ، حم ، طسم ، الر ، ص ، ن ، ق . إلى آخر تلك الفواتح التى اختلف فى تأويلها المفسرون ، والتى لم يهتد أحد إلى المراد منها بالتحديد ، وهذا النمط من الابتداء لم نجده فى النصوص الأدبية الجاهلية ولا الإسلامية[1] .

---

(١) كنت أتحدث عن فواتح السور مع صديق وأستاذى المسيو بلانشو (Blanchot) فعرض على تأويلا جديرا بالدرس والتحقيق ، وفى رأيه أن الحروف (الم . الر . حم . طسم) هى كالحروف (A O I) التى توجد فى بعض المواطن من (Chansons de geste) فهى ليست إلا (Neûmes) أى إشارات وبيانات موسيقية يتبعها المرتلون وقد كانت الموسيقا القديمة بسيطة يشار الى ألحانها بحرف أو حرفين أو ثلاثة ، وكان ذلك كافيا لتوجيه المغنى أو المرتل الى الصوت المقصود .

وفى الكنائس المسيحية بأوروبا ، حيث لا تزال تحفظ تقاليد الغناء الجريجورى (Le chant grégorien) وفى أتيوبيا مثلا ، يوجد اصطلاح موسيقى مشابه لذلك : فان رئيس المرتلين يبدأ الصوت بالحروف التى تذكر بـ(الم) فى القرآن أو (A O I) فى نشيدة الآن .

ويؤيد رأى المسيو بلانشو أن (الم) تنطق هكذا عند الترتيل : (ألف . لام . ميم) فهى ليست رمزا كتابيا ، ولكنها رموز صوتية .

ومن المحتمل أن تكون تقاليد الترتيل فى القرآن سارت فى طريق كان معروفا عند أهل الجاهلية . ومن الواضح أن القرآن لم يكن من همه أن يخالف الجاهليين فى كل شىء حتى فى الأصوات الموسيقية : فليس بمستبعد أن تكون فواتح السور إشارات صوتية لتوجيه الترتيل ، وأن تكون تابعة لبعض ترانيم الجاهليين .

ونحن مع اعتدادنا بقيمة هذا الرأى نرى من أسباب ضعفه أن المفسرين لم يعطوه ما يستحق من العناية ، مع تطوعهم بعرض كثير من الفروض . ولو أنه كان معروفا فى الصدر الأول لما تعرض لمثل هذا الإغفال .

ومن يدرى فلعل دراسة أصول الموسيقا فى الكنائس الحبشية والشامية فى العهد الذى سبق الاسلام تعود على هذا الرأى بشىء من التوضيح والتحديد . والى أن تظهر هذه الدراسة نقف أمام هذا الرأى بين الشك واليقين .

خامسا — يظهر أن القرآن نُظم نظما غنائيا، وأن ترتيله كان ملحوظا فى أوضاعه النثرية، بدليل أن كثيرا من الآيات ينتهى قبل أن ينتهى المعنى المطلوب . وترتيل القرآن والتغنى به كان معروفا فى صدر الاسلام، ولكننا لا نعرف كيف كانت قوانين التغنى به من الوجهة الموسيقية . لذلك ندهش حين نرى فى سورة المدثر مثلا أن الآية الحادية والثلاثين تزيد عن الآية الثلاثين والثانية والثلاثين أكثر من عشرين مرة . ولا حلّ لهذا الإشكال إلا ما نلمحه فى الآيات الطوال من الاشارات التى تبيح الوقف القصير . على أن فى هذا نفسه دلالة على أن المعنى هو الأساس فى نظم القرآن ، وأن الغناء لا يقع إلا نافلة فى صياغة الآيات .

سادسا — لا يلتزم القرآن السجع، فقد نجد سورا قصيرة مسجوعة ، وقد نجد صحفا مسجوعة من السور الكبار . ولكن ذلك لا يطّرد فيه . وكثيرا ما ينتقل من السجع إلى الكلام المرسل . وأكثر ما يكون ذلك حين يُعنَى بالمشاكل الدينية والاجتماعية التى لا يراد بها مخاطبة القلوب حتى توضع وضعا موسيقيا، وإنما يراد بها مخاطبة العقول ودعوتها إلى ترك ما درجت عليه من بعض أوضاع الاجتماع .

سابعا — يبتدئ القرآن السور بالبسملة ، وهى سمة إسلامية أريد بها مخالفة ما كان عليه المشركون . وقد أراد فريق من الفقهاء أن يتخذوها فاتحة للرسائل والمؤلفات فوجدوا لذلك حديثا يقول "كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر" .

١٢ — وهذه الخصائص ليست كل شيء فى متن القرآن ، فهناك مميزات يختلف بها بعض السور عن بعض، وهناك فروق دقيقة تتميز بها أساليب السور المدنية من السور المكية . ولكنه لا يمكن الفصل فيما تميز به أسلوب القرآن فى جملته تميزا جوهريا إلا إذا ظفرنا بنصوص كافية من نصوص النثر الذى عاصر القرآن أو سبقه بنحو جيل .

وهناك ميزة خطيرة للقرآن من الوجهة المعنوية : تلك تصويره للحقائق الأدبية والاجتماعية والدينية التى كان يعرفها العرب قُبيل الاسلام، وتصويره لبعض ما كان يعرف العرب عن

أسلافهم الأولين ، و بعض ما سمعوا به من أخبار الأمم الأجنبية التى سامها ملوكها الخسف وسوء العذاب .

١٢ — والخلاصة أن القرآن نثر ، وأنه دليل على أن العرب كان عندهم نثر فنى قبل الاسلام ، فكان لهم بذلك وجود أدبى متين قبل أن يتصلوا بالفرس واليونان .

وفى هذا قضاء على أوهام من زعموا أن أول كاتب فى اللغة العربية هو ابن المقفع الفارسى الأصل (١) ، وأن العرب لم يكونوا يعرفون من النثر غير الخطب والأسجاع والأمثال .

---

(١) هو رأى المسيو مرسيه وتابعه الدكتور طه حسين فى بحث نشره فى المقتطف ثم أعاد نشره فى كتابه عن (شوقى وحافظ) .

٢ — نشأة النثر الفنى

هل الزخرف عنصر أصيل فى اللغة العربية؟ — الصور الفنية فى القرآن — وجوب الاهتمام بدرس عصر النبوة — خطب الرسول والخلفاء — نشأة العلوم العربية — الحياة السياسية والأدبية فى عصر النبوة — آثار المعارضين من المشركين واليهود — كيف ضاعت آثار أولئك المعارضين — كيف ضاع أكثر ما ترك النبي وأصحابه من الآثار الأدبية — ضياع الأدب الجاهلى — رأى ابن فارس فى قدم النحو والعروض — رأى فى قدم علم البديع

---

١ — بينا أن النثر الفنى وجد عند العرب فى الجاهلية . وهو يفرض نوعا من الزخرف يهتم به علماء البلاغة . فلننظر أكان ذلك الزخرف فى طبيعة اللغة العربية ، أم وصل إليها من الخارج حين اتصل العرب بالفرس واليونان .

يرى المسيو مرسيه أن الزخرف الفنى وصل إلى العرب من الفرس ، وكان الدكتور طه حسين يشايعه فى ذلك ، ثم تغير فجأة فزعم أنه وصل إلى العرب من اليونان[١] . وكانت حجته وحجة المسيو مرسيه أن المولعين بالزخرف من كتاب اللغة العربية أكثرهم من الفرس المستعربين .

وهذه مدرسة قديمة يرجع عهدها الى رينان (Renan) ، وهى ترمى الى الحكم بأن المدنية العربية غريبة عن العرب ، وأن العرب مدينون فى علومهم وفلسفتهم وفنونهم وآدابهم إلى الفرس واليونان . والدكتور طه حسين متأثر بهذه المدرسة إلى حد بعيد : فهو يقول بأن البلاغة العربية أُخذتْ[٢] حرفيا عن البلاغة اليونانية حتى فى الشواهد والصور والتعابير . وأذكر أنه أوصانى بالرجوع إلى تاريخ الآداب الفارسية لأعرف بالضبط من هم الكتّاب الفرس الذين أوحوا إلى كتاب العرب فنون البديع كالسجع والتورية والطباق والجناس .

---

(١) إشارة الى آراء مناقضة أعلنها الدكتور طه فى سنة ١٩٢٨ و ١٩٢٩

(٢) قال ذلك فى محاضرة ألقاها فى مسرح حديقة الأزبكية فى ربيع سنة ١٩٢٩ ثم أثبته فى البحث الذى نشر مع كتاب (نقد النثر) لقدامة بن جعفر (راجع نقد النثر ص ١٤) .

٢ — وأنا لا أنكر أن العرب تأثروا بالفرس فى حياتهم الأدبية، فان من الطبيعى أن تدخل فى اللغة والعقول عناصر جديدة بسبب المعاشرة والاغتراب والاطلاع على آداب الناس فى مختلف الأقطار . فكل أمة فى الأرض تتأثر حضارتها وآدابها وفنونها بالنماذج الجديدة التى تصل إليها عن طريق المعارض الدولية، وعن طريق السياحات وتبادل الآراء والأفكار فى العلوم والفنون والآداب .

ولكنى — مع هذا — أقرر أن الزخرف عنصر أصيل فى اللغة العربية . وعندى لذلك شاهد لا يجحد وهو القرآن .

٣ — أليس القرآن آية فنية؟ بلى، فلننظر إذن أهو كتاب طبيعى أم هو كتاب مملوء بالزخرف والصنعة المحكمة التى تدل على أنه أنزل على قوم يعرفون ما هو الكلام الجيد وما هو الأسلوب المتين . وإننا لنرى المؤلفين فى علوم البلاغة من رجال القرن الثالث والرابع والخامس يرجعون إلى القرآن فيأخذون منه الشواهد المتنوعة التى قد يعز وجودها أحيانا فى الشعر والنثر عند الكتاب المتأخرين .

وأنا لا أعرف حتى الآن باحثا زجع فى تدوين الصور الفنية للنثر إلى القرآن واهتم ببيان الجدة والروعة التى يحتويها ذلك الكتاب الفذ، فمن الواجب أن يترك الباحثون ذلك الميدان الذى أولعوا بالجرى فيه وهو عصر الدولة العباسية، وأن يجعلوا ميدان النضال عصر النبوة نفسه ، وأن يحدثونا ما هى الصلات الأدبية والاجتماعية التى وصلت إلى العرب من الخارج فأعطت نثرهم تلك القوة وذلك الزخرف اللذين نراهما مجسمين فى القرآن. هنالك نعرف بالبحث أكان القرآن صورة عبقرية أم تقليدية . ولكن مثل هذا العمل فى رأيى خطر على الباحثين المسلمين فى الوقت الحاضر : لأن الرأى العام فى مصر والشرق الإسلامى لا يسمح بدرس القرآن درسا تحليليا يبين ما فيه من العناصر العربية الصميمة والعناصر الدخيلة .

والمستشرقون أيضا لا يهتمون بمثل هذا البحث لأن أكثرهم مقتنع بأن العرب لم يكن لهم وجود أدبى قبل الاسلام، والعرب بعد الاسلام فى رأيهم متأثرون بالفرس والروم. كأن العرب

لم يكن لهم من طبيعتهم الصافيــة ، وعقولهم القويّة، وأذواقهم السليمة، ما يكفى لأن تكون لهم اتجاهات فلسفية وأدبية وفنية تغلب عليها صبغة العبقرية أكثر مما تغلب نزعة المحاكاة .

٤ — ولنفرض جدلا أن المسلمين المعاصرين يسمحون لكاتب مثلى بمعالجة هــذا البحث وأن المستشرقين كذلك اهتموا به فستظل المسألة فى رأيى معقّدة صعبة الحل : لأنه لا يمكن الوصول الى يقين فى تحديد العناصر الأدبية التى يحتويها القرآن إلا اذا أمكن الوصول الى مجموعة كبيرة من النثر الفنى عنــد العرب قبل الاســلام تمثل من ماضيه نحو ثلاثة قرون، فانه يمكن حينذاك أن يقال بالتحديد ما هى الصفات الأصيلة فى النثر العربى، وهل القرآن يحاكيها محاكاة تامة، أم هو فنٌّ من الكلام جديد .

ومفهوم أنه من المستحيل فى الوقت الحاضر الوصول الى نمــاذج أدبية تمثل من الأدب العربى ثلاثة قرون أو قرنين قبل الاسلام، وإذن بقى القرآن وحده يتقدّم الينا كل يوم على أنه صورة فنية مفردة لا نعرف لها شبيها موثوقا به قبل الاسلام كما يعتقد المسلمون . والخطب والوصايا والرسائل التى نقلت الينا على أنها جاهليــة هى موضوع شك، وهى على فرض صحتها منسوبة الى القرن الذى يباشر الاســلام . ولا يمكن معرفة طبيعة لغة من اللغات بعدد قليل من النصوص وجد فى مدّة قليلة لا تزيد عن نصف قرن من الزمان .

٥ — ونحن مع هذه الحيرة لا نستطيع الفرار من الاقتناع بأن القرآن أثر عربىٌّ صرف، لأن الرسول الذى تلقاه وبلّغه عربىّ، ولأنه نشأ فى بيئة عربية، وبلسان عربىّ مبين، وليس أمامنا أى دليــل على أنه متأثر تأثرا محسوسا بآداب أخرى أجنبية ، وإن كان هــذا ممكنا ، لأن العرب قبل الاســلام كانوا على اتصال قليل أو كثير بمن جاورهم من الأمم ، وكانت لهم مع جيرانهم الأقربين والأبعــدين علاقات تجارية . وهذا كله لا يفيد غير الظن وهو لا يغنى عن اليقيـــن .

أفأستطيع بعد هذا البيان أن أقول من جديد : إن صور النثر العربى لا ينبغى البحث عن أصولها فى القرن الثانى والثالث، وإنمــا ينبغى الرجوع اليها فى القرآن، وإذن لا يصح الحكم

بأن الزخرف الفنى فى النثر العربى جاء عن طريق الفرس ، وإنما هو طابع أصيل فى اللغة العربية تطور مع الزمن وأخذ لونا بعد لون وآنتقل من حال الى حال . وإن كان هذا لا يمنع أن تكون صلات العرب بالفرس زادت فى قوة هذا التطور وأضافت اليه قُوًى جديدة خيلت إلى الباحثين أن النثر العربى مدين للفرس فى تطوره ونموه . وهذا يفسر جانبا من أسباب التطور ولكنه لا يرجعها إلى سبب واحد هو العلة الأولى كما ظن كثير من المستشرقين .

٦ — والخواص الفنية الموجودة فى القرآن توجد كذلك فى الآثار الأدبية التى عاصرته كالأحاديث النبوية وخطب الخلفاء والولاة والقوّاد الذين شهدوا عصر النبوة أو جاءوا بعده بقليل ، ففى خطبة الوداع للنبى عليه السلام وكتب عمر بن الخطاب وخطب علىّ وزياد والحجاج روح أدبية تقارب الروح السائد فى القرآن .

٧ — يمكن الحكم بأن اللغة الأدبية التى سبقت الاسلام لم تكن تخالف كثيرا لغة القرآن لأن التطور الكبير الذى ينقل اللغة من أسلوب إلى أسلوب ومن روح الى روح لا يتم فى خمسين سنة مثلا . وانما يتطلب مدة طويلة . خصوصا فى أمة بدوية محافظة قليلة الآختراع والتبديل فى لغتها وأسلوبها . ولكن هذا محض آفتراض إلى أن توجد نصوص كافية موثوق بها تعيّن أن لغة القرآن كانت موجودة بروحها وأسلوبها ووضعها قبل الاسلام بقرن أو قرنين .

٨ — بعد هذا ينبغى أن ننظر فى نشأة العلوم العربية كالنحو والبلاغة والعروض . وهى أيضا فى رأيى قديمة لا يصح الحكم بأنها نشأت كلها بعد الاسلام فى القرن الأول والثانى كما يظن مؤرخو الآداب العربية . لأنه لا يعقل أن يظهر كتاب كالقرآن فى أهميته و بلاغته بين قوم لم يفكروا فى الفصاحة والعروض والنقد وطرائق التعبير . وظهور كتاب كالقرآن فى أى لغة يدل على أنها تعدت طور الطفولة منذ أزمان . واللغة حين تصل إلى عهد القوة

والفتوة لا تخلو من باحثين يهتمون بتقييد ما يعرض للأساليب من القوة والضعف والوضوح والغمـــوض [(١)] .

والدكتور طه حسين يرى أن البلاغة نشأت فى عهد متأخر حين آشتدت الخصومة بين علماء الكلام ، والجاحظ فى رأيه أول من آهتم بالبلاغة آهتماما جديا . وأنا أرى أن نشأة البلاغة قـديمة سبقت القرآن وتطورت من بعـده . ولكن ذلك كان يجرى ببساطة وسهولة لا توقع فى الزخرف ، ومن أجل ذلك لاحظ مؤرخو الآداب أن بشارا هو أول من كلف بالبديع فى شعره ، وتبعه فى ذلك مسلم بن الوليد وأبو نواس ، وأن أبا تمام تأثر مسلما ، وأولئك من شعراء القرن الثانى ، فهل نشأ البديع فى يوم وليلة ، أم كان موجودا وتطور على ألسنة أولئك الشعراء ؟

٩ — ولنقيد هنا أن القرآن فى بلاغته إنمـا كان يخاطب قوما يفهمونه ويتذوقونه . وفهم القرآن وتذوقه لا يمكن أن يقع آتفاقا و بلا آستعداد ، بل لا بدّ من أن تكون عند الجماهير التى سمعته وتأثرت به وآعتنقت دينه ثقافة أدبية خاصة . وأنا لا أفترض أن هذه الثقافة كانت كالثقافة التى ظفر بها العرب بعد الإسلام . ولكنها على كل حال كانت تتناسب قليلا أو كثيرا مع ما فى القرآن من فصاحة وعمق . وهذا الذى أقوله يحملنا على الشك فى التقاليد التى جرى عليهـا الباحثون من أن العرب كانوا أميين بدرجة خطيرة وأنهـم لذلك لم يحفظوا عن طريق الكتابة شيئا يستحق الذكر من قصائدهم وخطبهم ورسائلهم . بل أنا أذهب أبعد من ذلك فأقرر أن الإسلام كان تاجا لنهضة علمية وأدبية وسياسية وأخلاقيـة وآجتماعية وفلسفية

(١) يذكر أبو هلال فى كتاب الصناعتين — ص ١٥٣ — أن أكثم بن صيفى كان اذا كاتب ملوك الجاهلية يقول لكتابه : (إفصلوا بين كل منقضى معنى ، وصلوا اذا كان الكلام معجونا بعضـه ببعض) وأن الحارث بن شمر الغسانى كان يقول لكاتبه المرقش : (اذا نزع بك الكلام الى الابتداء بعـير ما أنت فيه فافصـل بينه و بين تبيعته من الألفاظ ، فانك ان مذقت ألفاظك بغير ما يحسن أن تمذق نفرت القلوب عن وعيها وملتها الأسماع واستثقلتها الرواة) .

وفى أمثال هـذه الكلمات دليل على أن الرواة نقلوا عن الجاهليين أحكاما فى صناعة الكلام . وفى ذلك ما يصلح للاستئناس به فى هذا الموضع . وليشك من شاء فى صحة هـذه النصوص فهى على كل حال صـورة لفهم نقاد العرب لبعض ما كان عليه أهل الجاهلية .

فى الحدود التى كان يستطيعها العرب ، لأنه لا يمكن رجلا فردا مثل النبي محمد عليه السلام أن ينقل أمّة كاملة من العدم الى الوجود ومن الظلمات الى النور ومن العبودية الى السيادة القاهرة ، كل هذا لا يمكن أن يقع من دون أن تكون تلك الأمة قد آستعدّت فى أعماقها و فى ضمائرها وفى عقولها بحيث آستطاع رجل واحد أن يكوّن منها أمّة متحدة وكانت قبائل متفرقة ، وأن ينظم علومها وآدابها بحيث تستطيع أن تفرض سيادتها وتجاربها وعلومها على أجزاء مهمة من آسيا وأفريقيا وأورو با فى زمن وجيز . ولو كان يكفى أن يكون الانسان نبيا ليفعل ما فعله النبي محمد لما رأينا أنبياء أخفقوا ولم يصلوا : لأن أممهم لم تكن صالحة للبعث والنهوض .

١٠ — بل إنى لأذهب أبعد من ذلك فأقرر أن الحركة الأدبية والسياسية والآجتماعية فى عهد النبى لم تصوّر الى الآن بصورتها الحقيقية : فهذا رجل غيّر أمّة كاملة فى عشرين عاما ولقيت دعوته آلاف المصاعب . أفيمكن حقا الآقتناع بأنه لم يقل أكثر من عشر خطب ، وأن أنصاره لم يقولوا من الخطب والرسائل إلا ما نقله عنهم الطبرى وغيره من المؤرّخين ؟

وأين إذن آثار المعارضة الشديدة التى قامت فى وجهه وآضطرته إلى الهجرة ؟

وأين ألسنة اليهود والعرب والأشراف من قريش ؟

افيعقل أن تمرّ حركة كهذه من دون أن تهب فى وجه صاحبها ألسنة الخطباء وأقلام الكتّاب وشياطين الشعراء ؟

وهل تسمح طبيعة الوجود بأن رجلا كمحمد يقضى أسماره بين خواصه ، وأيامه فى ميادين الحروب ، من غير أن تكون له ولرجاله مساجلات قوية يتناولون فيها حجج خصومهم نقدا وتحليلا و يعرضون فيها للسياسة العامة بآراء لها من القيمة ما شهدنا آثاره فى الرسالة الإسلامية ؟

وهل يعقل كذلك أن يصبر رجال الوثنية والنصارى واليهود على التهم المختلفة يلقيها عليهم النبيّ وأصحابه من دون أن يقابلوا الشر بالشر والعدوان بالعدوان فيطيلوا القول فى النفح

عن دياناتهم والقدح فى الديانة الجديدة التى تهاجمهم فى عقر دارهم، وتدعوهم إلى تحطيم أصنامهم وترك أحبارهم ورهبانهم؟ هل يعقل أن يمر ذلك كله من دون أن يكون لهؤلاء ألف خطبة وألف رسالة، وألف قصيدة؟

١١ — أضيف إلى ذلك أن الحركة الإسلامية لم يعرف فيها من الخطباء والشعراء إلا عدد قليل لا يتناسب مع خطورة ذلك الموقف، أفكان حقا أن الاسلام لم يقم إلا على أكتاف ذلك العدد القليل؟

إن الحياة العقلية فى عهد النبى لم تنقل إلينا بصورتها الحقيقية، ويرجع ضياع صورتها فى رأيى إلى سببين:

أولا — ضياع آثار حزب المعارضة معقول، لأنه انهزم ولم يعد فى الإمكان تدوين الرسائل الجارحة والخطب المقذعة والرسائل اللذاعة التى هوجم بها النبى وأنصاره، خصوصا إذا لاحظنا أن الذين نقلوا آثار ذلك العصر كلهم من المسلمين الذين يرون من الإثم والحرج أن يعيدوا الشتائم والقذائف التى رُمِىَ بها النبى وجُرِّح بها الاسلام، ولو بقيت آثار حزب المعارضة لآستطعنا أن نفهم إلى أى حد كان خصوم النبى يفهمون آراءه الاجتماعية والمنزلية، ولرأينا كذلك صورة من الأدب الذى كان يستبيح مهاجمة النبى ورسالته فى عنف وإقذاع.

ثانيا — ضياع آثار النبى وأصحابه معقول أيضا، فقد شعر المسلمون بأن واقعة اليمامة أضاعت جمهور الحفاظ بحيث أصبح القرآن نفسه مهددا بالضياع، ولولا ما فعله أبو بكر وعمر لتبدد القرآن وعدنا لا نجد منه إلا شذرات مختلفة لا تطمئن إليها النفس كما هو الحال فى الأحاديث التى دونت أخيرا، بعد إذ مات الحفاظ الأولون.

١٢ — وإذا كانت الظروف المختلفة لم تسمح للعرب بأن يدونوا آثار ذلك العصر بطريقة منظمة فانه لا يصح لنا أن نستنتج أنه لم تكن لهم حياة أدبية قوية تصور ميولهم وأذواقهم وعواطفهم ومشاعرهم وكفرهم وإيمانهم ووفاءهم وغدرهم، إلى آخر الألوان النفسية التى يقتضيها عصر التحول والانتقال فى جميع الأمم بلا آستثناء.

وانما ينبغى أن نعتقد أنه كان لهم أدب قوىّ متين يقرب فى روحه وأسلوبه من روح القرآن وأسلوبه : فان البيئة واحدة واللغة واحدة والعصر واحد، ولم يكن محمد إلا بشرا أُلهم هداية قومه كما صرح القرآن غير مرة، لا سيما إذا تذكرنا أن القرآن نفسه وصف العرب فى عدّة مواطن بأنهم أهل فصاحة وجدل وخصومة وعناد ، ولم تكن فصاحتهم صمتا ، ولا جدلهم سكوتا، ولا خصومتهم فرارا ، ولا عنادهم انهزاما ، ولكنهم بالفعل قابلوا القول بالقول والسيف بالسيف نحو ثلث قرن إلى أن انتصر الإسلام، ولم تبق من آثار خصومه غير ذكريات الجدل والحروب .

١٣ — والواقع أن تسمية ذلك العصر بالجاهلى تسمية دينية صرفة، فان العرب لم يصفوا ذلك العصر بالجهل إلا فيما يختص بالمعتقدات الدينية . ولكنهم فيما يرجع الى الأدب كانوا يرونه من أرقى العصور ، وكانوا يتأثرون شعراءه وخطباءه وحكماءه فى كثير من أبواب القول (١) .

وقد آمن العرب المسلمون بأهداب الأدب الجاهلى وعدّوه وحده المرجع فى ضبط أساليب اللغة العربية . ولم يتخذوا شواهد من الشعر الإسلامى إلا فى الحدود التى حسبوها قريبة أشدّ القرب من النزعة الجاهلية ، فكان الشعراء لذلك يجتهدون فى تذوق الأدب الجاهلى وفى رياضة أنفسهم على محاكاته والصدور عن وحيه وأخيلته وتعابيره وألفاظه . وقد نفق ذلك الأدب نفاقا عظيما حتى رأينا من الرواة من يصنع القصائد والخطب والأمثال فى لغة جاهلية ليبيعها فى الأسواق وفى قصور الأمراء والوزراء والخلفاء . فكان مثل ذلك الشعر الجاهلى مثل الآثار المصرية التى يخلقها التجار خلقا ليبيعوها للأغنياء من عشاق العاديّات . وقد نشأ عن

(١) ومن الخير أن ننبه القارئ الى أن العصر الجاهلى لا يتمثل أمامنا فى بواديه ، فان البوادى العربية كانت ولا تزال بعيدة من الفنون الأدبية التى تعتمد على العقل والمنطق . وانما نقصد الحواضر العربية لعهد الجاهلية ، وتلك الحواضر كان فيها شعر ونثر وقصص لأن هذه الفنون توجد حيث توجد الحضارة . والمدائن الكبيرة فى العصر الجاهلى كانت فيها حضارة تتمثل فى مظاهر مادية من المنازل والقصور، ومظاهر معنوية من الملك والجاه والمال ، وهذه وتلك توجب ثروة من الترف العقلى والوجدانى . والنثر الفنى مظهر من ترف العقل والوجدان .

هذا فنٌّ من النقد برع فيه الأقدمون، فكان منهم من يهتم بتمييز الأدب الجاهلى الصحيح من الأدب الجاهلى المصنوع ، نكاية بالرواة الملفقين، أو حبا فى تصفية الأدب الجاهلى من الزيف المدخول .

وفى ذلك مقنع لمن يحب أن يطمئن الى أن العصر الجاهلى لم يوصم بالجهل إلا فيما يختص بالدين . أما فى الأدب فكان عصر نور وعلم وعرفان، كما تشهد آثار القدماء .

* * *

١٤ — هناك ناس يعتقدون أن الشعر الجاهلى منحول وهناك أفراد ينكرون أن يكون العرب الجاهليون عرفوا من الأدب شيئا آخر غير الشعر والأمثال، وأحب أن أبين أنه لا تعارض بين القول بنفى ذلك الأدب والقول باثباته : فأنا من الذين يرون أنه كان هناك أدب جاهلى واسع النطاق ، وأنه كان للعرب الجاهليين ألسنة فصيحة وعقول ناضجة وآراء حكيمة قادرة على قيادة تلك الجماهير الحية التى تفرقت فى الحواضر العربية .

يقولون : وأين آثار ذلك الأدب الجاهلى ؟

وأجيب بأن ذلك الأدب قد ضاع أكثره حتى ليصعب أن تتخذ منه أداة لوصف ما كان عليه الجاهليون من أنظمة أدبية وسياسية واجتماعية ودينية .

وهنا يبتسم المنكرون قائلين : ومن يدرينا أنه كان هناك أدب ضاع !

وعند هذه المفاجأة نجد الجواب : لأن الأدب الجاهلى لم يضع إلا عند المتأخرين، أما المتقدمون من رجال القرن الأول والثانى والثالث فقد عرفوه وتدارسوه . فمن ذا الذى يستطيع أن ينكر أن المجموعة الشعرية التى جمعها المفضَّل الضبى فى القرن الثانى مجموعة صحيحة؟ ومن ذا الذى يستطيع أن ينكر أن تلك المجموعة تدل على أنه كان هناك شعر جاهلى كثير جدا اختيرت منه المفضليات ؟

١٥ — أضيف الى هذا أن من رجال الأدب الموثوق بهم من جمع كتبا كثيرة من آثار العصر الجاهلى ، وأن تلك الكتب قد ضاعت أصولها ضياعا تاما ، وفى ذلك ما يشعرنا بأن المتأخرين فقدوا ذخائر كثيرة من أصول الأدب القديم .

إننا نعرف أن أبا تمام جمع كتاب الحماسة من مكتبة أحد الأمراء ، والجمع هنا معناه التخير، ونعرف كذلك أن ديوان الحماسة يشتمل على مختارات نفيسة من الأدب الجاهلى . فهل نجد من يدلنا على مصادر أخرى لأكثر ما آختاره أبو تمام غير ديوان الحماسة ؟

فإن لم توجد تلك المصادر فلن يكون معنى هـذا أن أبا تمـام خلق ديوان الحماسة خلقا ، ولكن معناه أن الحيـاة كتبت لذلك الديوان . وليس أبو تمـام وحده هو الذى عنى باختيار الشعر القديم فهناك مؤلفون عديدون آهتموا بذلك النوع من الآختيار ثم ضاعت مختاراتهـم ولم يبق إلا ذكراها فى كتب التراجم . ومع هذا فمن الغرور أن نحكم على قيمة الأدب الجاهلى بما قرأناه منه فمن ذلك الأدب مجموعات قيمة جدا لم يكتب عليها الفناء وغفل عن آستغلالها أكثر الباحثين . وفى دار الكتب المصرية مخطوطات لم يفكر أحد فى الانتفاع بهـا ، مع أن دار الكتب المصرية من المكاتب الفقـيرة التى جمعت ذخائرها آتفاقا ومصادفة بدون أن يكون عند مؤسسيها فكرة الآستقصاء . وفى مكاتب اسبانيا والمغرب آثار جليلة للأدب الجاهلى لم يستغلها أحد، ولعلها لو فُهرستْ ونظمت ودرست لكشفت لنا نواحى مجهولة من الأدب القديم ... ولكن أين من ينتظر نتيجة البحث ؟ إن المتأدبين عندنا يحكمون على الغائب بلا بينة ولا شهود !

١٦ ـــ أنا أقول بأن الأدب الجاهلى لم يضع إلا عند المتأخرين، أما المتقدمون فكانوا يعرفونه و يروونه و يتجرون به فى الأسواق الأدبية وعلى أبواب الملوك .

ولكنى مع هــذا أقرر أن هناك شطرا من الأدب الجاهلى قبره المسلمون عمــدا فى القرن الأول، وإلى القارئ البيان :

كانت الحياة الجاهلية تختلف عن الحياة الاسلاميــة آختلافا شديدا . ففى الأعوام التى سبقت الاسلام كانت فى الجزيرة عادات وتقاليد وأوضاع لها ألوان وثنية أونصرانية أويهودية، فلما جاء الإســلام تبدلت تلك التقاليــد وصار من اللائق تناسى ما يمسها من الأدب الجاهلى وصفا أو شرحا أو تعليلا . ورأى العرب المسلمون أن فى ذلك الأدب جوانب خطرة يجب

إسقاطها والقضاء عليها صونا للوحدة الاسلامية . وليس فى هـذا شىء منكر، لأن الأدب يتصل أكثره بحياة الناس وسيرهم وأخبارهم وأخلاقهم من شمائل مرضية أو طباع ذميمة ، وفى حياته حياة لما وصف أو شرح أو علل من الأخلاق والسجايا والمعتقدات . وقد يتفق أن يكون فى العرب المسلمين من تناوله شعراء الجاهلية وكتابهم وخطباؤهم بالقدح والثلب والتحقير، وقد يتفق كذلك أن تكون هناك قبائل تهاجت وتحاربت فى الجاهلية ثم ألّف بينها الاسلام . أفيكون من الحزم أن يعود الرواة إلى ذلك الأدب فيروه ويحيوه وفيه إثارةٌ لما سكن وهدأ من قديم الأحقاد ؟

١٧ — إن العرب فى الصدر الأول من الاسلام تناسوا عامدين أبوابا كثيرة من الأدب الذى كان محفوظا قُبيل الاسلام صيانة للوحدة الاسلامية من عبث الأهواء . وليس هـذا الذى نقوله مجرد افتراض : ففى التاريخ الاسلامى شواهد كثيرة تقنعنا بأن الخلفاء الراشدين كانوا يتشاءمون من رواية الأدب الجاهلى . وهم بالطبع لا يتشاءمون إلا من الأدب الذى يصوّر ما كان عند الجاهليين من ترات وعداوات وحزازات . وهم فيما عدا ذلك كانوا يدعون الى رواية الشعر وحفظه لأنه كما قال عمر بن الخطاب ديوان العرب . والذى نقضى به فى الشعر هو نفس ما نقضى به فى الرسائل والخطب والأسجاع . فمن عسى أن يكون ذلك المسلم الذى يستبيح رواية خطب الكهان ورسائلهم وأسجاعهم وهى تفيض بالروح الوثنية ؟ ومن عسى أن يكون ذلك المسلم الذى يروى ما أُثِر عن النصارى واليهود قبيل الاسلام، فى حين أن الدين الجديد كان يروضهم على تناسى جميع الآداب التى تنافى أدب القرآن[1] .

---

(١) نستطيع فهم ذلك بصورة أوضح إذا تذكرنا الأدب المصرى قبل الحرب العالمية التى ثارت سنة ١٩١٤ فان رسائل الشيخ عبد العزيز شاويش ضد الأقباط ورسائله فى مهاجمة سعد باشا زغلول ، وقصائد حافظ بك ابراهيم فى حادثة دنشواى والمثالب التى طرق بها عنق ابراهيم بك الهلباوى ، كل ذلك لا تمكن روايته اليوم : لأن فيه إثارة لعداوة التى كانت بين المسلمين والأقباط ، وفيه تحقير لناس رضى عنهم الجمهور . وقد كتبت مرة رسالة عن الأدب المصرى قبل الحرب رأبت أن تنشرها جريدة (البلاغ) فزادنى ذلك اقتناعا بصحة هذا المثال . ومن هذا الباب ما وقع بعد وفاة سعد باشا فقد جمع كاتبه الخاص محمد ابراهيم الجزيرى خطبه السياسية ونشرها كاملة فكتب رئيس تحرير جريدة السياسة =

١٨ — من أجل هـذا كله أستبعد أن يكون العـرب ظلوا خالى الذهن من العلوم الأدبيـة الى أن آتصلوا بالفرس والروم . وإذا كان المستشرقون ومن لفّ لَفّهـم من أدباء مصر يستكثرون أن يكون أبو الأسود الدؤلى هو أوّل من فكر فى النحو ويرجحون أن يكون النحو أثرا من آتصال العرب بالسريان والروم، فأنا أستقلّ أن يكون أبو الأسود أوّل من فكر فى النحو، وأرى من المضحك أن يظن أن العرب لم يتنبهوا الى وقوع اللحن فى لغتهم إلا بعد الاسـلام، وأن آتصال العـرب بالأعاجم هو الذى رماهم باللحن، كأن لغـة العرب بِدعٌ من اللغات لا يلحقها تغير ولا تبـدّل . وذلك رأى واضح البطلان . وإنمـا أرجح أن يكون العرب فى جاهليتهـم عرفوا النحو وعرفوا غيره من العلوم الأدبيـة . ألسنا نرى القرآن يجرى على نمط واحد فى أوضاعه النحوية لا يختلف فى ذلك إلا باختلاف رواته من القبائل المختلفة ؟ ولغة القرآن هى لغة قريش، وهى التى تهمنا، فإذا كنا نجهل إلى الآن كيف تطورت وكيف نشأت علومها وفنونها، فمن الأمانة العلمية أن نقف على الأقل محايدين وأن لا نجـزم برأى ستنقضه الأيام .[1]

وهذا الذى أقوله أنا مستعد لتحمل تبعته والدفاع عنه، وأرجو أن يكون له أثر فى فهم البيئة القديمة التى نزل فيهـا القرآن، والتى تستحق أن تدرس من جديد درسا علميا يكشف اللثـام عن ذلك العصر الذى سمّوه خطأً عصر الجهل، وهو فى رأيى أهل لأن يسمى عهـد معرفة ونور .

* * *

١٩ — على أننى وقفت على نص مهم يدل على أن من نقاد العرب من آرتاب فى نشأة العلوم اللغوية، إذ رأيت ابن فارس يلاحظ فى قصيدة الحطيئة التى أوّلهـا :

___

= مقالا بين فيه أن فى نشر خطب سعد باشا كاملة خطرا على ائتلاف الأحزاب، لأن فى المجموعة التى نشرها الجزيرى خطبا جارحة فى مهاجمة ثروت باشا، وكان من أصـدقاء حزب الأحرار الدستوريين . ولا ينس القارئ أننا اليوم أشدّ تسامحا ممـا كان عليه العرب فى صدر الاسلام، فما نكرهه نحن كان عندهم إثمـا وفسوقا .

(١) عدم اختلاف الأوضاع النحوية لا يدل على أن العرب لذلك العهد كانوا عرفوا النحو، ولكنه دليل على أن اللغة كانت موحدة فى طرائق التعبير، وهذا كاف للاقتناع بأنهم كانوا فكروا فى ربطها بقواعد النحو وأصول البيان .

شاقتك أظعـان لليـ ـلى دون ناظرة بواكر

أن قوافيها كلها عند الترنم والإعراب تجئ مرفوعة ، ولولا علم الحطيئة بالرفع لاختلف إعرابها لأن تساويها فى حركة واحدة اتفاقا من غير قصـد لا يكون ، وهـذا برهان على فهم الحطيئة لقواعد النحو والعروض (١) .

وكذلك يرى ابن فارس أن معرفة القدماء من الصحابة بكتابة المصحف على النحو الذى يعلله النحويون فى ذوات الواو والياء والهمزة والمـد والقصر تدل على فهمهم لأصول اللغـة وقواعد الكتابة (٢) . وهو على الجملة يرى أن العلوم العربية كانت معروفة قبل الاسلام .

٢ . — والذى قضى به ابن فارس فى نشأة النحو والعروض هو الذى نقضى به نحن فى نشأة البديع ، بل نشأة البديع أظهر وأوضح ، فان القرآن سجـل مظهرا من مظاهر الزخرف والسجع ، فهو إذن كان موجودا قبـل الاسلام ، وليس السجع فقط هو الذى نبه القرآن ، بل أكثر الفنون البديعية أخذت شواهدها من آيات القرآن .

ونتيجة ما سلف أن العرب فى جاهليتهم اهتموا بالنثر الفنى اهتماما ظهر أثره وعرفت خواصه فى خطب الخطباء ورسائل الكتاب ، ولكن ما عرف عن العرب من إهمال التقييد والتدوين لشيوع الأمية فيهم أضاع علينا معرفة من اهتموا اهتماما جديا بتدوين البديع ، فكان من ذلك أن شاع الاعتقاد بأن ابن المعتز هو أول الكاتبين فى هذا الفن الجميل (٣) .

---

(١) الصاحبي ص ٩ (٢) الصاحبي ص ١١ (٣) جاء فى زهر الآداب (ص ١١٤ ج ٤) مانصه : "قال أبو بكر الصولى : اجتمعت مع جماعة من الشعراء عند أبى العباس عبد الله بن المعتز، وكان يحقق بعـلم البديع تحققا ينصر دعواه فيه لسان مذاكرته : فلم يبق مسلك من مسالك الشعراء إلا سلك بنا شعبا من شعابه ، وأرانا أحسن ما قيل فى بابه" .

فالمسألة إذن هى أن ابن المعتز كان يدعى التفوق فى علم البديع . فعلم البديع كان معروفا . ومن الصعب أن نقبـل سكوت كتاب العرب وأدبائهم نحو قرنين عن هذا الفن حتى يجىء هذا الأمير المترف فيؤلف فيه .

وماقلناه فى ابن المعتز نقوله فى قدامة بن جعفر الذى عدوه من أوائل المؤلفين فى البديع . وفى حديث خنافر الحميرى — المثبت فى الأمالى ص ١٣٣ ج ١ — وصف القرآن بأنه "ليس بالشعر المؤلف ، ولا السجع المتكلف" وهذا الحديث موضوع بلا شك ، ولكن فيه إشارة الى أنه كان مفهوما عنـد الرواة أن النـاس لعهد النبوة كانوا يميزون بين السجع المطبوع ، والسجع المصنوع . والسجع من فنون البديع .

٣ – النثر الفني في العصر الاسلامي (*)

١ – جاء الإسلام فأيقظ العرب وأثار ما سكن من نشاطهم وحياتهم وحبّب إليهم القوة والجاه والملك، فانطلقت ألسنتهم، وظهر فيهم الكتّاب والخطباء والشعراء . وكان من دواعي ذيوع البلاغة عندهم حاجتهم إلى الدفاع عن صدق النبوة، ثم اشتجار الفتن بينهم : فتن التحزب والاختلاف والانقسام التي كانت أهم باعث على شيوع الكتابة والخطابة في تلك الأمة التي توارت في الصحراء زمنا غير قليل . وأول مظهر لقوة الخطابة والكتابة هو التنافس الشديد الذي قام بسبب الخلافة، فقد كان كل حزب من المهاجرين والأنصار يدعو لنفسه سرا وعلانيـة عن طريق الخطب والرسائل والمجادلات التي كانت تثور في المجالس والمساجد والأسواق . ثم كانت الفتنـة بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان فظهرت حاجة الفريقين إلى البلاغة واشتدت الرغبة في نشر الدعوة في الأمصار الإسلامية . ولم يكن حظ هذه النهضة الأدبية كحظ النهضة التي سبقتها في الجاهلية، لأن العرب شرعوا يتحضرون ويسلكون سبيل الأمم المدنة في التدوين ، فكان من أثر ذلك أنْ حفظت آثار الكتّاب والخطباء بحيث يستطيع الباحث أن يعيّن مظاهر النثر وخواصه في عصر بني أمية وصدر عصر بني العباس .

٢ – وأول ما ينبغي إثباته من خواص النثر هو عمقـه وقوته بفضل تأثره بالآداب الأجنبية التي عرفها العرب حين انبثوا بفضل الاسـلام في الممـالك التي فتحوها واكتسبوا بالمعاشرة والمصاهرة روحا جديدا ظهر أثره في الخطب والرسائل والمحاورات ، حتى ليمكن أن يقال : إن الفتح والملك أعطاهم من قوة الملاحظة ودقة التفكير مالم يكن يعطيهم القرآن وحده

(*) هذا الفصل ليس إلا نظرة سريعة إلى مذاهب النـثر في العصر الاسلامي تمكن القارئ من تصور العهود التي سبقت القرن الرابع ، وكل جزء من هذا الفصل يحتاج الى درس مطول. ولكنا وقفنا عند حدود الاشارة لأن الفصل برمته نوع من التمهيد . وأهم ما نحتاجه هو الكلام عن السجع ، وسنفرده بفصل خاص .

لو ظلوا محصورين فى أرجاء الجزيرة العربية[١]. ولا عبرة بما عرف عن فريق من العرب من الحرص على تربية أبنائهم تربية عربية صرفة ، فان هذا لم يكن يراد به صرف الشباب العربى عن فهم المدنيات الأجنبية ، وإنما كان يراد به حمايته من العجمة التى كانت تعيب الأرستوقراطية العربية ، وتجعل صاحبها موضع السخرية بين معاصريه .

٣ — ومن خواص الكتابه عدم التأنق فى البدء والختام فقد كانت الجاهلية تكتب فى أول كتبها « باسمك اللهم » ثم تكتب من فلان إلى فلان ، ويمضون فى الغرض ، وكان النبى يفتتح كتبه بالبسملة ثم يقول : من محمد رسول الله الى فلان ، ويبتدئ صدورها غالبا بالسلام عليكم ، أو السلام على من اتبع الهدى ويثنّى بالتحميد بعد السلام فيقول : إنى أحمد الله إليك الذى لا إله الا هو ، ويتخلص من صدر الكتاب الى المقصود تارة بأما بعد وأخرى بغيرها ، وكان يختمها فى الأكثر بالسلام عليكم ورحمة الله ، أو السلام على من اتبع الهدى[٢] .

٤ — والذى يهمنا تقييده فى هذا الفصل هو المنهج العام الذى جرى عليه النثر فى ذلك العصر ، ويظهر مما اطلعنا عليه أن مسألة الايجاز والإطناب كانت تجرى فى الغالب على مقتضى

(١) ليس معنى هذا أننا ننكر أثر القرآن فى إحياء البلاغة العربيــة ، لا ، فنحن نؤمن بأن القرآن كان من أقوى البواعث على النشاط الأدبى ، ونراه مصدر الدراسات الأدبية واللغوية والنحوية التى ازدهرت فى الحواضر الاسلامية . وحسب القارئ أن يذكر أن عمل علماء اللغة والنحو والصرف والبيان كان دعوة الى غاية : هى الايمان بإعجاز القرآن . ولم ينته أثره عنـد إحياء العلوم الأدبية ، وانما أثر تأثيرا بينا فى أساليب الكتاب والخطباء حتى لوحظ أن ابن نباتة الخطيب كان يسلك فى نثره مسالك الأساليب القرآنية وحتى دوّن المتقدمون أن الروح القرآنى كان يظهر على لسان الصابى وعلى سنان قلمه البليغ ، فمن المجازفة أن نوافق المسيو مرسيه حين يقول فى انكار أثر القرآن فى النثر الفنى :

L'influence du livre saint sur le developpement de la plus ancienne prose littéraire arabe est infinement moins considérable qu'on ne serait tenté de la croire (Revue Africaine 1re & 2e trimestres 1927. P. 19).

ولا قيمة لما أشار اليه المسيو مرسيه عقب كلمته هذه من أن العرب كانوا يتجنبون محاكاة القرآن ، فان ذلك لا ينافى تأثرهم به وتأثيره فيهم ، فان هناك عدوى روحية تمس القلب والعقل وتصبغ الآثار الأدبية بصبغة ما يقرأ المرء أو يسمع وإن تكلف الهرب وحسب نفسه بمنجاة من المحاكاة والتقليد .

(٢) راجع خطاب النبى محمد وكتاب أبى بكر للمسلمين يعهد إلى عمر بالخلافة وخطاب عثمان إلى على بمستنجده ص ١٢٨ و ١٢٩ من كتاب الوسيط .

الحال فكان الكاتب يوجز تارة ويطنب أخرى وفقا للظروف التى يكتب فيها رسالته، وكان من الخطباء من يطيل، وكان منهم من يوجز، ولا يرجعون فى ذلك الى قاعدة غير المناسبات التى توجب الكلام، فتقضى مرة بالاطناب وتقضى حينا بالايجاز . وسحبان وائل الذى عرف بالتطويل وبأنه كان يخطب أحيانا نصف يوم أُثِرت عنه الخطب القصيرة الموجزة . وذلك يدل على أن الفطرة كانت غالبة على ذلك العصر وأن القاعدة المطردة لم تكن شيئا آخر غير مراعاة الظروف .

ورسائل علىّ بن أبى طالب وخطبه ووصاياه وعهوده الى ولاته تجرى على هذا النمط، فهو يطيل حين يكتب عهدا يبين فيه ما يجب على الحاكم فى سياسة القطر الذى يرعاه، ويوجز حين يكتب الى بعض خواصه فى شأن معين لا يقتضى التطويل[1] .

٥ — غير أنه لا يمكن الحكم بأن الكتّاب والخطباء كانوا جميعا موفّقين فى ترك الفضول، بل يظهر أنه فى أوائل العصر العباسى وقع اضطراب فى تقدير الظروف والمناسبات وفهم أقدار المخاطبين، فاننا نجد ابن قتيبة يدعو فى مقدّمة كتابه أدب الكاتب الى وضع الألفاظ على قدر الكاتب والمكتوب اليه بحيث لا يعطى الكاتب خسيس الناس رفيع الكلام ولا رفيع الناس وضيع الكلام، ونراه يلاحظ أن الكتّاب لا يفرقون بين من يكتب اليه "أنا فعلت ذلك" ومن يكتب اليه "نحن فعلنا ذلك"[2] .

وقد ساعدنا ابن قتيبة على تحديد النمط الذى ساد فى العصر الاسلامى حيث ناقش كلمة أبرويز فى الايجاز "واجمع الكثير مما تريد فى القليل مما تقول" فبين أن الايجاز ليس محمودا فى كل موضع، ولا بمختار فى كل كتاب، بل لكل مقام مقال، وأنه لو كان الايجاز محمودا فى كل الأحوال لجرى عليه القرآن، ولكنه لم يفعل ذلك، بل أطال تارة للتوكيد، وحذف تارة للايجاز، وكرر تارة للإفهام، ثم اندفع ابن قتيبة فذكر أنه ليس يجوز لمن قام مقاما فى تحضيض على حرب أو حمالة بدم أو صلح بين عشائر أن يقلل الكلام ويختصره، ولا لمن

---

(١) راجع فصول نهج البلاغة .   (٢) ص ١٥ من أدب الكاتب .

كتب إلى عامة فى فتح أو آستصلاح أن يوجز، وأنه لو كتب كاتب إلى أهـل بلد فى الدعاء إلى الطاعة والتحذير من المعصية كتاب يزيد بن الوليد إلى مروان حين بلغه عنه تلكؤه فى بيعته :

"أما بعـد فانى أراك تقدّم رجلا وتؤخر أخرى ، فاذا أتاك كتابى هذا فاعتمد على أيهما شئت ، والسلام" .

لم يعمل هذا الكلام فى انفسها عمله فى نفس مروان ، ولكن الصواب أن يطيل ويكرر ويعيد ويبدئ ، ويحذر وينذر[1] .

وقد توهم الأستاذ أحمد الزيات أن كلمة آبن قتيبة هذه دليل على أن النثر فى الصدر الأول كان موسوما بالايجاز وأن آبن قتيبة دعا أهل ذلك العصر إلى عدم الاكتفاء بما كان يكتفى به أمثال يزيد بن الوليد[2] . وهذا خطأ فى الاستنتاج فان ابن قتيبة ذكر أن القرآن كان يطيل ويكرر حسبما تقتضى الظروف . والقرآن أساس المنهج الكتابى لذلك العصر بلا شك . والذى لا يمكن نكرانه أنه حصـل تطوّر فى النثر فى العصور الاسلامية الأولى ، ولكنه كان تطوّرا بطيئا لم تظهر آثاره إلا فى طرائق التعبير عن الشـئون الخاصة بتدبير الملك ومخاطبة الخلفاء ، وهـذا التطوّر متأثر باتصال العرب بالفرس ، فقـد كان لهؤلاء تقاليد ملكية رغب العرب فى محاكاتها حين آطلعوا على ما عندهم من الفنون والآداب[3] .

---

(١) أدب الكتاب ص ١٦ و ١٧ (٢) تاريخ الأدب العربى ص ١٢٥

(٣) المعروف أن عبـد الحميد بن يحيى هو أوّل من نقل تقاليد الفرس الى الكتابة العربيـة (راجع الصناعتين ص ٥١) ومعنى هذا أنه كانت هناك تقاليـد كتابية أضاف اليها عبد الحميد زيادات فنية فى الفواتح والخواتم . فهو لم ينشئ فنا جديدا ، ولكنه أصلح فنا قديما . وهذا يؤيد رأينا فى نشأة النثر الفنى ، فهو فن قديم عرفه العرب فى الجاهلية ، وتم نضجه فى العصر الاسلامى .

ومن طريف ما يحسن تقييده أن المستشرقين كانوا يرتابون فى شخصية عبد الحميد بن يحيى فلم يهتموا به اهتماما يذكر فى دائرة المعارف الاسلامية ، ورأى الدكتور طه حسين أن يتقدمهم فزعم أن شخصية عبد الحميد شخصية خرافية كشخصية آمرئ القيس ! ! وتحدانا أن نثبت أن الجاحظ ذكره فى كتبه ، فبالينا هذا التحدّى ، وعدنا الى كتب الجاحظ نسألها أخبار عبد الحميد ، فرأينا الجاحظ تحدّث عنه فى رسائله وكتبه غير مرة ، وأقبلنا على الدكتور طه نخبره بنتيجة البحث ، فعاد فتحدّث الى تلاميذه بأن عبـد الحميد بن يحيى كان يعرف اليونانية ! ! ثم أثبت ذلك فى بحث قدمه الى مؤتمر=

٦ — ويهمنا فوق ما تقدم أن ننص على أن النثر فى العصر الاسلامى لم يؤخذ عليه التزام السجع ، وإنما كان يقع السجع حين يقع بسيطا مقبولا لا تكلف فيه ، ولا نكاد نجد فى القرن الأول والثانى وأوائل الثالث كاتبا يتخذ السجع طابعا ملازما لنثره ، خصوصا الكتاب المشاهير الذين أغنوا تلك العهود بأدبهم كابن المقفع وعبد الحميد بن يحيى . والسجع فى الأصل حلية يزدان بها النثر ، وهى مقبولة ما دامت تجرى فى حدود الاعتدال والقصد ، كما وقع فى القرآن ، فان القرآن يسجع أحيانا ولكنه لا يلتزم السجع ، لذلك نجا من التكلف والابتذال .

والصنعة التى أثرت عن ذلك العصر تدل على أن الكتاب كانوا يفهمون أن الكتابة فن له قواعد وأصول ؛ وأن الكاتب يجب أن يصفى كتابته من أوشاب الخطأ والضعف ، لذلك رأينا واصل بن عطاء مثلا يتجنب الراء فى خطبه إذ كان ألثغ ، بالرغم من أن هذا الحرف كثير الدوران فى الكلام [1] . وتجنب مثل هذا الحرف من باحث كبير مثل واصل يتكلم ويخطب بلا انقطاع يدل على أن إجادة النثر أصبحت مقصودة عند كتاب ذلك العصر وخطبائه ، ومثل هذا القصد كاف للدلالة على فهم أولئك الناس لأهمية الإتقان .

٧ — والذى يتأمل آثار ذلك العصر يرى اهتمام الكتاب والخطباء ببسط المعانى وتأكيدها بتكرير الجمل المتقاربة فى مغزاها ومدلولها . وهذا يعطينا فكرة واضحة عن تصور الكتاب والخطباء لنفسية من يراسلونهم أو يخاطبونهم . وهذا التكرير الذى أشير اليه ليس كالتكرير الذى سأنكره فيما بعد على كتاب القرن الرابع ، وإنما هو تكرير خفيف مقبول يؤكد المعنى ولا يثقله كالذى وقع فى رسالة الحسن البصرى إلى عمر بن عبد العزيز :

” واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده وقلة أشياعك عنده وأنصارك عليه ، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر . واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلا غير منزلك الذى أنت به

= المستشرقين... ويظهر أن الدكتور طه نسى أن يحدث تلاميذه وقراءه عمن دله على مكان عبد الحميد فى كتب الجاحظ . فليسمح لنا أن نحفظ لأنفسنا هذا الحق ، ورحم الله ابن الرومى إذ قال :

وعزيز علىّ مدحى لنفسى ... غير أنى جشمته للدلاله

وهو عيب يكاد يسقط فيه ... كل حر يريد يظهر حاله

(١) البيان والتبيين ص ١٠ ج ١ طبعة سنة ١٣٣٢ ﻫ .

يطول فيه ثواؤك، ويفارقك أحباؤك، يسلمونك فى قعره فريدا وحيدا، فتزودْ له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه[١] " .

وهذا التكرير قد يزيد عند بعض الكتاب ولكنه يظل مقبولا أيضا كالذى وقع فى مشاورة المهدى لأهل بيته فى مثل هذه التعابير :

" أيها المهدى ! إن فى كل أمر غاية ، ولكل قوم صناعة آستفرغت رأيهم وآستغرقت أشغالهم وآستنفدت أعمارهم، وذهبوا بها وذهبت بهم، وعُرفوا بها وعرفت بهم، ولهذه الأمور التى جعلتنا فيها غاية وطلبت معونتنا عليها أقوامٌ من أبناء الحروب وساسة الأمور وقادة الجنود، وفرسان المزاهر وإخوان التجارب وأبطال الوقائع الذين رشحتهم سجالها وفيأتهم ظلالها وقرمتهم نواجذها، فلو عجمت ما قِبَلهم وكشفت ما عندهم لوجدت نظائر تؤيد أمرك، وتجارب توافق نظرك، وأحاديث تقوى قلبك ، فأما نحن معاشر عمالك وأصحاب دواوينك فحسنٌ بنا وكثيرٌ منا أن نقوم بثقل ما حملتنا من عملك، وآستودعتنا من أماناتك، وشغلتنا به من إمضاء عدلك، و إنفاذ حكمك، و إظهار حقك[٢] " .

وقد شاع هذا الأسلوب فى القرن الثانى والثالث، واتخذه الجاحظ خاصة أسلوبا مختارا لا يحيد عنه، يظهر ذلك فى مقدمة كتبه مثل البيان والتبيين والحيوان ، وفى رسائله الأدبية والاجتماعية . وفى رأيى أن الجاحظ وصل إلى درجة الغلو والإملال ، ولولا أنه كان يخلط فى كتابته بين الجد والهزل والحلو والمر لآنصرف الناس عنه ، ولكنه كان رجلا عالما بطباع الناس وغرائزهم فاستطاع بذلك أن يتملق أهواءهم وأذواقهم وأن ينسيهم برقة دعابته وحلاوة استطراده إسرافه فى أسلوبه وتطويله الذى عرف به واضطر للدفاع عنه فى مقدمة كتاب الحيوان .

٨ — ومن مظاهر الصنعة فى ذلك العصر تعمد الخيال، وتلك صفة نجدها عند أكثر الكتاب والخطباء، فنجد الحجاج مثلا يقول :

(١) نهاية الأرب ص ٣٨ ج ٦ (٢) راجع العقد الفريد ص ٥٧ — ٦٤ ج ١

" يا أهل الكوفة ! إنى لأرى رءوسا قد أينعت وحان قطافها ، وإنى لصاحبها ، وكأنى أنظر إلى الدماء تترقرق بين العمائم واللحى " .

ويقـــول :

" إن أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه ! — كبّ كنانته بين يديه فعجم عيدانها فوجدنى أمرّها عـودا وأصلبها عمودا ، فرماكم بى ، لأنكم طالما أوضعتم فى الفتنة ، واضطجعتم فى مراقد الضلال ... أما والله لألحونكم لحو العصا ، ولأعصبنكم عصب السلمة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل[1] " .

وإيثار الخيال فى النثر ظاهر فى خطب على بن أبى طالب وزياد ورسائل عبد الحميـد[2] ، وحكم الواعظين والنساك فى تلك الأيام ، ومنشورات الخوارج التى هاجموا بها الخلفاء . وهذا الأسلوب مظهر من مظاهر الفن لا ينبغى تجاهـله عند تقرير الخواص التى امتاز بهـا النثر فى ذلك الحين .

هـذه المظاهر الفنية التى طبع بها النثر فى عصر بنى أمية وصـدر دولة بنى العباس كانت مقـدّمة لنوع من الاسراف فى الزخرف أفسد النثر فيما بعـد ، وأثقله بألوان من السجع والازدواج .

---

(١) البيان والتبيين ص ١٦٤ و١٦٥ ج ٢ (٢) أظهر أثر لعبد الحميد بن يحيى هو رسالتـه التى وجهها إلى الكتاب يوصيهم فيها بحفظ الكرامة واحترام المهنة ومواساة الزملاء — راجع صبح الأعشى ص ٨٥ — ٨٩ ج ١

٤ – أطوار السجع

١ – لهذا البحث أهمية عظيمة . وقد جمعنا له مذكرات عديدة تصلح مادة لكتيب خاص . ثم رأينا إجمالها فى هذا الفصل [١] . وترجع أهمية هذا البحث الى مايجب من تبديد الشبهة التى تأصلت فى أنفس كثير من الباحثين الذين يظنون أن التزام السجع لم يقع إلا فى القرن الرابع . فقد حدثنى المسيو مرسيه مرة أنه وجد كتابا لمؤلف قديم اسمه الأخضرى ، وأن المؤلف منسوب الى القرن الثالث . ويصرّ المسيو مرسيه على ضمه الى رجال القرن الرابع : لأنه يلتزم السجع . واستطرد المسيو مرسيه فذكر أنه عرض هذه المسألة على الدكتور طه حسين فوافقه على استبعاد أن يكون من رجال القرن الثالث من يلتزم السجع . وفى هذا الفصل تُبدَّد أمثال هذه الشبهات ، ويعرف القارئ أن السجع حلية قديمة أولع بها الكتّاب والخطباء قبل القرن الرابع بأجيال ، وأنه لا يكفى أن يكون الكتّاب مسجوعا ليطرد من حظيرة القرن الثالث كما حكم وليم مرسيه وطه حسين [٢] .

٢ – ولنذكر أولا أن السجع من مميزات البلاغة الفطرية : فهو فى أكثر اللغات يجرى باطراد فى الحكم والأمثال . ويمكن الحكم بأن أمثال العامة تقع غالبا مسجوعة ، وقد يجئ السجع على المعنى أحيانا فى تعابير الفطريين من أهل البادية والريف ، وفى ذلك دلالة على أن المحسِّنات اللفظية مما يقصده العوام ، وليست مما ينفرد به الخواص . والقارئ يستطيع بسهولة أن يجمع عشرين مثلا فى لحظة واحدة من أسجاع العامة فيما سار على ألسنتهم من مختلف

---

(١) عرضنا لهذا الموضوع فى الأصل الفرنسى ، ثم عدنا ففصلناه بعض التفصيل فى المقدّمة الفرنسية التى نشرناها مع (الرسالة العذراء) .

(٢) من الانصاف أن نذكر أن رأى هذين الباحثين قد تغير فى كثير من موضوعات النثر الفنى بعد الأبحاث الجدّية التى قدمناها الى السوربون ومدرسة اللغات الشرقية فى باريس .

الحكم والأمثال[1] . ولو رجع القارئ الى احدى اللغات الأوروبية ، كالفرنسية مثلا ، لوجد السجع يجرى بأطراد فى هذا الضرب من القول ، مثل :

(Qui va à la chasse, perd sa place)

ومثل :

(Qui se ressemble, s'assemble)

ومثل :

La nuit, tous les chats sont gris

وكالمثل السائر :

Vouloir, c'est pouvoir

وما جمعه الرواة من خطب الجاهليين أكثره مسجوع ، كخطبة قس بن ساعدة الإيادى وخطبة النابغة الذبيانى[2] . ومع أننا نرتاب فى صحة تلك الخطب فاننا نرى فى وضعها مسجوعة — على فرض صحة الوضع — دليلا على أن الرواة كانوا يفهمون أن السجع من طبيعة البلاغة الجاهلية ، وفهم الرواة له قيمته : لأنهم أقرب منا بمراحل طويلة الى ذلك العهد ، ولأنهم كانوا يملكون من أصول الأدب الجاهلى الصحيح ما يمكنهم من الحكم على طرائق أهله فى التعبير .

٣ — ولو تركنا المشكوك فيه من الآثار الجاهلية ، وعدنا الى نص جاهلى لاريب فيه وهو القرآن لرأينا السجع إحدى سماته الأساسية . والقرآن نثر جاهلى ، كما أوضحنا ذلك من قبل ، والسجع فيه يجرى على طريقة جاهلية حين يخاطب القلب والوجدان . ولا ينكر متعنت

(١) أسجاع العامة كثيرة ، ومن طريفها ما جرى فى وصف الشهور المصرية مثل : "كياك ، صباحك مساك" يريدون وصفه بقصر النهار . و "برمهات ، روح الغيط وهات" لأن برمهات موسم ظهور البقول . و "برموده ، دق العموده" لأنه موسم الحصاد والدرس ، درس القمح والفول والشعير . و يقولون فى موعد انصرام الشتاء " اذا اخضر التوت البرد يموت" ، ومن فكاهاتهم : "عيشك كويس يا خالتى ! من سوء بختى ، يا بنت اختى !"

وأذكر بمناسبة السجع فى الشهور المصرية أن هناك سجعا يماثله عند عوام الفرنسيين مثل :

En Avril, n'enlève pas un fil

ومثل :

En Mai, fais ce qu'il te plait

(٢) تجد هذه الخطبة فى ص ٣٨ من مجموعة التحفة البهية .

أن القرآن وضع للصلوات والدعوات ومواقف الثناء والخوف والرجاء سورا مسجوعة تماثل ما كان يرتله المتدينون من النصارى واليهود والوثنيين . ولا ننس أن الوثنية كانت دينا يؤمن به أهله فى طاعة وخشوع ، وكانت لهم طقوس فى هياكلهم . وكانت تلك الطقوس تؤدّى على نحو قريب مما كان يفعل أهل الكتاب من النصارى واليهود . والقرآن وضع لأهله صلوات وترنيمات تقرب فى صيغتها الفنية مما كان لأهل الكتاب من صلوات وترنيمات . والفرق بين الملتين يرجع الى المعانى ويكاد ينعدم فيما يتعلق بالصور والأشكال . ولو دخلت كنيسة فى باريس ورأيت كيف تتلى الدعوات بعد الصلاة لتذكرت الصورة التى تتلى بها الدعوات بعد الصلاة فى مساجد القاهرة : ذلك بأن الديانات الثلاث الاسلام والنصرانية واليهودية ترجع الى مهد واحد هو الجزيرة العربية . فاللون الدينى واحد ، وصورة الأداء تكاد تكون واحدة ، فلا تحسب أن القرآن غيّر مناهج الناس فى يوم وليلة ، وتذكر أنه لم يشأ إلا أن يصلح من عقائد من دعاهم الى الله وأن يروضهم على فكرة واحدة هى التوحيد .

ومعنى هذا أن القرآن يسجع لأن السجع كان فنا من فنون القول والدعاء عند الجاهلية ، والصلوات بطبيعتها تحتاج الى لون من الفن يتمثل فى السجع . لأن فيه آستجابة للموسيقا الوجدانية فى قلوب المتبتلين . واليك أمثلة من سجع القرآن .

”وكم أرسلنا من نبى فى الأولين . وما يأتيهم من نبى إلا كانوا به يستهزئون . فأهلكنا أشدّ منهم بطشا ومضى مثل الأولين . ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنّ خلقهنّ العزيز العليم . الذى جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون . والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون . والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون . لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا آستويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وانا الى ربنا لمنقلبون“[1] .

---

(١) سورة الزخرف .

" والسابقون السابقون، أولئك المقربون . فى جنات النعيم . ثلة من الأولين . وقليل من الآخرين . على سرر موضونة[١] . متكئين عليها متقابلين . يطوف عليهم ولدان مخلَّدون . بأكواب وأباريق وكأس من معين . لا يصدّعون عنها ولا ينزفون . وفاكهة مما يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون . وحور عين . كأمثال اللؤلؤ المكنون . جزاء بما كانوا يعملون . لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما ، إلا قيلًا سلاما سلاما . وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين . فى سدر مخضود، وطلح منضود، وظل ممدود، وماء مسكوب، وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة وفرش مرفوعة[٢] " .

وعند ملاحظة سجع القرآن نراه يتخلف بغاءة فى بعض الأحايين : كأن تكون القافية نونية فتجيء فى وسط السياق فاصلة ميمية . وفى هذا برهان على أن المعنى هو الأصل، وأن السجع لا يراد به مطلق التوافق فى الحرف ، وانما يقصد به التلحين والتنغيم، لأن تغيير الحرف مع بقاء الوزن لا يغير من الرنة الموسيقية[٣] .

٤ — وفى الأحاديث النبوية سجع مقصود، خلافا لما ظن المسيو ماسينيون[٤]، ومن أمثلته :

" أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلُوا الأرحام، وصلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام " .

ونقل الغزالى فى باب الاستعاذات المأثورة عن الرسول :

" اللهم إنى أعوذ بك من طمع يهدى الى طبَع ، ومن طمع فى غير مطمع ، ومن طمع حيث لا مطمع . اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع ، ودعاء لا يسمع ، ونفس لا تشبع . وأعوذ بك من الجوع ، فانه بئس الضجيع ، ومن الخيانة ، فانها بئست البطانة ، ومن الكسل والبخل والجبن ومن الهرم ومن أن أُرَدّ الى أرذل العمر[٥] " .

---

(١) موضونة : منسوجة بقضبان من الذهب والجواهر . (٢) سورة الواقعة . (٣) الباقلانى ينفى ورود السجع فى القرآن وقد نقضنا رأيه من الأساس . راجع الجزء الثانى من هذا الكتاب ص ٧٧ — ٨١

(٤) فى ملاحظاته التى أبداها يوم مناقشته الرسالة فى السوربون . (٥) إحياء علوم الدين ج ١ ص ٣٣٠

ولنقيد أن السجع لا يطّرد فى الحديث كما لا يطّرد فى القرآن، فهو حلية تقصد، ولكنها لا تلتزم، لما فى التزامها فى قهر المعانى على متابعة الألفاظ .

وقد نجد فى الأحاديث عبارات تجرى مجرى السجع من حيث مراعاة الوزن وإن لم تراع فيها القافية، كقوله عليه السلام :

"اللهم إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى، وتجمع بها شملى، وتلم بها شعثى، وترد بها ألفتى، وتصلح بها دينى، وتحفظ بها غائبى، وترفع بها شاهدى، وتزكى بها عملى، وتبيض بها وجهى، وتلهمنى بها رشدى، وتعصمنى بها من كل سوء"[1] .

وهذا النوع من "الوزن" قريب من السجع من حيث بناء الجملة، وسنعود اليه بعد قليل.

٥ — ولو مضينا نستقرئ خطب الصحابة والخلفاء الراشدين لرأينا السجع يلتزم فى كثير من الأحيان . والى القارئ خطبة منسوبة الى علىّ بن أبى طالب :

"دار بالبلاء محفوفة، وبالغدر معروفة، لا تدوم أحوالها، ولا يسلم نزالها، أحوال مختلفة، وتارات متصرفة، العيش فيها مذموم، والأمان فيها معدوم . وانما أهلها فيها أغراض مستهدفة : ترميهم بسهامها، وتفنيهم بحمامها . واعلموا عباد الله أنكم وماأنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من قد مضى قبلكم ممن كان أطول منكم أعمارا ، وأعمر ديارا ، وأبعد آثارا ، أصبحت أصواتهم هامدة، ورياحهم راكدة، وأجسادهم بالية، وديارهم خالية، وآثارهم عافية : فاستبدلوا بالقصور المشيدة، والنمارق الممهدة، الصخور والأحجار المسندة، والقبور اللاطئة[2] الملحدة. التى قد بنى بالخراب فناؤها، وشيد بالتراب بناؤها، فمحلها مقترب، وساكنها مغترب، بين أهل محلة موحشين ، وأهل فراغ متشاغلين ، لا يستأنسون بالأوطان ولا يتواصلون تواصل الجيران، على ما بينهم من قرب الجوار، ودنو الديار، وكيف يكون بينهم تزاور وقد طحنهم بكلكله البلى ، وأكلتهم الجنادل والثرى ،وكأنْ قد صرتم الى ما صاروا

(١) إحياء علوم الدين ج ١ ص ٣٢٢ (٢) اللاطئة : اللاصقة بالأرض .

اليـه ، وارتهنكم ذلك المضجع ، وضمكم ذلك المسـتودَع ، فكيف بكم لوتناهت بكم الأمور ، وبعثرت القبور[١] ".

وقد أراد المسيو ديمومبين (Demombynes) أن يغض من قيمة ما نسب الى على بن أبى طالب من خطب ورسائل ، استنادا الى ما شاع منذ أزمان من أن الشريف الرضى هو واضع كتاب (نهج البلاغة) أما نحن فنتحفظ فى هذه المسألة كل التحفظ ؛ لأن الجاحظ يحدثنا أن خطب على وعمر وعثمان كانت محفوظة فى مجموعات[٢] . ومعنى هذا أن خطب علىّ كانت معروفـة قبل الشريف الرضى . والذين نسبوا نهـج البلاغة إلى الرضى يحتجون بأنه وضعها لأغراض شيعيـة ، فلم لا نقول من جانبنـا بأن تهمة الوضع جاءت لتأييد خصوم الحملات الشيعيـــة[٣] ؟ .

ولو فرضنا أن أمثال ما آستشهدنا به من خطب علىّ ليس له فان ذلك لا يمنع أن السجع كان من مزايا ذلك الخطيب ، لأن من يقلد خطيبـا يحرص على تمثيـل مذهبـه فى الأداء والأسلوب . وقد رأينا التوحيدى يخترع حديث السقيفـة ويرى من الفن أن ينطق الصحابة بكلام مسجوع ، لأنه كان يعرف لغتهم كذلك ، فيقول على لسان عمر وهو يخاطب أبا عبيدة :

" قل لعلىّ : الرقاد محلمـة ، والهوى مقحمة ، وما منا إلا له مقام معلوم ، وحق مشاع أو مقسوم ، ونبأ ظاهر أو مكتوم ، وأن أكيس الكيس من منـح الشارد تألفا ، وقارب البعيـد تلطفا ، ووزن كل شيء بميزانه ، ولم يخلط خبره بعيانه ، . . ما هـذه الخنزوانة التى فى فراش رأسك ؟ ما هـذا الشجا المعترض فى مدارج أنفاسك ؟ ما هـذه القذاة التى تغشت ناظرك ؟ وما هذه الوحرة التى أكلت شراسيفك ؟ وما هـذا الذى لبست بسببه جلد النمر ، وآشتملت عليه بالشحناء والنكر ... الخ[٤] " .

---

(١) نهج البلاغة ص ٤٨١ — ٤٨٣ (٢) البيان ج ١ ص ١٤٧ (٣) الواقع أن اتهام الشريف الرضى بوضع (نهج البلاغة) قديم وقد أشار اليه ابن أبى الحديد فى شرحه ثم أفاض فى نقض ذلك الاتهام . راجع ص ٥٤٦ من المجلد الثانى . (٤) صبح الأعشى ج ١ ص ٢٤٢

ومن دقة المحاكاة ما رأينا التوحيدى يحرص عليه فى حديث السقيفة من التسامح فى التزام السجع فى بعض الفقرات ليوافق المنهج الذى عرف فى نظم القرآن والحديث وخطب الصحابة والخلفاء الراشدين .

٦ — فاذا تخطينا عصر النبوة وصدر الاسلام إلى العصر الأموى رأينا الخطباء كذلك يسجعون[1]، و رأينا مثلا هشام بن عبد الملك يقول :

" و إنا لنعرف الحق إذا نزل، ونكره الإسراف والبخل، وما نعطى تبذيرا، وما نمنع تقتيرا. وما نحن إلا خزّان الله فى بلاده، وأمناؤه على عباده، فان أذن أعطينا، و إذا منع أبينا، ولو كان كل قائل يصدّق ، وكل سائل يستحق ، ما جبهنا قائلا ، ولا رددنا سائلا "[2] .

روى هـذا الكلام على أنه مرتجل فى الرد على خطيب وفد أهل الحجاز . وفى روايته كذلك دليل على أنهم كانوا يفهمون أن الكلام يقع مسجوعا حين يحتفل به القائلون .

وقد أُثر عن الخلفاء والقوّاد كلام مسجوع فى مواطن لا ينتظر فيها تأنق فى التعبير، كأن يكون الكلام جوابا على سؤال . من ذلك ما روى أن عقال بن شبة دخل على هشام وأراد أن يقبّل يده فقال : لا يفعل هـذا من العرب إلا هَلُوع ؛ ولا من العجم إلا خَضُوع . وقالت امرأة لأبى مسلم : ناولنى يدك أقبلها فقـد نذرت . فقال : عليك بالحجر الأسود تصيبين أجرا، وتقضين نذرا[3] .

---

(١) ولا ننس أن نشير الى أن لغة الزهاد والنساك فى العصر الأموى كانت فى الأغلب مسجوعة ، ومن شواهد ذلك قول الحسن البصرى يوصى عمر بن عبد العزيز :

" واذكر يا أمير المؤمنين اذا بعثر ما فى القبور، وحصـل ما فى الصدور .. وأنت فى مهل ، قبل حلول الأجل، وانقطاع الأمل ، لا تحكم فى عباد الله بحكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين ، لأنهم لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة ، فتبوء بأوزارك ، وأوزار مع أوزارك ، وتحمـل أثقالك وأثقالا مع أثقالك ، ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسـك ، و يأكلون الطيبات من دنياهم باذهاب طيباتك فى آخرتك". راجع نهاية الأرب ص ٢٨ ج ٦ (٢) صبح الأعشى ج ١ ص ٢٦٥ (٣) (محاضرات الأصفهانى ج ١ ص ١٤٦)

وكان المسيو مرسيه (Marçais) يظن أن الناس بدأوا يكرهون السجع فى العصر الأموى . وكانت حجته ما حدّث الجاحظ أن معاوية أملى كتابا الى رجل فقال فيه : "لهو أهون علىّ من ذرة ، أو كلب من كلاب الحرة" ثم قال لكاتبه : "امح من كلاب الحرة . واكتب : من الكلاب" كأنه كره ٱتصال الكلام والمزاوجة وما أشبه السجع ، ورأى أنه ليس فى موضعه[1] .

وقد راجعنا المسيو مرسيه فى هذا وأبنّا له أن معاوية تحامى السجع فى هذا الموطن لأنه فنّ يشعر بأن الكاتب هادئ النفس ، وهو لا يصلح لمقام التهديد والوعيد .

والمعروف عن ابن المقفع أنه لا يلتزم السجع ، وبالغ المسيو مرسيه فحدّثنى فى أحد أيام سبتمبر سنة ١٩٢٩ أنه لا يعرفه على الإطلاق ، ولو أنه ٱستقصى أخباره لرآه يذكر أن من البلاغة " ما يكون سجعا وخطبا ، ومنها ما يكون رسائل[2] " فٱبن المقفع يقرر أن السجع فن من القول يقابل الشعر والرسائل ولعله يريد به الأمثال ، وإن كان قرنه بالخطب يفهمنا أنه يقصد به الخطب المسجوعة . ولاسيما إذا لاحظنا أن الحصرى يذكر أن بشار بن برد كان "سجاعا خطيبا[3]" وأن المختار بن أبى عبيد كانت له " أسجاع يصنعها ، وألفاظ يبتدعها ، ويزعم أنها تنزل عليه ، وتوحى اليه[4]" وفى هذه العبارة ما يذكر بأن الإلهامات الدينية ، حتى المفتراة ، كانت تنتظر صورة مسجوعة ، لأن السجع كان من تقاليد الكهان ، وكان الكهان حملة راية الدين فى عصر الجاهلية .

٧ — ولو حللنا أساليب المشاهير من كتاب العصر الأموى لرينا كتاباتهم " موزونة " على طريقة السجع ، وإن لم تلتزم فيها القافية ، وٱنظر قول عبد الحميد بن يحيى :

---

(١) رسائل الجاحظ ص ١٥٥ (٢) ص ٦٤ ج ١ البيان والتبيين — وهذا الذى رواه الجاحظ عن فهم ابن المقفع لقيمة السجع وعدّه بابا من البلاغة كاف فى الرد على من يشك فى نسب كتاب الى ابن المقفع بسبب ما يقع فيه من تعمد السجع أحيانا كما فعل مؤلف ضحى الاسلام — ص ٢١٥ ج ١ — حين ارتاب فى أحد كتب ابن المقفع .

(٣) زهر الآداب ج ٢ ص ١٢١ — ولنلاحظ أن « سجاعا » رواها الحصرى بالسين المهملة . ووصف الجاحظ فى الجزء الثالث من البيان ص ٩٦ مسلمة بأنه كان « شجاعا خطيبا وبارع اللسان جوادا » فأثبت « شجاعا » بالشين المعجمة . و « سجاعا » و « شجاعا » وردتا مقرونتين الى « خطيبا » ونحن نرجح أن التحريف وقع فى كتاب الجاحظ .

(٤) زهر الآداب ج ٢ ص ٥١

" ثم إياك أن يفاض عندك بشيء من الفكاهات والحكايات والمزاح والمضاحك التي التي يستخف بها أهل البطالة و يتسرع نحوها ذوو الجهالة، ويجد فيها أهل الحسد مقالا لعيب يرفعونه، ولطعن فى حق يجحدونه، مع ما فى ذلك من نقص الرأى، ودرن العرض، وهدم الشرف، وتأثيل الغفلة، وقوة طباع السوء الكامنة فى بنى آدم كمون النار فى الحجر الصلد، فاذا قدح لاحَ شرره، ولهب وميضه، ووقد تضرمه. وليست فى أحد أقوى سطوة، وأظهر توقدا، وأعلى كمونا، وأسرع اليه بالعيب منها الى من كان فى سنك من أغفال الرجال" [1].

وفى مثل هذا النثر حرية ظاهرة، ولكن بناء الجمل مطبوع بطابع السجع فى كثير من الفقرات. وروبت لعبد الحميد أسجاع كقوله : " الناس أخياف مختلفون، وأصناف متباينون، فنهم علق مضنة لا يباع، ومنهم غل مظنة لا يبتاع" [2].

وابن المقفع أكثر كتاب العصر الأموى حرية فى صوغ الجملة، ولكن يتفق له أحيانا أن يرصع كلامه على منهج الوزن فى السجع فيقول مثلا :

" وليس كل ذى نصيب من اللب بمستوجب أن يسمى فى ذوى الألباب ... فمن رام أن يجعل نفسه لذلك الاسم والوصف أهلا فليأخذ له عتاده، وليعد له طول أيامه، وليؤثره على أهوائه، فانه قد رام أمرا جسيما لا يصلح على الغفلة، ولا يدرك بالمعجزة، ولا يصير على الأثرة".

وما نسميه الوزن نريد به توافق الفواصل الذى يحصل به هدوء النفس عند تلاوة الكلام المرصوف.

٨ — ومما يعين ميل الأذواق العربية الى إيثار السجع غلبة هذا الفن على أكثر ما أثر عن الاعراب. حدث الأصمعى أنه سمع أعرابيا يذكر قومه فقال :

" كانوا إذا اصطفوا تحت القتام، ومطرت بينهم السهام، يشربون الحمام. وإذا تصافحوا بالسيوف، فغرت فاها الحتوف" [3].

---

(١) رسائل البلغاء ص ٢٤ (٢) الصداقة والصديق ص ٢٨ (٣) زهر الآداب ج ٤ ص ١٩٠

وعذلت أعرابية أباها فى إتلاف ماله بالجود فقالت :

"حبس المال، أنفع للعيال، من بذل الوجه فى السؤال، فقد قل النوال، وكثر البخال، وقد أتلفت الطارف والتلاد، وبقيت تطلب ما فى أيدى العباد، ومن لم يحفظ ما ينفعه، أوشك أن يسعى فيما يضره"[١] .

وقال بعض الأعراب :

" نالنا وسمى[٢] ، وخلفه ولى[٣] ، فالأرض كأنها وشى عبقرى، ثم أتتنا غيوم جراد ، بمناجل حداد، نخربت البلاد، وأهلكت العباد، فسبحان من يهلك القوى الأكول، بالضعيف المأكول[٤] " .

ووعظ أعرابى رجلا وهو يقول :

"ويحك ! إن فلانا وإن ضحك إليك ، فانه يضحك منك ، ولئن أظهر الشفقه عليك، إن عقاربه لتسرى اليك . فان لم تتخذه عدوا فى علانيتك، فلا تجعله صديقا فى سريرتك[٥] " .

ودخل اعرابى على خالد بن عبد الله القسرى فقال :

" أصلح الله الأمير ! شيخ كبير، حدته إليك بارية العظام، ومؤرثة الأسقام، ومطولة الأعوام، فذهبت أمواله، وذعذعت[٦] آباله ، وتغيرت أحواله . فان رأى الأمير أن يجبره بفضله وينعشه بسجله ، ويرده إلى أهله[٧] " .

والسجع فى كلام الأعراب كثير جدا فلا نشغل أنفسنا بالتدليل على كثرته، ولنذكر أن هناك أحاديث كثيرة وضعت على ألسنة الأعراب واهتم الوضاعون بصوغها مسجوعه لتسهل نسبتها إليهم، وسنعود إليها عند الكلام عن ابن دريد .

---

(١) زهر الآداب ج ٤ ص١٤٢ (٢) الوسمى : المطر الأول . (٣) الولى : المطر الثانى .

(٤) زهر الأدب ج ٤ ص ١٤٣ : (٥) زهر الأدب ج ٣ ص ٢٥٦ (٦) ذعذعت : فرقت .

(٧) أمالى القالى ج ٢ ص ٤٩ .

٩ — وهناك فن من القول التزم فيه السجع على نمط كلام الأعراب وهو وصايا الآباء للأبناء . وهو فن قديم عرفه أهل الجاهلية ، ومن شواهده فى العصر الاسلامى قول عبد الله بن شدّاد :

" أى بنى . لا تزهدن فى معروف، فان الدهر ذو صروف، والأيام ذات نوائب، على الشاهد والغائب ، فكم من راغب قد كان مرغوبا اليه ، وطالب أصبح مطلوبا ما لديه ... وإن سمعت كلمة من حاسد ، فكن كأنك لست بالشاهد ... وإن غلبت يوما على المال ، فلا تدع الحيلة على حال : فان الكريم يحتال، والدنىّ عيال، وكن أحسن ماتكون فى الظاهر حالا، أقل ما تكون فى الباطن مالا [1] " .

وقال علقمة بن لبيد لابنه :

" يا بنى، إذا نزعتك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إن صحبته زانك ، وإن خدمته صانك ، وإن أصابتك خصاصة مانك، وإن قلت صدق قولك، وإن صلت سدّ صولك، وإن مددت يدك بفضل مدّها، وإن رأى منك حسنة عدّها ، وان سألته أعطاك ، وان سكت عنه ابتداك ، وان نزلت بك احدى الملمات آساك ، من لا تأتيك منه البوائق ، ولا تختلف عليك منه الطرائق، ولا يخذلك عند الحقائق، وان حاول حويلا آمرك [2] ، وان تنازعتما منفسا آثرك [3] " .

١٠ — وزعماء الوافدين على الخلفاء يؤثرون السجع كأن الخطب نوع من القصيد . قال عبد الملك بن مروان وقد دخل عليه العجاج " ياعجاج ! بلغنى أنك لا تقدر على الهجاء . فقال يا أمير المؤمنين ! من قدر على تشيد الأبنية، أمكنه إخراب الأخبية " .

قال : فما يمنعك من ذلك؟ قال : إن لنا عزا يمنعنا من أن نُظلَم، وإن لنا حلما يمنعنا من أن نَظلِم، فعلام الهجاء؟ فقال : لكلماتك أشعر من شعرك . فأنّى لك عز يمنعك من أن تُظلَم؟

(١) الأمالى ج ٢ ص ٢٠٥ (٢) آمرك : شاورك . (٣) عيون الأخبار ج ٣ ص ٤

قال : الأدب البارع، والفهم الناصع . قال : فما الحلم الذى يمنعك من أن تظلم ؟ فقال : الأدب المستطرف والطبع التالد[١] .

وروى أن على بن أبى طالب أرسل الى معاوية بالشام كتابا صحبة صعصعة بن صوحان فسار به حتى أتى دمشق فأتى باب معاوية فقال لآذنه : استأذن لرسول أمير المؤمنين على بن أبى طالب، و بالباب جماعة من بنى أمية، فأخذته النعال والأيدى لقوله "أمير المؤمنين" وكثرت عليه الجلبة، فاتصل ذلك بمعاوية فأذن له فدخل عليه فقال : السلام عليك يا بن أبى سفيان . هذا كتاب أمير المؤمنين . فقال معاوية : أما إنه لو كانت الرسل تُقتل فى جاهلية أو إسلام لقتلتك! ثم اعترضه معاوية فى الكلام وأراد أن يستخبره ليعرف طبعا أو تكلفا، فقال له ممن الرجل؟ فأجاب : من نزار قال: وما نزار؟ قال : كان إذا غزا انحوش[٢]، و إذا انصرف انكمش، و إذا لقى افترش. قال : فمن أى أولاده أنت ؟ قال : من ربيعة . قال : وما ربيعة؟ قال : كان يغزو بالخيل، و يغير بالليل، ويجود بالنيل . قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من أمهر، قال : وما أمهر؟ قال : كان إذا طلب أفضى، وإذا أدرك أرضى، و إذا آب أنضى . قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من جديلة. قال : وما جديلة ؟ قال : كان يطيل النجاد، و يعد الجياد، ويجيد الجلاد[٣] . قال : فمن أى ولده أنت؟ قال : من دعمىّ . قال : وما دعمىّ؟ قال : كان نارا ساطعا ، وشرا قاطعا، وخيرا نافعا . قال فمن أى ولده أنت ؟ قال : من أفصى . قال : وما أفصى ؟ قال : كان ينزل القارات ، و يكثر الغارات ، ويحمى الجارات. قال: فمن أى ولده أنت ؟ قال: من عبد القيس. قال وما عبد القيس؟ قال : أبطال ذادة ، جحاجحة سادة ، صناديد قادة. قال : فمن أى ولده أنت؟ قال : من أفصى . قال :

---

(١) الأمالى ج ٢ ص ٤٩ . (٢) انحوش : أسرع، ومثلها انكمش . (٣) رواية صبح الأعشى تصف جديلة بأنه «كان فى الحرب سيفا قاطعا، و فى المكرمات غيثا نافعا ، وفى اللقاء لهبا ساطعا» و بين رواية صبح الأعشى والأمالى خلاف ملموس، وهو دليل على التصرف فى أصل هذا الحديث . وقد اعتمدنا على رواية الأمالى ص ٢٣٠ و ٢٣١ ج ٢

وما أفصى؟ قال : كانت رماحهم مُشرعة، وقدورهم مترعة، وجفانهم مفرغة[1] . قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من لُكَيْز . قال : وما لُكَيْز ؟ قال : كان يباشر القتال، ويعانق الأبطال، ويبدّد الأموال . قال : فمن أى ولده أنت؟ قال : من عِجل . قال : وما عِجل؛ قال الليوث الضراغمة ، الملوك القماقمة ، القروم القشاعمة . قال : فمن أى ولده أنت؟ قال : من كعب . قال : وما كعب ؟ قال كان يسعر الحرب ، ويجيد الضرب ، ويكشف الكرب . قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من مالك . قال : وما مالك ؟ قال : هو الهمام للهمام ، والقمقام للقمقام .

فقال معاوية رحمة الله : ما تركت لهذا الحى من قريش شيئا ! قال : بل تركت لهم أكثره وأحبه ! قال : وما تركت لهم؟ قال : تركت لهم الوبر والمدر، والأبيض والأصفر، والصفا والمشعر، والقبة والمفخر، والسرير والمنبر، والملك الى المحشر .

قال معاوية : أما والله لقد كان يسوءنى أن أراك أسيرا .

فقال صعصعة : وأنا والله لقد كان يسوءنى أن أراك أميرا ! » .

تلك رواية الأمالى . أما رواية صبح الأعشى فقصيرة وتختم هكذا بالسؤال عن عبد القيس :

فمن أى أولاده أنت ؟ قال : من عبد القيس . قال وما كان عبد القيس ؟ قال : كان حسنا أبيض وهابا، يقدّم لضيفه ما وجد، ولا يسأل عما فقد، كثير المرق، طيب العرق، يقوم للناس مقام الغيث من السماء[2] .

ولنلاحظ أن هذا الحوار يشتمل فى سياقه على ثلاث قواف فى كل جواب ، ويطول فى الجواب الأخير لأنه بيت القصيد . ومن الواضح أن هذه الصنعة تعسر على الارتجال ، فمن المرجح أن يكون هذا الحوار لحقه شىء من الترتيب ، ولا سيما إذا تذكرنا أنه منسوب

(١) هى كذلك بالغين المعجمة فى الأصل ، وهو خارج على السجع وإن لم يخرج على الموازنة، ولعل الصواب « مقرعة » بالعين المهملة، يريد وصف الجفان بالامتلاء . والمادة تسمح بذلك . وليلاحظ القارئ أن (أفصى) ذكر مرتين فى هذه الرواية، ولعل هناك خطأ فى الوضع .

(٢) صبح الأعشى ص ٢٥٥ ج ١

الى خطيب كان مضرب المثل فى البيان المطوّل وهو ابن صوحان، فلا يبعد أن يكون نظمه نظما جديدا بعد خروجه من قصر معاوية بن أبى سفيان[١] .

وهنا أيضا لا نحتاج الى كثير من الشواهد : لأن السجع فى حضرة الخلفاء والأمراء والوزراء كان من الذيوع بحيث لا يحتاج فى إثباته الى تدليل .

١١ — ومن طريف ما هدانا اليه الاستقراء أن السجع كان وسيلة من وسائل المجتدين والعفاة ، فهو عندهم فنّ من القول كالقصيد يتقربون به الى قلوب الأغنياء[٢] . وتحت أيدينا شواهد بعضها خشن متوعر، وبعضها سهل مقبول، وهى فى جملتها تنبئنا بأن السجع كان يزيد الكلام رونقا وبهاء، وينظم قائله فى سلك أهل البيان .

قال صاحب الأمالى : "حدّثنا أبو بكر رحمه الله . قال أخبرنا أبو حاتم . قال أخبرنا أبو زيد قال : بينا أنا فى المسجد الحرام اذ وقف علينا أعرابى فقال : يامسلمون! إن الحمد لله والصلاة على نبيه . انى امرؤ من أهل هذا الملطاط[٣] الشرقى المواصى[٤] أسياف[٥] تهامة . عكفت[٦] علينا سنون مُحُش[٧] فاجتبت[٨] الذرى، وهشمت[٩] العرى[١٠]، وجمشت[١١] النجم[١٢]، وأعجت[١٣] البهم، وهمت[١٤]

(١) هذا النمط من الأجوبة المسجوعة كثير جدا فيا نقله الرواة ، وجزء منه منسوب الى نساء شهيرات . ويمكن الحكم بأن هذا النوع يمثل أدبا قائما بذاته يجد القارىء مواده متفرقة فى كتب الأخبار والأقاصيص . وفن المقامات الذى ظهر ظهورا قويا فى القرن الرابع متأثر بهذه الأحاديث ، فالمقامة حديث مطول يرتكز على الحوار ويلتزم فيه السجع ويفترض عند بطل المقامة ذكاء يماثل الذكاء الذى يظهر فى أحاديث الأعراب والوافدين على الخلفاء .

(٢) يؤيد هذا قول أبى العلاء المعرى فى رسالة المنيح :

"وقد كان فيا مضى قوم جعلوا الرسائل ، كالوسائل ، وزينوا بالسجع ، تزين المحول بالرجع" راجع نحول البلاغة ص ٢٠٠ (٣) الملطاط : كل شفير نهر أو واد. (٤) المواصى والمواصل واحد ، يقال تواصى النبت اذا اتصل بعضه ببعض . (٥) الأسياف جمع سيف بكسر السين وهو ساحل البحر. (٦) عكفت : أقامت : (٧) محش جمع محوش وهى التى تحش الكلأ أى تحرقه . (٨) اجتبت : اقتلعت من الجب وهو القطع . (٩) هشمت : كسرت . (١٠) العرى جمع عروة وهى هنا القطعة من الشجر لا يزال باقيا على الجدب . (١١) جمشت : احتلقت . (١٢) النجم ما نجم من النبت ولم يستقل على ساق . (١٣) أعجت : صيرتها عجايا . والعجىّ المهزول من سوء الغذاء . (١٤) همت : أذابت .

الشحم ، والتحبت اللحم[١] ، وأجحنت العظم[٢] ، وغادرت التراب مورا[٣] ، والماء غورا[٤] ، والناس أوزاعا[٥] ، والنبط قعاعا[٦] ، والضهل جراعا[٧] ، والمقام جعجاعا[٨] ، يصبحنا الهاوى[٩] ، ويطرقنا العاوى[١٠] ، خرجت لا أتلفع بوصيدة[١١] ، ولا أتقوت هبيدة[١٢] ، فالبخصات وقعة[١٣] ، والركبات زلعة[١٤] ، والأطراف قفعة[١٥] ، والجسم مسلهم[١٦] ، والنظر مدرهم[١٧] ، أعشو وأعطش[١٨] ، وأضحى فأخفش[١٩] ، أسهل ظالعا[٢٠] ، وأحزن راكعا[٢١] ، فهل من آمر بمير[٢٢] ، أوداع بخير ؟ وقاكم الله سطوة القادرة ، وملكة الكاهر[٢٣] ، وسوء الموارد ، وفضوح المصادر[٢٤] » .

وهذا النوع من الكلام كثير أيضا . فلا نشغل أنفسنا بايراد الشواهد . ولنذكر أننا نفترض أن بديع الزمان اقتبس هذا المنهج فى مقاماته ، فان صاحبه أبا الفتح الاسكندرى يسأل الناس فى المساجد والأسواق على هذا المنوال . وهذه الطريقة فى الاستجداء لا تزال معروفة : ففى مصايف القرى المصرية وأسواقها يشهد الأغنياء أفواجا من السائلين يتوسلون اليهم برقٍّ من الكلام المسجوع : بعضه فى المدح و بعضه فى الدعاء .

ولنقيد أيضا أن ما روى فى سجع العفاة يرجع الى بابين : باب تغلب فيه الصنعة حتى لتميل النفس لنسبته الى صانعى الأخبار والأقاصيص ، كالكلمة التى نقلناها آنفا ، فان أغلب الظن أنها من وضع بعض اللغويين .

---

(١) التحبت اللحم : عرقته عن العظم . (٢) أجحنت العظم عوّجته وصيرته كالمحجن . (٣) المور : الذى يذهب و يجىء . (٤) الغور : الغائر . (٥) أوزاع : فرق . (٦) النبط الماء الذى يستخرج من البئر أول ما تحفر والقعاع الماء المالح المر . (٧) الضهل القليل من الماء ، والجراع أشد المياه مرارة . (٨) الجعجاع : الذى لا يطمئن من قعد عليه . (٩) الهاوى : الجراد . (١٠) العاوى : الذئب . (١١) الوصيدة : كل منسوج . (١٢) الهبيدة : حب الحنظل . (١٣) البخصات جمع بخصة وهى لحم باطن القدم ، والوقعة من قولهم وقع الرجل اذا اشتكى لحم باطن قدمه . (١٤) زلعة : متشققة . (١٥) قفعة : مقفعة وهى التى تقبضت و يبست . (١٦) مسلهم : مدبر . (١٧) المدرهم : الضعيف البصر الذى ضعف بصره من جوع أو مرض . (١٨) أعشو : أنظر ، وأعطش أى أصير عطشا ، والعطش ضعف فى البصر . (١٩) الخفش : فساد فى الجفون . (٢٠) يقول : اذا مشيت فى السهول طلعت أى عمزت . (٢١) أى اذا علا الحزن ركع وكبا لوجهه . (٢٢) المير : العطية . (٢٣) القاهر والكاهر واحد ، وقرأ بعضهم «فأما اليتيم فلا تكهر» . (٢٤) راجع هذه القطعة وشرحها فى الأمالى ج ١ ص ١١٣ — ١١٦ طبع بولاق .

وباب تغلب عليه الفطرة كالأسجاع التى يفيض بها المعتفون حين تقع بينهم وبين من يسألونهم مراجعة أو ملاحاة . من ذلك ما روى أن أعرابيا وقف يسأل فعبث به فتى فقال : ممن أنت ؟ فقال الأعرابى : من صعصعة . فقال الفتى : من أيهم ؟ فقال : إن كنت أردت عاطفة القرابة فليكفك هذا المقدار من المعرفة : فليس مقامى مقام مجادلة ولا مفاخرة . وأنا أقول : فان لم أكن من هاماتهم، فلست من أعجازهم . فقال الفتى : ما رويت من فضيلتك إلا النقص فى حسبك . فامتعض الأعرابى لذلك . فجعل الفتى يعتذر ويخلط الهزل والدعابة باعتذاره ، وأطال الكلام ، فقال له الأعرابى : "يا هذا إنك منذ اليوم آذيتنى بمزحك ، وقطعتنى عن مسألتى بكلامك واعتذارك ، وإنك لتكشف عن جهلك بكلامك ما كان السكوت يستره من أمرك . ويحك ! إن الجاهل إن مزح أسخط ، وإن اعتذر أفرط ، وإن حدث أسقط ، وإن قدر تسلط ، وإن عزم على أمر تورّط ، وإن جلس مجلس الوقار تبسط . أعوذ بالله منك ، ومن حال اضطرتنى الى مثلك ! "[1] .

ووقف أعرابى على قوم فمنعوه فقال :

"اللهم اشغلنا بذكرك ، وأعذنا من سخطك ، وأولجنا الى عفوك ، فقد ضنّ خلقك برزقك ، فلا تشغلنا بما عندهم عن طلب ما عندك ، وآتنا من الدنيا القنعان[2] . وإن كان كثيرها يسخطك ، فلا خير فيما يسخطك "[3] .

---

(١) زهر الآداب ص ٢٤٧ و ٢٤٨ ج ٢ (٢) القنعان : القناعة . (٣) البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٢٤ — وبمناسبة هذا الدعاء نذكر أن الأعراب رويت لهم دعوات كثيرة مسجوعة ، منها قول أحدهم عشية عرفة : "اللهم إن هذه العشية من عشايا منحتك ، وأحد أيام زلفتك ... أتتك الضوامر من الفج العميق ، وجابت اليك المهارق من شعب المضيق ، ترجو مالا خلف له من وعدك ، ولا متّرك له من عظيم أجرك ، أبرزت إليك وجوهها المصونة ، صابرة على لفح السمائم ، وبرد ليل التمائم ، ليدركوا بذلك رضوانك" ثم قال : «الهى ! إن كنت مددت يدى إليك داعيا ، فطالما كفيتنى ساهيا ، نعمتك تظاهرها علىّ عند الغفلة ، فكيف أيأس منها عند الرجعة ... فهب لى ، يارب ، الصلاح فى الولد ، والأمن فى البلد ، وعافنى من شر الحسد ، ومن شر الدهر النكد» راجع الأمالى ص ٣٢٣ ج ٢

ولا يغض من قيمة هذه الأسجاع أن يظن أنها موضوعة ، فقد أشرنا غير مرة إلى أن الواضعين يراعون الذوق المعروف عند اختراع الأحاديث .

وأظرف ما قرأت فى سؤال الأعراب هذه الكلمات :

" أين الوجوه الصِّباح ، والعقول الصحاح ، والألسن الفِصاح ، والأنساب الصُّراح ، والمكارم الرباح ، والصدور الفِساح ، تعيذنى من مقامى هذا[١] " .

١٢ — وأصرح من كل ما سلف فى إيثار السجع ما قاله عبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشى وقد سئل : " لِم تؤثر السجع على المنثور وتلزم نفسك القوافى وإقامة الوزن ؟ » فأجاب : « إن كلامى لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافى عليك . ولكنى أريد الغائب والحاضر ، والراهن والغابر ، فالحفظ اليه أسرع ، والآذن لسماعه أنشط ، وهو أحق بالتقييد وبقلة التفلت ، وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون ، فلم يُحفَظ من المنثور عشره ، ولا ضاع من الموزون عشره[٢] " .

وهو جواب صريح الدلالة على أن الكلام المسجوع كان ينظر اليه نظرة تقدير وإعجاب ، وأنه خليق بأن يحفظ ويروى ، وأن الكلام المنثور الخالى من الوزن والقافية يراد به فى الأغلب إقناع المخاطبين . أما التفكير فى الحاضرين والغائبين فيوجب كلاما مصنوعا يستأهل البقاء ، وكانت الصنعة أظهر ما تكون فى القوافى والأوزان .

وفى هذا الكلام أيضا دلالة صريحة على أن النثر المرسل لم يحفظ منه إلا قليل . أما النثر المسجوع فحفظ معظمه بفضل الوزن والقافية[٣] . والأمر كذلك ، فيما نظن ، فى سائر اللغات : لأنه يرجع إلى طبيعة يتساوى فيها جميع الناس .

---

(١) البيان ص ٢٣٢ ج ٣ (٢) البيان ص ١٥٨ ج ١ — وعبد الصمد هذا من رجال القرن الثانى وله كلام طريف مع شبيب بن شبة يحدد القارئ ، فى الصناعتين (ص ٣٥٠) وسيرد له ذكر فى كلام الجاحظ بعد صفحات من هذا الفصل فى الدفاع عن السجع . (٣) كلمة الرقاشى تدل على أن النثر الموزون لم يضع عشره ، فالشعر من باب أولى لم يضع منه إلا قليل ؛ أى أن معظمه كان موجودا عند أهل القرن الثانى .

ولنشر هنا الى خطأ وقع فيه صاحب (الريحان والريعان) فيما نقله عنه القلقشندى فى صبح الأعشى — ج ١ ص ٢١٠ — إذ قال : « إن ما تكلمت به العرب من أهل المدر والوبر من جيد المنثور ومزدوج الكلام أكثر مما تكلمت به من الموزون إلا أنه لم يحفظ من المنثور عشره ولا ضاع من الموزون عشره » ثم مضى فبين أن المنثور هو الخطب وأن الموزون هو الشعر . وانما كان هذا خطأ لأنه استمد على كلمة الرقاشى وأساء فهمها ، فان كلمة الرقاشى كانت جوابا على من سأله كيف يترك الكلام المرسل ويؤثر الكلام المسجوع . ولا ننس أن المنثور والمزدوج من ضروب النثر الفنى . فصاحب « الريحان والريعان » على هذا أخطأ مرتين حيث فهم كلام الرقاشى على غير وجهه وحيث ظن أن المنثور والمزدوج مقصور على كلام الخطباء .

١٣ — عرفنا إلى الآن أن السجع كان كثيرا فى الجاهلية،وكان يغلب على النثر فى عصر النبوة، ثم أخذ سلطانه يضعف قليلا فى العصر الأموى، وإن حرص عليه القصاص والخطباء وناقلو أحاديث الأعراب، فلنذكر الآن أنه عاد يسترد قوته فى أواخر القرن الثانى وبدأنا نرى رسائل يكاد يلتزم فيها السجع . كقول كلثوم بن عمرو العتابى فى مخاطبة صديق[(١)] :

"أما بعد — أطال الله بقاءك وجعله يمتد بك الى رضوانه فى الجنة — فانك كنت عندنا روضة من رياض الكرم تبتهج النفوس بها، وتستريح القلوب إليها، وكنا نعفيها من النجعة : استتماما لزهرتها، وشفقة على خضرتها، وآدخارا لثمرتها، حتى أصابتنا سنة كانت عندى قطعة من سنى يوسف، وآشتد علينا كلبها، وغابت قطتها، وكذبتنا غيومها، وأخلفتنا بروقها، وفقدنا صالح الإخوان فيها، فآنتجعتك وأنا بآنتجاعى إياك شديد الشفقة عليك . مع علمى بأنك موضع الرائد، وأنك تغطى عين الحاسد . والله أعلم أنى ما أعدك إلا فى حومة الأهل. وآعلم أن الكريم اذا آستحيا من إعطاء القليل، ولم يمكنه الكثير، لم يعرف جوده، ولم تظهر همته".

والعتابى لا يقف عند السجع، بل يكلف أحيانا بالبديع ، وهو أدخل فى الصنعة من السجع، وآنظر قوله لمالك بن طوق :

"أيها الأمير ! إن عشيرك من أحسن عشرتك، وإن ابن عمك من عمك غيره ، وإن قريبك من قرب منك نفعه، وإن أحب الناس إليك، من كان أخفهم ثقلا عليك"[(٢)] .

١٤ — فاذا جاء القرن الثالث رأينا السجع يظهر فى الكتابة وفى التأليف، ورأينا أبا العيناء، مثلا، يؤلف كتابا فى ذم أحمد بن الخصيب يحكى فيه أن جماعة من الفضلاء آجتمعوا فى مجلس وكل منهم يكره آبن الخصيب لما كان فيه من الفدامة والجهالة والتغفل، فتجاذبوا أطراف الملح فى ذمه فقال أحدهم — وهنا يبدأ الشاهد — : كان جهله غامرا لعقله، وسفهه قاهرا لحلمه . وقال آخر : لوكان دابة لتقاعس فى عنانه، وحرن فى ميدانه . وقال

(١) الأمالى ج ٢ ص ١٣٦ (٢) ياقوت ج ٦ ص ٢١٤ وانظر (الصناعتين) ص ٢٥٢

آخر : كنت اذا وقع لفظه فى سمعى، أحسست النقصان فى عقلى . وقال بعض كتابه : كنت أرى قلم ابن الخصيب ، يكتب بما لا يصيب، ولو نطق لنطق بنوك عجيب[1] .

وأظهر من هذا فى إقامة الشاهد قول ابن المعتز يمدح سر من رأى و يصف خرابها ويذم بغـــداد :

"كتبت من بلدة قد أنهض الله سكانها ، وأقعد حيطانها : فشاهد اليأس فيهـا ينطق وحبل الرجاء فيها يتقصر، فكأن عمرانها يطوى وخرابها ينشر ، وقد تمزقت بأهلها الديار، فما يجب فيها حق جوار ، فمـا لها تصف للعيون الشكوى ، وتشير إلى ذم الدنيا، على أنها وإن جفيت معشوقة السكنى ، رجية المثوى ، كوكبها يقظان ، وجوها عريان، وحصباؤها جوهر، ونسيمها معطر، وترابها أذفر ، ويومها غداة وليلها سحر، وطعامها هنىء ، وشرابهـا مرىء ، لا كبلدتكم الوسخة السماء، الومدة المـاء والهواء، جوها غبار ، وأرضها خبار ، وماؤها طين، وترابها سرجين، وحيطانها نزوز ، وتشرينهـا تموز، فكم فى شمسها من محترق، وفى ظلها من غرق . ضيقة الديار، وسيئة الجوار، أهلها ذئاب ، وكلامهم سباب، وسائلهم محروم، ومالهم مكتوم : لا يجوز إنفاقه، ولا يحل خناقه . حشوشهم مسابل، وطرقهم مزابل، وحيطانهم أخصاص، وبيوتهم أقفاص، ولكل مكروه أجل ، وللبقاع دول، والدهر يسير بالمقيم، ويمزج البؤس بالنعيم"[2] .

ولابن المعتز من كلمة ثانية يغلب عليها السجع والازدواج :

" لا يزال الاخوان يسافرون فى المودة حتى يبلغوا الشقة، فاذا بلغوا ألقوا عصا التسيار، واطمأنت بهـم الدار ، وأقبلت وفود النصائح ، وأمنت خبايا الضمائر، حلوا عقـد التحفظ، ونزعوا ملابس التخلق" .

وقال من كلمة ثالثة :

"سار فى جيوش عليهم أردية السيوف، وأقمصة الحديد، وكأن رماحهم قرون الوعول ،

---

(١) ياقوت ج ٧ ص ٦٩ (٢) معجم البلدان ج ٢ ص ٢٤٢

وكأن دروعهم زبد السيول ، على خيل تأكل الأرض بحوافرها ، وتمدّ بالنقع سرادقها ، قد نشرت فى وجوهها غرر كأنها صحائف الرق ، وأمسكها تحجيل كأنه أسورة اللجين ، وقرطت عذرا كأنها الشنف ، تتلقف الأعداء أوائله ، ولم تنهض أواخره ، قد صب عليهم وقار الصبر وهبت معهم ريح النصر"[1] .

وفى هذه الشواهد الثلاثة لكاتب واحد ما يدل على أن التزام السجع لم يغلب غلبة مطلقة ، كما سنرى عند كتاب القرن الرابع ، وانما هى طلائع لهجوم السجع نراها عند كتاب القرن الثالث من حين إلى حين ، والفنون الأدبية لا تخلق مرة واحدة ، أو لا تبعث مرة واحدة ، ولكنها تأخذ فى الظهور والانتشار على نحو ما تفعل تباشير الصباح .

١٥ — ومن أظهر الدلائل على ذيوع بدعة السجع فى القرن الثالث ما رأيناه من حرص ابن داود على وضع عناوين الفصول مسجوعة فى كتاب الزهرة ، وفى هذا أصدق شاهد على أن السجع عاد فنا يؤلَف ويستطاب . وإلى القارئ نماذج من تلك العناوين :

"من كثرت لحظاته ، دامت حسراته — العقل عند الهوى أسير ، والشوق عليهما أمير — من تداوى بدائه ، لم يصل الى شفائه — ليس بلبيب ، من لم يصف ما به لطبيب — إذا صح الظفر ، وقعت الغِيَر — التذلل للحبيب ، من شيم الأديب — من طال سروره ، قصرت شهوره — من كان ظريفا ، فليكن عفيفا — سوء الظن ، من شدة الضن — من مُنع من كثير الوصال ، قنع بقليل النوال — بعد القلوب على قرب المزار ، أشد من بعد الديار من الديار — ما عتب من اغتفر ، ولا أذنب من اعتذر — إذا ظهر الغدر ، سهل الهجر — من راعه الفراق ، ملكه الاشتياق — ما خلق الفراق ، إلا لتعذيب العشاق — من غاب قرينه ، كثر حنينه — من قدم هواه ، قوى أساه" .

وأرى فى هذا الشاهد مقنعا لمن يتوهمون أن التزام السجع نشأ فجأة فى القرن الرابع ، ففى هذا الشاهد وحده دليل على أن من الممكن أن نرى كتابا مسجوعا لرجل من كتاب القرن

(١) زهر الآداب ج ١ ص ١٦٥

الثالث بدون أن يكون فى ذلك ما يحملنا على زحزحته إلى خطيرة القرن الرابع؛ كما فعل بعض الناس [١] .

ولنقيد هنا أن السجع فى عناوين فصول الكتاب الذى شرعه ابن داود — وقد يكون سُبق اليه — هو أصل السجع فى عناوين الكتب، وهو فن يجده المطالع فى العصور التالية، حتى لنجد عهوداً بأكملها يطرد فيها السجع فى العناوين . ومن أغرب ما رأيته أن كتاب (من غاب عنه المطرب) للثعالبى كتب كاتبه على أصله ما نصه :

"كان ينبغى للمؤلف رحمه الله أن يلحق اسم هذا الكتاب بلفظة وهو أن يقول : كتاب المعرب. فيمن غاب عنه المطرب" .

وكانت عناوين الرسائل الخاصة توضع أحيانا مسجوعة، ومن أقربها إلى الفكاهة هذا العنوان :

"الى المخالف الشاق، السيئ الأخلاق، الظاهر النفاق، محمد بن إسحاق" [٢] .

وقد سرى هذا الفن إلى عصرنا الحاضر مع ما أفرطنا فى الدعوة الى ترك السجع : فللأمير شكيب أرسلان كتاب حديث جدا نشره أوّلا فى جريدة الشورى واسمه :

"الارتسامات اللطاف، فى خاطر الحاج الى أقدس مطاف" [٣] .

١٦ — وقد حذا حذو ابن داود فى سجع فصول الكتاب مؤلف آخر عاش فى النصف الثانى من القرن الثالث وعاش صدرا من القرن الرابع وهو محمد بن أحمد بن إسحاق المعروف بالوشّاء، وإلى القارئ نماذج من سجعه فى عناوين الفصول :

---

(١) جاء فى كتاب (ضحى الاسلام) للأستاذ أحمد أمين ما نصه : "ونحن نعلم أن هذا العصر — عصر الجاحظ — لم يتكلف فيه سجع، ولم تؤلف فيه كتب مسجوعة كلها، وإن تكلف فيه سجع فقرة أو فقرتان، فأما كتاب كله سجع فهذا ما لا نعرفه فى هذا العصر" راجع ص ٢٢٦ ج ١

ودراستنا لأطوار السجع تقنعنا بأن حكم الأستاذ غير صحيح، وأنه لا مانع أن توجد فى القرن الثالث مؤلفات مسجوعة؛ لأن السجع بدأ يكثر فى هذا القرن حتى فى لغة التأليف كما فى الفقرات التى نقلناها عن أبى العيناء، ولأن القرن الرابع كثرت فيه المؤلفات المسجوعة ثم شاعت بدعة السجع فى التأليف فى القرن الخامس . ومن المعقول أن يكون لطغيان السجع فى التأليف بواكير ظهرت فى القرن الثالث . (٢) ياقوت ص ٢٥٢ ج ٦ (٣) وأظرف من هذا ما يصنع المستشرقون فى عناوين ما يطبعون من المصنفات : فقد سمى فلوجل كتابه فى فهرس الألفاظ القرآنية :

"نجوم الفرقان، فى أطراف القرآن"

"باب النهى عن ممازحة الأخلاء، والنهى عن مفاكهة الأوداء — باب الحث على صحبة الاخوان ، والإغراء على مودة الخلان ، والرغبة فى أهل الصلاح والإيمان — باب ما جاء فى قبح خلف المواعيد، وما يلحق صاحبه من اللوم والتفنيد — باب الحث على كتمان السر، والترغيب فى حفظ ماحنت عليه ضلوع الصدر — باب ماسئل عنه أهل الصدق، من تمام خلات العشق — باب صفة ذم القيان ، ونفوذ حيلتهن فى الفتيان — باب زى الظراف، فى التكك والنعال والخفاف — باب زيهم المخصوص، فى الخواتيم والفصوص[١] —" .

والقارئ يرى هذا السجع فى العناوين أقل جودة من سجع ابن داود .

وأهم من هذا وأدل على الغرض ما رأينا من إيثار هذا المؤلف للسجع فى كثير من مواد كتاب "الموشى" وفى هذا دليل واضح على أن السجع دخل فى لغة التأليف عند كتاب القرن الثالث . وانظر قوله فى وصف الأديب :

"فحقيق على الأديب أن يخزن لسانه عن نطقه، ولا يرسله فى غير حقه، وأن ينطق بعلم، وينصت بحلم، ولا يعجل فى الجواب، ولا يهجم على الخطاب، وإن رأى أحدا هو أعلم منه، نصت لاستماع الفائدة عنه، وتحذر من الزلل والسقط، وتحفظ من العيوب والغلط، ولم يتكلم فيما لا يعلم، ولم يناظر فيما لا يفهم، فانه ربما أخرجه ذلك الى الانقطاع والاضطراب، وكان فيه نقصه عند ذوى الألباب[٢]" .

وحدثنا هذا المؤلف عما كان ينقش على الخواتم والفصوص فرأيناه أسجاعا فى أسجاع !

فما كان ينقشه أهل الحزم على خواتيمهم :

"القناعة، خير من الضراعة — التقالل، خير من التذلل — السلامة، خير من الندامة — بادر الفرصة ، قبل أن تكون الغصة — الهرب، قبل الطلب — الفرار، قبل الحصار — الرجوع، قبل الوقوع[٣] —" .

---

(١) راجع فهرس الموشى . (٢) الموشى ص ٨ (٣) ص ١٦٣

ومما كان ينقشه أهل الهوى على الفصوص :

"الحين، خير من البين — القبر، أفسح من الهجر — الموت، خير من الفوت — كأس الهجر، أمر من الصبر — طول الجفاء، يكدر الصفاء — آفة الحبيب، نظر الرقيب — الهوى، ثوب الضنى — ذهب الفراق، بحيلة العشاق"(١) .

فهذا "الخرق" من التكلف بالسجع فى الرسائل والمؤلفات وأحاديث الناس كان تمهيدا لما سنراه من التزام السجع فى القرن الرابع . ولا ننس أن أكثر ما كان يكتب فى الغزل والوصف والهجاء وقع فى الاكثر مسجوعا، كأن السجع هو الفن الملائم للموضوعات التى كانت فى الأصل مما يتحدث عنه الشعراء، والسجع فيه خواص من الشعر، أظهرها الوزن والتقفية، و إن كان يحتاج إلى رياضة نفسية تبعد بعض البعد عن الرياضة التى يوجبها القريض .

ولا ينبغى أن نستبعد — كما استبعد الأستاذ أحمد أمين — أن توجد مؤلفات مسجوعة فى القرن الثالث ، فان عصرنا الحاضر ينكر السجع على المؤلفين أشد الإنكار، ويراه ضربا من التكلف الممقوت ، ومع هذا وجدت فى عصرنا مؤلفات مسجوعة مثل (صهاريج اللؤلؤ) و (حديث عيسى بن هشام) وأبواب من (ليالى سطيح) ولا يزال عندنا كتاب مطبوعون على السجع، لايتحامونه إلا كارهين، ليسايروا الذوق الحديث . ومن هذا يتبين أن الصبغة الفنية التى تغلب فى بعض العصور لا تسود سيادة مطلقة وانما تعيش بجانبها مذاهب تناقضها بعض المناقضة وترفع رأسها فى غير خوف ولا إشفاق . ولولا ما صنعت الصحافة فى رياضة الكتّاب المعاصرين على تجنب السجع والطباق والجناس لبقيت من البديع فنون تسيطر على أكثر الكتّاب.

١٧ — ولنأخذ فى محاولة أخرى جزيلة النفع ، وهى درس آراء علماء البيان الذين تكلموا عن السجع، ففى كلامهم تحديد لأهمية السجع فى البلاغة العربية . ولنبدأ بالجاحظ، وهو كاتب لا يسجع إلا قليلا ، ولكنه يرى السجع من خصائص لغة العرب . وانظر قوله فى الرد على الشعوبية :

(١) ص ١٦٤

"ونحن — أبقاك الله ! — إذا آدعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز، ومن المنثور والأسجاع، ومن المزدوج وما لا يزدوج [١] ، فمعنا العلم على أن ذلك لهم شاهد صدق من الديباجة الكريمة والرونق العجيب ، والسبك والنحت الذى لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم فى البيان أن يقول مثل ذلك إلا فى اليسير والنبذ القليل [٢]" .

ونراه يخص الأسجاع بأبواب من كتابه (البيان والتبين) فيتخير من بدائعها فرائد بعضها تليد و بعضها طريف، فيقول :

قال عمر بن ذر : (والله المستعان على ألسنة تصف ، وقلوب تعرف، وأعمال تخالف) ولما مدح عتيبة بن مرداس عبد الله بن عباس قال : (لا أعطى من يعصى الرحمن ، و يطيع الشيطان، ويقول البهتان) وفى الحديث المأثور : (يقول العبد : مالى ! وانما لك من مالك ما أكلت فأفنيت، أو أعطيت فأمضيت، أو لبست فأبليت) ووصف أعرابى رجلا فقال : (صغير القدر، قصير الشبر، ضيق الصدر، لئيم النجر [٣] ، عظيم الكبر، كثير الفخر) وسأل بعض الأمراء رسولا قدم من جهة السند : كيف رأيتم البلاد ؟ فقال : (ماؤها وشل، ولصها بطل، وتمرها دقل [٤] ، إن كثر الجند بها جاعوا، و إن قلوا بها ضاعوا) ونظر رجل من العُبّاد الى باب بعض الملوك فقال : (باب جديد، وموت عتيد، ونزع شديد، وسفر بعيد) وقيل لبعض العرب : أى شىء تمنى وأى شىء أحب اليك ؟ فقال : (لواء منشور، والجلوس على السرير، والسلام عليك أيها الأمير!) وقيل لآخر — وصلى ركعتين وأطال فيهما وقد كان أُمر بقتله — :

(١) المزدوج فى كلام الجاحظ باب من السجع فانا نراه فى كتاب البيان يعقد بابا لمزدوج الكلام — ص ٥٨ و ٩٥ ج ٢ — يستشهد فيه بأمثال هذه الكلمات : " اللهم علمه الحساب والكتاب ، وقه العذاب " وقال رجل من بنى أسد لشيخ مات ابنه : " اصبر ، أبا أمامة ، فانه فرط أفرطته ، وخير قدّمته ، وذخر ادّخرته " فقال مجيبا له : " ولد دفنته ، وثكل تعجلته ، وغيب وتدته " وكان مالك بن الأخطل قد بعثه أبوه يسمع شعر جرير والفرزدق فسأله أبوه عنهما فقال : "جرير يغرف من بحر، والفرزدق ينحت من صخر" .

وسنرى أن علماء البديع لا يشترطون القافية فى الازدواج ، وبها يتم السجع ، و إنما يشترطون أن تتفق الكلمات فى الوزن مثل " المستقيم " و " المستبين " .

(٢) ص ١٣ ج ٣ من البيان والتبين .

(٣) النجر : الأصل . (٤) الدقل : أردأ التمر .

من الموت ؟ فقال : (إن أجزع فقد أرى كفا مشورا، وسيفا مشهورا، وقبرا محفورا)[1] .

وعقد الجاحظ فصلا آخر للأسجاع جاء فيه :

ومن الأسجاع قول أيوب بن القرّية وقد كان دعى للكلام فحبس عليه القول : (قد طال السمر، وسقط القمر، وآشتد المطر، فماذا ينتظر ؟) فأجابه فتى من عبد القيس : (قد طال الأرق، وسقط الشفق، وكثر اللثق[2]، فلينطق من نطق)[3] .

ولم يقف الجاحظ عند رواية الجيد من الأسجاع ؛ بل أضاف الى ذلك الدفاع عنها ومناقشة من كرهوها ، فحدث أنه قيل لعبد الصمد بن الفضل : فقد قيل للذى قال : "يا رسول الله، أرأيت من لا شرب ولا أكل، ولا صاح فاستهلّ، أليس مثل ذلك يُطلّ" فقال رسول الله "أسجع كسجع الجاهلية"؟ فقال عبد الصمد : لو أن هذا المتكلم لم يرد إلا إقامة الوزن لما كان عليه بأس . ولكنه عسى أن يكون أراد إبطالا لحق فتشادق فى كلامه[4].

وقال غير عبد الصمد : وجدنا الشعر من القصيد والرجز قد سمعه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وآستحسنه وأمر به شعراءه، وعامة أصحاب رسول الله قد قالوا شعرا، قليلا كان ذلك أم كثيرا، وسمعوا وآستنشدوا ، فالسجع والمزدوج دون القصيد والرجز، فكيف يحل ما هو أكثر ويحرم ما هو أقل[4] .

قال الجاحظ : وكأن الذى كره الأسجاع بعينها — وان كانت دون الشعر فى التكلف والصنعة — أن كهان العرب الذين كان أكثر الجاهلية يتحاكمون إليهم ويدعون الكهانة وأن مع كل واحد منهم رئيًا من الجن مثل (حاذى جهينة) ومثل (شق) و(سطيح) و(عزى سلمة) وأشباههم كانوا يتكهنون ويحكمون بالأسجاع، كقوله (والأرض والسماء، والعقاب والصقعاء[5]، واقعة ببقعاء[6]، لقد نفر المجد بنى العشراء، للمجد والسناء) وهذا الباب كثير، ألا ترى

---

(١) البيان ج ١ ص ١٥٧ (٢) اللثق : الندى . (٣) البيان ج ١ ص ١٦٣ .
(٤) البيان ج ١ ص ١٥٨ (٥) الصقعاء : الشمس . (٦) البقعاء : السنة المجدبة .

أن ضمرة بن ضمرة وهرم بن قطبة والأقرع بن حابس ونفيل بن عبد العزى كانوا يحكمون وينفرون بالأسجاع وكذلك ربيعة بن حذار . قالوا : فوقع النهى فى ذلك لقرب عهدهم بالجاهلية ولبقيتها فيهم وفى صدور كثير منهم . فلما زالت العلة زال التحريم .(١)

ثم قال الجاحظ : وقد كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين فتكون فى تلك الخطب أسجاع كثيرة فلم ينهوا منهم أحدا . وكان الفضل بن عيسى الرقاشى سجاعا فى قصصه وكان عمرو بن عبيد وهشام بن حسان وأبان بن أبى عياش يأتون مجالسه(١) .

١٨ — ونستخلص من كلام الجاحظ ثلاث حقائق : الأولى أن السجع عنصر كريم فى بلاغة العرب، الثانية أن ناسا من أهل القرن الأول والثانى كرهوا السجع لأنه كان يذكّر بأساليب الكهان، الثالثة أن جمهور الخطباء والقصاص والوعاظ كان يسجع ، وأن الخلفاء لم ينكروا على أحد أن يتكلم بين أيديهم بكلام مسجوع .

ومن الواضح أن شبهة من كرهوا السجع ساقطة : لأن القرآن سجع . وما نظن الرسول تجنب أساليب الكهان ، فان الكهان لم يخلقوا السجع ، وإنما كان حلية قديمة فى اللغة العربية وكانت قوية الصلاحية لمن يخاطب القلوب . وكذلك انتفع بها القسيسون والكهان فى الجاهلية، وقبلها القرآن، وآثرها النبى وأصحابه، وظلت أثيرة لدى خطباء المساجد إلى اليوم . وهى فى الواقع أساس البلاغة عند رجال الدين .

١٩ — ومن الباحثين الذين فصلوا فى مسألة السجع الخفاجى فى كتابه " سر الفصاحة "(٢) وقد تكلم عن السجع فى غير موضع، وحدثنا " أن السجع الواقع موقعه كثير لمن طلبه "(٣) ونقل نموذجا من سجع الأحنف بن قيس ، وخطّأ الرمانى فى قوله إن السجع عيب والفواصل بلاغة على الاطلاق، لأن الرمانى إن أراد بالسجع مايكون تابعا للمعنى وكأنه غير مقصود فذلك بلاغة والفواصل مثله ، وإن كان يريد بالسجع ما تقع المعانى تابعة له وهو

(١) البيان ج ١ ص ١٥٩ (٢) كتاب مخطوط منه نسختان بدارالكتب المصرية رقم ٤٢٩ و ٤٤٢ بلاغة .

(٣) سر الفصاحة ص ٩٢

مقصود متكلَّف فذلك عيب؛ والفوصل مثله . وكما يعرض التكلف فى السجع عند طلب تماثل الحروف كذلك يعرض فى الفواصل عند طلب تقارب الحروف . وقال :

" أظن أن الذى دعا أصحابنا الى تسمية كل ما فى القرآن فواصل ولم يسموا ما تماثلت حروفه سجعا رغبتهم فى تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروى عن الكهنة وغيرهم . فأما الحقيقة فما ذكرناه : لأنه لا فرق بين مشاركة القرآن لغيره من الكلام فى كونه مسجوعا و بين مشاركة جميعه فى كونه عرضا وصوتا وحروفا وكلاما وعربيا ومؤلفا ... ولا فرق بين الفواصل التى تُماثل حروفها فى المقاطع وبين السجع . فان قال قائل : إذا كان عندكم أن السجع محمود فهلّا ورد القرآن كله مسجوعا ؟ وما الوجه فى ورود بعضه مسجوعا و بعضه غير مسجوع ؟ قيل إن القرآن أنزل بلغة العرب وعلى عرفهم وعاداتهم وكان الفصيح من كلامهم لا يكون كله مسجوعا لما فى ذلك من أمارات التكلف والاستكراه والتصنع سيما فيما يطول من الكلام . فلم يرد مسجوعا جريا به على عرفهم فى الطبقة العالية من كلامهم[1] " .

وأشار الخفاجى الى جماعة من زعماء الكتّاب فى القرن الثانى والثالث فبين أن السجع فيما وقف عليه من كلامهم قليل . " لكنهم لا يكادون يخلون بالمناسبة بين الألفاظ فى الفصول والمقاطع إلا فى اليسير من المواضع " .

ومعنى هذا أن الذين لم يلتزموا السجع من كتاب القرن الثانى والثالث كانوا يحرصون على على ألوان من الفن فى كتاباتهم . وتلك الألوان الفنية ظاهرة كل الظهور لمن يقرأ آثار أولئك الكتاب .

ولنضف الى ما أسلفناه من رأى الخفاجى أنه و إن كان يميل الى إيثار السجع حين يوجبه المعنى والغرض فانه يكره أن تجعل الرسالة كلها مسجوعة على حرف واحد : " لأن فى ذلك تعرضا للتكرار وميلا الى التكلف[1] " .

(١) ص ٩٤ — ٩٧

٢٠ — ولنوجه نظر القارئ الى حقيقتين فى كلام الخفاجى : أولاهما حكمه بأن القرآن "أنزل بلغة العرب وعلى عرفهم وعاداتهم" فان لهـذه الحقيقة عندنا أهمية خاصة إذ كانت تؤيد رأينـا فى أن القرآن من جنس كلام العـرب وعلى أساليبهم، ولا يمتاز إلا بقـوة المعنى وقوة الروح . وثانيتهما حكمه بأن الفصيح من كلام العرب لايكون كله مسجوعا لما فى ذلك من أمارات التكلف، فقـد رأينا شواهد ذلك فى كلام الرسول وخطب الصحابة والخلفـاء والقوّاد والوزراء . وأكثر ما رأيناه ينخرط فى سلك قول قطرىّ بن الفجاءة فى وصف الدنيا :

"من أقلّ منها آستكثر ممـا يؤمنه، ومن استكثر منها استكثر مما يو بقه، ويطيل حزنه، ويبكى عينه . كم واثق بها قد فجعته، وذى حلم تنبه اليها قد صرعته، وذى آحتيال فيها قد خدعته وكم ذى أبهة فيها قد صيرته حقيرا، وذى نخوة قد ردته ذليلا، ومن ذى تاج قد كبته لليدين والفم! سلطانها دول، وعيشها رنق، وعذبها أجاج، وحلوها صبر، وغذاؤها سمام، وأسـبابها رمام، وقطافها سلع ، حيها بعرض موت ، وصحيحها بعرض سقم ، ومنيعها بعرض آهتضام ، ملكها مسلوب، وعزيزها مغلوب، وسليمها منكوب، وجارها محروب، مع أن وراء ذلك سكرات الموت ، وهول المطّلع ، والوقوف بين يدى الحكم العدل"(١) .

وقول خطيب من آل صوحان يعارض عبد الملك وقد أغلظ القول :

"مهلا مهلا يابنى مروان ! تأمرون ولا تأتمرون، وتنهون ولا تنتهون، وتعظون ولا تتعظون ! ! أفنقتدى بسيرتكم فى أنفسكم، أم نطيع أمركم بألسنتكم؟ فان قلتم : اقتدوا بسيرتنا، فأنّى وكيف؟ وما الحجة وما المصير إلى الله؟ أنقتدى بسيرة الظلمة الفسقة الجورة الخونة، الذين اتخـذوا مال الله دولا، وعبيده خولا؟ و إن قلتم اسمعوا نصيحتنا ، وأطيعوا أمرنا، فكيف ينصح لغيره من يغش نفسه؟ أم كيف تجب الطاعة لمن لم تثبت عند الله عدالته؟ وإن قلتم : خذوا الحكمة من حيث وجدتموها ، وآقبلوا العظة ممن سمعتموها ، فعـلام وليناكم أمرنا ، وحكمناكم فى دمائنا وأموالنـا ؟ أما علمتم أن فينا من هو أنطق منكم باللغات ، وأفصح

(١) صبح الأعشى ج ١ ص ٢٢٤

بالعظات؟ فتخلوا عنها، وأطلقوا عقالها، وخلوا سبيلها، ينتدب اليها آل رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين شردتموهم فى البلاد، ومزقتموهم فى كل واد، بل تثبت فى أيديكم لانقضاء المدة، وبلوغ المهلة، وعظم الحنة. إن لكل قائم قدرا لا يعدوه، ويوما لا يخطوه، وكتابا بعده يتلوه".

ففى هذا الشاهد والذى قبله سجع مقبول جدا، ولكنه لا يلتزم، وإنما يرد من فقرة الى فقرة بلا قلق ولا التواء. وقد يكون الشاهد الثانى من وضع بعض العلويين: لأن راويه يذكر أن الخطيب "التمس فلم يوجد" ومن العسير أن يحفظ كلام ألقاه صاحبه فى فورة غضب وفى مقارعة ملك ثم لاذ بالفرار. ولكن القارئ مرجو أن يتذكر ما أسلفناه من قبل من أن الرواة كانوا — حين يضعون كلاما — يجتهدون فى محاكاة لغة العصور التى ينسبون اليها ما يضعون من خطب وأحاديث[1].

٢١ — وممن دافعوا عن السجع أبو هلال العسكرى فى كتاب (الصناعتين) ويمتاز أبو هلال فى كتابه بالحرص على ردّ أصول المحسنات البديعية الى القرآن، ومن أمثلة ذلك مارواه من الشواهد فى باب (التجنيس) من مثل:

"وأسلمت مع سليمان — فأقم وجهك للدين القيم — تتقلب فيه القلوب والأبصار — والتفّت الساق بالساق، الى ربك يومئذ المساق — وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض — ثم كلى من كل الثمرات"[2] وعرض أبو هلال للشاهد الذى عرض له الرقاشى فيما نقل الجاحظ، ووقف عند قوله عليه السلام "أسجعا كسجع الكهان" وعلل الاستنكار بما عرف فى سجع الكهان من التكلف، ثم قال: "ولو كرهه عليه الصلاة والسلام لكونه

---

(١) ومن السجع المقبول عند خطباء القرن الأول قول زياد:

"ان للشيطان طيفا، وللسلطان سيفا، فمن سقمت سريرته، صحت عقوبته، ومن وضعه ذنبه، رفعه صلبه، ومن لم تسعه العافية، لم تضق عنه الهلكة، ومن سبقته بادرة فمه، سبق بدنه بسفك دمه، إنى أنذر، ثم لا أنظر، وأحذر، ثم لا أعذر" صبح الأعشى ص ٢٢٠ ج ١ (٢) ص ٢٥١

سجعا لقال : أسجعا ؟ ثم سكت . وكيف يذمه ويكرهه وإذا سلم من التكلف وبرئ من التعسف لم يكن فى جميع صنوف الكلام أحسن منه" (١) .

ويحدثنا أبو هلال أن النبىّ كان ربما غير الكلمة عن وجهها للموازنة بين الألفاظ وإتباع الكلمة أخواتها كقوله : "أعيذه من الهامة والسامة، وكل عين لامة" وإنما أراد ؟ ملمة . وقوله عليه السلام : "ارجعن مأزورات، غير مأجورات" وإنما أراد : موزورات، من الوزر، فقال (مأزورات) لمكان (مأجورات) قصدا للتوازن وصحة التسجيع (٢) .

٢٢ — وشدّد أبو هلال فى الحرص على الازدواج . وهو فن ظاهر فى كلام من لا يلتزمون السجع من أقطاب القرن الأوّل والثانى والثالث، ومن أمثلة الازدواج قول بعضهم :

" أصبر على حر اللقاء، ومضض النزال، وشدّة المصاع (٣)، ومداومة المراس " .

فلو قال : (على حر الحرب، ومضض المنازلة) لبطل رونق التوازن (٤) .

---

(١) ص ٢٠٠ (٢) الموازنة التى عنى بها أبو هلال كانت مما عرض له الحريرى فى (درة الغواص) وكلام الحريرى هناك أظهر فى الدلالة على أن الموازنة فن أصيل فى العربيــة تغير به الكلمات من وضع إلى وضع رغبة فى الوزن : فهم يقولون (حدث وقدم) فيضمون الدال من (حدث) لتوازن (قدم) فاذا أفردوها فتحوا الدال، و يقولون " الغـدايا والعشايا " إذا قرنوا بينهما فان أفردوا (الغدايا) ردوها إلى أصلها فقالوا الغدوات . و يقولون (هنأنى الشيء ومرأنى) فان أفردوا (مرأنى) قالوا أمرأنى . وقالوا : "فعلت به ما ساءه وناءه" فان أفردوا قالوا (أناءه) وقالوا فى الشجاع الذى لا يزايل مكانه " أهيس أليس " والأصـل فى الأهيس الأهوس لاشتقاقه من هاس يهوس اذا دق فعدلوا به الى الياء ليوافق لفظة (أليس) وفى الحـديث من " حمنا أو رفنا فليقتصر " أى من خدمنا أو أطعمنا . وكان الأصـل أتحفنا فأتبع حفنا رفنا . و يروى فى قضايا علىّ أنه قضى فى القارصـة والقامصة والواقصة بالدية، والواقصة هى الموقوصة وانما قال الواقصة للموازنة مع القارصة والقامصة . وأنشد القراء :

هناك أخبيــة ولاج أبو بــة

بجمع باب على أبوبة ليزاوج لفظة أخبية (راجع درة الغواص ص ٣٠ و ٣١ وراجع الشرح ص ٧٩ — ٨٣) والازدواج كثير الوقوع فى اللغة العربية وله شواهد عديدة، فلنكتف بهذه الأمثلة فى الدلالة على ذوق العرب فى هندسة الألفاظ والتعابير . ومن طريف التوافق أن اللغة العامية تساير اللغة الفصيحة فى هذا الباب . سمعت مرة تلميـذة تقول وهى تململ : "النجوح زىّ السقوط" نقلت "النجاح" الى "النجوح" ليوازن "السقوط" وأحسب أن ذلك جرى على لسانها بدون أن تقصد اليه، لأن حاسة الموازنة بين الكلمات تأصلت عند الناطقين بالضاد .

(٣) المصاع : القتال . (٤) ص ٢٠٣

وقد يتفق السجع والازدواج مثل :

" حتى صار تعريضك تصريحا، وتمريضك تصحيحا " .

فالتعريض والتمريض سجع ، والتصريح والتصحيح سجع آخر : فهو سجع فى سجع .

قال أبو هلال : وهذا الجنس إذا سلم من الاستكراه فهو أحسن وجوه السجع (١) .

ويحدثنا أبو هلال أن العرب فتنوا بالسجع حتى استعملوه فى منظوم كلامهم ، وصار ذلك الجنس من الكلام منظوما فى منظوم وسجعا فى سجع ، وهذا النوع من الشعر اسمه "المرصّع" ومن أمثلته :

فتور القيام قطيع الكلا م يفتر عن ذى غروب خصر

وقول كعب بن زهير :

* هيفاء مقبلةً عجزاء مدبرةً *

وقول أوس :

جُشًّا حناجرها عُلما مشافرها *

وقول النمر :

* من صَوْب سارية عُلَّت بغادية *

وقول تأبط شرا :

حمال ألوية شهاد أندية هباط أدوية جوّاب آفاق

وقول الأفوه الأزدى :

* سود غدائرها بُلج محاجرها *

وقول عامر بن الطفيل :

ولكنى أحمى حماها ، وأتقى أذاها، وأرمى من رماها بمنكب

وقد ارتقى أبو هلال بالترصيع الى العصر الجاهلى وصدر الإسلام فدلنا على أنه فن قديم انتُزع من النثر وأضيف الى الشعر رغبة فى وفرة الأنغام والألحان .

(١) ص ٢٠٢

٢٣ — ومن أظهر من آهتموا بالكلام عن السجع صاحب (المثل السائر) وهو يمتاز عمن سبقوه الى الدفاع عن السجع بأنه عاش فى عصر كان أهله جميعا يسجعون[١] . وهو يتهم خصوم السجع بالعجز عن أن يأتوا به "وإلا فلو كان مذموما لما ورد فى القرآن الكريم فانه قد أتى منه بالكثير حتى أنه ليؤتى بالسورة جميعها مسجوعة كسورة الرحمن وسورة القمر وغيرها . وبالجملة فلم تخل منه سورة من السور"[٢] ثم سرد أمثلة من الآيات المسجوعة . وآنتقل الى الحديث فذكر شواهد من سجع الرسول . ثم تحدّث عن نهى النبي عن سجع الكهان بمثل ما تحدّث به صاحب الصناعتين ثم قال :

"وآعلم أن الأصل فى السجع إنما هو الاعتدال فى مقاطع الكلام ، والاعتدال مطلوب فى جميع الأشياء ، والنفس تميل اليه بالطبع ، ومع هذا فليس الوقوف فى السجع عند الاعتدال فقط ولا عند تواطؤ الفواصل على حرف واحد ، إذ لو كان ذلك هو المراد من السجع لكان كل أديب من الأدباء سجاعا ، وما من أحد منهم ولو شدا شيئا يسيرا من الأدب إلا ويمكنه أن يؤلف ألفاظا مسجوعة ويأتى بها فى كلام ، بل ينبغى أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حادة طنانة رنانة ، لا غثة ولا باردة . وأعنى بقولى غثة وباردة أن صاحبها يصرف نظره الى السجع نفسه من غير نظر الى مفردات الألفاظ المسجوعة وما يشترط لها من الحسن ، ولا الى تركيبها وما يشترط له من الحسن ، وهو فى الذى يأتى به من الألفاظ المسجوعة كمن ينقش أثوابا من الكرسف أو ينظم عقدا من الخزف الملون . وهذا مقام تزل عنه الأقدام ولا يستطيعه إلا الواحد من أرباب هذا الفن بعد الواحد . ومن أجل ذلك كان أربابه قليلا ، فاذا صفى الكلام المسجوع من الغثاثة والبرد فان وراء ذلك مطلوبا آخر: وهو أن يكون اللفظ فيه تابعا للمعنى لا أن يكون المعنى فيه تابعا للفظ ، فانه يجىء عند ذلك كظاهر مموه ، على باطن مشوه ، ويكون مثله كغمد من ذهب ، على نصل من خشب"[٣] .

(١) ولد آبن الأثير سنة ٥٥٨ وتوفى سنة ٦٣٧ وهو نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى . وأبناء الأثير ثلاثة : مؤرخ ومحدّث وأديب ، وهو صاحب المثل السائر .

(٢) المثل السائر ص ١١٤

(٣) المثل السائر ص ١١٦ و ١١٧

وقد افترض ابن الأثير أن يقال : إذا كان السجع أعلى درجات الكلام فكان ينبغى أن يأتى القرآن كله مسجوعا، وليس الأمر كذلك، بل منه المسجوع وغير المسجوع .

وقال فى الجواب : " إن أكثر القرآن مسجوع حتى إن السورة لتأتى كلها مسجوعة . وما منع أن يأتى القرآن كله مسجوعا إلا أنه سلك به مسلك الإيجاز والاختصار . والسجع لا يؤاتى فى كل موضع من الكلام على حد الايجاز والاختصار، فترك استعماله فى جميع القرآن لهذا السبب" ثم قال : "وههنا وجه آخر هو أقوى من الاول ولذلك ثبت أن المسجوع من الكلام أفضل من غير المسجوع، وانما تضمن القرآن غير المسجوع لأن ورود غير المسجوع معجزا أبلغ فى باب الإعجاز[1] " .

ومعنى هذا أن السجع بعض أسرار الإعجاز عند ابن الأثير .

٢٤ — وحدثنا فى مكان آخر أنه تصفح القرآن فوجده " لا يكاد يخرج منه شىء عن السجع والموازنة[2] " والواقع أن الموازنة كثيرة فى القرآن، مثل : ﴿ وآتيناهما الكتاب المستبين، وهديناهما الصراط المستقيم ﴾ فالمستبين والمستقيم على وزن واحد . وكذلك قوله تعالى فى سورة مريم عليها السلام : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا ، كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا، ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا، فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا ﴾ . فالعز والضد على وزن واحد، والأز والعد على وزن واحد .

٢٥ — وكلام ابن الأثير يؤيد ما انتهينا اليه فى أثناء هذا الفصل من أن بناء الجملة لم يخرج فى جوهره عن السجع طوال القرن الثانى والثالث . والقرن الثالث يسميه صديقنا الأستاذ أحمد أمين (عصر الجاحظ) وينفى عنه السجع، مع أن الجاحظ يسجع ولا يخرج من السجع إلا إلى الازدواج، ومن كلامه فى وصف إفك الحاسد :

---

(١) ص ١١٨ هذا وقد عرض ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة إلى مناقشة من أنكروا السجع على علىّ بن أبى طالب و بيّن أن كثيرا من كلام الرسول مسجوع ، وعرض لسجع الكهان بكلام قريب مما ذكره الجاحظ والعسكرى وابن الأثير — راجع شرح ابن أبى الحديد ج ١ ص ٤١ و ٤٢ ثم راجع ما كتبه عن الموازنة فى ص ٢٧٣ من المجلد الأول .

(٢) المثل السائر ص ١٧٠

„ وإن كان المحسود عالماً قال مبتدع ، ولرأيه متبع ، حاطب ليل ، وتابع نيل ، لايدرى ما حمل ، قد ترك العمل ، وأقبل على الحيل ، وقد أقبل وجوه الناس إليه ، وما أحمقهم إذ مالوا عليه ، فقبحه الله من عالم ما أعظم بليته ، وأقل رعيته ، وأسوأ طعمته . وإن كان المحسود ذا دين قال : متصنع يغزو ليوصى إليه ، ويحج ليثنى عليه ، ويقرأ فى المسجد ليزوجه جاره ابنته ، ويحضر الجنائز لتعرف شهرته[١] “ .

وانظر قوله فى مقدمة الجزء الثانى من البيان والتبيين :

„ ولكنا أحببنا أن نصدر هذا الجزء بكلام من كلام رسول رب العالمين ، والسلف المتقدمين ، والجلة من التابعين ، الذين كانوا مصابيح الظلام ، وقادة هذا الأنام ، وملح الأرض ، وحلى الدنيا ، والنجوم التى لا يضل معها السارى ، والمنار الذى يرجع إليه الباغى ، والحزب الذى كثّر الله به القليل ، وأعز به الذليل ، وزاد الكثير فى عدده ، والعزيز فى ارتفاع قدره . وهم الذين جلوا بكلامهم الأبصار العليلة ، وشحذوا بمنطقهم الأذهان الكليلة ، فنبهوا القلوب من رقدتها ، ونقلوها من سوء عادتها ، وشفوها من داء القسوة ، وغباوة الغفلة ، وداووا من العى الفاضح ، ونهجوا الطريق الواضح ... الخ “ .

وهذا يدلنا على أن الجاحظ لا يهمل السجع إلا حين يسوقه اطراد القول فى لغة التأليف ، ولكنه حين يحتفل بالكتابة يسجع ويزاوج ، كأن لغة النثر الفنى تنتظر ملاكا من السجع والازدواج[٢] .

٢٦ — وقدامة بن جعفر[٣] — من كتاب القرن الرابع — يرى السجع من أوصاف البلاغة ، على شرط أن يكون فى موضعه وعند سماح القريحة به ، وأن يكون فى بعض الكلام

(١) معنى هذا أن حضور الجنائز للشهرة كان من عيوب الناس فى القرن الثالث . وهو اليوم لا يزال كذلك ! !

(٢) للجاحظ رسائل اخوانية التزم فيها السجع ستجد منها نموذجا عند الكلام على الغزل المنثور فى الباب الثانى من هذا الكتاب ص ١٥١ ج ١

(٣) اهتم قدامة بالكلام عن النقد والبلاغة وألف فى ذلك (نقد النثر) و (نقد الشعر) و (جواهر الألفاظ) ومن أحكامه التى تهمنا ما قضى به من أن المنثور (ليس يخلو من أن يكون خطابة أو ترسلا أو احتجاجا أو حديثا) ص ٨٢ من (نقد النثر) . وهذا يؤيد ما أشرنا اليه من قبل فى هامش صفحة ٢٣

لا فى جميعه " فان السجع فى الكلام كمثل القافية فى الشعر ، وإن كانت القافية غير مستغنى عنها والسجع مستغنى عنه ؛ فأما أن يلزمه الانسان فى جميع قوله ورسائله وخطبه ومناقلاته فذلك جهلٌ من فاعله، وعيٌّ من قائله " وتحدث قدامة عما كره الرسول من السجع بمثل ما تحدث الجاحظ وأبو هلال وابن الأثير ثم قال : " وإنما أنكر صلى الله عليه وسلم ذلك لأنه أتى بكلامه مسجوعا كله وتكلف فيه السجع تكلف الكهان . وأما إذا أتى به فى بعض كلامه ومنطقه ولم تكن القوافى مختلفة متكلفة، ولا متجلبة مستكرهة، وكان ذلك على سجية الانسان وطبعه، فهو غير منكر ولا مكروه، بل قد أتى فى الحديث : "ويقول العبد مالى مالى، وما له من ماله إلا ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فأمضى " .

ثم عرض لأهل عصره، وهم رجال القرن الرابع، فقال :

ومما تكلم به أهل هذا العصر فأتى بالسجع فيه محمودا، ومن الاستكراه بعيدا، قوله : " والحمد لله الذى ذخر المنة لك، وأخرها حتى كانت منك، فلم يسبقك أحد الى الاحسان إلىّ، ولم يحاضك أحد فى الانعام علىّ، ولم تتقسم الأيادى شكرى فهو لك عتيد، ولم تخلق المنن وجهى فهو لك مصون جديد، ولم يزل ذمامى مضاعا حتى رعيته، وحق مبخوسا حتى قضيته، ورفعت من ناظرى بعد انخفاضه، وبسطت من أملى بعد انقباضه، فليس أعتد يدا إلا لك، ولا منة إلا منك، ولا أوجه رغبتى إلا إليك، ولا أتكل فى أمرى بعد الله إلا عليك، فصانك الله عن شكر من سواه، كما صنتنى عن شكر من سواك " .

ثم قال :

ومما يباين هذا مما وضع فى غير موضعه قول صديق لنا فى فصل من رقعة له : "ورزقنى عدلك، وصرف عنى خذلك" . وقوله أيضا : "ولقد جلّت عندى بابن فلان المصيبة، وعظمت الشعيبة " . وقول آخر فى صدر رقعة : " أطال الله بقاءك لى خصيصا، ولأودائك فيصوصا " — الى أن قال :

ولو كان لزوم السجع فى القول والإغراب فيه وفى اللفظ هما البلاغة لكان الله عز وجل أولى باستعمالهما فى كلامه الذى هو أفضل الكلام ، ولكان النبى صلى الله عليه وسلم والأئمة

المهديون قد آستعملوهما ولزموا سبيلهما وسلكوا طريقهما . فأما ولسنا واجدين فيا فى أيدينا من كلامهم استعمال السجع والغريب إلا فى المواضع اليسيرة فهم أولى بأن يقتدى بهم ، ويحتذى بمناهجهم ممن قد نبت فى هذا الوقت من هؤلاء الذين ليس معهم من البلاغة إلا ادعاؤها ، ولا من الخطابة إلا التحلى باسمها[1] .

٢٧ — وقد لاحظنا أن الكتاب كانوا يسجعون ويزاوجون حين يترجمون ، لأن الترجمة القوية لونٌ من الإنشاء توجب ما يوجبه الكلام المبتكر من قوة الرصف ، والتأنق فى الصوغ . وقد حدثوا أنه قيل لبزرجمهر : أى الاكتساب أفضل؟ فقال : (العلم والأدب كنزان لا ينفدان ، وسراجان لا يطفآن ، وحلتان لا تبليان ، من نالها أصاب الرشاد ، وعرف طريق المعاد ، وعاش رفيعا بين العباد[1]) وقيل لكسرى : أى الملوك أفضل؟ فأجاب : "الذى إذا حاورته وجدته عليما ، واذا خبرته وجدته حكيما ، واذا غضب كان حليما ، وإذا ظفر كان كريما ، وإذا استُمنِح منح جسيما ، وإذا وعد وفى وإن كان الوعد عظيما ، وإذا شكى اليه وجد رحيما[2]" .

فهذه فِقَر نقلت عن الفارسية وروعى فيها السجع ، وسنرى فى الجزء الثانى من هذا الكتاب[3] فقرات منقولة عن اليونانية وروعى فيها السجع ، ونقلت صحائف من لغات أخرى وروعى فيها السجع ، من ذلك ما حدث ابن قتيبة بسنده أن يوسف عليه السلام لما لبث فى السجن سبع سنين أرسل الله عز وجل اليه جبريل عليه السلام بالبشارة بخروجه فقال له : أتعرفنى أيها الصديق ؟ قال له يوسف : أرى صورة طاهرة وروحا طيبا لا يشبه أرواح الخاطئين . قال جبريل : أنا الروح الأمين ، ورسول رب العالمين . قال يوسف : فما أدخلك مداخل المذنبين ، وأنت سيد المرسلين ، ورأس المقربين ؟ قال جبريل : أوَلم تعلم أيها الصديق أن الله يطهر البيوت بطهر النبيين ، وأن البقعة التى يحلون بها هى أطهر الأرضين ،

---

(١) راجع ص ٩٣ — ٩٥ من كتاب (نقد النثر) .

(٢) زهر الآداب ص ١٨٩ ج ٢ (٣) ص ١١٧ و ١١٨

وأنه قد طهر بك السجن وما حوله يا ابن الطاهرين! قال يوسف : كيف تشبهنى بالصالحين وتسمينى بأسماء الصّديقين ، وتعدّنى مع آبائى المخلصين ، وأنا أسيرٌ بين هؤلاء المجرمين ؟ قال جبريل : لم يكْلِم قلبك الجزع ، ولم يغير خلقك البلاء ، ولم يتعاظمك السجن ، ولم تطأ فراش سيدك ، ولم ينسك بلاء الدنيا بلاء الآخرة ، ولم تنسك نفسك أباك ، ولا أبوك ربك ، وهذا الزمان الذى يفك الله به عنوك ، ويعتق به رقك ، ويبين للناس فيه حكمتك ، ويصدّق رؤياك وينصفك ممن ظلمك ، ويجمع اليك أحبتك"[1] .

ولسنا نريد أن نثبت أن كل ما ترجم روعى فيه السجع والآزدواج ، لا ، ولكنا نقول إن فريقا من المترجمين جرى على الطبع المكتسب بطول الألفة فى مذاهب الانشاء فسجع وزاوج فيما نقل الى العربية من اللغات الأجنبية . وفى هذا تأييد لما حاولنا إثباته فى هذا الفصل من غلبة السجع والازدواج على سواد المنشئين .

٢٨ — أما بعد فقد أسهبنا فى هذا الفصل إسهابا نخشى أن ينتهى الى الإملال . ولكنه فصلٌ ضرورىٌّ جدا فى بناء هذا الكتاب . ذلك بأن السجع صار خَصيصة أساسية عند كتّاب القرن الرابع ، ومن الناس من ظن أنه كان كذلك لأن كتاب ذلك العهد أسرفوا فى آنتهاب المحسنات اللفظية من اللغة الفارسية ، فأردنا أن نثبت أن السجع كان حلية أصيلة فى اللغة العربية ، وأنه أخذ أطوارا مختلفة حتى وصل الى القرن الرابع .

وسنرى بعد قليل أن السر فى إقبال كتّاب القرن الرابع على السجع يرجع الى حرصهم على انتهاب طرائق الشعراء فى المعانى والأساليب .

ونعيذ القارئ أن يتوهم أننا كتبنا هذا الفصل للدعوة الى إيثار السجع . لا ، فنحن نرى السجع قيدا يعطل حركة الفكر والعقل فى كثير من الأحيان ، ونراه يبعد لغة العرب من أن تصير لغةَ مدنيةٍ تعبر عن جميع الشئون فى طلاقة وحرية ، بحيث لا يصدها سجع ، ولا يحدّها ازدواج . وسيرى المتأمل حين يجاوز القرن الرابع — الذى سلم فيه السجع من آصار التكلف

(١) عيون الأخبار ص ٢٧٦ ج ٢

الممقوت — أن لغة الرسائل والتأليف وقعت تحت نيرٍ من السجع ثقيل، حتى وجدنا السجع يلتزم فى موضوعات بعيدة عن الأدب . وكان الأدب هو الذى يوحى بالتأنق والافتنان .

وإذا كان كتاب العصر الحاضر قد انصرفوا انصرافا تاما عن السجع فان ذلك منشؤه أنهم ملُّوا هذا الزخرف، وضجروا منه، ورأوه علامة على فقر الكاتب وعجزه عن الظفر بالحلية الجوهرية : حلية المعنى الرائع والغرض النبيل .

ولا ينس القارئ أننا نؤدى فى هـذه الدراسة مهمة المؤرخ : فليس من شأننا أن نقبِّح أونحسِّن فنا من طرائق البيان، وإنما نرسم العهود الأدبية رسما واضحا قد يظهر عليه التشيع فى بعض الأحيان، وما بنا أن نتشيع، ولكن الحرص على إتقان الصورة التاريخية قد يظهرنا متشيعين من حيث لا نريد .

ونحن فى العصر الحاضر نهرب من السجع والمزاوجة عامدين، حتى فى المواطن التى يفرض فيها المعنى أن نسجع أو نزاوج، وليس خطؤنا فى هـذا بأقل من خطأ من يجنون على المعنى بالتزام السجع . ولكل عصر آفته : فالتأنق المُغرِب آفة ، والتحرر المسرف آفة ، والصواب أن تكون السيادة للمعنى وأن يكون له السلطان المطلق فى فرض ما توجبه الألوان النفسية من مختلف الصور والأساليب (١) .

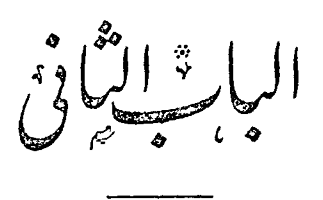
---

(١) من أجمل ما قرأنا فى الدفاع عن السجع قول ابن أبى الحديد فى الرد على من يرون السجع بابا من التكلف : « المذموم هو التكلف الذى تظهر سماجته وثقله للسامعين ، فأما التكلف المستحسن فأى عيب فيه ؟ ألا ترى أن الشعر نفسه لا بد فيه من تكلف إقامة الوزن ، وليس لطاعن أن يطعن فيه بذلك » راجع شرح نهج البلاغة ص ٤٢ ج ١

وفى هذا المعنى قال شوقى طيب الله ثراه :

« كل موضع للشعر الرصين محل السجع ، وكل قرار لموسيقاه قرار كذلك للسجع ، فإنما يوضع السجع النابغ فيما يصلح مواضع للشعر الرصين : من حكمة تخترع ، أو مثل يضرب ، أو وصف يساق ، وربما وشيت به الطوال من رسائل الأدب الخالص ، ورصعت به القصار من فقر البيان المحض . وقد ظلم العربيــة رجال قبحوا السجع وعدّوه عيبا فيها ، وخلطوا الجميل المتفرد بالقبيح المرذول منه يوضع عنوانا لكتاب ، أو دلالة على باب ، أو حشوا فى رسائل السياسة ، أو ثرثرة فى المقالات العلمية . فيانشء العربيــة إن اغتكم سرية مثرية ولن يصيرها عائب ينكر حلاوة الفواصل فى الكتاب الكريم ، ولا سجع الحمام فى الحديث الشريف ، ولا كل مأثور خالد من كلام السلف الصالح» .

(أسواق الذهب ص ١٠٩) .


الباب الثانى


خصائص النثر الفنى
فى القرن الرابع

١ — خصائص نثرية

١ — نريد أن نبين فى هذا الباب بعض خصائص النثر الفنى فى القرن الرابع، ونحب مع هذا أن نوجه نظر القارئ الى أنه من المتعذر أن نطمئن الى أن هناك خصائص يتفرد بها ذلك العصر، فقد رأى القارئ كيف تطوّرت الفنون النثرية من عهد النبوّة الى العهد الذى ندرسه فى هذا الكتاب، ورأى كذلك أننا موقنون بأن النثر لعهد النبوّة نفسه لم يخلق خلقا، وإنما نشأ وتطوّر فى عدّة أجيال .

٢ — وكل ما يمكن الاطمئنان اليه فى تقدير الخصائص النثرية لهذا العهد هو بروز العناصر الفنية التى ظهرت تباشيرها منذ القرن الأوّل، فليس فى القرن الرابع خصائص جديدة كل الجدّة، ولكن فيه خصائص كانت تلمح عند كتّاب القرن الاول والثانى والثالث، ثم ظهرت واضحة قوية على أقلام الفحول المبدعين أمثال ابن العميد والخوارزمى وبديع الزمان .

٣ — وأولى هذه الخصائص إيثار البديع، فقد كان الكتّاب السابقون يميلون الى المحسنات البديعية ولكن فى غير إسراف، فلما جاء كتّاب القرن الرابع قصدوا اليها قصدا، وأسرفوا فى توشية الكتابة بفنون التورية والموازنة والمطابقة والجناس .

وآية ذلك أن مؤلفى البلاغة فى القرن الثالث ما كانوا يحرصون كل الحرص على المحسنات اللفظية، بل كانوا يلمون بها إلمامة خفيفة، فلما جاء مؤلفو البلاغة فى القرن الرابع حرصوا عليها أشدّ الحرص حتى آستطاع أحدهم أن يقول :

وقد أُلف للألفاظ غير كتاب فقيل : "أصلح الفاسد، وضم النشر، وسدّ الثلم، وأسا الكلم" فوزن أصلح الفاسد مخالف لوزن ضم النشر، وكذلك سدّ وأسا . ولو قيل : "أصلح

الفاسد، وألف الشارد، وأصلح ما فسد، وقوّم الأود" أو قيل "صلح فاسده، ورجع شارده" لكان فى آستقامة الوزن واتساق السجع عوض من تباين اللفظ وتنافى المعنى والسجع[١] .

٤ — ويمكن تحديد ما آختص به النثر فى القرن الرابع بالصفات الاتية :

أولا — التزام السجع فى جميع الرسائل، حتى الرسائل المطوّلة التى يراد بها تقييد مناظرة أو شرح مسألة كالذى وقع فيما كتبه بديع الزمان الهمذانى عن المناظرة التى كانت بينه وبين أبى بكر الخوارزمى[٢]، وكالرسالة التى كتبها الخوارزمى الى الشيعة بنيسابور[٣]. وكان الكتّاب قبل ذلك يسجعون، ولكنهم لم يكونوا يلتزمون السجع فى جميع الموضوعات، ومن كتّاب هذا العصر من جانب التزام السجع كالشريف الرضى وأبى حيان التوحيدى، ولكنهم كانوا يعودون اليه من حين الى حين .

ثانيا — الحرص على تضمين الرسائل أطايب الشعر ومختار الأمثال . فمن الكتّاب من يبدأ رسالته ببيت أو بيتين يتقدّم بهما كلامه كما كان يفتتح الأوّلون رسائلهم بحمد الله والصلاة على نبيه، ومنهم من يختم الرسائل بالشعر كما كان يختتمها المتقدّمون بعبارة « والسلام على من اتبع الهدى » أو « والسلام عليكم ورحمة الله » وهم مع ذلك يتخيرون من الأشعار والأمثال ما يحلّون به تضاعيف الرسائل، يذكرون اسم الشاعر تارة ويغفلونه أخرى، والخوارزمىّ يحرص على تعيين اسم الشاعر وان كان لا يلتزم ذلك .

وفى رسائل البديع الهمذانى رسالة رصعها بالشعر لم أجد لها نظيرا عند غيره إذ يقول :

« أنا لقرب الأستاذ أطال الله بقاه :

"كما طرب النشوان مالت به الخمر"

ومن الارتياح للقائه :

"كما انتفض العصفور بلله القطر"

---

(١) راجع مقدّمة جواهر الألفاظ لقدامة بن جعفر . (٢) راجع رسائل بديع الزمان ص ٣٨

(٣) راجع رسائل الخوارزمى ص ١٢٥

ومن الامتزاج بولائه :

"كما التقت الصهباء والبارد العذب"

ومن الابتهاج بمرآه :

"كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب"(١)

وهذا النمط جميل، ويدل فوق جماله على معرفة الكاتب بأسرار الشعر البليغ، ولكن الكتّاب لم يلتزموه بالرغم من إسرافهم فى الصنعة لأنه متعب يضطر الكاتب الى الإكثار من البحث عن الشطرات المناسبة، خصوصا اذا راعى القافية كما زاوج البديع بين الراء والباء .

ثالثا — ألِف كتاب القرن الرابع الكتابة فى بعض الموضوعات التى كانت خاصة بالشعر كالغزل والمديح والهجاء والفخر والوصف ، وذلك لأنهم نقلوا الى النثر محاسن الشعر من الاستعارة والتشبيه والخيال . والنثر اذا أخذ خصائص الشعر أصبح أقدر منه على الوصف لخلوه من قيد الوزن والقافية . وكذلك أصبح النثر فى القرن الرابع أداة لتقييد الخواطر النفسية، والملاحظات الفنية، بحيث يرى القارئ من جمال الصنعة ودقة الأسلوب ما يغنيه عن التفكير فى قصائد الشعراء الذين سبقهم هؤلاء الكتّاب الى تصيد ما يقضى به العقل ، أو يوحى به القلب، أو يشير اليه الخيال .

ولو بحثنا فى الشعر العربى عن قصيدة فى الهجاء لما وجدنا ما يساوى ما قاله البديع الهمذانى فى ذم أحد القضاة :

" وهذا الحيرى رجل سفلة طلب الرياسة بغير تحصيل آلاتها ، وأعجله حصول الأمنية عن تمحل أدواتها :

والكلب أحسن حالةً ... وهو النهاية فى الخساسهْ
ممن تصدّر للرّيا ... سة قبل إبان الرياسهْ

فولى المظالم وهو لا يعلم أسرارها، وحمل الأمانة وهو لا يعلم مقدارها، والأمانة عند الفاسق، خفيفة المحمل على العاتق، تشفق منها الجبال، وتحملها الجهال، فقبحه الله من

(١) رسائل البديع ص ١٢٨

حاكم لا شاهد أعدل عنده من السلة والجام ، يدلى بهما الى الحكام، ولا مزكى أصدق لديه من الصُّفر، ترقص على الظفر، ولا وثيقة أحب اليه من غمزات الخصوم ، على الكيس المختوم، ولا وكيل أوقع بوفاقه من خبيئة الذيل، وحمال الليل، ولا كفيل أعز عليه من المنديل والطبق ، فى وقتى الغسق والفلق، ولا حكومة أبغض اليه من حكومة المجلس، ولا خصومة أوحش لديه من خصومة المفلس . ثم الويل للفقير إذا ظلم، فما يغنيه موقف الحكم، إلا بالقتل من الظلم، ولا يجيره مجلس القضاء، إلا بالنار من الرمضاء . وأقسم لو أن اليتيم وقع بين أنياب الأسود، بل الحيات السود ، لكانت سلامته منهما أحسن من سلامته إذا وقع بين غيابات هـذا القاضى وأقاربه . وما ظن القاضى بقوم يحملون الأمانة على متونهـم، ويأكلون النـار فى بطونهم، حتى تغلظ قَصَراتهم من مال اليتامى، وتسمن أكفالهم من مال الأيامى؟ وما ظنك بدار عمارتها خراب الدور، وعطلة القدور، وخلاء البيوت، من الكسوة والقوت؟ وما قولك فى رجل يعـادى الله فى الفلس، ويبيع الدين بالثمن البخس ، وفى حاكم يبرز فى ظاهر أهـل السمت، وباطن أصحاب السبت، فعـله الظلم البحت، وأكله الحـرام السحت ؟ وما رأيك فى سوس لا يقع إلا فى صوف الأيتام ، وجراد لا يسقط إلا على الزرع الحرام ، ولص لا ينقب إلا خزانة الأوقاف ، وكُردى لا يغـير إلا على الضعاف ، وذئب لا يفترس عبـاد الله إلا بين الركوع والسـجود ، ومحارب لا ينهب مال الله إلا بين العهود والشهود ؟ وما زلت أبغض حال القضاة طبعا وجبـلّة ، حتى أبغضتهم دينـا وملة ، وألعنهـم دربة ، حتى لعنتهم قربة ، بمـا شاهدت من هـذا الحيرى وقاسيت ، وعاينت من خبطه وخطبه ما عاينت " .

وهذه الرسالة ليست إلا قصيدة منثورة . وهـذا النمط من الكلام لم يكن كثير الوقوع قبل القرن الرابع، وهو أسلوب من أساليب الهجاء يكثر فى نثر بديع همذان .

ومن أظرف ما كتبه رسالته التى بعث بها الى شاب كتب اليه بعـد أن عزل عن ولاية حسنة يستميل فؤاده ، وهى رسالة مشهورة عارضها كثير من الكتاب ، وأنظر كيف يقول :

« وردت رقعتك — أطال الله بقاءك ! — فأعرتها طرف التعزز، ومددت اليها يد التقزز ، و جمعت عنها ذيل التحرز، فلم تند على كبدى ، ولم تحظ بناظرى و يدى، وخطبت من مودتى ما لم أجدك لها كفؤا، وطلبت من عشرتى ما لم أرك لها رضى، وقلت : هذا الذى رفع عنا أجفان طرفه، وشال بشعرات أنفه ، وتاه بحسن قده، وزها بورد خده ، ولم يسقنا من نوئه ، ولم نسر بضوئه . والآن اذ نسخ الدهر آية حسنه، وأقام مائد غصنه ، وفثأ غرب عُجبه، وكف زهو زهره ، وانتصر لنا منه بشعرات كسفت هلاله ، وأكسفت باله ، ومسخت جماله ، وغيرت حاله ، وكدرت شرعته، جاء يستقى من جرفنا جرفا ، و يغرف من طيبنا غرفا ، فمهلا يا أبا الفضل مهلا .

أرغبت فينا إذ علا ... ك الشعر فى خدّ فحل
وخرجت عن حدّ الظبا ... ءِ وصرت فى حدّ الإبل
الآن تطلب عشرتى ... عد للعداوة يا خجل

وتناسيت أيامك إذ تكلمنا نزرا ، وتلحظنا شزرا ، وتجالس من حضر ، ونسترق اليك النظر، ونهتز لكلامك، ونهش لسلامك .

ومن لك بالعين التى كان مدةً ... اليك بها فى سالف الدهر يُنظَرُ

أيام كنت تتمايل ، والأعضاء تتزايل ، وتتغانج ، والأجساد تتفالج ، وتتلفت ، والأكباد تتفتت ، وتخطر وترفل ، والوجد بنا يعلو و يسفل ، وتدبر وتقبل ، فتمنى وتخبل ، وتصد وتعرض ، فتضنى وتمرض ،

وتبسم عن ألمى كأن منورا ... تخلل حرّ الرمل غض له ندى

فأقصر الآن ، فانه سوق كسد ، ومتاع فسد ، ودولة عرضت ، وأيام انقضت ،

وعهد نَفاق مضى ... وخطب كساد نزل
وخدّ كأن لم يكن ... وخط كأن لم يزل

ويوم صار أمس، وحسرة بقيت فى النفس، وثغر غاض ماؤه فلا يرتشف، وريق خدع فلا ينشف، وتمايل لا يعجب، وتثن لا يطرب، ومقلة لا تجرح ألحاظها، وشفة لا تفتن ألفاظها . فختام تدل وإلام؟ ولم نحتمل وعلام؟ وآن أن تذعن الآن ! وقد بلغني ما أنت متعاطيه من تمويه يجوز بعد العشاء فى الغسق، وتشبيه يفتضح عند ذوى البصر، وإفنائك لتلك الشعرات حفا وحصا، وإتباعك لها نتفا وقصا، وسيكفينا الدهر مؤونة الانكار عليك، بما يزف من بنات الشعر وأمهاته اليك! فأما ما استأذنت رأيي فيه من الاختلاف الى مجلسي فما أقل نشاطى لك، وأضيق بساطى عنك، وأشبع قلبي منك، وأشد استغنائى عن حضورك ! فان حضرت فأنت كغش نروض عليه الحلم، ونتعلم به الصبر، ونتكلف فيه الاحتمال، ونغضى منه الجفن على قذى، ونطوى منه الصدر على أذى، ونجعله للعيون تأديبا، وللقلوب تأنيبا .

" مالك يا أبا الفضل تتقاض من الرغبة عنا رغبة فينا، ومن ذلك التدلل علينا تذللا لنا ومن ذلك التعالى تبصبصا، ومن ذلك التعالى ترخصا ؟ وما بال الدهر أبدلك من التزايد تنقصا، ومن التسحب على الإخوان تقمصا ؟ ! ولئن اعتضت عن ذلك الذهاب رجوعا، لقد اعتضنا عن هذا النزاع نزوعا، فأنا برحلك وجانبك، ملق حبلك على غاربك، لا أوثر قربك ولا أنده سربك . ولو أحببت أن أوجعك لقلت :

ما يفعل الله باليهود ولا بعاد ولا ثمود
ولا بفرعون إذ عصاه ما يفعل الشعر بالخدود (١)

رابعا — عدم التقيد بصيغة خاصة فى بداية الكتب، فقد كان القدماء يحرصون على الابتداء بحمد الله والصلاة على نبيه، بعد عبارة من فلان الى فلان التى كثر ورودها فى القرن الأول، ولكن كتاب هذا العصر أخذوا يجرون على فطرتهم فى تخير البدايات، فمنهم من يبتدئ

---

(١) رسائل بديع الزمان ص ٨٤ ، ٨٨ وقد عارضها عبد الوهاب بن حزم برسالة طريفة (الذخيرة ص ٦٦ ج ١).

ببيت من الشعر[١] أو بحكمة مأثورة أو مثل معروف، أو قصة صغيرة[٢]، ثم يدخل فى الموضوع . ومنهم من يكتب فى الموضوع مباشرة من غير أن يتقدمه بشىء ، وهم فى ذلك كله يجررن على خطة مقبولة، ولا يراعون القواعد إلا اذا خاطبوا الوزراء أو الأمراء أو الملوك ، فعند ذلك يبدءون بالعبارات المملوءة بالمجاملة والرفق كقول البديع فى بداية خطاب كتبه الى الوزير أبى نصر الميكالى :

" قد عرف الشيخ الجليل آتسامى بعبوديته ، ولو عرفت مكانا بعد العبودية لبلغته معه[٣] " .

وبديع الزمان بالرغم مما درج عليه من البساطة فى بداية الكتب يبالغ فى مخاطبة الرؤساء مبالغة ملموسة تظهر فى الجمل الدعائية التى يختص بها من يكتب اليهم، وكذلك يفعل أبو بكر الخوارزمى، والصابى، وآبن عباد . ومن أمثلة ذلك ما كتبه ابن العميد الى عضد الدولة يهنئه بولدين :

" أطال الله بقاء الأمير الأجل عضد الدولة — دام عزه وتأييده، وعلوه وتمهيده ، وبسطته وتوطيده، وظاهر له من كل خير مزيده[٤] " .

على أنه لا تزال بقية من البدء بحمد الله والصلاة على نبيه تجرى فى رسائل الخوارزمى يجدها القارئ فى عدة مواطن كقوله يخاطب ابن عباد :

" كتابى الى الوزير وأنا على بعد الدار سالم فى جملته، مستظهر على الامام بدولته، والحمد لله على سلامى فى سلامته، وصلى الله على سيدنا محمد وعترته[٥] " .

وكذلك قوله فى كتابه الى كاتب خوارز مشاه :

" كتابى وأنا بين محنة قد أدبرت، ونعمة قد أقبلت، وولىّ قد ملك، وعدوّ قد هلك ، والحمد لله الذى آبتلى ثم أبلى فأنعم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الأكرمين[٦] " .

---

(١) راجع رسائل الخوارزمى . (٢) انظر ص ١٢٢ من رسائل بديع الزمان . (٣) رسائل البديع ص ٣٤٤ (٤) زهر الآداب ج ٤ ص ١٨٠ (٥) رسائل الخوارزمى ص ١٥٢

(٦) رسائل الخوارزمى ص ٢٠١

وهذه الفقرات ليست بداية خالصة بحمد الله والصلاة على نبيه، وانما هى عبارات أُريدَ بها مراعاة التقاليد الدينية .

أما ختام الرسائل فقد درج أكثرهم فى الأغلب على الاكتفاء بعبارة "والسلام" وهى اختصار لكلمة "والسلام عليكم ورحمة الله" التى كانت تختتم بها الرسائل غالبا فى القرن الأول.

٥ — ونعيد ما قلناه من أن هذه الخواص التى آمتازت بها الكتابة فى القرن الرابع لم تنشأ فى يوم وليلة حتى صارت من سمات هذا القرن، وانما هى صفات نثرية تطورت على مدى القرون التى سبقت هذا القرن، ثم ظهرت فيه ظهورا قويا لأن كتابه أرادوا متعمدين أن تكون لهم شخصية فنية تظهر فى تجسيم ما كان أسلافهم يشيرون اليه من أنواع المحسنات اللفظية والمعنوية ، فالسجع مثلا لم يخلق فى القرن الرابع وانما هو حلية قديمة التزمها كتاب هذا العصر، وكذلك تضمين الرسائل أبياتا من الشعر ليس بجديد، فقد وجد منه شىء فى خطاب عثمان بن عفان الذى كتبه الى علىّ يستنجد به ، وفى بعض خطب على بن أبى طالب أبيات من الشعر وردت لتأييد ما كان يقوله فى مدافعة خصومه . وأنا أرتاب فى صحة خطاب عثمان ، ولكنه مع ذلك دليل على أنه كان مفهوما أن تضمين النثر شواهد من الشعر كان من التقاليد التى درج عليها المتقدمون . ومثل هذا يقال فى أخذ النثر لبعض أغراض الشعر ، فقد كانت للمتقدمين جولات فنية فى النثر لا تقل فى طرافة موضوعاتها ورقة حواشيها عن الشعر، ولكن كتاب القرن الرابع ظهروا فى هذه الناحية ظهورا جعلها من خواصهم من حيث الغرض والأسلوب .

٢ – السجع والازدواج

١ — بيّنا فى فصل سلف أطوار السجع فى النثر الفنى، ورأى القارئ كيف كان كتّاب القرن الأول والثانى والثالث يتنقلون بين لونين من الصياغة الفنية : هما السجع والازدواج .

فلنذكر الآن أن التزام السجع صار من خصائص النثر الفنى فى القرن الرابع، وأن كتّابه لا يتحررون من السجع إلا الى فن قريب منه هو الازدواج، ولم يخرج من كتّاب هذا العصر الى الحرية فى الصياغة الفنية إلا عدد قليل .

٢ — وكتّاب هذا العصر ينقسمون الى ثلاث طوائف : طائفة تلتزم السجع التزاما مطلقا ولا تخرج عنه إلا فى قليل من الأحيان، ومن أشهر هذه الطائفة بديع الزمان والخوارزمى والثعالبى(١) والصابى والميكالى وابن عباد وابن دريد وابن نباته وابن وشمكير ؛ وطائفة تؤثر الازدواج وتسجع من حين الى حين ، وعلى رأسهم ابن العميد والتوحيدى والآمدى والرضىّ والباقلانى والعسكرى والحاتمى وابن شُهيد . وطائفة تؤثر الحرّية فى الصياغة الفنيـة فلا تسجع ولا تزاوج إلا قليلا، ومن هؤلاء ابن مِسكويه والمرزبانى وابن فارس والجرجانى والأصفهانى والتنوخى وأحمد بن يوسف المصرى .

٣ — والطائفة الأولى لا تترك السجع فى جد ولا هزل . وقد رأيت أن أفتح رسائل بديع الزمان وأن أنقل منها شيئا بدون بحث ولا تخير، فلما فتح الكتاب على هذه الحال رأيت الكاتب يقول :

" عافاك الله ! مثَل الانسان ، فى الإحسان، مثَل الأشجار ، فى الإثمار، سبيلُ من أتى بالحسنة، أن يرفّه الى السنة ، وأنا كما ذكرت لا أملك عضوين من جسدى، وهما فؤادى

(١) ومع ذلك رأينا للثعالبى صفحات فى كتاب (ثمار القلوب) تمثل النثر المرسل أجمل تمثيل حتى كدنا نحسبه لرجل آخر غير مؤلف اليتيمة وسحر البلاغة ، وقد تعذب لغة الثعالبى وتسلس فى ذلك الكتاب فتذكرنا بالمطامع الممتنع من أساليب البيان .

ويدى، أما الفـؤاد فيعلق بالوفود، وأما اليـد فتولع بالجود، ولكن هذا الخلق النفيس، لا يساعده الكيس، وهذا الطبع الكريم، ليس يحمله الغريم، ولا قرابة بين الأدب، والذهب ... والأدب لا يمكن سرده فى قصعة، ولا صرفه فى ثمن سلعة، ولى مع الأدب نادرة، جهدت فى هـذه الأيام بالطباخ، أن يطبخ لونا من جيمية الشماخ، فلم يفعل، وبالقصاب، أن يسمع أدب الكتاب، فلم يقبل، واحتيج فى البيت، الى شىء من الزيت، فأنشدت شيئا من شعر الكميت، ألفا ومائتى بيت، فلم يغن، ولو وقعت أرجوزة العجاج، فى توابل السكباج، ماعدمتها عندى، ولكن ليست تقع، فما أصنع ؟ فان كنت تحسب اختلافك الىّ، إفضالا علىّ، فراحتى، أن لا تطرق ساحتى، وفرجى، أن لا تجىء والسلام"[1].

ولأفعل مثل هذا مع الخوارزمى . ولقد فتحت ديوان رسائله عفوا فرأيته يقول :

"أما الآن، وقد كان ما كان، فانى أرى للشيخ أن يلبس للدهر ثوبا من الصبر ثخينا، ويولى حوادثه ركنا من التماسك ركينا، وأن تجده الأيام حرا، وأن تصيبه الحوادث اذا ذاقته مرا، وأن يدارى مع ذلك سلطانه، ويصغر بلسانه إساءته ويكبر إحسانه، ويروض لسانه فى الخلوة على شكره، لئلا يجمح به فى الجلوة الى غيره، فانما أيام المحنة موج من تطاطا له تخطاه، ومن وقف على طريقـه أرداه، ومن قابل أيام الإدبار بوجهـه صدمته، ومن قاتل عساكر الإقبال فى أيام كرها هزمته، ومن طالب السلطان بالنصفة طلب عسيرا، ومن حاسب على قليل من العنت لقى كثيرا"[2].

٤ — ومما يؤيد إيثار هذا الفريق للسجع أن نرى المؤلفين منهم يهتمون بجمع ما يجرى من الفقرات المسجوعة مجرى الأمثال، وقد صنع هذا الثعالبى غير مرة فى كتابه (يتيمة الدهر) فاختار مثلا للصاحب بن عباد :

"من نبت لحمه على الحرام، لم يحصده غير الحسام — من لم يهزه يسير الإشارة، لم ينفعه كثير العبارة — الشمس قد تغيب ثم تشرق، والروض قد يذبل ثم يورق — الضمائر الصحاح،

---

(١) رسائل بديع الزمان ص ٢٢١ و ٢٢٢ وقد كتبت هذه الرقعة الى «مستميح عاوده مرارا» .
(٢) رسائل الخوارزمى ص ٩٨

أبلغ من الألسنة الفِصاح — متن السيف لين، ولكن حده خشن، ومتن الحية ألين، ولكن نابها أخشن — عقد المنن فى الرقاب، لا يبلَغ إلا بركوب الصعاب — بعض الحلم مذلة، وبعض الاستقامة مزلة — إنجاز الوعد، من دلائل المجد، وآعتراض المطل، من أمارات البخل، وتأخير الإسعاف، من قرائن الإخلاف — بعض الوعد كنقع الشراب، وبعضه كلمع السراب — قد يبلغ الكلام، حيث تقصر السهام — ربما كان الامساك عن الاطالة، أبلغ فى الابانة والدلالة — إنْ نفع القول الجميـل، وإلا نفع السيف الصقيل — تاقِّ الاحسان بالجود، تعريض النعم للشرود — قد يقوى الضعيف، ويصحو النزيف، ويستقيم المائد، ويستيقظ الهاجد — قد يصلى البرئ بالسقيم، ويؤخذ البرّ بالأثيم — ما كل طالب حق يعطاه ولا كل شائم مزن يسقاه"[1].

٥ — واذا نظرنا فى نثر آبن العميد وجدنا الحرية غالبـة عليه، ولكنا نراه يلتزم السجع أحيانا كأن يقول :

"أنا أشكو اليك — جعلنى الله فداك! — دهرا خؤونا غدورا، وزمانا خدوعا غرورا، لا يمنح مايمنح إلا ريث ماينتزع، ولا يبقى فيما يهب إلا ريث مايرتجع، يبدو خيره لُمَعا ثم ينقطع، ويحلو ماؤه جُرعا ثم يمتنع، وكانت منه شيمة مألوفة، وسجية معروفة، أن يشفع ما يبرمه بقرب انتقاض، ويهدى لما يبسطه وشك آنقباض، وكنا نلبسه على ما شرط، وان حاف منه وقسط، ونرضى على الرغم بحكمه، ونستنم بقصده وظلمه، ونعقد من أسباب المسرة أن لا يجئ محذوره مصمتا بلا آنفراج، ولا يأتى مكروهه صرفا بلا مزاج، ونتعلل بما نختلسه من غفلاته، ونسترقه من ساعاته ... الخ"[2].

٦ — والتوحيدى يمزج بين السجع والمزاوجة — كما كان يفعل الجاحظ الذى آرتضاه إماما فى حياته العقلية والأدبية — ولنذكر مثالا من نثره الذى يعـدّ من أبلغ النماذج فى اللغة

(١) اليتيمة ج ٣ ص ٨٧ و ٨٨ (٢) ص ٢٤٤ ح ٢ من زهر الآداب .

العربيـة ، وليكن ماكتبه فى سبب القبض على أبى الفتح بن العميـد فانه من أروع آيات البيان [١] .

" لما مات ركن الدولة سـنة ٣٦٦ اجتمع ذو الكفايتين أبو الفتح وعلى بن كامه أحد أمراء الديلم والأعيان ، وتعاهدا وتواثقا وتحالفا و بذل كل واحد منهما الاخلاص لصاحبه فى المودة فى السر والعلانيـة ، والذب والتوقير ، عند الصغير والكبير ، وآجتهدا فى الأيمان الغامسة ، والعقود الموثقـة ، ودبرا أمر الجيش ، ووعدا الأوليـاء وردّا النافر ، وركبا الخطر الحاضر ، وعانقا الخطب العاقر ، وباشر كل ذلك أبو الفتح خاصـة بجدّ من نفسه ، وصريمة من رأيه ، وجودة فكره ، وصحة نيته ، وتوفيق ربه . فلما ورد مؤيد الدولة الرى من أصبهان وصادف الأمر متسقا ، ولحق كل فتق مرتتقا ، بما تقـدّم من الحزم فيه ، ونفـذ من الرأى الصائب عنده . أنكر الزيادة الموجبة للجند فكرهها ، ودمدم بذكرها ، فقال له أبو الفتح : بها نظمت لك الملك وحفظت لك الدولة ، وصنت الحريم ، فان خالفتَ هـذه الزيادة هواك فأسقطها : فاليد الطولى لك . وكان ابن عباد قد ورد وحَطَبه رطب ، وتنّوره بارد ، وأمره غير نافذ . هـذا فى الظاهر . فأما فى الباطن فكان يخلو بصاحبه ويوثّبه على أبى الفتح بما يجد السبيل اليه من الطعن والقدح فأحس بذلك ابن العميد فألب الأولياء على ابن عباد حتى كثر الشغْب ، وعظم الخطب ، وهم بقتـله ، وقال للأمير : ليس من حق كفايتى فى الدولة وقـد انتكث حبلها وقويت أطماع المفسدين فيهـا ، أن أُسام الخسف ، والأحرار لا يصـبرون

---

(١) آثرنا أن نقدم هذا الشاهد على طوله لأنه مثال للبلاغة القوية التى تمثل ضغائن الرجال وأحقادهم أبشع تمثيل ، وفى هذا الشاهد تظهر براعة الكاتب فى سرد الحوادث بطريقة أخاذة تبدو طبيعية ، على حين يلمس الناقد فيها آثار الصنعة الخفية والنكث المدفون . وفى احتفال التوحيدى بهذه الصورة دليل على أنه كان يجتهد فى مكافحة خصومه عن طريق سرد التاريخ . فان لم يتبين القارئ خطر ما فى هـذا الشاهد من الدسائس فليقرأ ما كتبناه عن التوحيدى والصاحب فى باب « الرسائل والعهود » بالجزء الثانى من هذا الكتاب .

وأبو الفتح بن العميد هو ابن الكاتب المبدع أبى الفضل بن العميد ، وكان شابا أديبا ناصع البيان ، ولكنه لم يرزق ما رزق أبوه من أصالة الرأى ورجاحة العقل ، وكان طيشه من شر ما قاسى أبوه من هموم الحياة .

راجع الجزء الثانى من هذا الكتاب ص ١٩٩ — ٢٠١

على نظرات الذل ، وغمزات الهوان . فقال له فى الجواب : كلامك مسموع ، ورضاك متبوع ، فما الذى يبرد فورتك عنه ؟ قال ينصرف الى اصفهان موفورا ، فوالله لو طالبته منصفا برفع الحساب لما نظر فيه ليعرقن جبينه ، ولئن أحس الأولياء ، الذين أصطنعهم بمالى وأفضالى ، بكلامه فى أمرى ، وسعيه فى فساد حالى ليكونن هلاكه على أيديهم أسرع من البرق اذا خطف ، ومن المزن اذا نطف . فقال له : لا مخالف لرأيك ، والنظر لك ، والزمام بيدك . وتلطف ابن عباد فى خلال ذلك لأبى الفتح وقال له : أنا أتظلم منك إليك ، وأتحمل بك عليك ، وهذا الاستيحاش سهل الزوال : إذا تألفت الشارد من حلمك ، وعطفت على الشائع من كرمك ، ولّنى ديوان الانشاء واستخدمنى فيه ، ورتبنى بين يديك ، وأحضرنى بين أمرك ونهيك ، وسمنى برضاك ، فانى صنيعة والدك ، واتخذنى بهذا صنيعة لك ، وليس يجمل أن تكرّ على ما بنى ذلك الرئيس فتهدمه وتنقضه . ومتى أجبتنى الى هذا ، وآمنتنى ، فانى أكون خادمك بحضرتك ، وكاتبا يطلب الزلفة عندك ، فى صغير أمرك وكبيره ، وفى هذا إطفاء النائرة[1] التى قد ثارت بسوء ظنك وتصديقك أعدائى علىّ ، فقال فى الجواب : والله لاتجاورنى فى بلد السرير ، وبحضرة التدبير ، وخلوة الأمير ، ولا يكون لك أذن علىّ ، ولا عين عندى ، وليس لك منى رضى الا بالعود الى مكانك من أصبهان ، والسلو عما تحدّث به نفسك . فخرج ابن عباد من الرى ، على صورة قبيحة متنكرا بالليل ، وذلك أنه خاف الفتك والغيلة ، وبلغ اصبهان وألقى عصاه بها ، ونفسه تغلى ، وصدره يفور ، والخوف شامل ، والوسواس غالب . وهم أبو الفتح بانفاذ من يطالبه ، ويؤذيه ويهينه ، ويعسفه ، فأحس هو بالأمر . فحدّثنى أبو النجم قال : عمل على ركوب المفازة الى نيسابور ما ضاق عطنه ، واختلف على نفسه ظنه ، وإنه لفى هذا وما أشبهه حتى بلغهم أن خراسان قد أزمعت الدلوف إليهم وتشاورت فى الإطلال عليهم . فقال الأمير لأبى الفتح : ما الرأى وقد نمى إلينا ما تعلم من طمع خراسان فى هذه الدولة ، بعد موت ركن الدولة ؟ فقال أبو الفتح : ليس الرأى إلىّ ولا إليك ، ولا الهم علىّ ولا عليك ، ههنا من

(١) النائرة : العداوة والشحناء .

يقول لك أنت خليفتى ويقول لى أنت كاتب خليفتى . يدبر هـذا بالمـال والرجال وهو الملك عضد الدولة أخوك، قال فاكتب إليه وأشعره، وأسمع ما قد منينا به وأشهره ، وسله يداوى هذا الداء . فكتب أبو الفتح وتلطف فصدر فى الجواب ، إن هذا لأمر عجاب، رجل مات وخلف مالا، وله ابن، فلم يحمل اليه من إرثه شىء زويًا عنه، واستئثارا دونه ،ثم يخاطب بأن يغرم شيئا آخر من عنده ، قد كسبه بجهده ، وجمعه بسعيه وكدحه ، هذا والله حديث لم نسمع بمثله ، ولئن استفتى الفقهاء فى هذا لم يكن عندهم منه بتة إلا التعجب والاستطراف، ورحمة هذا الوارث المظلوم من وجهين أحدهما أنه حرم ماله بحق الإرث، والآخر أنه يطالب باخراج ما ليس عليه، وإن شاء حاكمت كل من سام هذا الى من يرضى به . فلما سمع مؤيد الدولة هذا، قال لأبى الفتح : ما ترى ؟ قال قد قلت، وليس لى قول سواه، هذا الرجل هو الملك والمدبر، والمـال كله ماله، والبلاد بلاده، والجنـد جنده، والكل له ، والاسم والجلالة عنده، وليس ههنا إرث قد زوى عنه، ولا مال استؤثر به دونه ، والنادرة لا وجه لها فى أمر الجد ، وفيما لا تعلق له باللعب . أما خراسان فكانت منـذ عشرين سنة تطالبنا بالمـال ، وتهددنا بالمسير والحرب، ونحن مرة نحارب، ومرة نسالم ، وفى خلال ذلك نفرق المـال بعد المـال ، على وجوه مختلفـة ، فاحسب أن ركن الدولة حى باق، هل كان له إلا أن يدبر بمـاله ورجاله ، وذخائره وكنوزه، أفليس هذا الحكم لازما ، لمن قام مقامه ، وجلس مجلسه ، وألقى اليه زمام الملك ،وأصدر عنه كل رأى ؟ وهل علينا إلا الخدمة، والنصرة، والمناصحة، وكل ماسهل وصعب كما كان عليه ذلك بالأمس، من جهة المـاضى، فقال مؤيد الدولة : إن الخطب فى هذا أراه يطول، والكلام يتردد، والمناظرة تربو، والفريضة تعول، والفرصة تفوت ، والعدو يستمكن، وأرى فى الوقت أن نذكر وجها للمال ، حتى نحتج به، ثم نستمد فى الثانى منه، ونرضى الجند فى الحال، ونتحزم فى الأمر، ونظهر المرارة والشكيمة، بالاهتمام والاستعداد، حتى يطير الخبر الى خراسان بجدنا واجتهادنا، وحزمنا واعتمادنا ، فيكون ذلك مكسرة لقلوبهم، وحسما لأطماعهم، وباعثا على تجـديد القول فى الصلح ورد الحال الى العادة المؤلوفة .. فقـال : نسأل الله بركة

هـذا الأمر فقد نشأت منـه رائحة منكرة، ما أعرف للمـال وجها ، أما أنا فقد خرجت من جميع ما عندى مرة، بما خدمت به المـاضى تبرعا حدثان(١) موت أبى ومرة بمـا طالبنى به سرا وأوعدنى بالعزل والآستخفاف من أجله ، ومرة بما غرمت فى المسير الى العراق ، فى نصرة الدولة ، وهذه وجوه استنفدت قلىّ وكثرى ، وأتت على ظاهرى و باطنى . وقد غرمت الى هذه الغاية ما إن ذكرته كنت كأنى ممتن على أوليـاء نعمتى ، و إن سكت كنت كالمتهم عند من يتوقع عثرتى ، فهذا هذا ، وأما أموال النواحى ، فأحسن أحوالنـا فيها أنا نرجئها فى نواحيها مع النفقة الواسعة فى الوظائف والمهمات التى تنو بنا . وأما العامة فلا أحوج الله اليها ، ولا كانت دولة لاتثبت إلا بها ، و بأوساخ أموالهـا ! فقال مؤيد الدولة ، وكان ملقبنا هذا ابن كامه وهو صاحب الذخائر والكنوز والجبال والحصون و بيـده بلاد وقد جمع هـذا كله فى دولتنا ، وحازه من مملكتنا وأيامنا وبدولتنا وهو مختوم ما فض مذ كان . ما تقول فيـه ؟ قال : مالى فيـه كلام . فان بينى و بينه عهدا ما أخيس به ، ولو ذهبت نفسى ! فقال : اطلب منـه القرض . قال : إنه يستوحش و يراه بابا من الغضاضة ، وقدر القرض لا يبلغ قدر الحاجة . فان الحـاجة ماسـة الى خمسمائة ألف دينار على التقريب ، ونفسه أنفع لنـا ، وأردّ علينا ، وأحصن لنـا ، والينا من موقع ذلك المـال و بعد رأيه وتدبيره وآسمـه وصيته فوق المطلوب منه . قال : و إذ ليس ههنا وجه فليس بأس بأن يطالع الملك بهذا الرأى ليكون نتيجته من ثمّ قال : أنا لا أكتب بهذا فانه غدر . قال : يا هذا فأنت كاتبى وصاحب سرى والزمام فى جميع أمرى ، ولا سبيل الى إخراج هذا الحديث الى أحد من خلق الله . فان أنت لم تتول حاره وقاره، وغثه وسمينه، ومحبو به ومكروهه ، فمن ؟ قال : يا أيها الأمـير ! لا تسمنى الخيانة ! فانى قد أعطيته عهدا يذر الديار بلاقع ، ومع اليوم غد، ولعن الله عاجلة تفسد الآجلة ! قال : انى لست أسومك أن تقبض عليه، أو أن تسيء اليه، أشر بهذا المعنى الى الملك عضد الدولة وخلاك ذمّ ! فان رأى الصواب فيه تولاه دونك، و إن ضرب عنه أعاضنا رأيا غير ما رأيناه،

(١) حدثان الأمر بالكسر أوله وابتداؤه، والمراد هنا عقب موت أبيه .

وأنت على حالك لا تنزل عنها ولا تبدلها ، وإنما الذى يجب عليك فى هـذا الوقت بين يدى كتب حرفين أنه لاوجه لهـذا المال إلا من جهة فلان ، ولست أتولى مخاطبته عليـه ولا مطالبته به . وفاء له بالعهد، وثباتا على اليمين، وجريا على الواجب، ولا أقل من أن تجيب الى هذا القدر ، وليس فيه شيء ممـا يدل على النكث والخـلاف والتبديل . وما زال هـذا وشبهه يتردّد بينهما حتى أخذ خطه بهـذا على أن يصدره الى أخيه عضد الدولة بفارس . فلما حصل هـذا الخط عنده وجنّ عليه الليل أحضر ابن كامه وقال له : أما عندك حديث هـذا المخنث فيا أشار به على الملك فى بابك وأورده عليه فى حقك وأمرك واطماعه فى مالك ونفسك وتكثيره عنـدد ما تحت يدك وناحيتك ؟ فقال ابن كامه هـذا الفتى يرتفع عن هـذا الحديث ولعل عدوًا قد كاده به وبينى وبينه مالا منفـذ للسحر فيـه ولا مساغ لظن سيء به . قال ما قلت لك إلا بعد أن حققت ما قلت . ودع هذا كله فى الريح هـذا كتابه إلى الملك بمـا عرفتك وخطه بيده فيه . قال على بن كامه أنا أعرف الخط ولكن هاتوا كاتبى فأحضر كاتبه الخثعمى فشهد أن الخط خطه فحال على بن كامه عن سجيته وخرج من مسكنه وقال ما ظننت بعـد الأيمان المغلظة التى بيننا أنه يستجيز مثل هـذا . قال الأمير أيها الرجل إنما أطلعك الملك على سر هذا الكلام فيك لتعرف فساد ضميره لك وما هو عليه من هنات أخر وآفات هى أكبر فإنه هو الذى حرك من بخراسان وكاتب صاحب جرجان وألقى الى أخينا بهمـذان — يعنى فخر الدولة — أخبـارنا وهو عين لبختيار ههنا . وقد اعتقـد أنه يعمل فى تحصيل هـذه البلاد ويكون وزيرا بالعراق فقد ذاق من بغـداد ما لا يخرج من ضرسه، إلا بنزع نفسه ، وكان أبو نصر المجوسى قد قدم من عند الملك عضـد الدولة وهو يفتل الحبل ويبرم ، ويهاب مرة ويقـدم، وكان الحديث قد بيّت بليل واهتم به قبل وقته بزمـان ، فقـال على بن كامه : فما الرأى الآن ؟ قال : لا أرى أمثل من طاعة الملك فى القبض عليه، وقد كنا على ذلك قادرين، ولكن كرهنا أن يظنّ بنا أنا هجمنا على ناصحنا، ومربب نعمتنا، وناشيء دولتنا، فمهدنا عنك العـذر، وأوضحنا لك الأمر . قال : فأنا أكفيكموه !

ثم قبض عليه وكان منه ما كان، وآستدعى ابن عباد من أصفهان، وولى الوزارة ودبرها برأى وثيق، وجد رتيق" .

٧ — وعند تأمل هـذه الرسالة نجد التوحيدى يمضى على الفطرة فى الإنشاء، ثم يسجع ويوازن من سطر الى سـطر حين يطيب له ذلك . والى القارئ ما ورد فى هذه الرسالة من الأسجاع .

"ردّا النـافر، وركبا الخطر الحـاضر، وعانقا الخطب العاقر" .

"صادف الأمر متسقا، ولحق كل فتق مرتتقا" .

"كلامك مسموع، ورضاك متبوع" .

"ليكونن هلاكه على أيديهم أسرع من البرق اذا خطف، ومن المزن اذا نطف" .

"والله لا تجاورنى فى حضرة السرير، وبحضرة التدبير، وخلوة الأمير" .

"ليس الرأى إلىّ ولا إليك، ولا آلهم علىّ ولا عليك" .

"لست أسومك أن تقبض عليه، أو أن تسئ إليه" .

"ذاق من بغداد مالا يخرج من ضرسه، إلا بنزع نفسه" .

"ولىَ الوزارة ودبّرها برأى وثيق، وجد رتيق" .

وما وقع فى هذه الرسالة من المزاوجة واضح يدركه القارئ بأيسر مراجعة .

٨ — والشريف الرضى يسلك هـذا المسلك فيسجع قليلا، ويزاوج كثيرا، وهو كاتب فحل لم تبق لنا من نثره بقايا كافية لتعيين مذهبه فى أساليب الإنشاء . والى القارئ فقرات من مقدمة (نهج البلاغة) الذى دوّن فيه خطب الامام على رضى الله عنه :

«أما بعد حمد الله الذى جعل الحمد ثمنا لنعمائه، ومعاذا فى بلائه ... فانى كنت فى عنفوان السن، وغضاضة الغصن، ابتدأت بتأليف كتاب فى محاسن الأئمة عليهم السلام يشتمل على محاسن أخبارهم، وجواهر كلامهم، حدانى عليه غرض ذكرته فى صـدر الكتاب ... وعاق عن إتمام بقية الكتاب محاجزات الزمان، ومماطلات الأيام ... ومن عجائبه عليه السلام أن كلامه

الوارد فى الزهد والمواعظ ، والتذكير والزواجر، اذا تأمله المتأمل، وفكر فيه المتفكر، وخلع من قلبه أنه كلام مثله ممن عظم قدره، ونفذ أمره ، وأحاط بالرقاب ملكه ، لم يعترضه الشك فى أنه من كلام من لاحظ له فى غير الزهادة، ولا شغل له بغير العبادة، قد قبع فى كسر بيت، أو انقطع فى سفح جبل ، لا يسمع الا حسه، ولا يرى إلا نفسه، ولا يكاد يوقن بأنه كلام من ينغمس فى الحرب مصلتا سيفه : فيقط الرقاب، ويجدل الأبطال، ويعود به ينطف دما، ويقطر مهجا، وهو مع تلك الحال زاهد الزهاد، وبدل الأبدال»[1] .

٩ — وأحمد بن عبد ربه لا تظهر آثار قلمه الا فى المقدمات القصيرة التى يمهد بها لأبواب العقد الفريد[2]، وهو فى تلك المقدمات لا يلتزم السجع ، ولكنه لا يكاد يخل بالازدواج .

١٠ — أما الطائفة الأخيرة فتكتب فى حرية وطلاقة، وإن لم تخل آثارها النثرية من السجع والمزاوجة : ومن أشهر هؤلاء أبو الفرج الأصفهانى الذى يترسل فى بعض فقرات (الأغانى) ترسلا سهلا مقبولا لا سجع فيه ولا ازدواج ؛ وابن مسكويه الذى ينطلق الى غرضه انطلاق السهم الى رميته ، والتنوخى الذى رقت على أسلة قلمه لغة القصص المسلسل ، وأحمد بن يوسف المصرى الذى دون مشاهداته فى لغة لا تعتمد فى جمالها الا على دقة المعنى وصفاء الأسلوب .

ورأس كتاب هذا التوريق إخوان الصفاء الذين دونوا ما عرف لعهدهم من الآراء والمذاهب فى أسلوب طلق خال فى جملته من التصنع والزخرف والغموض .

---

(١) كان الشريف الرضى جديرا أن يعقد له فصل فى هذا الكتاب ؛ ولكن الشعر غلب عليه ، وضاعت جملة آثاره ، ولسنا من المطمئنين الى ما قيل من أن أكثر نهج البلاغة من فيض قلمه ، بالرغم من قدم هذه الشبهة و رواجها فى أسواق المستشرقين .

(٢) كلام ابن عبد ربه فى النثر قليل ، ولذلك لم نعقد له فصلا فى هذا الكتاب ، ولكن تمهيداته لأبواب العقد الفريد جزلة ممتعة ، وفيها دلالة على أن قلمه كان حرا من قيود المحسنات البديعية ، بالرغم من غلبتها على كتاب المشرق والمغرب لذلك العهد .

ويمكن القول بأن كتاب المذاهب والاراء هم أخلص الناس من أوضار الصنعة بين كتاب القرن الرابع ، لأن حرية الفكر تفرض حرية القول ، والكاتب المفكر فى شغل بفكره العميق عن تلمس أسباب الترويق والتهويل .

١١ — وليتبين القارئ الفرق بين كاتب يتأنق كالتوحيدى وكاتب يترسل كابن مسكويه نعرض نموذجا مما قصه صاحب تجارب الأمم عن أبى نصر كاتب عضد الدولة إذ قال :

"كان بالقصر جماعة من الغلمان تحمل اليهم مشاهراتهم من الخزانة بالحضرة، فلما كان فى آخر شهر قد بقى منه ثلاثة أيام استدعانى وقال لى : تقدم الى الخازن فى بيت المال بأن يزن كذا وكذا ألف درهم ويسلمها الى أبى عبد الله بن سعدان ليحملها الى نقيب الغلمان بالقصر . فقلت : السمع والطاعة . فأنسيت ذلك وسألنى عنه بعد أربعة أيام فاعتذرت بالنسيان فخاطبنى بأغلظ خطاب، فقلت : أمس كان آستهلال الشهر، والساعة تحمل المادة . وما ههنا ما يوجب شغل القلب بهذا الأمر . فقال : المصيبة بما لا تعلم ما فى فعلك من الغلط أكثر منها فيما آستعملته من التفريط ! ألا تعلم أنا اذا أطلقنا لهؤلاء الغلمان ما لهم وقد بقى فى الشهر يوم كان الفضل لنا عليهم ، واذا آنقضى الشهر وآستهل الآخر حضروا عند عارضهم فأذكروه فيعدهم، ثم يحضرونه فى اليوم الثانى فيعتذر اليهم، ثم فى الثالث فتبسط فى آقتضائه ومطالبته ألسنتهم، فتضيع المنة، وتحصل الجرأة، ونكون الى الخسارة أقرب منا الى الربح؟"[1] .

والقارئ حين يوازن بين الخبر المطول الذى نقلناه عن التوحيدى وبين هذا الخبر القصير الذى نقلناه عن ابن مسكويه لا يمترى فى أن التوحيدى كان خليقا بأن يجعل من هذا الخبر القصير قصة طويلة يبدئ فيها ويعيد .

ولكن هذا اليسر فى رواية الخبر لم يمنع ابن مسكويه من التأنق فى التعليق عليه اذ قال :

" ولعل عضد الدولة نظر فى هذا الوقت الى ما وجد فى سيرة المعتصم رضوان الله عليه . وهل ينكر لبنى هاشم أن يقتدى بأقوالهم ، أو يهتدى بأفعالهم ، وهم الأصدقون أقوالا ،

(١) تجارب الأمم ج ٣ ص ٤٥

والأكرمون أفعالا، والأشرفون أنسابا، جبال الحلوم، وبحار العلوم، وأعلام الهدى، وساسة الدين والدنيا، وفرسان الحروب والمحاضر، وأملاك الأسرّة والمنابر، الى مكارمهم ينتهى الكرم، وبمآثرهم تنجلى الظلم، المعتصم بينهم المعتصم".

ويمكن المضىّ فى استقراء الفصول الجيدة مما كتب ابن مسكويه فى التاريخ: فهو يسرد الأخبار فى يسر ملموس ثم يعقب عليها بتأنق مقبول. وانظر قوله فى خواص الملوك:

"ومن حسن سياسة الملوك أن يجعلوا خاصتهم كل مهذب الأفعال، محمود الخصال، موصوفا بالخير والفعل، معروفا بالصلاح والعدل، فان الملك لا تخالطه العامة ولا أكثر الجند، وانما يرون خواصه: فان كانت طرائقهم سديدة، وأفعالهم رشيدة، عظمت هيبة الملك فى نفس من يبعد عنه، لاستقامة طريقة من يقرب منه ... ... واذا كان خواص الملك ممن يُقدَح فيهم، وتُذكر مساويهم، قلّت الهيبة فى النفوس، فأظهر الجند استقلالا لأمره، ثم صار الاضمار نجوى بينهم، ثم زادت الحيرة فصارت النجوى إعلانا، فعند ذلك تقع المجاهرة، وترتفع المراقبة، ويتحكمون عليه تحكم الآمر لا المأمور، والقاهر لا المقهور"[1].

١٢ — ومن أحرار الأساليب بين كتاب القرن الرابع إخوان الصفاء — وفى رسائلهم فقرات تمتاز بوضوح المعانى وبسطها، من ذلك قول أحدهم فى وصف الرسول:

"قال النمر للأسد: ما تلك الخصال التى ذكرت، أيها الملك، أنها يجب أن تكون فى الرسول؟ بينها لنا. قال الملك: نعم. أولها يحتاج أن يكون رجلا عاقلا حسن الأخلاق، بليغ الكلام، فصيح اللسان، جيد البيان، حافظا لما يسمع، محترزا فيما يجيب ويقول، مؤديا للأمانة، حسن العهد، مراعيا للحقوق، كتوما للسر، قليل الفضول فى الكلام، لا يقول من رأيه شيئا غير ما قيل له، إلا ما يرى فيه صلاح المرسل، ولا يكون شرها، ولا يكون حريصا اذا رأى كرامة عند المرسل اليه مال الى جيئته وخان مرسله واستوطن البلد لطيب عيشه هناك، أو كرامة يجدها أو شهوة ينالها هناك، بل يكون ناصحا لمرسله ولإخوانه وأهل بلده وأبناء جنسه، ويبلغ الرسالة ويرجع بسرعة الى مرسله فيعرفه جميع ما جرى من أوله

(١) تجارب الأمم ص ١٨٨

الى آخره، ولا يخاف فى شىء منه فى تبليغ رسالته مخافة من مكروه يناله : فانه ليس على الرسول إلا البلاغ[١]" .

وهذه القطعة تصور المعنى الذى وضعت له تصويرا صحيحا ، ولكن النزعة العامية تغلب عليها ، وينقصها ما يسميه علماء النقد " قوة الأسر" وهذا المأخذ تجده أنّى سرّحت بصرك فى رسائل اخوان الصفاء ، فهم يقدمون اليك الموضوعات الفلسفية والأخلاقية والاجتماعية فى أسلوب يغلب عليه الانحلال . ولعل السر فى ذلك يرجع الى انعدام الشخصية : فالكاتب يعبر عن روح إخوانه وكأنه يلخص آراءهم ، ولو كان يعبر عن نزعاته الذاتية لرجونا أن تكون حماسته أقوى وروحه أظهر ، وعند ذلك تستطيع إغواء عقله ووجدانه فيصطبغ أسلوبه بالوان الخيال . وسترى فى الجزء الثانى من هذا الكتاب[٢] كلاما كثيرا عن الأسلوب ، وسترى أنه يتكون من عنصرين: المعنى والروح ، فاذا وجد المعنى وحده كانت الكتابة علمية . وإذا أضيف اليه الروح كانت الكتابة أدبية . وذلك ما نعنيه بالنثر الفنى .

١٣ — ولك أن تنظر فيما كتب الفارابى أو ما كتب ابن حزم فى الفلسفة لترى كيف تكون الكتابة العلمية التى يراد بها تقرير الحقائق ، وشرح المذاهب ، وعرض البراهين ، فهى كتابة خالية من السجع والازدواج ، الا فى أحوال قليلة ، والكاتب مشغول بسرد الحقائق لا تنميق الإنشاء . وهذه الكتابة صالحة كل الصلاحية للوضوعات العلمية والفلسفية ، وليس خلوها من الفن الا دليلا على توفيق الكاتب ، فليس كل موضوع بصالح للزخرف والتهويل . وقد يكون من الخير أن نذكر الفرق بين كاتبين يشتغلان بالموضوعات الفلسفية ويختلفان فى الأسلوب ، فيكتب أحدهما كتابة علمية ، ويكتب ثانيهما كتابة أدبية ، كالفارابى والتوحيدى والفرق بين مثل هذين الرجلين أن الأول كان مفكرا قبل أن يكون كاتبا ، والثانى كان كاتبا قبل أن يكون مفكرا : فلما كتب الأول عجز عن التلوين والتزيين ، ولما كتب الثانى وشّى الفكرة بفنون من التصاوير والتهاويل ، والأول أبقى فى عالم الفكر ، والثانى أخلد فى عالم البيان ، وكلا الاسلوبين ضرورىّ فى حياة العلوم والآداب .

(١) رسائل اخوان الصفا ج ٢ ص ٢٠٦ (٢) راجع الصفحات ٦٧ — ٧٨

٣ – تصوير الحياة العقلية (١)

١ – ان الكتّاب المشاهير الذين تولوا قيادة النثر الفنى فى القرن الرابع قد اهتموا اهتماما عظيما بتصوير الحياة العقلية والأدبية والوجدانية التى شملت ذلك العصر، فمن الخطأ أن يظن أنهم وقفوا عند زخرفة الألفاظ والتعابير ولم يشتركوا فى الأزمات العقلية والمجادلات الحزبية والدينية فى الحدود التى سمحت بها قوتهم الأدبية. وسيرى القارئ كيف شغلوا بالبلاغة ودراسة الشعر والنثر، فلننظر هنا كيف شغلوا بما كان يجرى لعهدهم من الفتن السياسية والاجتماعية.

من ذلك أننا نجد أثر قوة الحزب الشيعى ممثلة فى رسائل بديع الزمان ورسائل الخوارزمى وفى المقتطفات التى جمعها صاحب زهر الآداب عما قيل فى آل البيت مدحا ورثاء مما يدل على أن الشيعة كانت لهم قوة صاخبة فى ذلك العصر. وربما كانت رسالة الخوارزمى التى بعثها الى الشيعة بنيسابور لما قصدهم اليها محمد بن ابراهيم تمثل مأساة الشيعة أصدق تمثيل، ولننظر كيف يقول:

"وأنتم ونحن – أصلحنا الله وإياكم! – عصابة لم يرض الله لنا ثواب العاجل، فأعدّ لنا ثواب الآجل، وقسمنا قسمين قسما مات شهيدا، وقسما عاش طريدا، فالحى يحسد الميت على ماصار اليه، ولايرغب بنفسه عما جرى اليه. قال أميرالمؤمنين ويعسوب الدين عليه السلام: "المحن الى شيعتنا أسرع من الماء الى الحدور" وهذه مقالة أسست على المحن وولد أهلها فى طالع الهزاهز والفتن، فحياة أهلها نغص، وقلوبهم حشوها غصص، والأيام عليهم متحاملة والدنيا عليهم مائلة، فاذا كنا شيعة أئمتنا فى الفرائض والسنن، ومتبعى آثارهم فى كل قبيح وحسن، فينبغى أن نتبع آثارهم فى المحن: غُصبت سيدتنا فاطمة صلوات الله عليها وعلى آلها

(١) هذا الفصل القصير لا يغنى عن مراجعة الفصول المطولة فى باب (الآراء والمذاهب) بالجزء الثانى. ويمكن القول بأن الأدب فى كل عصر صورة الحياة العقلية، غير أن قوة الحيوية فى كتاب القرن الرابع ميزتهم بطابع خاص.

ميراث أبيها — صلوات الله عليه وعلى آله — يوم السقيفة ، وأخر أمير المؤمنين عن الخلافة ، وسمّ الحسن رضى الله عنه سرا ، وقتل أخوه كرم الله وجهه جهرا ، وصلب زيد بن على بالكناسة ، وقطع رأس زيد بن على فى المعركة ، وقتل ابناه محمد وابراهيم على يد عيسى بن موسى العباسى ، ومات موسى بن جعفر فى حبس هارون . وسُمّ على بن موسى بيد المأمون ، وهزم إدريس بفخ حتى وقع الى الأندلس فريدا ومات عيسى بن زيد طريدا شريدا " الخ

وفى هذه الرسالة تفاصيل مزعجة عما لقيه العلويون من المحن والمصائب يتلقونها صابرين من خصومهم الذين أصروا على إبادتهم من الوجود ، والذى يقرؤها كاملة فى رسائل الخوارزمى يدرك جيدا كيف كانت العصبية للشيعة قوية حادة فى ذلك العصر ، وكيف تشبعت عقول بعض الكتاب بالمعانى البديعة فى محاوراتهم العقلية ، فمن الرائع حقا أن يقرر الخوارزمى أن علىّ بن أبى طالب شتم على المنابر ألف شهر فما شك أنصاره فى وصيته ، وأن النبى محمدا كذب بضع عشرة سنة فما اتهموه فى نبوّته ، وأن إبليس عاش مدّة تزيد على العدد فلم يرتابوا فى لعنته .

وفى رأيى أن مثل تلك الرسالة يوضح كثيرا مما غمض من تاريخ الأمم الاسلامية فان الكتاب الذين ينتسبون الى أحزاب يدافعون عنها قد تتاح لهم فرص كثيرة تبصرهم بما خفى من تاريخ من يناصرونهم ومن يعادونهم وإن كانوا متهمين فى مدح من يرضون عنه وذم من يخرجون عليه .

٢ — وبجانب الجدل العنيف الذى كان ينشب كل يوم بين العلويين والعباسيين والعداوات التى كانت تقوى وتشتدّ كلما أثيرت ذكرى الخلافة والخلفاء ونراها ممثلة فى الآثار النثرية فى ذلك العهد ، كانت تقوم فتنة أخرى هى الخلاف بين العرب والعجم وانقسام الأدباء الى فريقين فريق يفضل العرب وآخر يفضل العجم ، وهى فتنة قديمة شبت منذ كان للموالى وأنصار الفرس أطماع فى دولة الخلافة ، وظلت تزداد وتقوى بفضل الجهود المتصلة التى كان يبذلها الوزراء الفارسيون لكبح النفوذ العربى راجين أن ينتقل إليهم النفوذ الادبى والسياسى والمادّى جميعا .

ولبديع الزمان الهمذانى رسالة جيدة تمثل تلك المناوشات يميل فيها الى تفضيل العرب على العجم وعلى سائر الأمم إذ كانوا فى رأيه أوفى وأشجع وأعلم وأحلم وإن لم يكونوا أحسن ملابس وأنعم مطاعم، ويرى أن فضل العرب لا ينكره إلا وغد وأن الله قدم ملك العجم ليحتج عليها وأخر ملك العرب ليحتج بها، وأن العجم ماملكت حتى تواصلت، والعرب ما ملكت إلا حين تصاولت، وأن العجم ما تواصلت إلا يأسا من نفوسها، وأن العرب ما تصاولت إلا لما فى رءوسها من النخوة، وهذا طبيعى فلا تكاد السباع تأتلف كما لا تكاد البهائم تختلف. ثم يمضى بديع الزمان فيتحدث عن أعياد الفرس وعبادتهم للنار وهو فى ذلك يسخر منهم ويفضل العرب عليهم.

٣ — والذى يهمنا من ذلك كله هو تقرير ما يمثله النثر فى ذلك العهد من الشقاق الذى كان يثور بين العرب والفرس من حين إلى حين، أما حجج بديع الزمان فى تفضيل العرب على الفرس وحجج خصومه فى تفضيل الفرس على العرب فتلك أشياء لا يهمنا تحقيقها الآن.

وذلك الخلاف له قيمته فى تقدير الحيوية التى كان يحسها رجال الأدب لذلك العهد فقد كانوا يمثلون طوائفهم ودولهم بذلك الدفاع الذى كان يفيض حياة وقوة، وكان يحتوى أحيانا على مباحث جيدة فى بيان الفضائل النفسية والاجتماعية والأدبية التى تمتاز بها الأمم والشعوب.

٤ — ومما يتصل بتصوير الحياة العقلية طريقة أولئك الكتاب فى شرح حقائق الحياة. ويظهر أنهم كانوا يميلون الى الصراحة المطلقة فيما يختص بنعيم العقل والحواس، فما كانوا يخفون أغراضهم بالرمز والاشارة وانما كانوا يصرحون بما يحبون الخوض فيه، فكان من ذلك أن أكثروا من الرسائل فى تهادى الخمر وأن وصفوا مجالس الشراب واللهو وصفا مغريا لا يترك هفوات الشباب ولا جرائم السكر بدون تصوير، وعرضوا للجمال الحسى فى الغلمان فوصفوه وصفا جارحا لا نكاد نسيغه اليوم، فقد حذف الشيخ محمد عبده طائفة من مقامات بديع الزمان لما فيها من الصراحة المفرطة فى تصوير الشهوات. وللببغاء الشاعر رسالة جميلة

فى وصف ليلة أنس ذكرها الثعالبي فى الجزء الأول من اليتيمة لا يقرؤها القارئ بدون أن يدهش من حب أولئك الكتّاب لتصوير لذات الحياة . وما نحب أن نطيل فى بيان هذه النقطة لأن لها مكانا غير هذا . وانما نقرر أن الذى يراجع آثار الكتاب فى ذلك العصر يقتنع بأنهم لم يكونوا فى الأغلب رجال حشمة ووقار، وانما كانوا يفضلون الصراحة العابثة فيما يقولون وما يعملون (١) .

٥ — ومن أهم الجوانب التى تمثل الحياة العقلية فى ذلك العصر الخصومات العنيفة التى قامت بين الكتّاب ، فقد كانت بينهم مناوشات ومجادلات نشأت من أطماعهم فى الحياة المادية ، وكانوا يمثلون غالبا طوائف من الأفكار الدينية والحزبية يقومون فى الدفاع عنها بما تقوم به الجرائد المغرضة فى العصر الحاضر ، وكان لهم من القوة ما كان للشعراء، فلم يكن بدّ من أن يتنافس أصحاب الملك فى تقريبهم ، ولم يكن بدّ كذلك من أن يتنافس هؤلاء فى الاستئثار بالحظوة عند الوزراء والرؤساء والملوك .

(١) وقد رأينا بعد البحث أنهم يؤثرون الأدب الضريح ، فيتحدثون عن السات والعورات فى عبارات صريحة لا تسترها كناية ولا تلويح ، وأكثرهم يمزج الجد بالهزل فى أساليب مكشوفة ينفر منها الطبع فى بعض الأحيان . ولا نملك هنا ايراد الشواهد ، لأن الذوق فى عصرنا يأبى ذلك . وحسبنا أن نشير الى ما كتبه الثعالبي عن بعض العورات فقد شعر بشىء قليل من الحرج اضطره الى أن يعتذر بهذه الكلمات :

"ذكر الأعضاء لا يؤثم ، وانما الاثم فى ذكرها عند شتم الأعراض وقول الرفث فى أكل لحوم الناس وقذف المحصنات" ثمار القلوب ص ١٨٠

وهذه مشكلة قديمة فى اللغة العربية ، فقد تحدث ابن قتيبة فى مقدمة عيون الأخبار عن هذا الأسلوب فى التعبير ودافع عنه فى حماسة بكلام طويل نكتفى منه بالأسطر الآتية :

"واعلم أنك ان كنت مستغنيا — عن المزاح — بتنسكك فان غيرك ممن يترخص فيما شددت فيه محتاج اليه . وان الكتاب لم يعمل لك دون غيرك فيهيأ على ظاهر محبتك ، ولو وقع فيه توقى المتزمتين لذهب شطر بهائه ، وشطر مائه ، ولأعرض عنه من أحببنا أن يقبل اليك معك . وانما مثل هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين . واذا مر بك حديث فيه إفصاح بذكر عورة أو فرج أو وصف فاحشة فلا يحملنك الخشوع أو التخاشع على أن تصعر خدك ، وتعرض بوجهك ، فان أسماء الأعضاء لا تؤثم ، وانما المأثم فى شتم الأعراض وقول الزور والكذب وأكل لحوم الناس بالغيب" .

راجع مقدمة عيون الأخبار .

وفي الرسالة التي كتبها بديع الزمان إلى أبي نصر بن المرزبان فقرات مرة تمثل ما كان عليه كتاب ذلك العصر من الطمع في المناصب الرسمية ومن ضعف الخلق عند الغنى، ومن التبلد عند الفقر، إذ "يسمون أيام المعونة أوقات الخشونة، وأزمان العطوبة ساعات الصعوبة" وقد كانوا كما قال: "ما اتسعت دورهم إلا ضاقت صدورهم، ولا أوقدت نارهم إلا انطفأ نورهم، ولا زادت نعمهم إلا نقص معروفهم، ولا ورمت أكياسهم إلا ورمت أنوفهم، ولا صلحت أحوالهم إلا فسدت أخلاقهم، ولا رقت جنوبهم إلا غاضت مياههم، ولا لانت برودهم إلا صلبت خدودهم"(١) وفي تلك الفقرات شدة، وتلك المساوئ الملعونة التي كانت تغري بعض الكتاب الذين عرفوا بجشعهم في حب الحياة وفهمهم لها فهما ماديا يتناسب مع تلك العبقريات الفنية التي ظهرت في فقرهم ورسائلهم وأحاديثهم. ومن المؤلم أن تظل قوة الخلق ورقة الأريحية، وسماحة العداوة، في كل عصر من السمات الغالبة على كبار الكتاب، فقل أن نجد كاتبا كريما يعطف على زملائه ويحب لهم الخير ويتمنى لهم الإسعاد. وقديما عرفت هذه الظاهرة عبد الحميد بن يحيى — وكان رجلا نبيلا — فكتب وصيته المعروفة إلى الكتاب في التعاون ونبذ الأحقاد. وفي أيامنا هذه تبعث تلك الشكوى من جديد فلا نجد كاتبا في هذا العصر يحب لأخيه ما يحب لنفسه، بحيث نشك أن شبوب العبقرية يوحي بالضغن والتباغض والبغض والأثرة والبخل.

٣ — وأهم الخصومات التي وقعت بين كتاب ذلك العصر خصومة الهمذاني والخوارزمي، وخصومة التوحيدي والصاحب بن عباد.

أما خصومة الهمذاني والخوارزمي فترجع إلى رغبة الهمذاني في الظهور وطمعه في الانفراد بالشهرة، وأهم مصادر هذه الخصومة الرسالة الطويلة التي كتبها الهمذاني في وصف المناظرة التي قامت بينه وبين الخوارزمي، وهي رسالة مفرطة مملوءة بالتحامل والتهافت، وليس فيها أفكار جدية تجعل خصومة الرجلين خصومة بين عقلين، إنما هي محاورات لفظية تدل على

(١) رسائل بديع الزمان ص ٤٤٥

غلبة الزخرف وتمكنه من السيطرة على عقول أهل ذلك الجيل . ولو أن الخوارزمى دوّن بدوره تلك المناظرة لرأينا وجهين فى بسط ذلك الحادث الأدبى وآستطعنا أن نستخلص من مقابلة النصين نفس الرجلين ، ولكن الهمذانى تكلم وحده فعرفنا فقط مبلغ زهوه وكبريائه وطمعه فى قهر كاتب كان يومئذ على رأس الكاتبين .

أما خصومة التوحيدى لآبن عباد فترجع فيما ذكر كتاب التراجم الى سبب مادىّ ، وذلك أن التوحيدى رغب فى مال ابن عباد وجاهه فضاق عنه صدر هذا ، فكتب التوحيدى كتابه « مثالب الوزيرين » وهو كتاب جارح كشف به عورات ابن العميد وابن عباد . ثم عاد إليهما بالتجريح أيضا فى كتابه « الإمتاع والمؤانسة » وأسلوبه فى الهجاء أسلوب خطر فظيع إذ يختلق من الحوادث والإشارات وينطقهما برسائل ومقطوعات تهوى بهما الى الحضيض . ويعدُّ التوحيدى من الوجهة الفنية رجلا خصب الذهن ، غنىّ اللغة ، وافر المحصول ، قوىّ الخيال .

وقد تنبه المتأدبون الى تحامل التوحيدى وإسرافه فى التعصب ضدّ ذينك الوزيرين وشاع الآعتقاد بأن كتابه مثالب الوزيرين كتاب مشئوم لا يملكه أحد إلا انعكست أحواله ، ويذكر ابن خلكان أنه جرب هذا وجربه من يثق به![1] فاذا صح هذا الوهم كان التوحيدى قد عوقب على بغيه وظلمه وآفترائه : فقد أنطق الصاحب بن عباد بعبارات مخجلة يندى لها وجه القارئ ويفر منها الطبع والذوق ، وان كانت نظمت فى أسلوب شائق خلاب .

---

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٧٠

٤ ـ الفكاهات

١ ـ ليست الفكاهات النثرية مما ابتكره كتاب القرن الرابع ، ولكنها ظهرت فيه ظهورا واضحا ، وصارت فنا واضح الرسوم ، بحيث يمكن الحكم بأن الكتاب كانوا يقصدون إليها قصدا ، ويتنافسون فى تزويرها وتحبيرها . ومن أشهرهم فى هذا الباب بديع الزمان ، وقد كتب فى الفكاهة عدة مقامات ، منها المقامة الشامية التى أنطق فيها « زوج الاثنين » أمام قاضى الشام ، وكانت إحداهما تدعى صداقا ، والأخرى تلتمس طلاقا .

القاضى : ما تقول فى الملتمسة صداقها[1] ؟

الزوج : أعز الله القاضى ! صداق عن ما ذا ؟ وأنا غريب من أهل الأسكندرية ، فوالله ما أثقلت لى وتدا ، ولا أشبعت لى كبدا ، ولا عمرت خرابا ، ولا ملأت جرابا .

القاضى : إنك تبطنتها !

الزوج : نعم ! لكن فما غير بارد ، وثديا غير ناهد ، وبطنا غير والد ، وعينا غير واجد ، وريقا غير ريق ، وطريقا غير ضيق .

القاضى ــ للمرأة ــ : ما تقولين ؟

المرأة : أيد الله القاضى ! هو أكذب من أمله ، وأكثر فى اللؤم من حيله ، وأفسد عشرة من أسفله . والله لقد صادفت من فمه صقرا ، ومن يده صخرا ، ومن صدره سم خياط ، لا يرتح بقيراط ، ولقد زففت إليه بدنا كالديباج ، ووجها كالسراج ، وعينا كعين النعاج ، وثديا كحق العاج ، وبطنا كظهر الهملاج ، وحشى ضيق الرتاج ، خشن المنهاج ، حار المزاج ، صعب العلاج ، ولكن كيف ألد ، وهو لا ينجز ما وعد ؟ وكيف ينجز ولا يجد ؟ وهو يجتهد ، لو لم يخنه الوتد !

(١) حولنا هذه المقامة والتى بعدها الى الحوار بتصرف قليل .

القاضى : أيها الرجل، قد رمتك بالعنة !

الزوج — وقد مال الى المرأة محتدا — :

ألم أجعل تسعينك ثلاثين؟ ألم أعرك فى ليلة عشرين، حتى أسقطت الجنين ؟

المرأة : إشهد أيها القاضى على هذا الإقرار !

الزوج : خدعتنى يا دفار !

٢ — والمقامة المضيرية من أنضر ما كتب فى الفكاهات ، وانظر كيف يتحدث عيسى ابن هشام :

"كنت بالبصرة ومعى أبو الفتح الاسكندرى رجل الفصاحة والبلاغة ، وحضرنا معه دعوة بعض التجار، فقدمت الينا مضيرة تثنى على الحضارة، وتؤذن بالسلامة، وتشهد لمعاوية رضى الله عنه بالإمامة، فى قصعة يزل عنها الطرف، ويموج فيها الظرف، فلما أخذت فى الخوان مكانها، ومن القلوب أوطانها، قام أبو الفتح الاسكندرى يلعنها وصاحبها، ويمقتها وآكلها، ويثلبها وطابخها . وظنناه يمزح، فاذا الأمر بالضد، وإذا المزح عين الجد، وتنحى عن الخوان، وترك مساعدة الإخوان، ورفعناها فارتفعت معها القلوب، وسافرت خلفها العيون، وتحلبت لها الأفواه، وتلمظت لها الشفاه، واتقدت لها الأكباد، ومضى فى أثرها الفؤاد[(١)] .

ولكنا ساعدناه على هجرها، وسألناه عن أمرها، فقال :

قصتى معها أطول من مصيبتى فيها، ولو حدثتكم بها لما أمنت المقت، وإضاعة الوقت .

قلنا هات .

فقال :

دعانى بعض التجار إلى مضيرة وأنا ببغداد ، ولزمنى ملازمة الغريم، والكلب لأصحاب الرقيم، إلى أن أجبته إليها . وقمنا، فجعل طول الطريق يثنى على زوجته، ويفديها بمهجته، ويصف حذقها فى صنعتها، وتأنقها فى طبخها، ويقول :

---

(١) للقارئ أن يلاحظ الفكاهة فى هذا الموطن .

يامولاى، لو رأيتها، والخرقة فى آستها، وهى تدور فى الدور، من التنور إلى القدور، ومن القدور إلى التنور، تنفث بفيها النار، وتدق بيديها الأبزار، ولو رأيت الدخان وقد غبّر فى ذلك الوجه الجميل، وأثر فى ذلك الخد الصقيل، لرأيت منظرا تحار فيه العيون، وأنا أعشقها لأنها تعشقنى، ومن سعادة المرء أن يرزق المساعدة من حليلته، وأن يسعد بظعينته، ولا سيما إذا كانت من طينته، وهى ابنة عمى لحًّا طينتها طينتى، ومدينتها مدينتى، وعمومتها عمومتى، وأرومتها أرومتى، لكنها أوسع منى خُلقا، وأحسن خَلقا .

وصدّعنى بصفات زوجته، حتى آنتهينا إلى محلته، ثم قال :

يا مولاى ! ترى هذه المحلة ؟ هى أشرف محال بغداد، يتنافس الأخيار فى نزولها، ويتغاير الكبار على حلولها، ثم لا يسكنها غير التجار، وإنما المرء بالجار، ودارى فى السطة[1] من قلادتها، والنقطة من دائرتها .

كم تقدّر يامولاى أنفقَ على كل دار منها ؟

قله تخمينا، إن لم تعرفه يقينا .

أبو الفتح : الكثير !

التاجر : يا سبحان الله ! ما أكبر هذا الغلط ! تقول الكثير فقط ؟

(وتنفس الصعداء، وقال سبحان من يعلم الأشياء !)

قال أبو الفتح : وآنتهينا إلى داره .

التاجر : هذه دارى . كم تقدّر يا مولاى أنفقت على هذه الطاقة، أنفقت والله عليها فوق الطاقة، ووراء الفاقة . كيف ترى صنعها وشكلها، أرأيت بالله مثلها ؟ أنظر الى دقائق الصنعة فيها، وتأمل حسن تعريجها فكأنما خط بالبركار . وآنظر الى حذق النجار فى صنعة هذا الباب، اتخذه من كم ؟ قل .

---

(١) السطة : الواسطة، وهى كلمة يكثر ورودها فى كلام بديع الزمان فى مثل هذا المعنى فقد جاء فى المقامة سجستانية ما نصه :

« انتهيت من دائرة البلد الى نقطتها، ومن قلادة السوق الى سطتها » .

أبو الفتح : ومن أين أعلم ؟

التاجر : هو ساج من قطعة واحدة، لا مأروض ولا عفن ، اذا حرك أن ، واذا نقر طنّ . من آتخذه يا سيدى ؟

أبو الفتح : ... ... ؟

التاجر : اتخذه أبو إسحق بن محمد البصرى ، وهو والله رجل نظيف الأثواب ، بصير بصنعة الأبواب، خفيف اليد فى العمل . لله درّ ذلك الرجل ! بحياتى لا آستعنت إلا به على مثله . وهذه الحلقة ؟ تراها ؟ اشتريتها فى سوق الطرائف من عمران الطرائفى بثلاثة دنانير معزية . وكم فيها ياسيدى من الشبه ؟ فيها ستة أرطال ، وهى تدور بلولب فى الباب ، بالله دوّرها، ثم آنقرها وأبصرها ،وبحياتى عليك لا آشتريت الحلق إلا منه،فليس يبيع إلا الأعلاق.

قال أبو الفتح : ثم قرع الباب ودخلنا الدهليز وقال :

التاجر : عمرك الله يا دار، ولا خربك ياجدار ، فما أمتن حيطانك ، وأوثق بنيانك ، وأقوى أساسك ! تأمل بالله معارجها ، وتبين دواخلها وخوارجها ، وسلنى كيف حصلتها ، وكم من حيلة آحتلتها، حتى عقدتها ؟

أبو الفتح : ... ... ؟

التاجر : كان لى جار يكنى أبا سليمان يسكن هذه المحلة ، وله من المال ما لا يسعه الخزن، ومن الصامت ما لا يحصره الوزن. مات رحمه الله وخلف خلفا أتلفه بين الخمر والزمر ومزقه بين النرد والقمْر ، وأشفقت أن يسوقه قائد الآضطرار، إلى بيع الدار، فيبيعها فى أثناء الضجر، أو يجعلها عرضة للخطر، ثم أراها، وقد فاتنى شراها ، فأتقطّع عليها حسرات، إلى يوم الممات، فعمدت إلى أثواب لا تنض تجارتها، فحملتها اليه ، وعرضتها عليه،وساومته على أن يشتريها نسيّة، والمدْبر يحب النسية عطية، والمتخلف يعتدها هدية ، وسألته وثيقة بأصل المال فقعل، وعقدها لى، ثم تغافلت عن آقتضائه، حتى كادت حاشية حالة ترق، فأتيته، فاقتضيته ، وآستمهلنى فأنظرته ، وآلتمس غيرها من الثياب فأحضرته ، وسألته أن يجعل داره

رهينة لدىّ ، ووثيقة فى يدىّ ، ففعل ، ثم درجته بالمعاملات إلى بيعها فحصلت لى بجد صاعد ، وبخت مساعد ، وقوة ساعد ، ورب ساع لقاعد ! وأنا بحمد الله مجدود فى مثل هذه الأحوال ، وحسبك يا مولاى أنى كنت منذ ليال نائما فى البيت مع من فيه إذ قُرع علينا الباب ، فقلت من الطارق المنتاب ، فاذا آمرأة معها عقد لآل ، فى جلدة ماء ورقة آل ، تعرضه للبيع ، فأخذته منها إخذة خلس ، وآشتريته بثمن بخس ، وسيكون له نفع ظاهر ، وربح وافر ، بعون الله تعالى .

وانما حدثتك بهذا الحديث لتعلم سعادة جدى فى التجارة ، والسعادة تنبط الماء من الحجارة ، الله أكبر! لا ينبئك أصدق من نفسك ، ولا أقرب من أمسك ، اشتريت هذا الحصير فى المناداة ، وقد أخرج من دور آل الفرات ، وقت المصادرات ، وزمن الغارات ، وكنت آطلب مثله منذ الزمن الأطول فلا أجد ، والدهر حُبلَى ليس يُدرَى ما يلد ، ثم آتفق أنى حضرت باب الطاق ، وهذا يعرض فى الأسواق ، فوزنت فيه كذا وكذا دينارا . تأمل بالله دقته ولينه وصنعته ولونه ، فهو عظيم القدر ، لا يقع مثله الا فى الندر ، وإن كنت سمعت بأبى عثمان الحصيرى فهو عمله ، له آبن يخلفه الآن فى حانوته ، لا يوجد أعلاق الحصر إلا عنده ، فبحياتى لا آشتريت الحصر الا من دكانه ، فالمؤمن ناصح لاخوانه ، لا سيما من تحرم بخوانه " .

الى هنا يتصوّر القارئ ضجر أبى الفتح وهو ينتظر طعام المضيرة .

ولكن التاجر يستأنف الحديث فيقول :

" ونعود الى حديث المضيرة ، فقد حان وقت الظهيرة " .

يا غلام! الطست والماء .

أبو الفتح — فى سره — الله أكبر! ربما قرب الفرج ، وسهل المخرج .

(ويتقدم الغلام بالماء) .

التـاجر : ترى هـذا الغلام؟ إنه رومىّ الأصل، عراقى النشء، تقدم يا غلام وآحسر عن رأسك، وشمر عن ساقك، وآنض عن ذراعك، وآفترّ عن أسنانك، وأقبل و أدبر .

(و يفعل الغلام ذلك) .

التـاجر : بالله من آشتراه ؟

أبو الفتح : ... ... ؟

التـاجر : اشتراه والله أبو العباس ، من النخاس ، ضع الطست وهات الابريق .

(يضع الغلام الابريق و يأخذه التاجر فيقلبه و يدير فيه النظر ثم ينقره) .

التـاجر : أنظر الى هذا الشبه كأنه جذوة اللهب ، أو قِطع الذهب ، شَبه[1] الشام وصنع العراق، ليس من خُلقان الأعلاق، قد عرف دور الملوك . تأمل حسنه وسلْنى: متى آشتريته؟

أبو الفتح : ... ... ؟ .

التـاجر : اشتريته والله عام المجاعة، و آدّخرته لهذه الساعة، يا غلام الابريق .

(يقدم الغلام الابريق فيأخذه التاجر و يقلبه) .

التـاجر : وأنبو به منه، لا يصلح هـذا الابريق الا لهـذا الطست ، ولا يصلح هـذا الطست الا مع هـذا الدست، ولا يصلح هـذا الدست الا فى هذا البيت، ولا يجمل هـذا البيت إلا مع هذا الضيف، أرسل المـاء يا غلام، فقد حان وقت الطعام .

(و يصب الغلام المـاء فيتأمله التاجر و يقول :) .

التـاجر : ترى هذا المـاء ؟ ما أصفاه! أزرق كعين السنور، وصاف كقضيب البلور، استُقى من الفرات، وآستُعمل بعـد البيات، فجاء كلسان الشمعة، فى صفاء الدمعة، وليس الشأن فى السقاء، الشأن فى الإناء، لا يدلك على نظافة أسبابه ، أصـدق من نظافة شرابه ... وهذا المنديل؟ سلنى عن قصته فهو نسج جرجان، وعمل أرّجان، وقع الىّ فاشتريته، فاتخذتْ بعضه آمرأتى سراويلا، واتخذتُ بعضه منديلا، دخل فى سراويلها عشرون ذراعا، وآنتزعت

---

(١) الشبه، بالتحريك، النحاس الأصفر .

من يدها هـذا القدر انتزاعا ، وأسلمته الى المطرز حتى صـنعه كما تراه ، وطرزه ثم رددته من السوق ، وخزنته فى الصندوق، وآدخرته للظراف، من الأضياف ... يا غلام ! الخوان، فقد طال الزمان، والقصاع، فقد طال المصاع، والطعام، فقد كثر الكلام .

(ويأتى الغلام بالخوان فيقلبه التاجر وينقره ببنانه ويعجمه بأسنانه) .

التـاجر : عمر الله بغداد! فما أجود متاعها ، وأظرف صناعها ، تأمل بالله هذا الخوان وآنظر الى عرض متنه، وخفة وزنه ، وصلابة عوده، وحسن شكله .

أبو الفتح — وقد ضاق صدره — :

هذا الشكل، فمتى الأكل ؟

التـاجر : عجل يا غلام، لكن الخوان قوائمه منه .

أبو الفتح — وقد جاشت نفسه — :

بقى الخبز وآلاته، والخبز وصفاته . والحنطة أين آشتريتُ أصلا ، وكيف اكترى لها حملا، وفى أى رحى طحن، وإجانة عجن، وفى أى تنور سجر، وخباز استؤجر؟ .

وبقى الحطب، من أين آحتُطب، ومتى جلب، وكيف صفف ، حتى جفف ، وحبس حتى يبس ؟ ؟

وبقى الخباز ووصفه، والتلميذ ونعته، والدقيق ومدحه، والخمير وشرحه، والملح وملاحته .

وبقيت السكرجات من آتخذها، وكيف آنتقذها، ومن آستعملها، ومن عملها ؟ ؟

والخل كيف آنتقى عنبه، أو آشترى رطبه، وكيف صهرجت معصرته، وآستخلص لبه، وكيف قُيِّرحبه، وكم يساوى دنه ؟

وبقى البقل كيف آحتيل له حتى قطف، وفى أى مبقلة رصف، وكيف تؤنق حتى نظف؟ وبقيت المضـيرة، كيف آشـترى لحمها، ووفى شحمها، ونصبت قـدرها ، وأججت نارها ، ودقت أبزارها، حتى أجيد طبخها، وعقد مرقها؟ وهذا خطب يطم، وأمر لا يتم !

(ويقوم أبو الفتح) .

التاجـــر : أين تريد ؟

أبو الفتح : حاجة أقضيها !

التاجـــر : يامولاى ! تريد كنيفا يزرى بربيعىّ الأمير، وخريفىّ الوزير، قـد جُصِّص أعلاه، وصُهرجَ أسـفله ، وسطِّح سـقفه ، وفرشت بالمرمر أرضـه ، يزل عن حائطه الذر فـلا يعلق ، ويمشى على أرضـه الذباب فيزلق ، عليه بابٌ غير أنه من خليطى ساج وعاج ، مزدوجين أحسن ازدواج ، يتمنى الضيف أن يأكل فيه .

أبو الفتح : كل أنت من هذا الجراب، لم يكن الكنيف فى الحساب !

(ويمضى أبو الفتح فيقول) .

وخرجت نحو الباب ، وأسرعت فى الذهاب ، وجعلت أعدو وهو يتبعنى و يصيح (يا أبا الفتح ، المضيرة ، يا أبا الفتح) وظن الصبيان المضيرة لقبا فصاحوا صياحه ، ورميت أحدهم بحجر، من فرط الضجر، فلقى رجل الحجر بعمامته ، فغاص فى هامته ، فأخذت من النعال بمـا قدم وحدث ، ومن الصفع بما طاب وخبث ، وحشرت الى الحبس ، فأقمت عامين فى ذلك النحس ، فنذرت أن لا آكل مضيرة ما عشت ، فهل أنا فى ذا يا آل همدان ظالم ؟

قال عيسى بن هشام :

فقبلنا عذره ، و نذرنا نذره ، وقلنا : قديما جنت المضـيرة على الأحرار ، وقدمت الأراذل على الاخيار !

٣ ــ ومن الفكاهات التى صيغت صياغة فنية ما كتبه أبو الخطاب الصابى فى صـفة حَمَلَ أهداه اليه أبو العباس بن سابور :

« وصلت رقعتك ففضضتها عن خط مشرق ، ولفـظ مونق ، وعبارة مصيبة ، ومعـان غريبة ، واتساع فى البلاغة يعجز عنه عبد الحميد فى كتابته ، وسحبان فى خطابتـه ، وتصرف بين جدّ أمضى من القدَر ، وهزل أرق من نسيم السحَر ، وتقلب فى وجوه الخطاب ، الجامع

للصواب، إلا أن الفعل قصر عن القول : لأنك ذكرت حملا، جعلته بصفتك جملا، فكان المعيدى الذى تسمع به ولا أن تراه . وحضر فرأيت كبشا متقادم الميلاد، من نتاج قوم عاد، قد أفنته الدهور، وتعاقبت عليه العصور، فظننته أحد الزوجين اللذين جعلهما نوح فى سفينته، وحفظ بهما جنس الغنم لذريته، صغر عن الكبر، ولطف عن القدم، فبانت دمامته، وتقاصرت قامته، وعاد ناحلا ضئيلا، باليا هزيلا، بادى السقام، عارى العظام، جامعا للمعايب، مشتملا على المثالب، يعجب العاقل من حلول الحياة به، وتأتّى الحركة فيه ؛ لأنه عظم مجلّد، وصوف ملبد، لا يجد فوق عظامه سلبا، ولا تلقى يدك منه الا خشبا . لو ألقى الى السبع لأباه، ولو طرح للذئب لعافه وقلاه، قد طال للكلأ فقده، وبعد بالمرعى عهده، لم ير القت إلا نائما، ولا عرف الشعير إلا حالما . وقد خيرتنى بين أن أقتنيه فيكون فيه غنى الدهر، أو أذبحه فيكون فيه خصب الرحل ؛ فملت إلى استبقائه لما تعرف من محبتى فى التوفير، ورغبتى للتثمير، وجمعى للولد، وادخارى العتد ، فلم أجد فيه مستمتعا للبقاء، ولا مدفعا للفناء. لأنه ليس بأنثى فتحمل، ولا بفتى فينسل. ولا بصحيح فيرعى، ولا بسليم فيبقى ، فلت الى الثانى من رأييك ، وعولت على الآخر من قوليك، وقلت : أذبحه فيكون وظيفة للعيال، وأقيمه رطبا مقام قديد الغزال ، فأنشدنى وقد أضرمت النار ، وحدّت الشفار، وشمر الجزار :

أعيذها نظرات منك صادقة   أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

وقال : ما الفائدة لك فى ذبحى، وأنا لم يبق منى إلا نفس خافت، ومقلة إنسانها باهت، لست بذى لحم فأصلح للأكل ؛ لأن الدهر قد أكل لحمى ، ولا جلدى يصلح للدباغ لأن الأيام قد مزقت أدمى، ولا لى صوف يصلح للغزل لأن الحوادث قد حصّت وبرى ! ! فان أردتنى للوقود فكف بعر أبقى من نارى، ولن تفى حرارة جمرى بريح قتارى ! فلم يبق إلا أن تطلبنى بذحل، أو بينى و بينك دم ! فوجدته صادقا فى مقالته ، ناصحا فى مشورته، ولم أعلم من أى أمريه أعجب ؟ أمن مماطلته الدهر بالبقاء ؟ أم صبره على الضر واللأواء ؟

أم قدرتك عليه مع إعواز مثاله ، أم تأهيلك الصديق به مع خساسة قدره ! و ياليت شعرى إذ كنت و إليك سوق الغنم ، وأمرك ينفذ فى الضأن والمعز، وكل كبش سمين، وحمل بطين، مجلوب إليك، مقصور عليك، تقول فيه قولا فلا ترد، وتريده فلا تصد، وكانت هديتك هذا الذى كأنه ناشر من القبور، أو قائم عند النفخ فى الصور، فما كنت مهديا لو أنك رجل من عرض الكتاب، كأبى على وأبى الخطاب، ما كنت تهدى إلا كلبا أجرب، أو قردا أحدب ! !"[1] .

٤ — وكتب أبو إسحاق الصابى يعزى أبا بكر بن قريعة عن ثور أبيض جلس للعزاء عليه تراقعا وتحامقا .

"التعزية على المفقود — أطال الله بقاء القاضى ! — إنما تكون بحسب محله من فاقده، من غير أن تراعى قيمته، ولا قدره ، ولا ذاته ، ولا عينه، إذ كان الغرض منها تبريد الغلة، وإخماد اللوعة، وتسكين الزفرة، وتنفيس الكربة، فرب ولد عاق، وأخ مشاق، وذى رحم أصبح لها قاطعا، وقريب قوم قد قلدهم عارا، وناط بهم شنارا، فلا لوم فى ترك التعزية عنه، وأحر بها أن تكون تهنئة بالراحة منه . ورب مال صامت غير ناطق، قد كان صاحبه به مستظهرا، وله مستثمرا، فالفجيعة به اذا فقد موضوعة موضعها ، والتعزية عنه واقعة منه موقعها. وقد بلغنى أن القاضى أصيب بثور كان له فجلس للعزاء عنه شاكيا، وأجهش عليه باكيا ، وللندم عليه والها ، وحكيت عنه حكايات فى التأبين له ، و إقامة الندبة عليه، وتعديد ما كان من فضائل البقر التى تفرقت فى غيره، واجتمعت فيه وحده، فكان كما قال أبو نواس، فى مثله من الناس :

ليس على الله بمستنكر ... ان يجمع العالم فى واحد

لأنه يكرب الأرض مغمورة، ويثيرها مزروعة، ويدور فى الدواليب ساقيا، وفى الأرحاء طاحنا، ويحمل الغلات مستقلا ، والأثقال مستخفا ، فلا يؤوده عظيم، ولا يعجزه جسيم، ولا يجرى فى الحائط مع شقيقه ، ولا فى الطريق مع رفيقه، إلا كان جلدا لا يسبق، ومبرزا

(١) زهر الآداب ج ٢ ص ٢٣١ — ٢٣٣

لا يلحَق، وفائتا لا ينال شاوه وغايته، ولا يبلغ مداه ونهايته. ويشهد الله أن ماساءه ساءنى، وما آلمه آلمنى . ولم يجز عنـدى فى حق وده، استصغار خطب جل عنـده فأرمضه وأرقه، وأمرضه وأقلقه ؛ فكتبت هذه الرقعة فأصابها من الجوى فى مصابه هـذا بقدر ما أظهر من إكباره إياه، وأبان من إعظامه له ، وأسأل الله تعالى أن يخصه من المعوضة بأفضل ما خص به البشر، عن البقر، وأن يفرد هـذه البهيمة العجماء بأثرة من الثواب، يضيفها الى المكلفين من ذوى الألباب، فانها وان لم تكن منهم، فقد آستحقت أن لا تفرد عنهم، بأن مس القاضى سببها، وصار اليه منتسبها ، حتى إذا أنجز الله ما وعد به من تمحيص سيآتهم، وتضعيف حسناتهم، والإفضاء بهم الى الجنة التى رضيها لهم دارا، وجعلها لجماعتهم قرارا، وأورد القاضى أيده الله تعالى موارد أهل النعيم، مع أهل الصراط المستقيم ، جاء وثوره هذا مجنوب معه، مسموح له به ! وكما أن الجنة لا يدخلهـا الخبث، ولا يكون من أهلهـا الحدث ، ولكنه عَرق يجرى من أعراضهـم ؛ كذلك يجعل الله ثور القاضى مركبا من العنبر الشحرى ، وماء الورد الجـورى ، فيكون له جونة عطـر ونور ! وليس ذلك بمستبعد ولا مستنكر، ولا مستصعب ولا متعذر، إذ كانت قدرته بذلك محيطة، ومواعيده لأمثاله ضامنة، بما أعده الله فى الجنة لعباده الصادقين، وأوليائه الصالحين، من شهوات أنفسهم، وملاذ أعينهم، ماهو منحة من غامر فضلـه ، وفائض كرمه، عاقبة ذلك مع صـالح مساعيه، ومحمود شيمه، وقلبى بمعرفة خبره — أدام الله عزه ! — فيما آدرعه من شعار الصبر، وآحتفظ به من إيثار الأجر، ورفع اليه من السكون لأمر الله تعالى فى الذى طرقه ، والشكر له فيما أزعجه وأقلقه، فليعرفنى القاضى من ذلك ما أكون ضاربا معه بسهم المساعدة عليه، وآخذا بقسط المشاركة فيه"(1) .

٥ — ومن أظرف ما كتب على طريق الهزل والفكاهة "عهد التطفل" وهو عهد أنشاه أبو إسحاق الصابى على لسان طفيلى اسمه (عليكا) كان يقع على مائدة معين الدولة بن بويه . والظريف فى هذا العهد أنه يجرى على نمط العهود السلطانية فيبدأ بعرض خصائص المعهود إليه، ويعين المهمات التى كتب من أجلها العهد فيقول :

---

(١) راجع جواب هذا الخطاب فى زهر الآداب ج ٤ ص ١٠٣

"هذا ماعهد به علىّ بن أحمد المعروف بعليكا إلى علىّ بن عرس الموصلى، حين آستخلفه على إحياء سننه، وآستنابه فى حفظ رسومه، من التطفل على أهل مدينة السلام ومايتصل بها من أرباضها وأكنافها، ويجرى معها فى سوادها وأطرافها، لما توسمه فيه من قلة الحياء، وشدّة اللقاء، وكثرة اللقم، وجودة الهضم، ورآه أهلا له من سدّ مكانه ... " .

ثم يأخذ الأمر بالجد فيقول :

" أمره بتقوى الله التى هى الجانب العزيز، والحرز الحريز، والركن المنيع، والطود الرفيع، والعصمة الكالئة، والجنة الواقية، والزاد النافع يوم المعاد ... وأن يستشعر خيفته فى سره وجهره، ويراقبه فى قوله وفعله ... ... " .

وبعد كلام طويل فى هذه النصائح الجدية ينتقل إلى صدر الموضوع فيقول :

" وأمره أن يتأمل آسم التطفيل ومعناه، ويعرف مغزاه ومنحاه ... فان كثيرا من الناس قد آستقبحه ممن فعله، وكرهه لمن آستعمله، ونسبه فيه إلى الشره والنهم، وحمله منه على التفه والقرم، فمنهم من غلط فى آستدلاله، فأساء فى مقاله، ومنهم من شح على ماله، فدافع عنه بآحتياله، وكل الفريقين مذموم، وجميعهما ملوم، ومنهم الطائفة التى ترى فيها شركة العنان، فهى تتدله إذا كان لها، وتتدلى عليه إذا كان لغيرها، وترى أن المنة فى المطعم للهاجم الآكل، وفى المشرب للوارد الواغل، وهى أحق بالحريّة، وأخلق بالخيرية ... وقد عُرفتَ بالتطفيل، ولا عار فيه عند ذوى التحصيل، لأنه مشتق من الطَّفَل وهو وقت المساء، وأوان العشاء، فلما كثر آستُعمل فى صدر النهار وعجزه، وأوّله وآخره، كما قيل للشمس والقمر : قمران وأحدهما القمر، ولأبى بكر وعمر : العمران وأحدهما عمر، وقد سبق إمامنا (بيّان)[1] رحمة الله عليه إلى هذا الأمر سبقا أوجب له خلود الذكر، فهو باق بقاء الدهر، ومتجدّد فى كل عصر، وما نعرف أحدا نال من الدنيا حظا من حظوظها فبقى له منه أثر يخلفه وصيت يستبدّ به

(١) لا نذكر أنا اطلعنا على شىء من نوادر (بيان) هذا، ولكن يظهر أنه كان من الشخصيات المشهورة بالتطفل فى الأزمان الماضية .

إلا هو وحده ، فبيان رضوان الله عليه[1] يذكر بتطفيله كما تذكر الملوك بسيرها ، فمن بلغ الى نهايتــه ، أو جرى إلى غايته ، سعد بغضارة عيشه فى يومه ، ونباهة ذكره فى غده . جعلنا الله جميعا من السابقين إلى مداه ، والمذكورين كذكراه ! ” .

ويقول فيمن يجب أن يغشاهم المتطفلون :

” وأمره أن يعتمد موائد الكبراء والعظماء بغزاياه ، وسُمُط الأمراء والوزراء بسراياه ، فانه يظفر منها بالغنيمة الباردة ، ويصل عليها إلى الغريبة النادرة ، وإذا آستقراها وجد فيها من طرائف الألوان ، الملذة للسان ، وبدائع الطعوم ، السائغــة فى الحلقوم ، مالا يجده عنــد غيرهم . ولا ينــاله إلا لديهـــم ، لحذق صناعتهم ، وجودة أدواتهـــم ، وآنزياح عللهم ، وكثرة ذات بينهم ، والله يوفر من ذلك حظنا ، ويسدد نحوه لحظنا ، ويوضح عليــه دليلنا ، ويسهل إليه سبيلنا ” .

ويقول فى أخلاق الموسرين من التجار :

” وآمره أن يعرض لموسرى التجار ، ومجهزى الأمصار ، من وكيرة[2] الدار ، والعرس والإعذار[3] ، فانهم يوسعون على نفوسهم فى النوائب ، بحسب تضييقهم عليها فى الراتب ، وربما صبروا على تطفيل المتطفلين ، وأغضوا على تجهم الواغلين ، ليتحدثوا بذلك فى مجالسهم الرذلة ، ويمدوه فى مكارم أخلاقهم السـفلة ، ويقول قائلهم الباجح باتساع طعامه ، المبــاهى بكثرة حطامه : إنى كنت أرى الوجوه الغريبة فأطعمها ، والأيدى الممتدة فأملؤها . وهذه طائفة لم ترد بما فعلته الكرم والسمة ، وإنمــا أرادت المنّ والسمعة ، فاذا آهتدى الأريب الى طرائقها وصل إلى بغيته من إعلان قضيتها ، وفاز بمراده من ذخائر حسنتها ، إن شاء الله ” .

ويقول فيما يجب على المتطفل من مصادقة المدبرين والطباخين والحمالين :

” وأمره أن يصادق قهارمة[4] الدور ومدبِّريهــا ، ويرافق وكلاء المطابخ وحماليها ، فانهـــم يملكون من أصحابهم أزمة مطاعمهم ومشاربهم ، ويضعونها بحيث يحبون من أهــل موداتهم

---

(١) تأمل الفكاهة فى عبارة (رضوان الله عليه) . (٢) الوكيرة طعام يعمل ابتهاجا بالفراغ من بناء البيت .

(٣) الاعذار : الختان ، وهو أيضا تقديم طعام الختان . (٤) القهارمة جمع قهرمان وهو رئيس الخدمة المنزلية .

ومعارفهم . وإذا عدّت هـذه الطائفة أحدا من الناس خليلا من خلانها ، واتخذته أخا من إخوانها ، سعد بمرافقتها ، ووصل إلى محابّه من جهاتها ، ومآربه فى جنباتها " .

وأوصاه بعـد ذلك أن يتعهد الأسواق ليتوسم من يتهيأون لإقامة الولائم . ونصحه بأن ينصب الأرصاد على منازل المغنين والمغنيات ، وأمره أن يتجنب مجامع العوام المقلين ، ومحافل الرعاع المقترين ، لأن التطفيل على المعوزين إجحاف ، وفيه إزراء بمروءة المتطفلين !

ثم قال فى سياسة الأكل :

"وأمره أن يحزر الخوان اذا وضع ، والطعام اذا نقل ، حتى يعرف بالحدس والتقريب ، والبحث والتنقيب ، عدد الألوان فى الكثرة والقلة ، وآفتنانها فى الطيب واللذه ، فيقدر لنفسه أن يشبع مع آخرها ، وينتهى منها عنـد آنتهائها ، ولا يفوته النصيب من كثـيرها وقليلها ، ولا يخطئه الحظ من دقيقها وجليلها ، ومتى أحس بقلة الطعـام ، وعجزه عن الأقوام ، أمعن فى أوله إمعان الكيّس فى سعيه ، الرشيد فى أمره ، المالئ لبطنه ، من كل حار و بارد ، وخبيث وطيب ، فانه اذا فعل ذلك سـلم من عواقب الأغمار الذين يكفّون تطرفا ، ويُقلّون تأدبا ، ويظنون أن المـادة تبلغهم فى آخر أمرهم ، وتنتهى بهم الى غاية سعيهم ، فلا يلبثوا أن يخجلوا خجلة الوائب ، وينقلبوا بحسرة الخـائب . أعاذنا الله من مثل مقامهم ، وعصمنا من شقـاء جدودهم ، إن شاء الله ! "

ثم قال يوصيه بآحتمال الضيم فى سبيل البطن :

"وأمره أن يروض نفسه ، ويغالط حسه ، ويضرب عن كثير مما يلحقه صفحا ، ويطوى دونه كشحا ، ويستحسن الصمم عن الفحشاء ، وإن أتته اللكزة فى حلقه ، صبر عليها فى الوصول الى حقه ، وإن وقعت به الصفعة فى راسه ، صبر عليها لموقع أضراسه ، وإن لقيه لاق بالجفاء ، قابله باللطف والصفاء ، اذ كان قد ولج الأبواب ، وخالط الأسباب ، وجلس مع الحضور ، وآمتزج بالجمهور ، فلا بد أن يلقـاه المنكر لأمره ، ويمر به المستغرب لوجهه ، فان كان حرا حييا أمسك وتذمم ، وإن كان فظا غليظا همهم وتكلم ، وتجنب عند ذلك المخاشنة ، وآستعمل مع المخاطب له الملاينة ، ليبرّد غيظه ، ويفل حده ، ويكف غربه ، ويأمن شغبه ، ثم اذا طال

المدى تكررت الألحاظ عليه فعرف، وأنست النفوس به فألف، ونال من المحال المجتمع عليها، منال من حشم وسئل الذهاب إليها .

وقد بلغنا أن رجلا من العصابة كان ذا فهم ودراية، وعقل وحصافة، طفّل على وليمة، لرجل ذى حال عظيمة ، فرمقته فيها من القوم العيون، وصرفت بهم فيه الظنون ، فقال له قائل منهم : بمن تكون أعزك الله ؟ فقال : أنا أول من دعى الى هذا الحق ، فقيل له : وكيف ذاك ونحن لا نعرفك ؟ فقال : اذا رأيت صاحب الدار عرفنى وعرفته نفسى . فجيئ به اليه . فلما رآه بدأه بأن قال له : هل قلت لطباخك أن يصنع طعاما زائدا على عدد الحاضرين، ومقدار حاجة المدعوين ؟ قال : نعم ! قال : فانما تلك الزيادة لى ولأمثالى . وبها يستظهر ان جرى مجراى ، وهى رزق لنا أنزله الله على يدك وبك . فقال له : كرامة ورحبا، وأهلا وقربا ! والله لا جلست إلا مع علية الناس ووجوه الجلساء، إذ أطرفت فى قولك، وتفننت فى فعالك . فليكن ذلك الرجل إماما يقتدى به، إن شاء الله ! "

وأوصاه بعد ذلك أن يكثر من تعاهد الأشياء المقوية للمعدة المشهية للطعام " فانها عماد أمره وقوامه، وبها انتظامه والتئامه" إذ كانت تعين على حضور دعوتين، وتنهض المتطفل لأن يأكل فى اليوم الواحد أكلتين !

وختم عهد التطفل بهذا الختام الطريف :

"هذا عهد عليكا بن أحمد اليك، وحجته لك وعليك، لم يألك فيه إرشادا وتوقيفا، وتهذيبا وتثقيفا، وبثا وتبصيرا، وحثا وتذكيرا، فكن بأوامره مؤتمرا، وبزواجره مزدجرا، ولرسومه متبعا، وبحفظها مضطلعا، إن شاء الله تعالى، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته[1] " .

٦ — وذوق الفكاهة يغلب على كتاب القرن الرابع، ولكن المهم فى هذا الفصل أن يعرف القارئ أنهم كانوا يعمدون الى هذا الفن . وعهد التطفل الذى لخصناه يدل أوضح الدلالة على أن الفكاهة صارت فنا من فنون القول . وكان بودنا أن نكثر من الشواهد، ولكن هذا الباب فى جملته لا يراد منه الا عرض النواحى البارزة فى الأساليب والأغراض .

(١) صبح الأعشى، ج ١٤، ص ٣٦٠ — ٣٦٥

٥ – النسيب

١ — النسيب من الموضوعات التى آحتكرها الشعر عند العرب . وتلك نزعة طبيعية : فإن النسيب والغزل من أرق ألحان الغناء، وذلك يفرض أن تؤدّى تلك المعانى فى كلام مقفّى موزون . ولم نجد فى المجموعات الأدبية مختارات نثرية فى النسيب، لأن مصنفى المجموعات كانوا يفهمون أن الغزل لا يخرج عن الأنفاس الشعرية .

غير أننا نجد فى النثر لأقدم عهوده نماذج غزلية ، كالذى وقع فى القرآن وصفا للحور والولدان . نحو :

"وحُورٌ عِينٌ(1) كأمثال اللؤلؤ المكنون"

ونحـــو :

"ويطوف عليهم ولدان مخلّدون ؛ بأكواب وأباريق، وكأس من معين" .

وكما جاء فى سورة الواقعة :

﴿إنا أنشأناهن إنشاء : فجعلناهن أبكارا، عُرُبا(2) أترابا﴾ .

فهذه كلها أوصاف تدخل فى باب النسيب . ونسب الى إحدى النساء حديث فى وصف الرسول هو أيضا نسيب لأنها تكلمت عن أوصافه الحسية التى تعين أنه إنسان جميل، ووصف الجمال من ألوان النسيب .

٢ — ثم جاء القصَص الغرامى الذى شاع فى عصر بنى أميه وأوّل عصر بنى العباس .

---

(١) الحور جمع حوراء من الحور بالتحريك وهو أن يشتد بياض العين وسواد سوادها وتستدير حدقتها وترق جفونها . والعين جمع عيناء وهى سوداء العين فى سعة . (٢) العرب جمع عروب وهى العاشقة لزوجها أو المتحببة اليه .

وهو قصص كثير تجد أطايبه مبعثرة فى كتب الأدب هنا وهناك ، وفيه فقرات من الغزل الصرف تؤدى مايؤديه الشعر من مليح الأوصاف . والى القارئ شاهدا من تلك الأقاصيص :

"خرج أناس من بنى حنيفة يتنزهون الى جبل لهم ، فبصر فتى منهم يقال له عباس بجارية فهويها ، وقال لأصحابه : والله لا أنصرف حتى أرسل اليها ، فطلبوا اليه أن يكف وأن ينصرف معهم فأبى ، وأقبل يراسل الجارية حتى وقع فى نفسها ، فأقبل فى ليلة إضحيانة[1] مسكبا قوسه وهى بين إخوتها نائمة ، فأيقظها فقالت : انصرف ، وإلا أيقظت إخوتى فقتلوك . فقال : والله للموت أيسر مما أنا فيه . ولكن لله علىّ إن أعطيتنى يدك حتى أضعها على فؤادى أن أنصرف . فأمكنته من يدها ، فوضعها على فؤاده ثم انصرف . فلما كان من القابلة أتاها وهى فى مثل حالها ، فقالت له مثل مقالتها ، ورد عليها وقال : ان أمكنتينى من شفتيك أرشفهما انصرفت ثم لا أعود اليك . فأمكنته من شفتيها فرشفهما ثم انصرف . فوقع فى قلبها منه مثل النار . ونذر[2] به الحى فقالوا : ما هذا الفاسق فى هذا الجبل ! انهضوا بنا إليه حتى نخرجه منه . فأرسلت إليه : ان القوم يأتونك الليلة فاحذر . فلما أمسى قعد على مرقب ومعه قوسه وأسهمه . وأصاب الحىَّ من آخر النهار مطرٌ وندًى فلهوا عنه ، فلما كان فى آخر الليل وذهب السحاب وطلع القمر خرجت وهى تريده وقد أصابها الطل فنشرت شعرها وأعجبتها نفسها ومعها جارية من الحى ، فقالت : هل لك فى عباس ؟ فخرجتا تمشيان ، ونظر إليهما وهو على المرقب فظن أنهما ممن يطلبه ، فرمى بسهم فما أخطأ قلب الجارية ففلقه ! وصاحت الأخرى فانحدر من الجبل واذا هو بالجارية فى دمها فقال :

نعب الغراب بما كره ... ت ولا إزالة للقدر
تبكى وأنت قتلتها ... فاصبر وإلا فانتحر

(١) اضحيانة : مقمرة .

(٢) نذر به الحى : علموا به .

" ثم وجأ[1] فى أوداجه بمشاقصه[2]، وجاء الحى فوجدوهما مقتولين[3]" .

ففى هذه الأقصوصة تعابير غزلية لا تخفى على فطنة القارئ .

٣ — ويتصل بهذا الفن ما جاء فى وصف المخطوبات كقولهم أحدهم لصاحبه :

" ابغنى آمرأة بيضاء البياض، سوداء السواد، طويلة الطول، قصيرة القصر[4] " .

وقول آخر :

" ابغنى آمرأة لا تؤهل دارا[5]، ولا تؤنس جارا[6]، ولا تنفث نارا[7] " .

وقول أعرابى لابن عمه :

" أطلب لى آمرأة بيضاء، مديدة[8] فرعاء[9]، جعدة[10] تقوم فلا يصيب قميصها منها الا مشاشة[11] منكبها، وحلمتى ثدييها، ورانفتى[12] أليتيها، ورضاف ركبتيها، اذا آستقات فرميت تحتها بالأترجة[13] العظيمة نفذت من الجانب الآخر " .

فقال له آبن عمه : وأنى بمثل هذه إلا فى الجنان[14] !

٤ — وأُثِرت عن الأعراب كلمات غزلية كقول أحدهم فى وصف الهوى :

" هو أعظم ملكا فى القلب من الروح فى الجسم ، وأملك بالنفس من النفس ؛ يظهر ويبطن، ويكثف ويلطف، فامتنع عن وصفه اللسان ، وعىّ عنه البيان، فهو بين السحر والجفون ، لطيف المسلك والكمون[15] " .

---

(١) وجأ : ضرب . (٢) المشاقص جمع مشقص وهو نصل السهم اذا كان طويلا غير عريض .
(٣) راجع عيون الأخبار ج٤ ص ١٣٣ و ٣٤ . (٤) يريد : كل شىء منها أبيض فهو شديد البياض، وكل شىء منها أسود فهو شديد السواد . وكذلك الطول والقصر — راجع عيون الأخبار ج ٤ ص ٥
(٥) لا تجعل دارها آهلة بدخول الناس عليها . (٦) لا تؤنس الجيران بدخولها عليهم .
(٧) أى لا تنم ولا تغرى بين الناس — راجع عيون الأخبار ج ٤ ص ٥ (٨) طويلة .
(٩) الفرعاء : ذات الفرع وهو الشعر . (١٠) جعدة : مجتمعة الخلق . (١١) المشاشة : رءوس العظام . (١٢) مثنى رانفة وهى أسفل الألية الذى يلى الأرض عند القعود . (١٣) الأترجة ثمر شجر من جنس الليمون . (١٤) راجع عيون الأخبار ج ٤ ص ٥ و ٦
(١٥) زهر الآداب ج ٤ ص ٩٢

وسمع الأصمعي امرأة من العرب تصف امرأة وهي تقول :

" بيضاء غضة[(١)]، وذماء[(٢)] رخصة[(٣)]، قباء طفلة، تنظر بعيني شادن ظمآن، وتبسم عن منثور الأقحوان، في غب التهتان، بأساريع[(٤)] الكثبان، خلقها عميم، وكلامها رخيم ".

ووصف أعرابي امرأة يحبها فقال :

" هي زينة الحضور، وباب من أبواب السرور، ولذكرها في المغيب، والبعد من الرقيب، أشهى الينا من كل ولد ونسيب، بها عرف فضل الحور العين، واشتيق بها اليهن يوم الدين ".

وسئلت أعرابية عن الهوى فقالت :

" لا متع الهوى بملكه، ولا ملّي بسلطانه ! وقبض الله يده، وأوهن عضده ! فانه جائر لا ينصف في حكم، ولا يقصر في ظلم، ولا يرعوي للذم، ولا ينقاد لحق، ولا يبقي على عقل وفهم . لو ملك الهوى وأطيع لردّ الأمور على أدبارها، والدنيا على أعقابها ".

وقال أعرابي :

" دخلت بغداد فرأيت فيها عيونا دعجا[(٥)]، وحواجب زجا[(٦)]، يسحبن الثياب، ويسلبن الألباب ".

وقال رجل من فزارة لرجل من بني عذرة : تعدون موتكم في الحب مزية، وإنما ذلك من ضعف البنية، وعجز الروية .

فقال العذري : أما أنكم لو رأيتم المحاجر البلج[(٧)]، ترشق بالأعين الدعج، فوقها الحواجب الزج، وتحتها المباسم الفلج[(٨)]، والشفاه السمر، تفتر عن الثنايا الغر، كأنها برد الدر، لجعلتموها اللات والعزى، ورفضتم الاسلام وراء ظهوركم ".

(١) غضة : بضة . (٢) وذماء : جسميا ريان . (٣) رخصة : لينة .

(٤) الأساريع جمع أسروع وهو نوع من دود الرمل تشبه به الأنامل . (٥) الدعج جمع دعجاء من الدعج بالتحريك وهو سواد العين مع سعتها .

(٦) زج جمع أزج من الزجج بالتحريك وهو دقة الحاجبين في طول .

(٧) البلج جمع أبلج وهو الأبيض . (٨) الفلج جمع أفلج من الفلج بالتحريك وهو تباعد ما بين الأسنان .

وذكر أعرابى نساء فقال :

"ظعائن فى سوالفهن طول، غير قبيحات العطول[١]، اذا مشين أسبان الذيول، وإن ركبن أثقلن الحمول" .

ووصف آخر نساء فقال :

" يتلثمن على السبائك ، ويتشحن على النيازك[٢] ، ويتزرن على العوانك[٣]، ويرتفقن على الأرائك، ويتهادين على الدوانك، ابتسامهن وميض، عن ثغر كالاغريض، وهن عن الصبا صور[٤]، وعن الحيا حور" .

٥ — ولم نجد فيما طالعناه رسالة غرامية لأحد كتاب القرن الأول ، أما القرن الثانى فنجد فيه شواهد، من ذلك ما حدث مخارق المغنى إذ قال :

"لقينى أبو اسحاق اسماعيل بن القاسم[٥] قبل نسكه فقال: أنا والله صب بك، ولوع اليك، مغمور القلب بشكرك، واللسان بذكرك، متشوف الى رؤيتك ومفاوضتك، وقد طالت الأيام على ما أعد به نفسى من الاجتماع معك، ومن قضاء الوطر منك، فما عندك، أنا الفداء لك! أتزورنى أم أزورك؟ قلت: جعلنى الله فداك! ما يكون عند من هو منك بهذا الموضع، وفى هذا المحل، الا الانقياد الى أمرك، والسمع والطاعة لك، ولولا أن أسيء الأدب فى أمر بدأت فيه بالفضل لقلت إن كثير ما ابتدأت به من القول يقل عما عندى من الشوق اليك، والشغف بك، فوجبت لك به المنة علىّ، وأنا بين يديك : فاثن عنانى الى ما أردت، وقدنى كيف شئت" .

وكان أبو العتاهية من المفتونين بغناء مخارق، سمعه يوما يغنى فجعل يبكى، ثم قال :

" يا دواء المجانين ! لقد رققت حتى كدت أن أحسوك[٦] ! " .

وهذه العبارة جذوة من جذوات التشبيب .

(١) أى أن العطل من الحلى لا يغير من حسنهن . (٢) النيازك : جمع نيزك وهو الرمح القصير .
(٣) العوانك : جمع عانك وهو الرمل المعقد . (٤) صور : منحرفات . (٥) هو أبو العتاهية .
(٦) نهاية الأرب ج ٤ ص ٣٣٤

وقال على بن عبيدة الريحانى وقد رأى جارية يهواها :

" لولا البقيا على الضمائر ، لبحنا بما تجنه السرائر ، لكن نيران الحب تتدارك بالإخفاء ، ولا تعاجل بالإبداء ، فان دوامها مع إغلاق أبواب الكتمان ، وزوالها فى فتح مصارع الاعلان ".

وقال :

" لولا حركات من الابتهاج أجد حسها عند رؤيتك فى نفسى لا أعرف لها مثيرا من مظانها الا مؤانستك لى ، لأبقيت عليك من العناء ، وخففت عنك مؤونة اللقاء . لكنى أجد من الزيادة بك عندى أكثر من قدر راحتك فى تأخرك عنى ، فأضيق عن احتمال الخسران بالوحدة منك " .

والكلمة الأولى غزل خالص ، والثانية بين الغزل والاخوانيات ، ولكنها تفيض بروح النسيب .

وكان على بن عبيدة رقيق الاحساس يتحول الود عنده الى عشق ، وهو صاحب هذه الحكمة الغالية :

" اجعل أنسك آخر ما تبذل من ودك ، ومن الاسترسال منك ، حتى تجد له مستحقا . فان الأنس لباس العرض ، وتحفة الثقة ، وحباء الأكفاء ، وشعار الخاصة ، فلا تخلق جدته الا لمن يعرف قدر ما بذلت له منك[1] " .

وكتب إسحاق بن ابراهيم الموصلى الى على بن هشام القائد :

" جعلت فداك ! بعث إلى أبو نصر مولاك بكتاب منك إلى يرتفع عن قدرى ، ويقصر عنه شكرى ، فلولا ما أعرف من معانيه ، لظننت أن الرسول غلط بى فيه ، فما لنا ولك يا أبا عبد الله ، تدعنا حتى اذا نسينا الدنيا وأبغضناها ، ورجونا السلامة من شرها ، أفسدت قلوبنا ، وعلقت أنفسنا ، فلا أنت تريدنا ، ولا أنت تتركنا ! .

وما ذكرته من شوقك الى لولا أنك حلفت عليه لقلت : -

(١) زهر الآداب ص ١٨٥ ج ١

يامن شكا عبثا إلينا شوقه | شكوى المحب وليس بالمشتاق
لوكنت مشتاقا إلىّ تريدنى | ما طبت نفسا ساعة بفراقى
وحفظتنى حفظ الخليل خليله | ووفيت لى بالعهد والميثاق
هيهات قد حدثت أمور بعدنا | وشغلت باللذات عن إسحاق

قد تركت، جعلت فداك، ما كرهت من العتاب فى الشعر وغيره وقلت أبياتا لا أزال أخرج بها الى ظهر المربد وأستقبل الشمال وأتنسم أرواحكم فيها ثم يكون ما الله أعلم به، وإن كنت تكرهها تركتها إن شاء الله :

ألا قد أرى أن الثواء قليلُ | وأنْ ليس يبقى للخليل خليلُ
وإنى وإن مُلِّيت فى العيش حقبة | كذى سفر قد حان منه رحيل
فهل لى الى أن تنظر العين مرة | الى ابن هشام فى الحياة سبيل
فقد خفت أن ألقى المنايا بحسرة | وفى النفس منه حاجة وغليل

وأما بعد فانى أعلم أنك وإن لم تسأل عن حالى تحب أن تعلمها، وأن تأتيك عنى سلامة فأنا يوم كتبت اليك سالم البدن، مريض القلب ... الخ[1]» .

والشعر فى هذه الرسالة أغلب، وفقا للتقاليد الأصلية فى النسيب .

وقال أحمد بن يوسف : كتب غلام من ولد أنو شروان ممن كان أحد غلمان الديوان الى آخر منهم وكان قد علق به وكان شديد الكلف به والمحبة له :

« ليس من قدرى، أدام الله سعادتك، أن أقول لمثلك جعلت فداك، لأنى أراك فوق كل قيمة نضيرة، وثمن معجز، ولأن نفسى لا تساوى نفسك، فتقبل فىّ فديتك على كل حال، فجعلنى الله فداء ساعة من أيامك ! اعلم أيها السيد العلىّ المنزلة أنه لو كان لعبدك من شدّة الخطب أمر يقف على حدّه النعت لأجتهد أن يصف من ذلك ما عسى أن يعطف به زمام قلبك، وتحنو على الرقة والتحفى أثناء جوانحك، ولكن الذى أصبحت وأمسيت ممتحَنا

(١) ياقوت ص ٢١٩ و١٢٠ ج ٢

به فيك منع من كل بيان، ونزع عن كل لسان . والحب، أيها الملك، لم يشبه قذى ريبة، ولم يختلط به قلب معاب، فلا ينبغي لمن كرمت أخلاقه أن يعاف مقاربة صاحبه المدل بحزم نيته . والذى أتمناه أيها المولى اللطيف مجلسٌ أقف فيه أمامك ، ثم أبوح بما أضنى جسدى، وفتت كبدى، فان خف ذلك عليك، ورأيت نشاطا من نفسك اليه، كنت كمن فك أسيرا، وأبرأ عليلا، وسلك من الخير سبيلا يتوعر سلوكها على من كان قبله ،ويكون بعده،ثم أضاف الى منة لا يطيقها جبل راس ولا فلك دائر . فرأيك أيها السيد المعتمد الإسعاف قبل أن ينذرنى الموت فيحول بينى وبين ما خدعت اليه النفس مواصلا برا . إن شاء الله تعالى» .

فأجابه :

"تولى الله ما جرى به لسانك بالمزيد، ولا أوحش ما بيننا بطائر فرقة، ولا حافر تشتت، وضمنا وإياك فى أوثق حبال الأنس، وأوكد أسباب الألفة . وقفت على مالخصته من العجز عن بلوغ ماخامر قلبك، وانطوى فى ضميرك، من التشغف المقاقل، والهوى المضرع، ولعمرى لو كشف لك عن معشار ما عليه مضمر صدرى، لأيقنت أن الذى عندك إذا نسبته الى ماعندى كالمتلاشى الزائل . ولكنك بفضل الإنعام سبقتنا الى كشف ما فى الضمير . وأما طاعتى لك، وذمامى إليك، فطاعة العبد المقتنى، الطائع لما يحكم له وعليه مولاه ومالكه . وأنا سائر إليك وقت كذا، فتأهب لذلك بأجهد عافية، وأتم عاقبة، وأسعد نجم جرى بالألفة إن شاء الله تعالى[1]" .

وهذا، كما يرى القارئ، غزل عفيف يفيض بأرق أنفاس الوجدان .

وفى نسبته الى غلمان من أولاد أنو شروان دليل على أن هذا الفن وصل الى العرب من الفرس، والفرس المستعربون نقلوا الى اللغة العربية فنونا من القول كان يتحرج منها العرب، فهم الذين أذاعوا غزل المذكر فى الشعر، وهم كذلك الذين أذاعوه فى النثر، لأن هذه

(١) راجع ص ١٣٩ و ١٤٠ ج ١ من زهر الآداب .

العواطف الرقيقة كانت مما يتحاماه العرب فى بداوتهم ؛ فلما تحضروا أقبلوا على هــذه الفنون الناعمة التى سبقهم اليها الفرس واليونان بأزمان طوال .

٦ — وفى القرن الثالث نجـد الغزل أخذ يظهر فى النثر ، ونرى الجاحظ يكتب الى إبراهيم بن المدبر (١) :

«ما ضاء لى نهار ولا دجا ليل، مذ فارقتك، إلا وجدت الشوق إليك قد حزّ فى كبدى، والأسف عليـك قد أسقط فى يدى ، والنزاع نحوك قد خان جلدى ، فأنا بين حشا خافقة، ودمعة مهراقة، ونفس قد ذبلت بما تجاهد، وجوانح قد بليت بمـا تكابد، وذكرت وأنا على فراش الارتماض، ممنوع من لذة الاغتماض، قول بشار :

اذا هتف القمرىّ نازعنى الهوى بشوق فلم أملك دموعى من الوجد
أبى الله إلا أن يفــرق بيننـا وكنا كماء المـزن شِيب مع الشهد
لقـــد كان ما بينى زمانا و بينهـا كما كان بين المسـك والعنبر الورد

فانتظم وصف ما كنا نتعاشر عليه، ونجرى فى مودتنا اليه، فى شعره هذا . وذكرت أيضا ما رمانى به الدهر من فرقة أعزائى من إخوانى الذين أنت أعزهم ، و يمتحننى بمن نأى من أحبائى وخلصائى الذين أنت أحبهم وأخلصهم، و يجرّعنيه من مرارة نأيهم، و بُعـد لقائهم، وسألت الله أن يقرن آيات سرورى بالقرب منك، ولين عيشى بسرعة أوبتك، وقلت أبياتا تقصر عن صفة وجدى، وكنه ما يتضمنه قلبى، وهى :

بخـــدىَ من قطر الدموع نُدوبُ و بالقلب منى مـــذ نأيت وجيبُ
ولى نفَس حتى الدجى يصدع الحشا و رجع حنين للفـــؤاد مذيب
ولى شاهــد من ضر نفسى وسقمه يخـــبر عـــنى أننى لكئيب
كأنىَ لم أفجع بفـــرقة صـاحب ولا غاب عن عينى سواك حبيب»

---

(١) راجع أخبار هــذه الرسالة فى ياقوت ص ٦٧ و ٦٨ ج ٦

وقد قرئت هذه الرسالة فى مجلس آبن المدبر فقال أحد الحاضرين : هذه رقعة عاشق لا رقعة خادم، ورقعة غائب لا رقعة حاضر ! فضحك آبن المدبر وقال : نحن نتبسط مع أبى عثمان الى ما هو أدق من هذا وألطف .

وقال آبن المعتز : كان لنا مجلس حظ أرسلت بسببه خادمة الى قينة فأجابت، فلما مرت فى الطريق وجدت فيه حارسا فرجعت، فأرسلت اليها أعاتبها فكتبت إلىّ :

" لم أتخلف عن المسير الى سيدى فى عشية أمس لأرى وجهه المبارك، وأجيب دعاءه، إلا لعلة قد عرفتها فلانة، ثم خفت أن يسبق الى قلبه الطاهر أنى قد تخلفت بغير عذر، فأحببت أن تقرأ عذرى بخطى، ووالله ما أقدر على الحركة، ولا شىء أسرّ إلىّ من رؤيتك، والجلوس بين يديك، وأنت يا مولاى جاهى وسندى، لا فقدت سندى ! ولك رأيك فى بسط العذر موفقا " .

وكتبت فى أسفل الكتاب :

أليس من الحرمان حظٌّ سُلبتهُ وأحوجنى فيه البلاء الى العذر !
فصبرا فما هذا بأوّل حادث رمتنى به الأقدار من حيث لا أدرى

فأجابها آبن المعتز :

" كيف أردّ عذر من لا تتسلط التهمة عليه، ولا تهتدى الموجدة اليه ؟ وكيف أعلمه قبول المعاذير، ولا آمن بعض جواهره الىّ يسير الى انتهاز فرصة فيما عاد الى الفرطة . فان سلمت من ذلك ثمن يجيرنى من توكله على تقديم العذر، ووقوعه موقع التصديق فى كل وقت، فتتصل أيام الشغل والعلة، وتنقضى أيام الفراغ والصحة، فتطول مدة الغيبة، وتدرس آثار المودة[1] " .

وكتب آخر الرقعة :

إذا غبتِ لم تعرف مكانى لذةٌ ولم يلق نفس لهوها وسرورها

(١) زهر الآداب ص ٢٧ ج ٤

وبذلت سمعا واهيا غير ممسك لقـــول وعينا لا يرانى ضميرها

٧ — وفى القرن الرابع يظهــر الغزل فى النثر ظهورا رائعا بحيث يمكن مقارنة الرسائل الغرامية بأقوى قصائد التشبيب ، ولا يمكن الارتياب فى قدرة كتاب القرن الرابع على إجادة هذا الفن وتفوقهم فيه وتصرفهم فى ضروبه تصرف المبدعين .

وأى حسن فات ابن العميد إذ يقول :

" سألتنى عمن شغفنى وجدى به ، وشعفنى حبى له . وزعمت أنى لو شئت لذهلت عنه ، أو لو أردت لاعتضت منه ، زعما لعمر أبيك ليس بزعم ! كيف أسلو عنه وأنا أراه ، وأنساه وهو لى تجاه ، هو أغلب علىّ ، وأقرب الىّ ، من أن يرخى لى عنانى ، أو يخلينى واختيارى ، بعــد اختلاطى بملكه ، وانخراطى فى سلكه ، وبعد أن ناط حبــه بقلبى نائط ، وساطه بدمى سائط ، وهو جار مجرى الروح فى الأعضاء ، متنسم تنسم الروح للهواء ، إن ذهبت عنه رجعت اليــه ، وإن هربت منه وقعت عليه ، وما أحب السلو عنه مع هناته ، وما أوثر الخلو منه مع مَلاته . هــذا على أنه إن أقبل علىّ بهتنى إقباله ، وأن أعرض عنى لم يطرقنى خياله ، يبعــد عنى مثاله ، ويقرب من غيرى نواله . ويردّ عينى خاسـية ، ويثنى يدى خاليــة ، وقد بسط آفات العيون المقاربة ، وصدّق مرامى الظنون الكاذبة . وصــله ينذر بصده ، وقربه يؤذن ببعده ، يدنى عنــد ما ينزح ، ويأسو مثل ما يجرح ، لحالته أحوال ، وخلته خلال ، وحكمه سجال ، الحسن فى عوارفه ، والجمال من منائحه ، والبهاء من أصوله وصفاته ، والسناء من نعوته وسماته ، اسمه مطابق لمعناه ، وفحواه موافق لنجواه "[1] .

وأرسل قابوس بن وشمكير الى بعض أودائه :

" كتبت ، أطال الله بقــاء مولاى ، وما فى جسمى جارحة إلا وهى تودّ لو كانت يدا تكاتبه ، ولسانا يخاطبه ، وعينا تراقبــه ، وقريحة تعاتبه ، بنفسى وله ، وبصيرة وره ، وعين

(١) ص ١٣٠ و ١٣١ ج ٤ من زهر الآداب .

عبرى، وكبد حرى، منازعة الى ما يقرب منه، وتمسكا بما يتصل عنه، ومثابرة على أمل هو غايته، وتعلقا بحبل عهد هو نهايته، وخاطرى يميل نحوه، ونفسى تأمل دنوه، وترجو وتقول: أتراه، بل لعله وعساه، يرق لنفس قد تصاعد نفَسها، ويرحم روحا قد فارقها روحها ومؤنسها، وكيف بقلبه لو عاين صورةً هذه صورتها، وشاهد مهجةً هذه جملتها، فليرفق — جعلت فداه! — بمن عائد برحا عظيما، وكابد قرحا أليما، وليرق لكبد مزقها البعاد، وعين أرقها السهاد، وأحشاء محرقة بنار الفراق، وأجفان مقروحة بدمعها المهراق، وقلب فى أوصابه متقلب، ولب فى عذابه معذب، فلو أنى أسعدت فأعطيت الرضى، وخيرت فاخترت المنى، لتمنيت أن أتصور صورتك، وأطالع طلعتك، وأمثل لها مثالى لتراه، فأخبرها بكنه حالى ومعناه، لترفق لإزالة ما أزله الدهر الى، ولتتلطف لإماطة ما أماطه على، وأشكو بعض ما نابنى من نوائبه، وأطلقنى من أشراكه وحبائله"[1] .

٨ — وأمثال هاتين الرسالتين مما يكثر وجوده فى نثر القرن الرابع، وهو فن وسط بين الغزل والاخوانيات . وهنالك نماذج عديدة من الغزل الصريح، كالذى تخيره الثعالبى مما جاء فى رسائل معاصريه وصفا لمحاسن النساء ومحاسن الغلمان . والى القارئ شواهد تعيّن مناحيهم فى هذا الباب :

—هى روضة الحسن، وضرة الشمس، وبدر الأرض .

—هى من وجهها فى صباح شامس، ومن شعرها فى ليل دامس، كأنها فلقة قمر على برج فضة، بدر التم يضيئ تحت نقابها، وغصن البان يهتز تحت ثيابها .

— ثغرها يجمع الضريب والضرب، كأنه نثر الدر .

— قد أنبت صدرها ثمر الشباب .

— خرطت لها يد الشباب حقين من عاج .

— كأنها البدر قرط بالثريا، ونيط بها عقد من الجوزاء .

(١) ياقوت ج ٦ ص ١٤٥ و ١٤٦

ـــ أعلاها كالغصن ميال، وأسفلها كالدعص منهال .

ـــ لها عنق كابريق اللجين، وسرة كمدهن العاج .

ـــ نطاقها مجدب، و إزارها مخصب .

ـــ مطلع الشمس من وجهها، ومنبت الدر من فمها، وملقط الورد من خدها، ومنبع السحر من طرفها، ومبادى الليل من شعرها، ومغرس الغصن من قدها، ومهيل الرمل من ردفها .

ـــ شادن فاتر طرفه، ساحر لفظه .

ـــ غلام تأخذه العين، ويقبله القلب، وترتاح اليه الروح .

ـــ تكاد القلوب تأكله، والعيون تشربه .

ـــ جرى ماء الشباب فى عوده فتمايل كالغصن، وآستوفى ماء الحسن، ولبس ديباجة الملاحة .

ـــ كأن البدر قد ركب على أزراره، لا يشبع منه الناظر، ولا يروى منه الخاطر .

ـــ شادن منتقب بالدر، ومكتحل بالسحر .

ـــ ما هو إلا نزهة الأبصار، ومخجل الأقمار، وبدعة الأمصار .

ـــ غمزات طرفه، تخبر عن ظرفه، ومنطقته تنطق عن وصفه .

ـــ تخال الشمس تبرقعت غرته، والليل ناسب أصداغه وطرته .

ـــ الحسن ما فوق أزراره، والطيب ما تحت إزاره .

ـــ شادن يضحك عن الأقحوان، ويتنفس عن الريحان .

ـــ له عينان حشو أجفانهما السحر، كأنه قد أعار الظبى جيده، والغصن قده، والراح ريحه، والورد خده .

ـــ الشكل فى حركاته، وجميع الحسن بعض صفاته .

ـــ قد ملك أزمّة القلوب، وأظهر حجة الذنوب، كأنما وسمه الجمال بنهايته، ولحظه الفلك بعنايته، فصاغه من ليله ونهاره، وحلاه بنجومه وأقماره، ونقشه ببدائع آثاره، ورمقه بنواظر سعوده، وجعله بالكمال أحد جنوده .

ــ قد صبغ الحياء غلالة وجهه، ونشر لؤلؤ العرق عن ورد خده .

ــ له طرة كالغسق، على غرة كالفلق .

ــ جاءنا فى غلالة تنم على ما يستره، وتحنو مع رقتها على ما يظهره .

ــ وجهٌ بماء الحسن منسول، وطرف بمرود السحر مكحول .

ــ السحر فى ألحاظه، والشهد فى ألفاظه، كأنه خاصم الولدان، ففارق الجنان .

ــ اختلس قامة الغصن، ووشح بمطارف الحسن، وحكى الروض غب المزن .

ــ الجنة مجتناة من قربه، وماء الجمال يترقرق فى خدّه، ومحاسن الربيع بين سَحره ونحره .

ــ ماهو إلا خالٌ فى خدّ الظرف، وطراز على علم الحسن، ووردة فى غصن الدهر، ونقش على خاتم الملك، وشمس فى فلك اللطف[1] .

٩ ــ وأوضح ما يكون النسيب المنثور إذا اتصل بأهل الفنون، كقول أحد الكتاب فى وصف جارية كاتبة :

"كأن خطرا أشكال صورتها، وكأن مدادها سواد شعرها، وكأن قرطاسها أديم وجهها، وكأن قلمها بعض أناملها، وكأن بنانها سحر مقلتها، وكأن سكينها غنج لحظها، وكأن مقطها قلب عاشقها[2]" .

١٠ ــ هذا، ولعل القارئ لاحظ أن أكثر ما مرّ به فى هذا الفصل يرجع الى غزل المذكر، وهو كذلك، فقد تحوّل النسيب فى العصر العباسى الى هذا الفن، وقل التشبيب بالنساء أو كاد، وخفّ خطاب المذكر على ألسن الشعراء، حتى رأينا من يصف محبوبه، وهو يعنى محبوبته، كأنّ خطاب المذكر أخف فى اللغة وأسهل فى توجيه الضمائر والإشارات أو كأنه متابعة لما يقع من هذا النوع فى اللغة الفارسية .

---

(١) راجع زهر الآداب ج ٣ ص ١٤٧ ــ ١٤٩ وسحر البلاغة ص ٢٩

(٢) زهر الآداب ج ٣ ص ٩٣

وقد وضع الراغب الأصفهانى فى محاضراته[1] هذا العنوان :

" الاستحياء من المحبوب بظهر الغيب لتذكره "

ثم جاء بشواهد من شعر جميل ، وأشجع ، ومجنون ليلى ، وكلها فى المحبوبة لا فى المحبوب[2] .

ولنذكر أن غزل المذكر فى النثر نوع من الثورة على التقاليد الأدبية ، فان أبا هلال يحدثنا أن صاحب الرياسة لو خطب بذكر عشيق له ووصف وجده به وحنينه إليه وشهرته فى حبه وبكاه من أجله لاستهجن منه ذلك ، ولو قال فى ذلك شعرا لكان حسنا[3] . فكأن غزل المذكر فى الشعر مستحسن مقبول ، ولكنه فى النثر مستهجن مرذول . فكيف يتفق هذا مع ما رأيناه من الغزل المنثور فى رسائل ابن العميد؟ الجواب سهل ، وهو أن أبا هلال يقول : " لو خطب " ولم يقل " لو كتب " ومن الواضح أن من يلقى خطبة فى الحنين الى معشوق يعدّ سخيفا ، ولا كذلك من يحن الى محبوبه بأوتار القصيد .

ولا ينس القارئ أن موقفنا دائما موقف المؤرّخ ، وليس فى مقدورنا أن نحكّم ذوق اليوم ، ذوق القرن الرابع عشر ، فى ذوق القرن الرابع ، فكتّاب عصرنا لا يتغزلون بالنثر ، ومنهم

---

(١) ص ٢٥ ج ٢ (٢) وكتّاب العصر الحاضر ، على عكس ذلك ، يفرّون من خطاب المذكر فى الغزل ، و يحرّفون الكلم عن مواضعه أحيانا : فقد كتب الدكتور طه حسين فصلا عن شعر الأستاذ عباس العقاد تعرّض فيه لتحليل احدى مقطوعاته فقال : « أحسن العقاد وصف صاحبته » مع أن العقاد كان يصف صاحبه لا صاحبته . وكتب الأستاذ الشيخ عبدالله عفيفى فصولا عن شعراء مصر فكان يتفق له كثيرا أن يقول : « وقال فى وصف محبوبته » على حين يتحدّث الشاعر عن محبوبه لا محبوبته . وهذا وذاك نوع من التحمل المقبول . والذى يهمنا هو تقييد هذه الظواهر الأدبية لدلالتها على تطوّر التعابير وفقا لتطوّر الأذواق .

ومما يحسن ذكره بهذه المناسبة أن المستشرقين الذين اهتموا بترجمة بعض القصائد الفارسية والعربية الى الفرنسية ينقلون الخطاب من المذكر الى المؤنث وفقا لتقاليدهم الأدبية فان الكلام عن المعشوق بالتذكير غير مقبول فى لغة الفرنسيس ، وقد اتفق لى وأنا أكتب هذا الكتاب بالفرنسية أن أحاور ذلك الذوق فتهربت بعض الضمائر ونقلتها من المذكر الى المؤنث وفقا للتقاليد الفرنسية . والعرف يطغى أحيانا فيأخذ قوة القانون .

(٣) الصناعتين ص ١٠٤

من يزن عواطفه في شعره وفقاً لتقاليد العصر الحاضر فيخاطب المؤنث وهو يريد المذكر، كما كان يتفق لبعض القدماء أن يخاطب المذكر وهو يريد المؤنث . ومؤرخ الأدب تفرض عليه الأمانة العلمية أن يصور الأدب كما كان، لا كما توجب تقاليد عصره أن يكون .

ومما سلف يتبين أن الأستاذ مصطفى صادق الرافعي أخطأ حين قرر في مقدمة كتابه (أوراق الورد) أن العرب لم تؤثر عنهم رسائل الحب ، لتصح له دعوى التفرد بالسبق إلى هذا الفن الجميل ، وهو يقف عند ما كُتب في الشوق إلى المحبوبة ، وذلك خطأ من الوجهة التاريخية ، فإن أقطاب الأدب الفني وجهوا غرامهم إلى المحبوب . وللأستاذ الرافعي أن يطعن في هذا باسم الأخلاق ، أما نحن فنؤرخ الأدب في حيدة مطلقة ، ونسايره أين سار ، والأدب لا يفرق بين الخير والشر ، ولا يميز بين الجد والمجون .

٦ - الاخوانيات

١ — هـذا الفن لا يحتاج الى تمهيد مطـول فى بيان أطواره النثرية ، كما صنعنا فى النسيب ، فانه فن قديم فى اللغة العربية ، وجد فى النثر كما وجد فى الشعر ، غير أنه فى النثر يسمى العتاب .

ومن المؤلفين من يطلق الاخوانيات والعتاب ، بدون تمييز ، على ما يقال شعـرا أو نثرا فى مناجاة الأصدقاء .

وقدم هذا الفن فى اللغة العربية لا يمنع أنه صار فى القرن الرابع فنا قويا يخيل إلى القارىء أنه فن جديد ، لكثرة ما جدّ فيه من الصور والتعابير . وهو فى جوهره قريب من الغزل لا يفرق بينهما الا آختلاف ما يردان عنه من أحوال النفس . وقد أفصح عن ذلك التوحيدى إذ قال :

«الصداقة أذهب فى مسالك العقل ، وأدخل فى باب المروءة ، وأبعد من نوازى الشهوة ، وأنزه عن آثار الطبيعة ، ... فأما العلاقة فهى من قِبَل العشق والمحبة والكلف والشغف والهوى والصبابة... الخ»[(١)] .

٢ — وقد بلغ من ذيوع هـذا الفن فى القرن الرابع أن عقد له الثعالبى فصولا فى سحر البلاغة جمع فيها ما تخيره من عبارات الكتاب ، كما آهتم فى يتيمة الدهر بجمع الفقرات الخاصة بالاخوانيات ، والى القارىء شذرات من تلك التعابير الإخوانية :

— مودة سكنت الصدر ، وحلت سواد القلب .

— ودّ سليم الصفحة ، أملس الجلدة ، مشرق السحنة ، واضح الجبهة .

(١) الصداقة والصديق ص ٤٠

ـــ مودة أدين بها عن خالصة النفس، وأُودعها واسطة القلب، وأجمع عليها نواحى الصدر، وأحرسها من لواحظ الدهر .

ـــ قد اتخذنا المودة بيننا دينا وخليقة، ورأيناها بين الناس مجازا فأعدناها حقيقة .

ـــ لا أحـول عن عهدك وإن حالت النجوم عن ممارها ، ولا أزول عن ودك وإن زالت الجبال عن مقارها .

ـــ عهدك سمير فكرى، وودك سمير ذكرى .

ـــ صدرى وعاء ودك، ولسانى ناشر فضلك، وضميرى وقفٌ على عهدك .

ـــ الحال بيننا أربت على المودة والحرمة ، وأرمت (١) على المشاركة والخلة، وعُدَّت فى شواجر الرحم واللحمة، ومزجت الدم بالدم والمهجة بالمهجة .

ـــ محبة لا تتميز معها الأرواح ، اذا ميزت الأشباح، ومخالصة لا تتباين بها النفوس والمهج، وإن تباينت الأشخاص والصور .

ـــ نحن كالنفس الواحدة : لا تجزؤ ولا انقسام، ولا تميز ولا انفصام .

ـــ لا أعظم لحق مودته حقا، ولا أرى بين النفسين فكيف بين المـالين فرقا .

ـــ أنت جارٍ منى مجرى أبعـاض جسمى ، وأعشـار قلبى ، وأنت جزء من نفسى ، وناظم شمل أنسى .

ـــ أنت منى كالعين الناظرة التى تصان عما يقذيها ، واليد الباطشة التى تحفظ ممـا يدويها .

ـــ هو شقيق روحه، وعديل حياته، وشريك دولته، وقسيم نعمته .

ـــ ما زال مستودَع سرى وجهرى، ومشتكى بثى وحزنى .

ـــ هو منى بمنزلة الولد، والعضو من الجسد .

ـــ العشرة رَضاع تثبت حرمته، والمودة لبان تلزم ذمته .

ـــ قد تقلبنا فى أعطاف العيش، بين الوقار والطيش .

---

(١) أرمت : زادت .

— إخوان تطابقوا فى الآراء ، وتآلفوا فى الأهواء، وتمالحوا فى الطعام ، وتراضعوا بالمدام .

— أنا أتهم عليك عينى، وإن كنت لا أتهم قلبى، وأرضى لمودتك نيتى، وإن كنت لا أرضى لها طاقتى .

— لا مرحبا بعيش أتفرد به عنك، ويوم لا أكتحل فيه بك .

— وددت أن أضرب بحضرتك أطناب عمرى، وأنفق على خدمتك أيام دهرى .

— لا أزال أحن إليك ، وأحنو عليك . ياليت قلبى يتراءى لك فتقرأ فيه سطور ودى ، وتقف منها على رأيى فيك !

— إنى لآسف على كل يوم فارغ منك، وكل لحظة لا تؤنسها برؤيتك .

— أنت مَن لا يسافر ودى إلا إليه، ولا يرفرف طير محبتى إلا عليه .

— قد مِلت إليكِ فما أعتدل، ونزلت بك فما أرتحل، ووقفت عليك فما أنتقل .

— أنا أتصبَّح باسمك، وأتفاءل بذكرك، وأحلم بوجهك، وأحتلب ضرع الشعر بذكرك .

— ما فى نفسى بقعةٌ أعمر من محلك ، وأنضر من مسكنك ، ولا فى قلبى مكان إلا موشَّى بذكرك، مطرز بآسمك .

— عهدى لك أكرم العهود، ووفائى لك وفاء العِرق للعود .

— شوقى إليك زادى فى سفرى، وعتادى فى حضرى .

— شوقٌ لو خُوِّف المجرمون بحره ، وتُوعِّد المشركون بجمره ، لما عُبِد صنم ، ولا نقلت فى الضلال قدم .

— فرحة الأديب بالأديب ، كفرحة المحب بالمحبوب ، والعليل بالطبيب .

— حالى بعدك حال عود ذوى بعد آرتوائه ، ونجم هوى بعد آعتلائه .

— ودعت بوداعك العافية ، وفارقت مع فراقك العيشة الراضية .

— يا أسفى على غَفَلات العيش ، ولحظات الأنس ، إذ ظهائرنا أسحار ، ولياليبنا نهار ، وشهورنا أيام ، وسنونا قصار .

— سقى الله أياما لو كان دهرى عِقدا كانت واسطته ، أو كان عمرى جيدا كانت قلادته .

— أيامٌ حسنتْ فكأنها أعراس ، وقصرتْ فكأنها أنفاس .

— سلامٌ كأنفاس الأحباب ، وأيام الشباب .

— صرت عندك ممن محا النسيان صورته من صدرك ، وآسمه من صحيفة حفظك .

— أنت سخىٌّ بمالك على من يطالبك ، بخيلٌ بكتابك على من يكاتبك ، تتوسع فى ألوف ، وتضايق فى حروف .(١)

٣ — وهذه فقرات قليلة تخيرناها مما تخير الثعالبى لأقطاب عصره ، ويجب أن نشير الى أن هذه الثروة الأدبية ليست ملكا خالصا لكتاب ذلك العهد ، فبعضها آنتُهب من ألفاظ الشعراء ، فقول أحد أولئك الكتّاب(٢) :

" فى الأرض مَجالٌ إن ضاقت ظلالك ، وفى الناس واصلٌ إن رثت حبالك "

مأخوذ من قول معن بن أوس :

وفى الناس إن رثت حبالك واصــلُ وفى الأرض عن دار القلى متحوَّلُ

ولا يقدح فى هذا المأخذ أن يحدثنا الثعالبى فى مقدّمة سحر البلاغة أنه حل بعضه من نظم أمراء الشعر فى زمانه ، فان ألفاظ الشعراء تواجه القارئ فى أكثر ما ترك كتّاب القرن الرابع ، وعمل الثعالبى نفسه شاهد على ذلك .

٤ — وأفضل مَن كتب فى الاخوانيات أبو حيان التوحيدى ، وكتابه عن (الصداقة والصديق) من أنفس ذخائر اللغة العربية ، وقد تكلمنا عنه فى الجزء الثانى من هذا الكتاب(١) وتعجبنا المحاورات التى أنشأها فى تحليل معانى الصداقات والعلاقات والمودات . وآسمع كيف يقول :

---

(١) راجع سحر البلاغة ص ١٢٤ — ١٣٤ (٢) هو بديع الزمان . (٣) ص ١٤٠ — ١٤٣

" قلت للهائم أبى على : من تحب أن يكون صديقك ؟ قال : من يطعمنى اذا جعت ، ويكسونى اذا عريت ، ويحملنى اذا كللت ، ويغفرلى اذا زللت . فقال له على بن الحسين العلوى : أنت انما تريد انسانا يكفيك مؤونتك ، ويكفلك فى حالك ، كأنك تمنيت وكيلا فسميته صديقا . فما أحار جوابا .

" وقلت للبنوى — ولقيته بالدسكرة سنة خمس وستين — من تحب أن يكون صديقك؟ قال : من يقيلنى اذا عثرت ، ويقومنى اذا آزوررت ، ويهدينى اذا ضللت ، ويصبر علىّ اذا مللت ، ويكفينى ما لا أعلم وما علمت .

" وسمعت أبا عامر النجدى يقول : الصديق من صدقك عن نفسه لتكون على نور من أمرك ، ويصدقك أيضا عنك لتكون على مثله ، لأنكما تقتسمان أحوالكما بالأخذ والعطاء ، فى السراء والضراء ، والشدّة والرخاء ، فليس لكما فرحة ولا ترحة إلا وأنتما تحتاجان فيهما الى الصدق والانكماش والمساعدة على آجتلاب الحظ فى طلب المعاش[1] " .

٥ — ويمتاز التوحيدى بتأريخ أكثر ما ينقل من الإخوانيات ، فهو بهذا أفضل من الثعالبى الذى يهمل التأريخ حتى حين يترجم للشعراء والكتاب ، من ذلك ما حدّثنا أنه لما استوزر أبو محمد المهلبى سنة أربعين بعد وفاة أبى جعفر الصيمرى كتب الى أبى الفضل العباس بن الحسين وكان بينهما تواصل :

" بسم آلله الرحمن الرحيم .

إنى — حفظك الله وحفظنى لك ، وأمتعك بى وأمتعنى بك — قد بلوتك طول أيام أبى جعفر ، قدّس الله روحه ، فوجدتك ذا شهامة فيما يناط بك ، حسن الكفاية فيما يوكل اليك ، كتوما للسر اذا آستُحفظته ، حسن المساعدة فيما يجمل بك الوفاق عليه . وقد حدانى هذا كله على آجتبائك وتقريبك ، وإدنائك وتقديمك . وغالب ظنى أنك تعيننى على ذلك بميمون نقيبتك ، ومأمون ضريبتك . وجعلت دعامة هذا كله أنى أجريك مجرى الصديق

(١) الصداقة والصديق ص ٦٠

الذى يفاوض فى الخير والشر، ويشارك فى الغث والسمين، ويستنام اليه فى الشهادة والغيب . ولى معك عيان إحداهما مغضوضة عن كل ما ساءنى منك، والأخرى مرفوعه الى كل ماسرنى فيك، فان كنت تجد فى نفسك على قولى هذا شاهدا صدوقا، وأمارا نطوقا، فعرفنى لأعلم أن فراستى لم تفل، وحدسى عن طريق الصواب لم يمل . والحالة التى قد جددها الله لى هى محروسة لك ، ومفرغة عليك، ومستقلة بك، فأشركنى فيها بخالصة الوفاء، أو تفرد بها إن شئت بحقيقة الصفاء . فلك الأمنة من حيلولة الاعتقاد ، والسكونُ الى عفو الاجتهاد . وثق بأن الذى خطبته منك ، إنما أريده لك، فلا يقعن فى وساوس صدرك أن لكاشح لنا فيما نحن عليه طريقا لنقص، أو لحب لنا فيه بابا الى الزيادة ، وآكتف بهذا القدر الذى دللتك عليه ، وآستقبل أمرى وأمرك بالذى أرشدتك اليه . وإياك أن تستشير فيه غير نفسك فانك بعرض حسد يكون عقالا لحظك . والله يهديك للحسنى ، ويقينى فيك غوائل العيون المرضى . والسلام[1] .

وهذا كلام أفصح من أن يحتاج الى تعليق، واليك ماهو أحلى منه وأعذب :

"قلت لآبن الأبهرى : من الصديق ؟ قال : من سلم سره لك، وزين ظاهره بك ، وبذل ذات يده عند حاجتك ، وعف عن ذات يدك عند حاجته ، يراك منصفا وإن كنت حائرا، ومفضلا وإن كنت ممانعا، رضاه منوط برضاك ، وهواه محوط بهواك، إن ضللت هداك، وإن ظمئت أرواك، وإن عجزت آداك[2] . يبين عنك بالجسم والرسم، ويشاركك فى القسم والوسم" .

"قلت : أما الوصف فحسن، وأما الموصوف فعزيز" .

قال :

"إنما عز هذا فى زمانك، حين خبثت الأعراق، وفسدت الأخلاق، وآستعمل النفاق فى الوفاق، وخيف الهلاك فى الفراق . والله لقد شاهدت لشيخنا آبن طاهر أصدقاء ينطوون

---

(١) ص ٧٠ و ٧١ (٢) آداك : أعانك .

له على مودة أذكى من الورد والعنبر ، اذا لحظهم بطرفه تهللوا ، واذا ناقلهم بلفظه تدللوا ، واذا تحكم عليهم تعجلوا ، واذا أمسك عنهم تولوا وخوّلوا ، وكانوا يجدون به ما لا يجدون بأهلهم وأولادهم . رحمة الله عليهم ! فلقد كانوا زينة الأرض ، فى كل حال من الشدة والخفض ، وإنى لأذكرهم فأجد فى روحى روحا من حديثهم[1]" .

والكلام فى إخوانيات التوحيدى يطول اذا شئناه ، فلنكتف بهذه الكلمات الطيبات .

٦ — ومن الذين أكثروا من الإخوانيات بديع الزمان الهمذانى ، وكلامه فى ذلك موصول بباب العتاب . كقوله من رسالة ابتدأها بهجاء خصومه الواشين :

"أنا أطال الله بقاء الشيخ الإمام بصير بأبناء الذنوب ، وأولاد الدروب ، أعرفهم بشامة ، وأثبتهم بعلامة ، والعلامة بينى و بينهم أن يفسدوا الصنيع على صانعه ، و يحرفوا الكلم عن مواضعه ، و يرموا فى الحكاية ، سهم الشكاية ، و يجيلوا فى الشكاية ، قدح النكاية ، ثم لا يرون النكاية ، إلا السعاية ، و إن أعوزهم الصدق مالوا الى الكذب ، و إن حلم لهم الجد عرضوا باللعب . ومن علاماتهم ، قبح مقاماتهم ، و إيراد ظلاماتهم ، مورد النصيحة لكبرائهم . ومن آياتهم كثرة جناياتهم على الفضلاء ، وشدة حنقهم على من لا يخطرهم بباله ، ولا يحطبهم فى حباله ... ... والذى فاوضنى القاضى فى معناه ، جلىّ فى بابه ما حكاه ، يجمع هذه الخصال وقيادة ، وينظم هذه الأوصاف و زيادة . فلمَ يبعد الشيخ عن مثله أن يكذب ؟ ألطهارة أصله ، أم نجابة نسله ، أم حصانة أهله ، أم رجاحة عقله ، أم ملاحة شكله ، أم غزارة فضله ؟ ! ولمَ يجوز علىّ ما حكاه ؟ ألم يؤونى طريدا ، و يلمنى حصيدا ، ويؤنسنى وحيدا ، و يصطنعنى مبديا ومعيدا ؟ وكان بقدرى أنه اذا رآنى أفعل شنيعا ، أو سمع أنى ألفظ بنكر ، لم يأل فى تحسين أمرى ، فعل الوالد بولده . ونظر المولى لصنيعه أقرب" .

" والآن ، إذ عاد الأمر الى العتاب ، فهلم الى الحساب ، إن كنت أخللت بطرف من طاعتى من جهة فقد نقصنى ما عوّدنى من وجوه : وذلك أنه كان لا يتجاسر أحد على أن يفرينى عنده ، فقد صار يفرينى و يبرئ جلده ، وكان يقوّم قناتى ، فقد صار يحبط حسناتى ،

(١) الصداقة والصديق ص ١٢٤ و ١٢٥

وكان يثمّر مالى، فقد صار يبطل آمالى، وكان يحتشد لأمرى آحتشاده لأمره، فقد نبـذت وراء ظهـره، وقد كان يحمـل فصار يتحامل، وكان لا يضايقنى فى الألوف والدنانير، فقـد ضايقنى فى الشعير، فى حمل بعير... الخ[١] ".

وله من رسالة ثانية :

" ليسوا سواء : فئة بالباب تسعد بالحضرة، وأخرى بالمغيب تكمد بالحسرة، والله ما للساعة من ولىّ النعمة ثمن، ولا كالآعتياض من لقائه غبْن وغبَن، فليت كتّاب الإذن شفى مما نجد، وليت هنذا أنجزتنا ما تعد! معاذ الله أن أشتاق الى حضرته، لكنى أفتقر اليها آفتقار الجسـد الى الحياة، والحوت الى الفرات، وانمـا مَثَل العبد مع الأصحاب، مَثَل الأرض مع السحاب، أفيسمّى التحط شوقا، أم يكون الموت وجدا؟ انى عبد الشيخ وآسمى أحمد، وهمذان المولد، وتغلب المورد، ومضر المحتد[٢] . وعبدٌ بهذه الصفة غريبٌ نادر، وللصـدور والملوك بغريب الأعلاق ولوع ... الخ[٣] ".

٧ — وأبو نصر العتبي له رسائل جيدة فى الاخوانيات، نختار منها قوله فى الآستزارة :

" هذا يوم رقت علائل صحوه، وخنثت شمائل جوه، وضحكت ثغور رياضـه، وآطرد زَرد الحسن فوق حياضـه، وفاحت مجامر الأزهار، وآنتـثرت قلائد الأغصان عن فرائد الأنوار، وقام خطباء الأطيار، فوق منابر الأشجار، ودارت أفلاك الأيدى بشموس الراح، فى بروج الأقداح، وقد سبينا العقـل فى مرج المجون، وخلعنا العـذار بأيدى الجنون . فمَن طالعنا بين هذه البساتين، وأنواع الرياحين، طالع فتيانا كالشياطين، ونصارى يوم الشعانين، فبحق الفتوة التى زان الله بهـا طبعك، والمروءة التى قصر عليها أصلك وفرعك، إلا تفضلت بالحضور، ونظمـت لنا بك عقد السرور[٤] ".

وقد ترق الرسائل الإخوانية حتى تعود وكأنها رسائل حب، كالذى آتفق لأبى الفضـل الميكالى وأبى الفضل بن العميد، وقد أشرنا الى بعض ذلك فى ترجمة هذين الكاتبين فى الجزء الثانى فليرجع اليه القارئ هناك .

(١) رسائل بديع الزمان ص ١٠٧ و ١٠٨ (٢) فى هذا رد على من يظنون بديع الزمان فارسى الأصل .
(٣) ص ٨ و ٩ (٤) اليتيمة ج ٤ ص ٢٨٤

٧ - الوصف

١ — أظهر ميزة فى ذلك العصر هى إجادة الوصف : فقد آهتم كتابه آهتماما عظيما بوصف ما رأته أعينهم ، أو جرى فى خواطرهم ، أو آرتابت فيه عقولهم . ولم يكن الوصف عندهم مما يأتى عفوا عند المناسبات الطارئة — كما كان الحال فى أوائل العصر الاسلامى — لا ، بل تعمدوا آستقصاء الموضوعات الوصفية : فأطالوا الحديث عن الأزهار والرياض والنبات ، والليل والنجوم ، والجداول والغدران ، والأنهار والبحار ، والبِرَك[1] والأحواض ، والمنازل والقصور ، ومطارح القصف ، ومجالس الشراب ، والنساء والغلمان ، والجوارى السود ، والقيان ، وآلات الطرب ، ومحاسن الشباب ، وأهوال المشيب ، والرعد والبرق ، والنسيم والريح ، والمطر والثلج ، والصحو والغيوم ، والبلاغة والشعر والنثر ، والخيل والسيوف ، والنار ، والأفاعى والثعابين ، والطيور والأطعمة ، والفواكه ، والسكاكين ، والكؤوس ، والخواتم ، والحلى والقلائد ، والمحابر والأقلام[2] ، والسفن ، والدواب ، والجيوش والأساطيل ، وأيام الصيف والشتاء والربيع .

٢ — وأطنبوا فى وصف المعانى الوجدانية — كما أطنبوا فى وصف المرئيات — فتكلموا عن أهواء النفوس ونزعاتها ، كوصف الحب والوجد ، والحقد والبغض ، والكرم والنبل ، وعرضوا لما يقع لأهل المهن وللرؤساء من الهنات والعورات .

(١) البرك جمع بركة ، والبركة صارت كلمة مبتذلة ، ولكنها كانت طريفة ، ومعناها الحوض «الفسقية» وكانت مما تزدان به صحون القصور ، والصحن ابتذل أيضا ، ويعبرون عنه بالفناء — بكسر الفاء — وفى لغة التخاطب يقولون (الحوش) وهى لفظة عراقية كما فى القاموس . وفى بركة قصر المتوكل يقول البحترى :

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها ... والآنسات اذا لاحت مغانيها

(٢) أكثر كتاب القرن الرابع من وصف المحابر والأوراق والأقلام وذلك يدل على فهمهم لخطر هذه الأدوات وأثرها فى نفسية الكاتب . وقد فصلنا هذا الموضوع تفصيلا فى البحث الذى نشرناه بالفرنسية عن فن الإنشاء ومذاهب الكتاب فى القرن الثالث . وقد طبع هذا البحث مع (الرسالة العذراء) .

كل ذلك بطريقة مقصودة تدل على أنه كان لهم برنامج خاص لم يعرفه أسلافهم . ولهذا المذهب عيوبه ومزاياه : فعيبـه أنه حملهم على التكلف والإسراف، ومزيته أنه دفعهم الى تنظيم أفكارهم، وترتيب أغراضهم، فان القارئ يرى لهم قوة فى تصوير المرئيات والمعنويات لا يجدها إلا قليـلا عند من سبقهم من الكتاب . وذلك بفضل هذا الاتجاه الذى جعل من عصرهم (مدرسة وصفية) لا نراها فى عصر الخلفاء، ولا عهد بنى أمية، ولا أوائل أيام بنى العباس.

ولا ننكر أن الكتاب السابقين أجادوا الوصف فى كثير من الموضـوعات، ولكنا نقرر أن كتاب القرن الرابع عمدوا الى كل ما يقع عليه الحس، أو يجرى فى الخاطر، أو ينقده العقل، فوصفوه وصفا مفصلا مقصودا بطريقة لم يفكر فى مثلها المتقدمون .

٣ ــ ولقد مكننا الثعالبى فى كتابه (سحر البلاغة) من تعابير كثيرة عن الأوصاف التى عنى بها كتاب ذلك العصر، نثبت شيئا منها فى هذا الفصـل ليرى القارئ صـدق ما نراه من قصد كتاب ذلك العهد الى إجادة الوصف .

من ذلك قولهم فى وصف المـاء :

” ماء كالزجاج الأزرق ــ غدير كعين الشمس .

ــ ماء كلسان الشمعة، فى صفاء الدمعة، يسبح فى الرضراض، سبح النضناض .

ــ ماء أزرق كعين السّنور، صاف كقضيب البلور .

ــ غدير ترقرقت فيه دموع السحائب، وتواترت عليه أنفاس الرياح الغرائب “ .

وقولهم فى وصف النثر والنظم :

” نثر كنثر الورد، ونظم كنظم العقد ــ نثر كالسحر أو أدق، ونظم كالمـاء أو أرق .

ــ رسالة كالروضة الأنيقة، وقصيدة كالمخدّرة الرشيقة .

ــ نثر كما تفتح الزهر، ونظم كما تنفس السّحر “ .

وقولهم فى وصف سكين :

” سكين كأن القدر سائقها، والأجل سابقها، مرهفـة الصدر، مخطفة الخصر، يجول عليها فِرند العتق، ويموج فيهـا ماء الجوهر، كأن المنيـة تبرق من حدّها، والأجل يلمع من

متنها ، ركبت فى نصاب أبنوس ، كأن الحدق نفضت عليه صبغها ، وحب القلوب كسته لباسها ، أخذ لها حديدها الناصع بحظ من الروم ، وضرب لها نصابها الحالك بسهم من الزنج ، فكأنها ليل من تحت نهار ، أو مجمر أبدى سنا نار ، ذات غرار ماض ، وذباب قاض .

ـ سكين أحن من التلاق ، وأقطع من الفراق ، تفعل فعل الأعداء ، وتنفع نفع الأصدقاء ” (١) .

٤ ـ وقد ظلت أمثال هذه التعابير الوصفية منبعا يستقى منه الكتاب والشعراء الى العصر الحديث . والنقاد فى مصر يعجبون بقول حافظ ابراهيم فى وصف الصهباء :

خمرةٌ قيل إنهم عصروها من خدود الملاح فى يوم عرس

وقد حسب الدكتور طه حسين أن هذا الخيال من مبتكرات حافظ وناله بشىء من الملام لأن عصير الخدود فى زعمه مما تعافه النفوس ، فلينقل اللوم إن شاء الى كتاب القرن الرابع : لأن هذا الخيال سُرق من هنالك (٢) !

ويعجب النقاد كذلك بقول توفيق البكرى فى وصف النساء :

” صدور كالإغريض ، أو صدور البزاة البيض “ .

وهى عبارة مأخوذة من قول الثعالبى فى وصف آثار السرى الرفاء :

” كأنها أطواق الحمام ، وصدور البزاة البيض ، وأجنحة الطواويس ، وسوالف الغزلان ، ونهود العذارى الحسان ، وغمزات الحدق الملاح “ .

وقول توفيق البكرى :

” فم كأنه أقحوانة لم تصوح ، ووردة لم تتفتح ، يضحك عن جمان ، ويتنفس عن ريحان ، وينطق عن ألحان ، وخدود ، كنار أخدود ، أو تفاح ، أو ماء وراح ، أو الشفق فى الصباح “ .

---

(١) زهر الآداب ج ٢ ص ١٤١

(٢) ورد هذا المعنى أيضا فى شعر ابن خفاجة الأندلسى وورد قبل ذلك فى شعر ديك الجن .

مأخوذ أيضا من كتاب ذلك العهد .

وقوله فى وصف كِبْر أحد الرؤساء :

"كأنه جاء برأس خاقان ، أو أدال دولة بنى مروان ، أو أن الايوان داره ، والهرمين آثاره ، وعصام بن شهبر حاجبه ، وعمرو بن بحر كاتبه ، والحجاج غلامه ، والحماسة كلامه" .

مأخوذ من قول أحد كتاب القرن الرابع :

"قد أسكرته خمرة الكبر ، واستغرقته لذة التيه ، كأن كسرى حامل غاشيته ، وقارون وكيل نفقته ، و بلقيس إحدى داياته ، وكأن يوسف لم ينظر إلا بطلعته ، وداود لم ينطق إلا بنغمته ، ولقمان لم يتكلم إلا بحكمته ، والشمس لم تطلع إلا من جبينه ، والغمام لم يبد إلا من يمينه" .

وكذلك يمكن ردّ أكثر التعابير الوصفية التى كان يغرم بها فريق من كتاب الصنعة فى العصر الحاضر أمثال المبكىّ على أدبهم الرفيع : محمد المويلحى ومحمد السباعى ومحمد هلال .

٥ — وكأن القرن الرابع يؤدّى للقرون التى تليه ما أخذه عن القرون التى سبقته ، فقد كان كتابه مولعين بحل الشعر القديم : لا يرون معنى بديعا ولا خيالا طريفا إلا اقتبسوه وأضافوه الى ثروتهم النثرية ، يشهد بذلك ما أشار اليه الثعالبى فى مقدّمة (سحر البلاغة) من أنه ضمن كتابه بعض ألفاظ الجاحظ وابن المعتز ، وما نجده فى مقامات بديع الزمان من حل بعض الأبيات الجاهلية . وكانوا كذلك يغيرون على شعراء عصرهم فيأخذون معانيهم الجيدة ، كما فعل الصاحب بن عباد حين اغتصب بعض معانى المتنبي وأدخلها فى رسائله ، وكذلك فعل الصابى والخوارزمى وابن العميد .

٦ — وقد أشاع كتاب القرن الرابع نظرية "الفن للفن" فقد عوّدوا القرّاء تذوّق الكتابة البليغة ، وحببوا إليهم النثر المصنوع ، فأصبح المتأدبون يتأملون مواقع الألفاظ ، وقرار التراكيب ، وصارت فنون البديع من تورية وجناس وطباق أصولا فنية يجد القارئ لذة ومتعة حين يراها وقعت موقعا حسنا ، وأصابت الغرض الذى وضعت له ولو كان غرضا لفظيا لا يتوقف عليه تمام المعنى المراد .

واذا كان كتاب العصر الحاضر لا يستطيبون أكثر آثار ذلك العصر، ويرون بلاغتها بلاغة لفظية، فلأنهم أسرفوا فى مهاجمة النثر الفنى الذى غلبت عليه الصنعة، حتى صارت صدورهم تضيق كلما رأوا سجعا أو جناسا أو طباقا، أو أى محسِّن وقع عن قصد، مع أن المتأدب لا يقبل على آثار ذلك العصر إلا عجب لتلك القرائح القوية، وتلك الطبائع السليمة، التى سمحت لأولئك الناس بالتعمق فى وصف ما شهدته أعينهم، وأحسته أنفسهم، من غرائب العوالم المحسوسة والمعقولة، بطريقة فنية هى وحدها تتطلب دقة فى الفهم، وقوة فى العقل، وسلامة فى الذوق.

٧ — ومن أظهر الدلائل على ميل كتاب ذلك العصر الى الإغراب فى الوصف ما جاء فى نعت البلاغة بصور مختلفة على ألسنة جماعة من أرباب الصناعات[١]:

---

(١) لم نعرف واضع هذا الحديث، ولم يزد صاحب زهر الآداب على نسبته الى "بعض من ولد عقائل هذا المنثور، وألف فواصل هذه الشذور" وقد رأيت صورة منه فى كتاب اسمه "الفرائد والقلائد" منسوب الى الثعالبى، ومن المحتمل أن يكون من وضعه، وكتاب (الفرائد والقلائد) طبع على هامش "نثر النظم وحل العقد" للثعالبى أيضا — المطبعة الأدبية بالقاهرة سنة ١٣١٧ هجرية.

وملاحظة كلام أهل المهن والصناعات مما تنبه له الجاحظ قال: قلت لملاح لى — وذلك بعد العصر فى رمضان — أنظر، كم بين عين الشمس وبين موضع غروبها من الأرض؟ قال: "أكثر من مرديين ونصف" — والمردى عود يدفع به الملاح السفينة — وقال آخر: وقع علينا اللصوص، فأول رجل دخل علينا السفينة كان فى طول هذا المردى، وكانت فخذه أغلظ من هذا السكان، واسود وجه صاحب السفينة حتى صار أشد سوادا من هذا القير.

وأردت الصعود مرة فى بعض القناطر وشيخ ملاح جالس، وكان يوم مطر وزلق، فزلق حمارى فكاد يلقينى بجنبى، لكنه تماسك فأقعى على عجزه، فقال الشيخ الملاح: "لا إله إلا الله! ما أحسن ما جلس على كوثله!" — والكوثل: مؤخر السفينة.

وفى دار الكتب المصرية رسالة مخطوطة (رقم ٨٢ م أدب) تحدث فيها أربعة وخمسون رجلا (فشرط كل منهم أنه لا يكلم رفيقه إلا بعبارة تناسب حرفته، وكلما فرغ من نثره أتبعه ببيتين من شعره) وهى رسالة جاءت بعد القرن الرابع بزمان طويل وتظهر عليها النزعة المصرية فى الألفاظ والتعابير، وفيها أحيانا نزعة شامية.

ومن طريف ما فى هذه الرسالة ما جاء على لسان الجزار:

"ذبحتمونى ذبح، ونحرتمونى نحر، انتو عندكم مغنى أحسن من خروف! بالله اسنغنموا أيام البدارى قبل انسلاخها عنكم، وانت يا ساقى، يافك النعجة وكبش المراح، ما لنا عنك مراح". =

قال الجوهرى : أحسن الكلام نظاما ما ثقبته يد الفكرة، ونظمته الفطنة ، ووصل جوهر معانيه فى سموط[1] ألفاظه، فآحتملته نحور الرواة .

وقال العطار : أطيب الكلام ما عجن عنبر ألفاظه بمسك معانيه، ففاح نسيم نشقه ، وسطعت رائحة عبقه، فتعلقت به الرواة، وتعطرت به السراة .

وقال الصائغ : خير الكلام ما أحميته بكير الفكر ، وسبكته بمشاعل النظر، وخلصته من خبث الإطناب، فبرز بروز الإبريز، فى معنى وجيز .

وقال الصيرفى : خير الكلام ما نقدته يد البصيرة، وجلته عين الروية، ووزنته بمعيار الفصاحة، فلا نظر يزيفه، ولا سماع يبهرجه .

وقال الحداد : أحسن الكلام ما نصبت عليه منفخة القريحة ، وأشعلت عليه نار البصيرة، ثم أخرجته من فحم الإفحام[2]، ورققته بفطيس[3] الإفهام .

وقال النجار : خير الكلام ما أحكمت نجر معناه بقدوم التقدير، ونشرته بمنشار التدبير، فصار بابا لبيت البيان، وعارضة لسقف اللسان .

وقال النجاد : أحسن الكلام ما لطفت رفارف ألفاظه ، وحسنت مطارح معانيه ، فتنزهت فى زرابى[4] محاسنه عيون الناظرين، وأصاخت لنمارق[5] بهجته آذان السامعين .

= وما جاء على لسان البرادعى :

" أنا معكم كل ساعة فى مذلة ، وكم فى بردعى بمكم مسلة ، أنا أخيش وأتعب ، وغيرى يحط ويركب ، فما أقبح حشو كلامكم ، قطع الله حزامكم ، وأنت يا ماقى ما بتكرمنا ، اسقيا حتى تلجمنا :

عدمت عليكم ما حييت تجلدى ... وقد ضاع عمرى فيكمو وتصرما

وحل حزام الصبر منى ولم يزل ... فى فيكمو عن شرح حالى ملجما

والرسالة طويلة وفيها شواهد على البراعة فى النكتة اللفظية .

(١) السموط جمع سمط بالكسر وهو الخيط الذى تنظم فيه القلادة . (٢) الافحام : العجز عن الافصاح . (٣) الفطيس ، على وزن سكيت ، المطرقة العظيمة . (٤) الزرابى جمع وهى الأبسطة أو كل ما بسط واتكئ عليه ، الواحد زربى بالكسر ، ويضم . والزرابى من النبت ما اصفر أو احمر وفيه خضرة .

(٥) النمارق : الوسائد الصغيرة ، والمفرد نمرق ونمرقة بالتثليث .

وقال المائح[١] : أبين الكلام ما علقت وذم[٢] ألفاظه بكرة معانيه ، ثم أرسلته فى قليب[٣] الفطن ، فمتحت به سقاء يكشف الشبهات ، وآستنبطت به معنى يروى من ظمأ المشكلات .

وقال الخياط : البلاغة قميص : فجربانه[٤] البيان ، وجيبه المعرفة ، وكماه الوجازة ، ودخاريصه[٥] الإفهام ، ودروزه[٦] الحلاوة ، ولابس جسده اللفظ ، وروحه المعنى .

وقال الصباغ : أحسن الكلام ما لم تنض بهجة إيجازه ، ولم تكشف صبغة إعجازه ، وقد صقلته يد الروية من كمود الإشكال ، فراع كواعب الآداب ، وألف عذارى الألباب .

وقال الحائك : أحسن الكلام ما آتصلت ألفاظه بسدى معانيه ، فخرج مفوفا منيرا ، وموشى محبرا .

وقال البزاز : أحسن الكلام ما صدق رقم ألفاظه ، وحسن نشر معانيه ، فلم يستعجم عنك نشر ، ولم يستبهم عليك طى .

وقال الرائض : خير الكلام مالم يخرج عن حد التخليع[٧] ، إلى منزلة التقريب[٨] ، إلا بعد الرياضة ، وكان كالمهر الذى أطمع أول رياضته ، فى تمام ثقافته .

وقال الجمال : البليغ من أخذ بخطام كلامه ، فأناخه فى مبرك المعنى ، ثم جعل الآختصار له عقالا ، والايجاز له مجالا ، فلم يند عن الآذان ، ولم يشذ عن الأذهان .

وقال المخنث : خير الكلام ما تكسرت أطرافه ، وتثنت أعطافه ، وكان لفظه حالة ، ومعناه حلية .

---

(١) من متح الماء نزعه . (٢) الوذم بالتحريك السيور بين آذان الدلو . (٣) القليب : البئر .
(٤) الجربان بتشديد الباء القميص ، اذا كسرت الجيم والراء ، فاذا ضممتهما فهو الجيب ، كما فى القاموس ، وظاهر من نص هذا الحديث ان جربان القميص شىء غير الجيب . (٥) الدخاريص طيات القميص . (٦) دروز الثوب طرائق الخيط فيه . ومنه — ولا مؤاخذه ! — قيل للقمل بنات الدروز . وأولاد درزة : هم السفلة ، وهم أيضا الحاكة والخياطون . (٧) التخليع نوع من سير الفرس تخلع فيه الأليتان . (٨) التقريب ضرب من العدو . أو هو أن يرفع الحصان يديه معا و يضعهما معا .

وقال الخمار : أبلغ الكلام ما طبخته مراجل العلم ، وصفّاه راووق الفهم، وضمته دنان الحكمة، فتمشت فى المفاصل عذوبته، وفى الأفكار رقته، وفى العقول حدته .

وقال الفقاع[1] : خير الكلام ما أزاحت ألفاظه غباوة الشك، ودفعت رقته فظاظة الجهل، فطاب حساء فطنته، وعذب مص جرعته .

وقال الطبيب : خير الكلام ما اذا باشر دواء بيانه سقم الشبهة آستطلقت طبيعة الغباوة فشفى من سوء التفهم، وأورث صحة التوهم .

وقال الكحال: كما أن الرمد قذى الأبصار فكذا الشبهة قذى البصائر، فاكحل عين اللكنة بميل البلاغة، وآجل رمص الغفلة بمرود اليقظة» .

٨ ـــ وقد يقال: إن هذا حديث يدل على ذوق واضعه :فلا يكون دليلا على الاتجاهات الوصفية فى عصره ، ونجيب بأنا نجـد هذا الاتجـاه فى عدّة مواطن من آثار ذلك العصر فى الموضوع نفسه وهو وصف البلاغة . مثل :

" البليغ من يجتنى من الألفاظ أنوارها، ومن المعانى ثمارها .

ـــ فلان يعبث بالكلام، ويقوده بألين زمام، حتى كأن الألفاظ تحاسد فى التسابق الى خواطره، والمعانى تتغاير فى الانثيال على أنامله[2]" .

ونجد مثل هذا الاتجاه فى الرسائل التى تبادلهـا كتاب ذلك العصر، كقول أبى الفضـل الميكالى يخاطب الثعالبى :

"وصل كتاب سيدى ومولاى أبدع الكتب هوادى وأعجازا[3]، وأبرعها بلاغة و إعجازا، فحسبت ألفاظه در[4] السحاب ، أو أصفى قطرا وديمة، ومعانيه دُر السـخاب[5]، بل أوفى قدرا وقيمـــة[6]" .

---

(١) الفقاع : بائع الشراب .　(٢) زهر الآداب ج ١ ص ١٥٤　(٣) الهوادى جمع هاد، وهو العنق، والأعجاز جمع عجز، والمراد بالهوادى والأعجاز فى وصف الكتاب الفواتح والخواتم .　(٤) الدر بالفتح هو فى الأصل اللبن. ومنه : لله دره : تمدح الأصل الذى نبت منه.　(٥) السخاب، على وزن كتاب : قلادة من قرنفل .　(٦) زهر الآداب ج ١ ص ١١٥

٩ — ولكن أليس لهذا الزخرف قيمة فى فهم ذلك العصر ؟

بلى . إنه يدلنا على أن أولئك الناس عرفوا لغتهم معرفة جيدة ، ووقفوا على أسرارها ، وطرائق تعبيرها ، وكان من همهم أن يرتبوا الألفاظ والمعانى والتعابير والأخيلة حتى آستطاع كاتبهم أن يحشر أرباب الصناعات فى صعيد واحد ، ثم ينطقهم بأسرار البلاغة ، فيتحدث كل واحد على طريقته وبأسلوبه الذى يختاره فى مقر مهنته ، وموطن عمله . وما نحسب كتاب القرن الأول مثلا كانوا يفكرون فى جمع شتات اللغة لتصبح طوع أفكارهم وأقلامهم على هذا النحو الفضفاض ، وإنما كانوا يكتفون فى الوصول الى أغراضهم بالعبارة الواضحة الموجزة التى يفهمها خاصة الناس وعامتهم بلا عناء . أما كتاب هذا القرن فقد أصبحوا فى حاجة الى صفوة من المتأدبين تقرأ لهم ، وتفهم عنهم ، وتنقل الى الجماهير أسرار ما يكتبون ، لأن لغتهم أصبحت من القوة بحيث لا يفهمها الجمهور بلا دليل ، فليس كل قارئ ولا كل سامع بمستطيع أن يتذوق تشبيه الخط الجميل بأزهار الربيع ، والألفاظ بقلائد النحور ، والمعانى باللآلئ ، ولا أن يدرك كيف تمنى كل جارحة أن تكون أذنا تلتقط درر الكلام وجواهره ، أو عينا تجتلى مطالعه ومناظره ، أو لسانا يدرس محاسنه ومفاخره .

إذن فالصنعة التى عرف بها كتاب القرن الرابع لها وجهان : وجهٌ جميل يدل على حذقهم وبراعتهم ، ووجه آخر يدل على بعدهم من غاية البيان وهى الوضوح ، فان الإغراق فى الصنعة باب من الغموض .

٨ – المبتذل والطريف فى التعابير الأدبية

١ – نكتب هذا الفصل ردا على الأستاذ ديمومبين الذى يرى أن التعابير الأدبية عند العرب أكثرها مبتذلات[1] . ولنشر أولا إلى أنه يذكر كلمة « كليشيه » وقد بحثنا فيما يقابل هذه الكلمة فى العربية فرأينا كلمة "مبتذل" تؤدى معناها أفصح أداء . وهى كلمة استعملها علماء البلاغة حين قسموا التشبيه باعتبار الوجه الى مبتذل وغريب، وعرفوا المبتذل بأنه ما ينتقل فيه الذهن من المشبه إلى المشبه به من غير آحتياج إلى شدة نظر لظهور وجهه، وعرفوا الغريب بأنه ما آحتاج فى الآنتقال من المشبه إلى المشبه به إلى فكر ودقة نظر لخفاء وجهه . وفى هذا التفسير بعدٌ قليل بين كلمة مبتذل وكلمة كليشيه، لأن الكليشيه هو الصورة التى تقع لأوّل وضعها جميلة ثم تسيخف بكثرة الاستعمال ، فلنقرر إذن أن كلمة "مبتذل" كلمة اصطلاحية أردنا وضعها مقابل كلمة كليشيه لأنها أصلح الألفاظ لأداء المعنى الذى نريده فى وصف التعابير التى هجنها طول الاستعمال .

٢ – والحق أنه توجد فى اللغة العربية – كسائر اللغات – مبتذلات . فقد يقع التعبير موقع القبول عند ظهوره ثم لا يزال الناس يلحون فى آستعماله حتى يسمج ويبوخ . من ذلك "شحط النوى" و "شط المزار" وهى كلمات كثر ورودها فى قصائد الشعراء ورسائل الكتّاب حتى آبتذلت، وكان من ذلك أن لا يهش لها الذوق فى قول ابن زيدون :

شحطنا وما بالدار نأيٌ ولا شحط وشط بمن نهوى المزار وما شطوا

---

(١) ارسلت الى المسيو ديمومبين – وكنت فى باريس وكان فى هوتو Hautot – فصولا من رسالتى، فأرسل الىّ كتابا قيما فى ثلاث صفحات عن ملاحظاته، وجاء فيها قوله عن التعابير فى اللغة العربية :

La Littérature arabe est par essence une littérature de jolis clichés.

وقد رددت عليه فى الأصل الفرنسى، وعدت الى الموضوع فى هذه الطبعة بهذا التفصيل .

وكلمة "عَبْل الشوى" يجدها القارئ فى أكثر ما جاء فى وصف الخيل بحيث تصح إفاضتها إلى المبتذلات . وعبارة "أنشبت المنيه أظفارها" استجادها الناس فى قول الهذلى :

و إذا المنيــة أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفعُ

ثم عادت مبتذلة بكثرة الآستعمال بحيث يتحاماها الشعراء والكتاب ، ومثلها عبارة "استشعر الندم" وعبارة "حذوك النعل بالنعل" مع أن العبارة الثانية كانت مستجادة جدا فى قول عمر بن أبى ربيعة :

فلما تلاقينا عرفت الذى بها كمثل الذى بى حذوك النعل بالنعل

وقد وقعت مرة على لسان خطيب من خطباء الثورة المصرية فقابله السامعون بالسخرية والصفير[1] . وعبارة "بكرت تلومك" كثر ورودها فى الشعر الجاهلى والأموى حتى ابتذلت وتناساها الشعراء . وكلمة "نؤوم الضحى" كانت من أجمل ما توصف به المرأة، وهى اليوم من سقط المتاع . وكان القدماء يستجيدون قول آمرىء القيس :

وتعطو برخص غير شثن كأنه أساريع ظبى أومساويك إسحل

والأساريع دوابّ ظهورها ملساء تكون فى الرمل أو فى الحشيش وتشبه بها أنامل الحسان وكان هذا التشبيه مستملَحا لأول ظهوره ثم أخذ يثقل بكثرة الآستعمال حتى كاد يضاف الى القبيح المرذول فى قول أبى تمام :

بسطت اليك بنانة أسروعا تصف الفراق ومقلة ينبوعا

ومن المبتذلات أيضا قولهم "نسج على منواله" وقولهم "لا يفرق بين الغث والسمين" وهناك مبتذلات ماتت موتا لا نشور بعده كقولهم : "كثير الرماد" و "جبان الكلب" و "مهزول الفصيل" مع أنها كانت من أطيب الصفات فى شعر من قال :

وما يك فىّ من عيب فانى جبان الكلب مهزول الفصيل

---

(١) كان ذلك فى خطبة ألقاها الدكتور محجوب ثابت على قبر شهيد الوطنية محمد بك فريد .

٣ — على أن بعض التعابير قد تستثقل لسبب آخر غير كثرة الاستعمال ، وذلك حين ينحرف التعبير عما كان يراد به بعض الانحراف ؛ فقد كان القدماء يستحسنون وصف المرأة بطيب الأنياب، كالذى يقول :

وما أنشد الرعيان الا تعلةً بواضحة الأنياب طيبة النشرِ

أو الذى يقول :

لئن كان يهدى برد أنيابها العلى لأفقر منى إننى لفقيرُ

ولو أن أحد شعراء اليوم وصف فتاة ببرد الأنياب لعدّ من السخفاء؛ لأن "الأنياب" أخذت معنى أخشن وأقرب الى الوحشية . وكذلك لفظة "النسوان" كانت حلوة فى قول بعض الشعراء :

فوالله ما أدرى أزيدت ملاحةً وحسنا عن النسوان أم ليس لى عقلُ

ولكنها اليوم فى مصر كلمة "هجاء" ولا تؤدى فى الذوق ما تؤديه كلمة "نساء" .

وكذلك وصف الدمع وتشبيه العين الباكية بالقربة المخروقة فى قول ذى الرمة :

ما بال عينك منها الماء ينسكب كأنه من كلى مفرية سربُ[1]

وقوله فى كلمة ثانية :

وما شنتا خرقاء واهية الكلى سقى بهما ساق ولما تبللا[2]

بأضيع من عينيك للدمع كلما تذكرت ربعا أو توهمت منزلا

ويلحق بهذا قولهم : "نزل المطر كأفواه القِرَب" فانه ابتُذل لانصراف الأذهان عن تلك الصورة البدوية . وكان الشعراء فى عصور كثيرة يشبهون مشية المرأة بانسياب الحية كقول ابن أبى ربيعة :

خرجت تأطّر[3] فى الثياب كأنها أيم يسيب على كثيب أهيلا

---

(١) الكلى جمع كلية بضم الكاف وسكون اللام ، وهى من المزادة رقعة مستديرة تخرز عليها تحت العروة ، والمفرية : المشقوقة .   (٢) الشن والشنة : القربة .   (٣) تأطرت الحسناء : تثنت وتمايلت .

ولكن هذا الخيال عاد مما تنبو عنه الأذواق لبعد ما بين مشية المرأة وانسياب الحية ، وإن كنت أعجب كيف سرى هذا التشبيه حتى نراه عند الفرنسيين فى شعر بودلير ، وأنا لا أعرف صلة بين المرأة والحية من جهة الحسن ، إلا أن يكون اتفاقهما فى البغى مما يقرب بينهما فى خيال الشعراء ! والمرأة والحية هما اللتان أخرجتا أبانا آدم من فراديس الجنان !

٤ — ولنقيد هنا أن المبتذلات أو الكليشهات تنتقل من عصر الى عصر ومن بيئة الى بيئة ثم تذوى وتموت ، ومن شواهدها فى عصرنا ما كانت تختم به أكثر المقالات فى الصحف المصرية قبل سنين من مثل عبارة :

" ولله فى خلقه شؤون "

وقد تنوسيت هذه العبارة منذ مدّة بعد أن أملّت القرّاء والكتّاب . ومن طريف هذا النوع ما كان الدكتور طه حسين يبدأ به محاضراته فى الجامعة المصرية من مثل عبارة " قلنا فى المحاضرة الماضية " وقد اتفق له أن علا المنصة وتأهب للكلام فسمع بعض الطلبة يقول فى همس : " قلنا فى المحاضرة الماضية " فابتسم وقال :

" سمعتم فى الدرس الماضى " .

وهو تخلص لطيف !

وهناك تعابير تحيا على ألسنة أصحابها فقط كقول المرحوم سعد باشا " أخجلتم تواضعى " وقوله " فى ميدان الضحايا متسع للجميع " فان الكتّاب انصرفوا عن استغلال أمثال هذه التعابير لدلالتها على صاحبها دلالة عنيفة قوية بحيث يشعر القارئ أنها لا تقع فى الكلام إلا نهبا واختلاسا . وكذلك قوله " إن الوطن غفور رحيم " وهو تعبير قرآنىّ نقله سعد باشا من الصيغة الدينية الى الصيغة الوطنية ، فأخذ فى كلامه صورة حية ، ولكنه من التعابير التى تأبى الانقياد لكثير من الناس ، إلا أن يتفق للحاكين ما اتفق لسعد باشا من علو الكلمة ورهبة الجلال .

٥ — تنقسم المبتذلات الى أقسام : قسم مفهوم هجنته كثرة الاستعمال وقد ذكرنا له عدة أمثلة . وقسم غير واضح لا يفهم إلا فى غموض ، ولا يزال الناس يستعملونه بدون أن يتبينوا تماما وضع صورته وإن أدركوا معناه ، كقولهم "جاءوا على بكرة أبيهم" فانهم يفهمون المراد من هذا التعبير وإن كانوا لا يدركون صورته الأولى ، وقولهم "رفع عقيرته وغنى" وهى عبارة ماتت وحاول المنفلوطى إحياءها فتابعه بعض الكتاب ، وإن كانوا لا يدركون الصورة الأصلية ؛ وقولهم "شالت نعامته" اذا مات ، وقولهم :

" الى حيث ألقت رحلها أم قشعم " .

وهى عبارة لا تزال حية ، وان كان الجمهور لا يدرك صورتها الأولى على الإطلاق . وقولهم "سبق السيف العذل" وهى كلمة لا تزال تجرى على ألسنتنا ، وان كان الناس لا يلتفتون الى موردها الأول ، وقولهم "لأيا عرفت الدار" وهى عبارة جاهلية تنوسيت طويلا ثم حاول المنفلوطى إحياءها فلم تنهض إلا قليلا . وقولهم "ينحتون أثلته ويصدعون مروته" وهى جملة نستعيدها أحيانا وان كان الجمهور لا يتمثل صورتها إلا بجهد شديد .

وهناك قسم ثالث من الكليشهات جهل أصله منذ زمن طويل فانصرف عنه الكتاب والشعراء كقولهم "يا عيد مالك" و "يا هىّ مالك" و "يا شىء مالك"[1] وقولهم فى الإغراء "كذبت كذا" و "كذبك العسل" و "كذب عليك الحج" و "كذبت عليكم أوعدونى"[2] وقولهم "علك فى الأرض" و "علك شيئا" وقولهم "أعمد من سيد قتله قومه؟" أى هل زاد؟ وقول ابن ميادة :

وأعمد من قوم كفاهم أخوهم صدام الأعادى حين فُلّت نيوبها

ففسره الخليل فقال : "معناه هل زدنا على أن كفينا؟" وهذا لا يغنى شيئا فى توضيح ذلك التعبير . ومثل هذا قولهم "بعين ما أرينّك"[3] فى موضع "عجل" وقولهم "لعا" فى الدعاء

---

(١) ذكره ابن فارس فيما لم يستطع تفسيره العلماء . انظر الصاحبى ص ٣٥ (٢) من قول الشاعر :

كذبت عليكم أوعدونى وعللوا بى الأرض والأقوام قردان موظبا

(٣) ارجع الى الصاحبى ص : ٣٢ — ٣٧

للعاثر، وهى جملة ماتت منــذ أزمان وحاول شوقى إحياءها فى رواية مجنون ليلى ، وقولهم "مخرنبق لينباع" وهى عبارة تحاماها المتكلمون منذ عصور طوال، وحاول بعض الكتّاب أن يمدح صدقى باشا فوصفه بهــا فظنها الناس من الهجاء ، وما يدرى أحد أأصابوا أم كانوا من المخطئين ! وكان العــرب يستنهضون العــاثر بقولهم " دعدع ولعلع " فنهاهم النبى عن ذلك وآستحب لهم أن يقولوا "اللهم آرفع وآنفع" فمــا معنى دعدع ولعلع ؟ كانت هاتان الكلمتان مفهومتين بالطبع حتى صح النهى عنهما ثم أركبهما الموت فآندثر ما كان لهما من معنى ومدلول . وكذلك قول الشاعر :

وما كان على الجيء ولا الهيء آمتــداحيكا

فمــا هو الجيء والهيء؟ تلك مبتذلات أو كليشهات ضاعت معانيها فسحب عليها الزمان أذيال العفاء .

٦ — وفى اللغة العربيــة تعابير تفيض قوّة وحياة ، ولكن الكتّاب والشعراء ينصرفون عنها عامدين ، ومن ذلك عبارة " والذى نفسى بيــده " وهو قسم ظريف آنفرد به الرسول عليــه السلام، وقد وقع منذ ســنوات فى خطاب أذاعه الأستاذ على ماهر باشا وكان وزير المعارف، فآبتسم الناس، وقيــل إنها عبارة نمقها الأســتاذ عبد العزيز البشرى وكان الكاتب البرلمــانى لوزارة المعارف حينذاك . ومن هذا الباب الأقسام القرآنية التى تقرن بحرف" لا " مثل " فلا أقسم بالشفق " و " فلا أقسم بمواقع النجوم " وهى أيمــان لو عاد إليها المتأدبون لكانت ظريفــة ، ولكن القرآن آنفرد بها وقصر جمالهــا على آياته البينات ، بحيث لو وقعت فى كلام غيره لشعر القارئ بغربتها عن مواطنها، وبذلك قضى عليها أن تظل رهينة المصحف لا يعرفها الناس إلا فى الصلوات . وقد يكون من أسباب هجرها وتناسيها أنها كانت تشير الى معان أو حوادث كانت معروفة لعرب الجاهليــة فكانوا يجدون فى تذوقها ما لا نجد بعــد أن تطوّرت العقائد والأهواء والأذواق والميول ، فلســنا ندرك اليوم ما كان يدركه العــرب من جلال هذا اليمين " والتين والزيتون وطور سينين " ولا نسمى هذه مبتذلات ولا كليشيهات

لأن الناس آنصرفوا عن آستعمالها كل الآنصراف ، وإنما نسميها الطوابع القرآنية ، لأنها تجمل فيه وحده ، ولا تنقاد لكلام سواه بعد أن حفظت فيه ما كانت ترمى إليه من دقائق الأغراض .

٧ — لنترك المبتذلات التى ماتت ، والتى يحاول بعض المعاصرين إحياءها فى غير نفع ، من مثل "يحرقون الأُرَّم" وما أشبه ذلك من التعابير البالية ، ولنأخذ فى ذكر نوع من الصور لا يبلى ولا يموت ، لأن الضرورات اللغوية تفرض حياته على آختلاف الأزمان . والضرورات اللغوية هذه مشكلة إنسانية : لأن الناس لا يستطيعون فى سبيل الفنّ أن يخلقوا فى كل جيل ألفاظا جديدة يتميزون بها عمن سبقوهم فى تلوين الخيال . ومن أجل ذلك نرى الشعراء والكتّاب فى جميع العصور يتلاقون عند تشبيه الخدّ بالورد ، والعين بالنبل ، والثغر بالأقحوان ، والسن بالبرَد ، واللفظ بالسحر ، والنفَس بالريحان ، والقدّ بالغصن ، والطرّة بالغسق ، والغرّة بالفلق ، والخال بالمسك ، والشفة بالعقيق ، والريق بالرحيق ، وتشبيه العذار بطراز العنبر ، والعنق بابريق اللجين ، والسرة بمدهن العاج ، والوجه بالصبح ، والشعر بالليل ، ووصف العيون بالدعَج ، والمباسم بالفلَج ؛ ونراهم كذلك يتلاقون عند الكلمات الواضحة الدلالة والتى أقرها العرف والذوق ، مثل : أشر الصبا ، وسكر الحداثة ، وشرخ الشبيبة ، وريعان العمر ، وعنفوان الشباب ، وكبد السماء ، وقرارة الماء ، ومطلع الفلق ، ومجمع الغسق ، وآضطراب النفس ، وآنصطرام الصدر ، وصروف الدهر ، وغدرات الزمان . ونجدهم يتوافقون أيضا عند الصفات الغالبة ، كالعقاب الكاسر ، والبرج الشاهق ، والنجم الثاقب ، والشعرى العَبور ، والأسد الهصور ، والجبل المنيع ، والحصن الحصين ، والصبح الشامس ، والليل الدامس ، والقلب الخافق ، والماء الدافق ، والهواء العليل ، والنسيم البليل ، والطرف الكحيل ، والخد الأسيل ، والخصر النحيل ، والقوام الأهيف ، والطرف الأحور ، والوعد الخلَّب ، والزمن القلَّب ، والرسم الدارس ، والطلل الطامس ، والغيم الجهام ، والسيف الكهام ، والبأس الشديد ، والعذاب الأليم ، والروض الضاحك ، والسراب الخادع ، والغصن الرطيب ، والوادى

الخصيب، والصخرة الصماء، والدرة العصماء، والحية الرقطاء، والداء العضال، والموت الزؤام، والروضة الغناء، والجنة الفيحاء .

ولو شئنا لمضينا فى سرد ما تداوله الشعراء والكتاب من الأوصاف والتشبيهات، بدون أن يجرؤ ناقد على أخذهم باعادة ما سبق اليه الأدباء الأقدمون لأنهم فى الواقع يلجأون الى صفات وتشبيهات لا يُستغنَى عنها إلا بخلقٍ من اللغة جديد، واللغات لا تخلق فى أعوام معدودة، و إنما تمو وتتطوّر فى أجيال طوال، فليس من المعقول إذن أن نرفض تشبيه الخد بالورد مثلا بحجة أن هذا كلام معاد درجت عليه القرون . ولو نظرنا لرأينا النقاد فى أكثر اللغات يحاكمون الكتاب والشعراء الى المصطلح عليه من الألفاظ والتعابير، ويظهر ذلك واضحا عند نقادنا فى القديم والحديث، حين نراهم يقولون "العرب لا تقول ذلك" أو "لاتعرف العرب ذلك" وثلاثة أرباع ما كتب الباحثون فى النقد والبيان يرجع فى جملته الى المقابلة بين القوالب الجديدة والقوالب القديمة فى الألفاظ والمعانى والتعابير والأساليب، ومتى راعينا ذلك سهل علينا أن ندرك أن لاوجه لاتهام الأدب العربى بأنه ركام من المبتذلات كما يظن المسيو ديمومبين .

٨ — على أن الكليشيه بمعناه المفهوم عند النقاد الفرنسيين لا يوجد عند شعرائنا وكتابنا إلا قليلا، ذلك بأن التعبير لا يسمى كليشيه عند الفرنسيين إلا حين يبتذل ويفقد الحياة مثل قولهم فى المستثقل من الأشياء أو الأشخاص Embétant comme la pluie .

ونحن إذا رجعنا الى الصور الأدبية عند كبار الكتاب والشعراء من العرب وجدناها تتوثب من فيض القوة والحياة، ونستطيع أن نقدم نماذج من الشعر والنثر ليس فيها تعبير مبتكر، ولا يوجد فيها من الصفات والتشبيهات إلا ما ألفه الناس وتطاولت عليه السنون، ومع ذلك تبدو طريفة أخاذة وكأنها عذراء لم يمسسها كاتب ولا شاعر ولا خطيب، وإنما كانت كذلك لأنها صدرت عن نفس حية مفعمة بالشعور والإحساس، ومن ذا الذى ينكر أن الكلمة الواحدة قد ينطق بها رجلان فتقابل من أحدهما بالتبلد والجمود، وتقابل من ثانيهما بالتأثر والقبول، وكذلك الأغنية الواحدة يغنيها اثنان على أصولها الفنية بحيث لا تسقط منها

نبرة ولا يشذ فيها صوت ؛ ومع ذلك يكون الفرق بين المغنيين بعيدا ؛ لأن أحدهما ينقل الصوت نقل المحاكاة ؛ على حين يشعر ثانيهما بمعنى ما يغنيه ويساير صاحب الصوت فيما يعبر عنه من ألوان المشاعر والأحاسيس ؛ فلو كانت المعانى تبتذل بمجرد التكرار لوجب أن ننصرف عن أشياء كثيرة عرفها الأولون ؛ فإن كلمات الحب والعبادة والتقديس قد تكررت وتكررت فى مئات الأجيال ؛ ومع ذلك يقول المحب لحبيبته " أحبك وأعبدك وأقدسك " فتظهر هذه الجمل على طول العهد بها حارة قوية كأنها موجهة من أول آدم الى أول حواء ؛ وهذه الجمل بعينها قد يوجهها رجل الى امرأة فتتلقاها فى جمود ؛ لا لأنها جمل مبتذلة أضيفت الى الكليشيهات ؛ ولكن لأنها صدرت عن قلب خامد ولسان كذوب !

فالمعول عليه إذن فى التعابير الأدبية هو حياتها فى أنفس قائليها ؛ ولا عبرة بالقدم والحدوث فى هذا الباب ، وان كان الأدباء يتفاضلون بما يبتكرون من الصور والأخيلة ، كما يتفاضلون فى المعانى والأساليب .

والى القارئ قطعة من شعر ابن هانئ الأندلسى فى وصف زهرة رمان قطفت قبل عقدها :

وبنت أيك كالشباب النضر كأنها بين الغصون الخضر
جنان باز أو جنان صقر قد خلقته لقوة[1] بوكر
كأنما مجت دما من نحر أو نبتت فى تربة من جمر
أو سقيت بجدول من خمر لو كف عنها الدهر صرف الدهر
جاءت كمثل النهد فوق الصدر تفتر عن مثل اللثات الحمر
فى مثل طعم الوصل بعد الهجر

فالتشبيهات والصفات فى هذه القطعة قديمة تداولها الكتاب والشعراء ؛ ولكن من الذى ينكر أن هذه القطعة من نوادر الشعر البليغ ؟ فإن سألت ما سر الحياة فى هذه القطعة فانى أجيبك بأن سر حياتها هو الحياة فى روح من نظم الوصف وهو متأثر بجمال الموصوف .

(١) اللقوة : بالفتح ، هى العقاب ، بضم العين .

والى القارئ قطعة أخرى من شعر ابن المعتز فى ضاحية كانت ملعب صباه ثم غيرها الزمان :

لا مثل منزلة الدويرة[1] منزلٌ يادار جادك وابلٌ وسقاك

بؤسا لدهر غيرتك صروفه لم يمح من قلبى الهوى ومحاك

لم يحل للعينين بعدك منظَر ذُمَّ المنازل كلهن سواك

أى المعاهد منك أندب طيبه ممساك بالآصال أم مغداك

أم برد ظلك ذى الغصون وذى الجنى أم أرضك الميثاء أم رياك

وكأنما سعطت مجامر عنبر أو فُتَّ فار المسك فوق ثراك

وكأنما حصباء أرضك جوهر وكأن ماء الورد دمع نداك

وكأن درعا مفرغا من فضه ماء الغدير جرت عليه صباك

فأى جديد من التشبيهات والصفات فى هذه القطعة ؟ لا شىء ! ومع ذلك لا ينكر أحد أنها من الشعر المرقص المطرب الذى يندر أن تجود بمثله قرائح الشعراء، فما هو السر فى هذه العذوبة التى تسكر أرواحنا كلما اصطبحنا أو اغتبقنا بهذه القطعة الرائعة ؟

السر هو أن الشاعر ينطق عن نفسه فى قوة وحياة، بحيث تبدو تلك التعابير على لسانه وكأنها من فيض روحه ومن صنع بيانه، وكأنْ لم يسبقه اليها أحد من صاغة الكلام .

ولنقدّم الكلمة الآتية من نثر بديع الزمان :

"أنا وإن لم ألق تطاول الإخوان إلا بالتطول، وتحامل الأحرار إلا بالتحمل، أحاسب الشيخ أيده الله على أخلاقه ضنا بما عقدت يدى عليه من الظن به، والتقدير فى مذهبه، ولولا ذلك لقلت فى الأرض مجالٌ إن ضاقت ظلالك، وفى الناس واصلٌ إن رثت حبالك، فان أعارنى أذنا واعية، ونفسا مراعية، ونزوعا عن هذا الباب الذى يقرعه، ونزولا عن الصعود الذى يفرعه، فرشت لمودته خوان صدرى، وعقدت عليه جوامع خصرى، ومجامع عمرى،

(١) الدويرة محلة كانت ببغداد .

وإن ركب من التعالى غير مركبه، وذهب من التغالى فى غير مذهبه، أقطعته خطة أخلاقه وأوليته جانب إعراضه، فانى وإن كنت فى مقتبل السن والعمر، قد حلبت شطرى الدهر، وركبت ظهرى البر والبحر، ولقيت وفدى الخير والشر، وصافحت يدى النفع والضر، وضربت إبطى العسر واليسر، وبلوت طعمى الحلو والمر، ورضعت ضرعى العرف والنكر، فما تكاد الأيام ترينى من أفعالها غريبا، وتسمعنى من أحوالها عجيبا، ولقيت الأفراد، وطرحت الآحاد، فما رأيت أحدا إلا ملأت حاقتىْ سمعه وبصره، وشغلت حيزىْ فكره ونظره، فمالى صغرت هذا الصغر فى عينه، وما الذى أزرى بى عنده حتى آحتجب وقد قصدته، ولزم أرضه وقد حضرته؟ أنا أحاشيه أن يجهل قدر الفضل، أو يجحد فضل العلم، ويمتطى ظهر التيه، على أهليه، وأسأله أن يختصنى من بينهم بفضل إعظام إن زلت بى مرة قدم فى قصده، وكأنى به غضب لهذه المخاطبة المجحفة، والرتبة المتحيفة، وهو فى جنب جفائه يسير".

وقد تخيرنا هذه القطعة لكثرة ما ورد فيها من الصور والتعابير القديمة لندل القارئ على أن ذلك لم يمنع من ظهور شخصية بديع الزمان إذ كان يعاتب وهو مضطرم الصدر مهتاج الفؤاد . ولنقدم كلمة أخرى من نثر أبى الفضل بن العميد :

"وصل كتابك فصادفنى قريب العهد بانطلاق، من عنت الفراق، ووافقنى مستريح الأعضاء والجوانح من جوى الاشتياق، فان الدهر جرى على حكمه المألوف فى تحويل الأحوال، ومضى على رسمه المعروف فى تبديل الأشكال، وأعتقنى من مخالتك عتقا لا تستحق به ولاء، وأبرأنى من عهدك براءة لا تستوجب معها دركا ولا آستثناء، ونزع من عنقى ربقة الذل فى إخائك، بيدى جفائك، ورش على ما كان يضطرم فى ضميرى من نيران الشوق بالسلو، وشن على ما كان يلتهب فى صدرى من الوجد ماء اليأس، ومسح أعشار قلبى فلاءم قطورى بجميل الصبر، وشعب أفلاذ كبدى فلاحم صدوعها بحسن العزاء، وتغلغل فى مسالك أنفاسى فعرض عن النزاع اليك نزوعا عنك، ومن الذهاب فيك رجوعا دونك، وكشف عن عينى ضبابات ما ألقاه الهوى على بصرى، ورفع عنها غيابات ما سدله الشك دون نظرى، حتى حدر النقاب

عن صفحات شيمك، وسفر عن وجوه خليقتك، فلم أجد إلا منكرا، ولم ألق إلا مستكبرا، فوليت منها فرارا، وملئت رعبا، فاذهب فقد ألقيت حبلك على غاربك، ورددت اليك ذمم عهدك ".

وللقارئ أن يتأمل هذه القطعة فسيرى صورها جميعا منتهبة من غرر الشعر القديم بحيث لا يبقى لابن العميد معنى واحد خلا من لباس معروف، ومع هذا فمن ينكر أنها من طرائف النثر الجميل؟ إن الكاتب أفاض عليها من روحه كما تفيض الحسناء من سحر الملاحة على ما تحمل من دمالج وأساور وعقود .

٩ — ونستطيع أن نضرب المثل ببعض ما ظهر من أطايب الأدب الحديث ، فهناك كتاب صهاريج اللؤلؤ للسيد توفيق البكرى وهو كتاب نفيس لا يختلف فى آستجادته اثنان ، ولا أقول لا ينتطح فيه عنزان، فرارا من الكليشيه! وهذا الكتاب مع جودته قلما يقع فيه تشبيه إلا وهو مسروق من القدماء ، وخاصة رجال القرن الرابع، وما نظرت فيه إلا تذكرت ما قاله أحد النقاد المتقدمين فى سعيد بن حميد :

" لو قيل لكلام سعيد وشعره ارجع الى أهلك لما بقى معه شيء ! "

ولكن هذا لا يمنع من أننا نقرأ نثر السيد توفيق البكرى مأخوذين بابداعه وآفتنانه حتى لنحسب أنه صاحب ما يطالعنا به من الصور والتشابيه، ولننظر كيف يقول فى شواطئ الآستانه :

"فاذا رأيت ثم حين دلوك الشمس ، وقد شعشع نورها كل بناء وغرس، وقد عكس فى الماء، صور ما يحيط به من الأشياء، أبصرت فى الماء قبابا من ذهب، وأهلة من لهب، وكثبانا من زمرد ، ووديانا من زبرجد، وجبالا و أيفاعا، وحصونا وقلاعا ، وسقوفا من جوهر، وعمدا من مرمر، وصرحا من قوارير، وتماثيل وتصاوير، ودورا وحورا ، ونارا ونورا، وحللا تطوى وتنشر، وسيوفا تغمد وتشهر، وأقمارا تصاغ وتكسر، فكأنما تقرأ فى البر قصيدة من شعر، وتنظر فى البحر، فانوسا من سحر" .

أفيعد هذا من المبتذلات ؟ هيهات هيهات !

١٠ — لقد آن أن نفهم أن الدأب على إحياء الصور القديمة يزيد اللغة قوة ورسوخا ويحببها الى أذواقنا وقلوبنا ، ألسنا نشعر أحيانا بالرغبة فى وضع بعض الصور الفصيحة فى صور عامية ؟ بلى ! وإن ذلك ليقع فى كل يوم . فما هو سر ذلك ؟ لا شىء أكثر من أن التعابير العامية صقلتها الألسنة فآستطابتها الأذواق .

وقد تناقل الناس أن أبا العلاء المعرى وضع كتابا فى معارضة القرآن، فقيل له :

إن كتابك لجيد، ولكن تنقصه حلاوة القرآن ! فأجاب حتى تصقله الألسن فى المحاريب أربعمائة سنة وعند ذلك آنظروا كيف يكون !

وليس المهم هنا أن نعرض لهذا الرأى برفض أو قبول ، ولكن المهم أن نسجل أثر الترديد والتقليب فى حياة البلاغات ، فان البلاغة كالموسيقا تبقى صورها فى النفس وفقا لما يقدر لها من الذيوع . والقلب أكثر ميلا للصوت الذى يداعب أذنيه فى الصباح والمساء ، وكذلك كانت الموسيقا القومية ألصق بالقلوب، وأعلق بالنفوس ، وإن كانت فى تأليفها وسطا لا تسمو الى اللحاق بكثير من مستجاد الأصوات . وهذا هو أيضا السر فيما يُعرف من استعصاء الشعر على الترجمة فى كثير من الأحيان ، لأن المعنى قد يتصل بألفاظه آتصال الروح بما فى الجسم الذى يلابسه من أعصاب وحواس . فالألفة لها أهمية عظيمة فى آستجادة ما نقرأ وما نسمع ، واليها يرجع الفضل فى آستحسان ما ترصّع به البلاغات من الحكم والأشعار والأمثال . ولو دققنا النظر فى الصلات النفسية لوجدنا لتداعى المعانى دخلا فى هذه المشكلة البيانية، لأن الصور المختلفة الألوان تهيئ الذهن والذوق تهيئة خاصة لآستقبال ما يتقدم به الشعراء والكتّاب والخطباء من فنون البيان .

وليس من التحامل فى شىء أن نحكم بأن المستشرقين أقل منا إدراكا لما فى التعابير الأدبية من قوى الحياة ، لأنهم يرون من التعابير شياتها وأعراضها ولا يدركون ما توحى الى النفوس إلا بجهد شديد ، فاذا وقع لأحدهم فعل "نجم" مثلا فى عدة مواطن ظن تنقله من هنا الى هناك

سمة من سمات الفقر اللغوى، ونسى الصورة الأولى التى أخذت عن عجم العود قبل أن تصنع منه الرماح فصعب عليه تبعا لذلك أن يدرك سر البلاغة فى مثل قول ابن المعتز :

وكم عاجم عودى تكسر نابه إذا لان عيدان اللئام وخاروا

١١ — بقيت نقطة أخيرة فى هذا الموضوع ، وهى تتصل بما نراه من أن حياة التعبير هى التى تمنع من إضافته الى المبتذلات . ذلك أن كتاب اللغة العربية وخاصة رجال القرن الرابع كان من همهم دائما أن يرتفعوا عن الجماهير بما يبدعون من المعانى والأساليب ، وكانت وسيلتهم إلى ذلك أن يظهروا بالغنى فى ثقافتهم الأدبية بحيث لا يتذوق أدبهم إلا خواص الخواص ، من أجل ذلك كثرت عندهم الإشارات إلى الحوادث السياسية والاجتماعية ، وبالغوا فى تضمين الآيات والأحاديث والأسجاع والأمثال ، لينقلوا قراءهم إلى جواء بعيدة لا يتنفس فيها إلا المثقفون . وذلك كله يفرض ادراكهم الحى لما يشيرون اليه من حوادث التاريخ ، وتأثرهم بما يعرضون له من إثارة ما اندفن من قديم الصور فى مختلف الأغراض .

وهذا التسامى فى خلق بيئة أدبية عالية كان ولا يزال من هموم الأدباء العظام، فان الأدب فى ذاته نوع من الترف العقلى وهو يفرض وجود أريستوقراطية فكرية يتفيأ ظلالها الكتاب والشعراء . وكذلك كان رجال الأدب العربى فى عصور كثيرة من أصحاب المطامع الكبار ، ومن رجال السياسة والملك، ومن أقطاب المجتمع الفكرى والعقلى، بحيث لا يفهم عنهم إلا من يدرك ما كانت ترمى اليه هممهم فى مطارح الحقائق، أو مدارج الظنون .

الباب الثالث



١ — المقامات

١ — العرب كجميع الأمم لهم قصص وأحاديث وأسمار وخرافات وأساطير يقضون بها أوقات الفراغ، ويصورون بها عاداتهم وطباعهم وغرائزهم من حيث لا يقصدون. ففى أى بقعة من البقاع العربيـة نجد الناس يسمرون تحت ضوء القمر فى ليالى الصيف، أو حول المواقد فى الشتاء. ولو آستمعنا اليهـم لوجدنا لهم على سذاجتهم طرائف من القصص تدل على لباقة وذكاء. وقد أتيح لى فى أحيان كثيرة أن أختبر طبقات العامة من المصريين والسوريين والحجازيين والتونسيين فرأيت لهم نوادر غريبـة تشوق الخيال. وتلك القصص الطليقة التى تقال فى غير تحفظ ومن غير فن هى المصـدر الأول لكتاب ألف ليلة وليلة الذى شغل الأوربيين والأمريكيين بما فيه من المفاجآت المدهشة والأحلام العجيبة التى صورت بهـا النزعات المكبوتة فى تلك الطبقات التى أضناها الاستعباد واليأس والرق الاجتماعى زمنا غير قليل. ولو أن كاتبا أراد أن يجمع كتابا على طراز ألف ليلة وليلة لوصـل إلى ما يريد من غير مشـقة ولا عناء، فلا تزال تلك الطبقات تحلم وتتخيـل وتبتكر ما شاءت لهـا حياتها الاجتماعية من أنواع القصص الخلاب الذى يمثل ما ترجو وما تخاف. ولكن هذا النوع من القصص ليس هو النوع الذى نريد أن نتحدّث عنه فى هـذا الباب، إنما نريد أن نتكلم عن القصص الذى وضع قصـدا، والذى أراد أصحابه أن يدونوا به بعض الأوصاف عن طريق الحكايات الصغيرة، أو يذيعوا بعض النوادر والفكاهات، أو يعطوا بعض الجوانب التاريخية صورة مغرضة يخـدمون بها بعض الأحزاب، أو يشرحوا بعض النظريات الفلسفية والأدبية أو يصفوا بعض الحوادث الغرامية، وما إلى ذلك مما يشوق القلوب والعقول والأذواق.

٢ — وأظهـر أنواع الأقاصيص فى القـرن الرابع هو فن المقامات، وهى القصص القصيرة التى يودعها الكاتب ما يشاء من فكرة أدبية، أو فلسفية، أو خطرة وجدانية، أو لمحة

من مجات الدعابة والمجون . وكان المعروف أن بديع الزمان الهمذانى هو أول من أنشأ فن المقامات . ولم أجد فيمن عرفت من رجال النقد من ارتاب فى سبق بديع الزمان إلى هذا الفن ، وإنما رأيت من يعلل سبقه بنزعته الفارسية ، إذ كان الفرس فيما يظن بعض الناس أحرص من العرب على القصص وأعرف بمصنوع الأحاديث .

٣ — وفى رأيى أن الحريرى هو الذى أذاع هذا الغلط ، ثم آمن الناس بقوله إذ كان أشهر من أقبل الجمهور عليهم من كتاب المقامات ، وهو فى مقدمة مقاماته نسب إلى بديع الزمان فضل السبق إذ يقول :

" وبعد فانه قد جرى ببعض أندية الأدب الذى ركدت فى هذا العصر ريحه ، وخبت مصابيحه ، ذكر المقامات التى ابتدعها بديع الزمان ، وعلامة همذان ، رحمه الله تعالى ، وعزا إلى أبى الفتح الاسكندرى نشأتها ، وإلى عيسى بن هشام روايتها ، وكلاهما مجهول لا يعرف ، ونكرة لا تتعرف . فأشار من إشارته حُكْم ، وطاعته غُنْم ، إلى أن أنشئ مقامات أتلو فيها تلو البديع ، وإن لم يدرك الظالع شأو الضليع (١) " .

إلى أن قال :

"هذا مع اعترافى بأن البديع رحمه الله سباق غايات ، وصاحب آيات ، وأن المتصدى بعده لإنشاء مقامة ، ولو أوتى بلاغة قدامة ، لا يغترف إلا من فُضالته ، ولا يسرى ذلك المسرى إلا بدلالته . ولله در القائل :

فلو قبل مبكاها بكيت صبابة ... بعدى شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلى فهيج لى البكا ... بكاها فقلت الفضل للمتقدّم (٢)

٤ — وقد وصلت إلى أن بديع الزمان ليس مبتكر فن المقامات ، وإنما ابتكره ابن دريد المتوفى سنة ٣٢١ وإلى القارئ النص الذى اعتمدت عليه فى تحرير هذه المسألة :

---

(١) الظالع : الذى يغمز فى مشيته . والضليع القوى الأضلاع . (٢) راجع مقدمة مقامات الحريرى .

قال أبو إسحاق الحصرى حين عرض لكلام بديع الزمان :

"كلامه غَضّ المكاسر، أنيق الجواهر . يكاد الهواء يسرقه لطفا، والهوى يعشقه ظرفا . ولما رأى أبا بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدى أغرب بأربعين حديثا وذكر أنه آستنبطها من ينابيع صدره، وآستنخبها من معادن فكره، وأبداها للأبصار والبصائر، وأهداها للأفكار والضمائر، فى معارض عجمية ، وألفاظ حوشية، فجاء أكثر ما أظهر تنبو عن قبوله الطباع، ولا ترفع له حجبها الأسماع، وتوسع فيها، إذ صرف ألفاظها ومعانيها، فى وجوه مختلفة، وضروب متصرفة ، عارضها بأربعمائة مقامة فى الكدية تذوب ظرفا، وتقطر حسنا، لا مناسبة بين المقامتين لفظا ولا معنى، وعطف مساجلتها، ووقف مناقلتها بين رجلين : سمى أحدهما عيسى بن هشام، والآخر أبا الفتح الاسكندرى، وجعلهما يتهاديان الدر، ويتنافثان السحر، فى معان تضحك الحزين، وتحرك الرصين، يتطلع منها كل طريفة، ويوقف منها على كل لطيفة، وربما أفرد أحدهما بالحكاية، وخص أحدهما بالرواية[1]" .

وقد دهش المسيو مرسيه حين عرضت عليه هذا النص فى باريس،وعجب كيف آتفق الناس مع هذا على أن بديع الزمان هو منشىء فن المقامات ، ثم سألنى : ألا يمكن الآرتياب فى قيمة كلام الحصرى فى هذا الموضوع ؟ فأجبته بأنه تحدّث بأسلوب يدل على أنه كان مفهوما فى أوائل القرن الخامس أن بديع الزمان إنما عارض آبن دريد وحاكاه . فآرتضى هذا الجواب ثم قال : يظهر أنه ضاع علينا من تاريخ الأدب العربى شىء كثير .

وقد واصلت البحث لأرى صدى هذه الفكرة فى مؤلفات القدماء فلم أجد من أفردها بجهد خاص وان كنت رأيت ياقوت الحموى نقل ما كتبه صاحب زهر الآداب حين ترجم لبديع الزمان، ونقلُ ياقوت لهذا النص من غير تعقيب مظهر من مظاهر القبول .

وعندى أن من أسباب غفلة مؤرخى الآداب عن كشف هذا الخطأ أن آبن دريد سمى قصصه (أحاديث) فى حين أن بديع الزمان سمى قصصه مقامات .

(١) راجع ص ٣٠٧ ج ١ من زهر الآداب (الطبعة الثانية) .

٥ — وقد دهش الدكتور طه حسين أيضا حين أطلعته على ما وصلت اليه فى تحرير هذه الفكرة ، وقال : إن ابن دريد كان رجل لغة ورواية ، ولم يعرف عنه أنه كان كاتبا ممتازا ، فكيف أثار بديعَ الزمان بما ابتكر من الأحاديث ؟ ثم عاد فقال : ارجع إلى كتاب الأمالى للقالى وانظر الأحاديث التى نقلها عن الأعراب ، فان رأيته يروى عن ابن دريد — وكان أستاذه — فاعلم إذن أن الأربعين حديثا التى ذكر صاحب زهر الآداب أنه اخترعها لم تكن شيئا آخر غير هذه القصص التى حلَّى بها القالى كتابه . فلما رجعت إلى كتاب القالى وجدت حقا أن القصص التى احتواها مروية عن ابن دريد . من ذلك مثلا حديث البنات اللائى وصفن أزواجهن[1] ، وحديث العاشق الجميل[2] ، وقصة خنافر الكاهن[3] ، والرواد الذين أرسلهم مذحج لوصف بعض أقطار الجزيرة العربية . وكذلك يمكن المضىّ فى استقصاء ما ذكره القالى من القصص العربية المسجوعة ، وإن كان هذا لا يعيّن أنها نفس القصص التى عارضها بديع الزمان[4] .

٦ — ولكن يظهر مما جاء فى « الرسالة العذراء » لابن المدبر أن أهل القرن الثالث كانوا يعرفون نوعا من المحاورات الأدبية يسمى المقامات إذ رأيناه يوصى المتأدب فيقول :

---

(١) ج ١ ص ١٧ (٢) ج ١ ص ٣٨ (٣) ج ١ ص ١٢٣ طبع بولاق . (٤) لم يكن أحد تنبه إلى قيمة النص الذى نقله آنفا عن زهر الآداب ووصلت منه إلى نشأة فن المقامات ، وقد اتفق أن المسيو ديمومبين وجه نظرى أخيرا إلى إشارة وردت فى دائرة المعارف الاسلامية تدل على أن المسيو بروكلمان كان تنبه إلى ذلك النص وكتبت فى هامش ص ٨٦ من الأصل الفرنسى هذا الاستدراك :

J'ai étudié cette question directement. M. Demombynes après avoir lu ce chapitre a attiré mon atteniton sur l'opinion exprimée sur le même sujet par les auteurs de l'Encyclopédie de l'Islam. J'y ai trouvé ceci (pp. 71, Livraison 39) :

(... à savoir qu'Al-Hamadanî se serait inspiré des Arbana d'Ibn Doraid, nous ne pouvons porter aucun Jugement, car cette œuvre ne nous a pas été conservée.)

ومعنى هذا الكلام أن المسيو بروكلمان الذى كتب عن المقامات فى دائرة المعارف الاسلامية يرتاب فى أن يكون بديع الزمان تأثر بأحاديث ابن دريد ، لأن هذه الأحاديث لم تصل الينا حتى نستطيع أن نصدر حكما . وسيرى القارئ فيما سنكتب عن (أحاديث ابن دريد) كيف ترجح لدينا وجود طائفة من تلك الأحاديث .

"وانظر فى كتب المقامات والخطب، ومحاورات العرب"[١] .

غير أن «المقامات» فى كلام ابن المدبر قد تكون جمع مقام بالتذكير وهو الخطبة أو العظة يلقيها الرجل فى حضرة الخليفة أو الملك، وقد عقد ابن قتيبة فصلا سماه (مقامات الزهاد عند الخلفاء والملوك) وذكر نماذج كثيرة منها مقام صالح بن عبد الجليل بين يدى المهدى ، ومقام عمرو بن عبيد بن يدى المنصور ، ومقام خالد بن صفوان بين يدى هشام ، ومقام الحسن عند عمر بن هبيرة[٢] . وقد تؤنث كقول بديع الزمان فى أحد الواعظين : «غريب قد طرأ لا أعرف شخصه ، فاصبر عليه الى آخر مقامته ، لعله ينبئ بعلامته»[٣] .

وقد انتقلت المقامات بعد ذلك الى كلام المعتفين الذين يتوسلون الى الأغنياء بكلام مسجوع ، وكثيرا ما نجد عندهم أمثال عبارة « ارحموا مقامى هذا » يريدون الموقف ، ثم صار المقام يطلق على مايقال من الكلام فى تلك المواقف . والمقام فى الأصل المجلس ، ففى القرآن ﴿أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا﴾[٤] وفى شعر زهير :

وفيهم مقاماتٌ حسان وجوههم وأندية ينتابها القول والفعلُ

ومن المؤكد أن بديع الزمان حين أنشأ المقامات كان يتمثل مقامات السائلين فى المساجد والأسواق، ولذلك نجد راويته مشردا فى جميع الأحيان[٥] .

٧ — ومع أن ابن دريد هو المبتكر لفن المقامات فان عمل بديع الزمان فى هذا الفن أقوى وأظهر ، وطريقته فى القصص تختلف عن طريقة ابن دريد ، والذين كتبوا مقامات بعد ذلك لم يكن فى أذهانهم غير فن بديع الزمان ، فهو بذلك منشئ هذا الفن فى اللغة العربية ، ولم تسمّ تلك القصص بعد ذلك أحاديث كما سماها ابن دريد وانما سميت مقامات كما سماها بديع الزمان .

(١) راجع ص ٧ من الرسالة العذراء (طبع دار الكتب المصرية) . (٢) ص ١٤٣ من المقامات (طبع بيروت) . (٣) راجع عيون الأخبار ج ٢ ص ٣٣٣ — ٣٤٣ (٤) سورة مريم آية ٧٢
(٥) راجع ما كتبه بروكلمان فى دائرة المعارف الاسلامية ص ١٧٠ (Livraison 39) .

٨ — وأول من تأثر خطواته فى القرن الرابع أبو نصر عبدالعزيز بن نباته السعدى المتوفى سنة ٤٠٥ ولم تحفظ عنه إلا مقامة واحدة كما أشار بروكلمان، ثم جاء ابن ناقيا عبد الله بن محمد ابن الحسين المتوفى سنة ٤٨٥ وأنشأ عدة مقامات تختلف فى أسلوبها عن مقامات بديع الزمان بعض الاختلاف[1] .

ثم جاء الحريرى فصير فن المقامات شريعة أدبية، وقد انتشرت مقاماته فى جميع الأقطار العربية، وصارت مضرب المثل فى الفصاحة والبيان، و يعدّ الحريرى أشهر من نظم المقامات واليه يرجع الفضل فى ذيوع هذا الفن الجميل .

ومضى الكتّاب بعـد ذلك يترسلون على هـذه الطريقة فى جميع العصور حتى اليـوم . ولم يمض عصر لم تحفظ فيه مقامات، ونظرةٌ فيما كتب بروكلمان فى دائرة الاسلامية، أو مادوّن فى فهرس دار الكتب المصرية، ترينا كيف افتنّ الكتّاب فى تلك الأقاصيص .

٩ — وقد لاحظنا أن كل ما كتب من المقامات يرجع فى جوهره الى فن بديع الزمان، فالصورة واحدة من حيث السجع والازدواج ، وطريقـة القصص واحدة ، والافتنان فى الموضوعات هو كذلك من مبتكرات بديع الزمان ، حتى الطريقـة التعليميـة التى عرفت فى مقامات السيوطى وابن الجوزى والقلقشندى هى أيضا مما ابتكر بديع الزمان، والفرق يرجع الى صور الثقافات فى مختلف العصور، فبديع الزمان صور مشكلات عصره ، والحريرى مثّل معضلات زمانه، والسيوطى فصّـل أوهام الناس وعلومهم فى أيامه، وجاء محمـد المويلحى فى العصر الأخير فوضع كتابا فى نقد الحياة الاجتماعية فى مصر تأثر فيه سجع بديع الزمان وحفظ من رسومه اسم راويته عيسى بن هشام .

١٠ — وفن المقامات الذى نشأ فى القـرن الرابع لم يعرف وطنا عربيا ، وانمـا عاش فى جميع الأقطار الاسـلامية، فكان من أهـل فارس والعراق والشام واليمن والحجـاز ومصر

(١) لم يبق من آثار ابن ناقيا إلا تسع مقامات محفوظة بمكتبة (الفاتح) فى استانبول .

والمغرب والأندلس كتّاب برعوا فى فن المقامات ، وتفصيل هذه النقطة يحتاج الى كلام طويل ، على أنها أوضح من أن تحتاج الى تفصيل .

١١ — ومن طريف ما قرأت ما أشار اليه بروكلمان فى دائرة المعارف الاسلامية فقد حدثنا أن هذا الفن انتقل بفضل بديع الزمان الى اللغة الفارسية ، وكان الدكتور أحمد ضيف يظن أنه انتقل من الفارسية الى العربية ، وأشهر أصحاب المقامات فى الأدب الفارسى القاضى حميد الدين أبو بكر بن عمر بن محمود البلخى المتوفى سنة ٥٩٩ وهى تحتوى على مناظرات مختلفة بين الشباب والشيخوخة ، وبين أهل السنة والشيعة ، وبين الطبيب والمنجم ، وفيها وصف للربيع والخريف ، والحبّ والجنون ، وفيها مناقشات فقهية وصوفية ، وهى كالمقامات العربية تصاغ فى قوالب فنية [١] .

وأشار بروكلمان كذلك الى أن هذا الفن دخل اللغة العبرية بفضل اليهودى الربانى يهودا ابن شلومو الحريزى الذى ترجم مقامات الحريرى الى العبرية وأنشأ على نمطها خمسين مقامة سماها (سِفر تَحْكِمونى) [٢] وضمّنها كثيرا من آيات التوراة [١] .

ودخل هذا الفن أيضا الى اللغة السريانية ، فقد نظم أحد السريان من مدينة نصيبين خمسين قصيدة على نمط مقامات الحريرى ضمنها جملة من العظات والأخلاق ، فى لغة مثقلة بالزخارف والتهاويل ، ونشرها جبريل قرداحى فى بيروت سنة ١٨٨٩ [١]

١٢ — وعند مقارنة مقامات البديع بمقامات الحريرى يتبين لنا أنّ لغة بديع الزمان خالية من التكلف والاعتساف ، ولا كذلك لغة الحريرى التى تعدّ من أغرب نماذج النثر المصنوع وعند الرجوع الى آثار من تأثروا بفن المقامات نراهم فى الأغلب تلامذة الحريرى لا تلامذة البديع ، فقد أولع أكثرهم بالصنعة والزخرف ، ولم يأنس منهم الى فطرته إلا القليل .

---

(١) راجع دائرة المعارف الاسلامية ص ١٧٢ و ١٧٣ من (Livraison 39) .

(٢) كلمة عبرية معناها « كتاب الحكمة » .

١٣ ــ ونتيجة ما سلف أن القرن الرابع دان اللغة العربية بفن من فنون القصص هو فن المقامات ، وذيوع هذا الفن يرجع الى أنه وافق السليقة العربية التى تميل الى القصص القصير، والتى تميل الى الزخرف فى الانشاء .

وقد ظن ناس أن فن المقامة هو فن القصة ، وكذلك نراهم يذكرون المقامات كلما أثير موضوع القصة فى اللغة العربية، والواقع أن العرب بفطرتهم لم يكونوا يميلون الى القصص المعقد الذى وجد كثير منه فيما أثر عن اليونان القدماء ؛ والذى ذاع عند الانجليز والروس والفرنسيس والألمان .

ولا عيب فى أن تخلو آثار العرب من القصص الطويل ، فان الفن الصحيح يرتكز أوّلا على الفطرة ، ولم يكن العرب مفطورين على القصة التى تقرأ فى أيام أو أسابيع ، ولذلك خلا شعرهم ونثرهم من الآثار القصصية التى وجدت عند معاصريهم فى الشرق والغرب .

وليس معنى هذا أن آثار العرب خلت خلوا تاما من القصة، ولكن معناه أن فن القصة من الفنون الدخيلة على اللغة العربية، وقد يكون لبساطة الطبائع العربية أثر فى وقوفهم عند القصص القصير، ومثل القصة فى ذلك مثل الموسيقا ، فقد كانت موسيقاهم بسيطة لأن نفوسهم كانت بسيطة ، فلما أخذت العواطف تتعقد وتشتبك أخذ القصص والموسيقا فى التعقد والاشتباك .

ولهذا السبب عينه لم يفكروا فى التمثيل ، ولم ينقلوا عن اليونان شيئا يذكر من القصص التمثيلية ، لأن أسمارهم كانت تغنيهم عن التمثيل .

ولا ينس القارئ أن موقفنا دائما موقف المؤرخ للفنون الأدبية، ونحن من وجهة التاريخ نرى أن إبداع فن المقامات يعدّ فتحا عظيما فى اللغة العربية، ولا بد أن يكون معاصرو بديع الزمان تلفتوا الى فنّه تلفت الدهشة والاستغراب وعدّوه من كبار المبدعين .

وحسب بديع الزمان من المجد أنه ألهم الحريرى مقاماته التى كانت سببا فى خلود هذا الفن الجميل، وقد ظلمه شوقى حين قال فى رثاء المويلحى :

رب سجع كمرقص الروض لما يختلف لحنه ولا إيقاعه
أو كسجع الحمام لو فصلته وتأنت به ودق اختراعه
هو فيه بديع كل زمان ما بديع الزمان ؟ ما أسجاعه ؟ (١)

إن بديع الزمان شخصية نادرة المثال ، وأسجاعه أحيانا أرق من الزهر المطلول ، ولكن المنصفين فى الناس قليل .

ألم يجرؤ أحد المتحذلقين على ادعاء أن نثر بديع الزمان لا يقرأ اذا ترجم الى لغة أجنبية ؟ لقد ترجمنا نماذج من مقاماته ورسائله الى اللغة الفرنسية فكانت تحفة فى عين من رآها من الفرنسيس ، ولكن أكثر المحدثين عندنا لا يعرفون أسرار الأدب القديم .

(١) انظر ما كتبه الأستاذ محمد لطفى جمعه فى جريدة البلاغ « ٢٨ يونيه سنة ١٩٣٠ » .

٢ – مقامات بديع الزمان[1]

١ – ألف بديع الزمان مقاماته بعد وصوله إلى نيسابور سنة ٣٨٢[2] — والمتفق عليه عند كتاب التراجم أنها كانت أربعمائة، ونحن نرجح أنها كانت خمسين، بدليلين :

الأول أنه عارض بها أربعين حديثا أنشأها ابن دريد ، والمعارضات كانت تتقارب دائما فى الكمية .

الثانى أن مقاماته لم يحفظ منها غير خمسين ، فليس بمعقول أن يضيع من آثاره خمسون وثلثمائة مقامة، مع أن آثاره لم يضع منها إلا القليل .

يضاف الى ذلك أن الحريرى حين عارض بديع الزمان لم ينشئ فى معارضته غير خمسين مقامة، ثم صار عدد الخمسين هو الرقم المتبع فيما كتب فى هذا النوع من الأقاصيص .

٢ – فى مقامات بديع الزمان نماذج من القصة القصيرة، ففيها «العقدة» وتحليل الشخصيات ، والمقامة المضيرية التى تكلمنا عنها فى « الفكاهات » تمثل هذا الفن، وكذلك المقامة البغدادية التى أشرنا اليها فى الجزء الثانى[3]، وهاتان المقامتان هما أبرع ما قص بديع الزمان.

وفيما عدا ما وفق اليه فى نظم بعض الأقاصيص نراه يقف حيث وقف من قبله ابن دريد، فيرسل العظة، أو يسوق الوصف، أو يمق الفكاهة، أو يقضى بأحكام أدبية أو فلسفية ، من دون أن يهتم بالعقدة القصصية، واليك هذا المثال :

حدثنى عيسى بن هشام قال : بينا نحن بجرجان فى مجمع لنا نتحدث ومعنا يومئذ رجل العرب حفظا ورواية وهو عصمة بن بدر الفزارى . فأفضى بنا الكلام الى ذكر من أعرض عن خصمه حلما، ومن أعرض عنه احتقارا، حتى ذكرنا الصلتان العبدى والبعيث وما كان

---

(١) انظر ترجمة بديع الزمان فى الجزء الثانى من هذا الكتاب ص ٣٢٥ وما يليها من الصفحات .

(٢) راجع يتيمة الدهر ج ٤ ص ١٦٩ (٣) ص ٣١٥ و ٣١٦

من آحتقار جرير وآستهلاكه إضافتها الى الأقماء . ساحدثكم بما شاهدته عينى، ولا أحدثكم عن غيرى، بينما أنا أسير فى بلاد تميم مرتحلا نجيبة، وقائدا جنيبة،[1] عنّ لى راكب على أورق[2] جَعْد اللُّغام،[3] فحاذانى حتى اذا صك الشبح بالشبح ، رفع صوته بالسلام عليك، فقلت : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته! مَن الراكبُ الجهير الكلام، بتحية الاسلام؟ فقال : أنا غيلان بن عقبة . فقلت : مرحبا بالكريم حسبُه، الشهير نسبُه، السائر منطقُه! فقال : رحُب واديك، وعزّ ناديك، فمن أنت ؟ قلت : عصمة بن بدر الفزارى . قال حياك الله نعم الصديق، والصاحب والرفيق! وسرنا فلما هجّرنا[4] قال : ألا تغوّر[5] يا عصمة ، فقد صهرتنا الشمس؟ فقلت : أنت وذاك ! فملنا الى شجرات ألاء[6]، كأنهن عذارى متبرجات، قد نشرن غدائرهن، لأثلاث تناوحهن . فحططنا رحالنا ونلنا من الطعام، وكان ذو الرمة زهيد الأكل، وصلينا بعد، وآل كل واحد منا الى ظل أثلة يريد القائلة، وآضطجع ذو الرمة، وأردت أن أصنع مثل صنيعه، فوليت ظَهرى الأرض، وعيناى لا يملكهما غمض، فنظرت غير بعيد الى ناقة كوماء[7] قد ضحيتْ، وغبيطها ملقى، واذا رجل قائم، يكلؤها كأنه عسيف أو أسيف[8]، فلهيت عنهما — وما أنا والسؤال عما لا يعنينى! — ونام ذو الرمة غِرارا[9]، ثم آنتبه وكان ذلك فى أيام مهاجاته لذلك المرئ، فرفع عقيرته وأنشأ يقول :

أمن ميّة الطلل الدارسُ ... ألظ[10] به العاصف الرامسُ[11]

فلم يبق إلا شجيج القذال[12] ... ومستوقَدٌ ماله قابس

وحوض تثلّم من جانبيه ... ومحتفَل دارس طامس

وعهدى به وبه سكنه[13] ... وميّة والأنس والآنس

---

(١) الجنيبة الفرس يقودها الرجل الى جنبه . (٢) الأورق من الابل ما فى لونه بياض الى سواد .
(٣) جعد اللغام : متراكم الزبد . (٤) هجر بالتشديد صادف وقت الهجير، وهو حر الظهيرة .
(٥) التغوير : النوم عند الغائرة وهى القائلة . (٦) الألاء : شجر مر . (٧) كوماء : عظيمة السنام .
(٨) العسيف الأجير، والأسيف العبد . (٩) قليلا . (١٠) ألظ به : لازمه . (١١) من رمس الشىء دفنه . (١٢) الشجيج : المكسور . والقذال الرأس، والمراد به هنا الوتد الذى كانت تربط فيه الأطناب . (١٣) السكن بفتح فسكون : الساكنون .

كأنى بمية مستبصر ... طس (١)

اذا جئتها ردنى عاس ... رقيب عليها لها حارس

ستاتى امرأ القيس مأثورة ... يغنى بها العابر الجالس

ألم ترأن امرأ القيس قد ... ألظ به داؤه الناجس (٢)

هم القوم لا يألمون الهجاء ... وهل يألم الحجر اليابس؟

فما لهمُ فى العلا مركب ... ولا لهمُ فى الوغى فارس

مرطلة (٣) فى حياض الملام ... كما دعس الأدم الداعس

اذا طمح الناس للكرمات ... فطرفهم المطرق الناعس

تعاف الأكارم إصهارهم ... فكل أياما (٤) هم عانس

فلما بلغ هذا البيت تنبه ذلك النائم وجعل يمسح عينيه ويقول : أذو الرمية يمنعنى النوم بشعر غير مثقف ولا سائر؟ فقلت : ياغيلان من هذا؟ فقال : الفرزدق، وحمى ذو الرمة فقال :

وأما مجاشع الأرذلون ... فلم يسق منبتهم راجس (٥)

سيعقلهم عن مساعى الكرام ... عقال ويحبسهم حابس

فقلت : الآن يشرق (٦) ويثور (٧)، ويعم هذا وقبيلته بالهجاء . فوالله ما زاد الفرزدق على أن قال : قبحا لك ياذا الرمية أتعرض لمثلى بمقال منتحل؟ ثم عاد فى نومه كأن لم يسمع شيئا، وسار ذو الرمة وسرت معه، وإنى لأرى فيه انكسارا حتى افترقنا " .

فهذه المقامة ليست أقصوصة، وإنما هى خبر من الأخبار التى كثر اختراعها فى الأدب القديم، والتى تمثل بعض العادات والتقاليد، وتصف ما يقع بين الناس من ألوان الخصومات

---

(١) العاطس : الصبح ، ونفرة الغزال فى الصباح شديدة لقرب عهده بوحشة الليل .

(٢) الناجس الداء العضال . (٣) مرطلة : ملطخة . (٤) الأيامى جمع أيم وهى التى لا زوج لها، بكرا أو ثيبا، والعانس التى لم تتزوج أصلا . (٥) الراجس : السحاب الراعد . (٦) يشرق : يغص بريقه : كناية عن شدة الغيظ . (٧) يهيج .

والأحقاد . وقد يمكن مع ذلك إضافتها الى الأقاصيص الوصفية التى لا يراد بها الإغراب فى العقدة والشخصيات، وانما تجرى على نمط الأحاديث .

٣ — ومن مظاهر الضعف عند بديع الزمان ومن حاكاه وقوفه عند شخصية واحدة ، فأبو الفتح الاسكندرى يتنقل من قصة الى قصة ، وعيسى بن هشام يحدثنا فى كل مرة عن دهشته من كشف شخصيته، مع أنه كان يكفى أن يشتبه عليه أمره مرة أو مرتين، ولكنه فى جميع الأحوال يضل عن عرفانه ، ولا يتبينه إلا بعد كشف اللثام . غير أن لعيسى بن هشام مواقف لا يذكر فيها أبو الفتح ، كما وقع فى المقامة الأهوازية ، والمقامة البصرية ، والمقامة الصفرية، والمقامة الخلفية .

٤ — وبديع الزمان مغرى برسم السوآت ، والمقامة الشامية والرصافية والدينارية من شواهد ذلك ، وله غرام بالأهاجى المقذعات — وكان هذا الفن مما يقصد اليه كتاب القرن الرابع — فقد آتفق لعيسى بن هشام أن يفكر فى التصدق بدينار على أشحذ رجل فى بغداد[1]، وذُكر له اسم أبى الفتح الاسكندرى فمضى اليه فوجده فى رفقة، قد آجتمعت فى حلقة، فقال : يا بنى ساسان؟ أيكم أعرف بسلعته، وأشحذ فى صنعته، فأعطيه هذا الدينار ؟ فقال الاسكندرى : أنا! وقال الآخر من الجماعة : لا، بل أنا ! ثم تناقشا وتهارشا، فقال عيسى ابن هشام : ليشتم كل منكما صاحبه ، فمن غلب سلب ، ومن عزّ بزّ!

فقال الاسكندرى يهجو صاحبه :

يا برد العجوز، يا كربة تموز، يا وسخ الكوز، يا درهما لا يجوز ! يا فسوة التنين، يا نجلة العِنِّين ، يا حديث المغنين ! يا سنة البوس[2]، يا ضرطة العروس، يا كوكب النحوس، يا وطأة الكابوس ، يا تخمة الرءوس ! يا أم حبين[3]، يا رمد العين ، يا غداة البين، يا فراق المحبين، يا ساعة الحَين، يا مقتل الحسين، يا ثقل الدين، يا سِمة الشين ! يا بريد الشُّوم، يا طريد

(١) كما سترى فى حكاية أبى القاسم البغدادى التى حللناها فى آخر هذا الباب .

(٢) مخففة عن البؤس .

(٣) دويبة كريهة المنظر .

واللؤم، يا ثريد الشؤم، يا دية الزقوم! يا منع الماعون، يا سنة الطاعون! يا بغي العبيد، يا آية الوعيد، يا كلام المعيد! يا أقبح من حتى، في مواضع شتى! يا دودة الكنيف، يا فروة الصيف، يا تنحنح المضيف، يا كسير الرغيف! يا جشاء المخمور، يا نكهة الصقور، يا وتد التنور، يا خزونة القدور[1]، يا أربعاء لا تدور، يا طمع المقمور! يا ضجر اللسان، يا بول الخصيان، يا مؤاكلة الصبيان، يا شفاعة العريان، يا سبت الصبيان! يا كتاب المغازي، يا قرارة المخازي، يا نخل الأهوازي، يا فضول الرازي! والله لو وضعت إحدى رجليك على أروند، والأخرى على دماوند، وأخذت بيدك قوس قزح، وندفت[2] الغيم في جباب الملائكة، ما كنت إلا حلاجا!!

وقال آخر:

يا قرد القرود، يا لبود اليهود، يا نكهة الأسود، يا قسوة السود، يا ضرطة في السجود، يا عدما في وجود! يا كلبا في شرس، يا قردا في الفرش، يا قرعية بماش[3]، يا أقل من لاش! يا دخان النفط، يا صوت الإبط، يا زوال النعمة، يا هلال المحاك! يا أخبث ممن باء بالطلاق، ومنع الصداق! يا وحل الطريق، يا الماء على الريق! يا محرك العظم[4]، يا معجل مضيره، يا قلح الأسنان[5]، يا ريح الآذان! يا أجرم من قيس، يا أقل من فلس! يا أفضح من عبرة، يا أبقى من بعرة! يا عيب الخف، يا مدرجة الأكف! يا كلمة ليت، يا وكف البيت، يا كيت وكيت! والله لو وضعت أستك على النجوم، ودليت رجليك في التخوم، وتمنطقت الشعرى خلخالا، والثريا وشاحا، وجعلت السماء منولا[6]، وحكت الهواء سربالا، فسديته بالنسر الطائر، وألحمته بالفرقد الدائر، ما كنت إلا حائكا!.

---

(١) الخزونة: تغير وفساد. (٢) ندف: ضربه بالمندفة حتى يتفرق بها وتر لتفرق القطن.

(٣) قرعية: طعام يصنع من القرع، والماش حب يقرب من حب الباقلاء يقرب في حجمه من العدس فإذا خلط بالقرع كان كريه المذاق. (٤) محرك العظم: [illegible] مصحوبة بالبرد والقشعريرة. (٥) قلح الأسنان: ما يعلوها من خضرة أو صفرة. (٦) المنول: [illegible] يجريه المحرك.

وهنا يحدثنا عيسى بن هشام أنه لم يدر أيهما يؤثر ؛ فما منهما الا بديع الكلام، عجيب المقام، ألد الخصام .

وهذا النمط من الانشاء لا يراد به الا الظهور بقوة القريحة ، وغنى اللغة ، وخصب الخيال . وهو يمثل هذر الحضريين وسفاهاتهم وميلهم الى شناعة القيل والقال . وعند مراجعة هذه الأهاجى نجد فيها عبارات طريفة تبعث الضحك الى ثغر الحزين .

وهل فى الدنيا أبرد من « تنحنح المُضيف، اذا كُسِر الرغيف » ؟ !

وهل فى الحياة أثقل من « شفاعة العريان، وسبت الصبيان » ؟

٥ — والوصف من الفنون المقصودة فى مقامات بديع الزمان، وهو يفتنّ فيه من موضع الى موضع، وانظر قوله فى المقامة الأسدية :

« ... الى أن اتفقت لى حاجة بحمص، فشحذت الحرص، فى صحبة أفراد كنجوم الليل ، أحلاس[(١)] لظهور الخيل ، وأخذنا الطريق ننتهب مسافته، ونستأصل شأفته ، ولم تزل أسنمة النجاد[(٢)]، بتلك الجياد، حتى صارت كالعِصِىّ، ورجعتْ كالقِسِىّ، وتاح[(٣)] لنا واد فى سفح جبل ذى ألاء وأثل كالعذارى يسرحن الضفائر، وينشرن الغدائر، ومالت الهاجرة بنا اليها ونزلنا نغور[(٤)] ونغور[(٥)]، وربطنا الأفراس ، بالأمراس ،وملنا مع النعاس، فما راعنا الا صهيل الخيل، ونظرت الى فرس يجذّ قوى الحبل بمشافره، ويخد خد الأرض بحافره ، ثم اضطربت الخيل فأرسلت الأبوال، وقطعت الحبال ، وأخذت نحو الجبال ، وطار كل واحد منا الى سلاحه فاذا السبع فى فروة الموت قد طلع من غابه، منتفخا فى إهابه، كاشراً عن أنيابه ، بطرف قد مُلئَ صلفا، وأنف قد حُشِىَ أنفا ، وصدر لا يبرحه القلب، ولا يسكنه الرعب ، وقلنا : خطب والله ! وتبادر اليه من سرعان الرفقة فتًى :

أخضر الجلدة[(٦)] فى بيت العرب يملأ الدلو الى عقد الكرَبْ

(١) الاحلاس جمع حلس بالكسر وهو البرذعة . (٢) النجاد جمع نجد وهو ما ارتفع من الأرض .
(٣) تاح : عرض . (٤) نغور : ننزل الغور . (٥) نغور : ننام .
(٦) أخضر الجلدة : أسمر اللون .

يقلب ساقه قدمه، وسيف كله أثره، وملكته سورة الأسد فخانته أرض قدمه، حتى سقط ليده وفمه، وتجاوز الأسد مصرعه، إلى من كان معه، ودعا الحين أخاه، بمثل ما دعاه، فصار إليه، وعقل الرعب يديه، فأخذ أرضه، وافترش الليث صدره، ولكنى رميته بعمامتى، وشغلت فمه، حتى حقنت دمه، وقام الفتى فوجأ بطنه، حتى هلك الفتى من خوفه، والأسد للوجأة فى جوفه. ونهضنا فى أثر الخيل فتألفنا منها ما ثبت، وتركنا ما أفلت، وعدنا إلى الرفيق لنجهزه.

فلما حثونا الترب فوق رفيقنا   جزعنا ولكن أى ساعة مجزع

وعدنا إلى الفلاة وهبطنا أرضها، حتى إذا ضمرت المزاد، ونفد الزاد أو كاد يدركه النفاد، ولم نملك الذهاب ولا الرجوع، وخفنا القاتلين الظمأ والجوع، عن لنا فارس فصمدنا صمده، وقصدنا قصده. ولما بلغنا نزل عن حر فرسه[1] ينقش الأرض بشفتيه، ويلقى التراب بيديه، وعمدنى من بين الجماعة فقبل ركابى، وتحرم بجنابى، ونظرت فاذا وجه يبرق برق العارض المتهلل، وقوام متى ما ترق العين فيه تسهل[2]، وعارض قد اخضر، وشارب قد طر، وساعد ملآن. وقضيب ريان، ونجاد تركى، وزى ملكى، فقلنا: ما لك، لا أبا لك! فقال: أنا عبد بعض الملوك هم من قتلى بهم[3]. فهمت على وجهى إلى حيث ترانى. وشهدت شواهد حاله، على صدق مقاله. ثم قال: أنا اليوم عبدك، ومالى مالك. فقلت بشرى لك وأداك سيرك إلى فناء رحب، وعيش رطب! وهنأتنى الجماعة، وجعل ينظر فتقتلنا ألحاظه، وينطق فتفتننا ألفاظه. والنفس تنازعنى فيه بالمحظور، والشيطان من وراء الغرور، فقال: ياسادة! إن فى سفح الجبل عينا وقد ركبتم فلاة عوراء[4]، فخذوا من هناك الماء، فلوينا الأعنة إلى حيث أشار، وبلغناه وقد صهرت الهاجرة الأبدان، وركب الجنادب العيدان، فقال: ألا تقيلون فى هذا الظل الرحب، على هذا الماء العذب؟ فقلت: أنت وذاك! فنزل

(١) أى عن فرسه الحر العتيق. (٢) وقع هذا التعبير فى كلام بديع الزمان غير مرة وهو فى الأصل من كلام امرىء القيس. (٣) الهم: العزم. (٤) عوراء: قليلة العيون فليس بها ماء.

عن فرسه ونحّى منطقته[١]، وحلّ قُرطُقته[٢] . فما آسترعنا إلا بغلالة تنم على بدنه، فما شككنا أنه خاصم الولدان، ففارق الجنان، وهرب من رضوان، وعمد إلى السروج فحطها، وإلى الأفراس فخشها[٣]، وإلى الأمكنة فرشها، وقد حارت البصائر فيه، ووقفت الأبصار عليه[٤] .. وقلت : يا فتى ! ما ألطفك فى الخدمة، وأحسنك فى الجملة ! فالويل لمن فارقته، وطوبى لمن رافقته ! فكيف شكر الله على النعمة بك ؟ فقال : ما سترونه منى أكثر ! أتعجبكم خفتى فى الخدمة، وحسنى فى الجملة، فكيف لو رأيتمونى فى الرفقة؟ أريكم من حذقى طرفا، لتزدادوا بى شغفا؟ فقلنا: هات ! فعمد إلى قوس أحدنا وفوق سهما فرماه فى السماء، وأتبعه بآخر فشقه فى الهواء، وقال : سأريكم نوعا آخر، ثم عمد إلى كنانتى فأخذها وإلى فرسى فعلاه، ورمى أحدنا بسهم أثبته فى صدره، وطيّره من ظهره . فقلت : ويحك، ما تصنع ؟ ! فقال : أسكت يالُكَع ! والله ليشدّن كل منكم يد رفيقه، أو لأُغِصّنه بريقه ! فلم ندر ما نصنع، وأفراسنا مربوطة، وسروجنا محطوطة، وأسلحتنا بعيدة، وهو راكب ونحن رجالة، والقوس فى يده يرشق بها الظهور، ويمشق بها البطون والصدور، وحين رأينا الجدّ، أخذنا القِدّ[٥] فشدّ بعضنا بعضا، وبقيت وحدى، لا أجد من يشدّ يدى، فقال : اخرجْ بإهابك، عن ثيابك ! فخرجت، ثم نزل عن فرسه وجعل يصفع الواحد منا بعد الآخر، ويقول : أقمت قضيبك، فخذ نصيبك ! ... الخ " .

والقصة فى جملتها فكاهة . ولكن الوصف ظاهر فيها كل الظهور، وفيها فقرات تعدّ من آيات الوصف السابغ، والحركة قوية فى تلك الأقصوصة، والمناظر تتوارد فى حياة وآنسجام . وعند تأمل ما آنتهت إليه نجد الغرض فى غاية من التفاهة، فكأن بديع الزمان ما كان يقصد غير هذه الأوصاف .

---

(١) المنطقة : الحزام .

(٢) القرطقة : مؤنث قرطق وهو قباء ذو طاق واحد وأصله (كوته) بالفارسية (راجع شرح المقامات للشيخ محمد عبده ص ٣٩) .

(٣) ألق لها الحشيش .

(٤) حذفنا من هذا الموطن كلمات فيها مجون .

(٥) القد بالكسر سير من جلد غير مدبوغ .

والمقامة الخمرية وضعتْ قصداً لوصف الصهباء ، فيحدّثنا عيسى بن هشام : أنه كان فى عنفوان شبيبته عدّل ميزان عقله ، وعدَل بين جِدّه وهزله ، بجعل النهار للناس ، والليل للكاس ، وأنه آجتمع فى بعض لياليه مع إخوان الخلوة فما زالوا يتعاطون نجوم الأقداح ، حتى نفد ما معهم من الراح ، ثم دعتهم دواعى الشطارة ، إلى حان الخمارة ، والليل أخضر الديباج ، مغتلم الأمواج ، فلما أخذوا فى السبح ، ثوب منادى الصبح ، فخنس شيطان الصبوة ، وتبادروا إلى الدعوة ، وقاموا وراء الإمام ، قيام البررة الكرام ، بوقار وسكينة ، وحركات موزونة ، وإمامهم يحدّ فى خفضه ورفعه ، ويدعوهم بإطالته الى صفعه ! حتى إذا راجع بصيرته ، ورفع بالسلام عقيرته ، تربع فى ركن محرابه ، وأقبل بوجهه على أصحابه ، وجعل يطيل إطراقه ، ويديم آستنشاقه ، ثم قال : أيها الناس ! من خلط فى سيرته ، وآبتلى بقاذورته ، فليسعه ديماسه[1] ، دون أن تنجسا أنفاسه ، انى لأجد منذ اليوم ، ريح أم الكبائر من بعض القوم ، فما جزاء من بات صريع الطاغوت ، ثم آبتكر الى هذه البيوت ؟ !

وأشار إمام المسجد إلى عيسى بن هشام وأصحابه فتألبت عليهم الجماعة حتى مزقت أرديتهم ، وأدمت أثنيتهم ، وأقسموا لا عاودوا الشراب ، وأفلتوا وما كادوا يفلتون ، وسألوا من مر بهم من الصبية ، عن إمام تلك القرية ، فأجابهم الصبية : بأنه الرجل التقى أبو الفتح الاسكندرى ، فقالوا : سبحان الله ! ربما أبصر عِمّيت ، وآمن عفريت ! والحمد لله لقد أسرع فى أوبته ، ولا حرمنا الله مثل توبته . وجعلوا بقية يومهم يعجبون من نسكه ، مع أنهم كانوا يعجبون من فسقه ... ثم شرع عيسى بن هشام فى الوصف فقال :

" ولما حسترج النهار أو كاد ، نظرنا فإذا برايات الحان أمثال النجوم ، فى الليل البهيم ، فتهادينا بها السراء ، وتباشرنا بليلة غراء ، ووصلنا الى أنجمها بابا ، وأضخمها كلابا ، وقد جعلنا الدينار إماما ، والاستهتار لزاما ، فدُفعنا الى ذات شكل[2] ودلّ ، ووشاح منحلّ ، اذا قتلت

(١) الديماس : البيت .

(٢) الشكل : التدلل .

ألحاظها، أحيت ألفاظها، فأحسنت تلقينا، وأسرعت تقبل رءوسنا وأيدينا، وأسرع من معها من العلوج، الى حط الرحال والسروج، وسألنا عن خمرها فقالت :

خمرٌ كريق فى العذو ... بة واللذاذة والحلاوة

تـذر الحليم وما عليـ ... ـه لحلمه أدنى طلاوة

كأنما اعتصرها من خدى، أجداد جدى، وسربلوها من القار بمثل هجرى وصدى، وديعة الدهور، وخبيئة جيب السرور، وما زالت تتوارثها الأخيار، ويأخذها الليل والنهار، حتى لم يبق إلا أرج وشُعاع، ووهَج لذّاع، ريحانة النفس، وضرة الشمس، فتاة البرق[1]، عجوز الملق، كاللهب فى العروق، وكبرد النسيم فى الحلوق، مصباح الفكر، وترياق سم الدهر، بمثلها عُزِّر[2] الميت فانتشر، ودووى الأكمه فنظر .

ثم ينتقل عيسى بن هشام فيحدثنا بعد هذا الوصف أنهم قالوا :

"هذه الضالة وأبيك، فمن المطرب فى ناديك ؟ ولعلها تُشعشَع للشَّرب، من ريقك العذب ! " .

وأنها أجابتهم بأن لها شيخا ظريف الطبع طريف المجون، مر بها يوم الأحد فى دير المربد، فوقعت بينهما الخلطة، وتكررت الغبطة، وذكر لها من وفور عرضه، وشرف قومه فى أرضه، ما عطفها عليـه . واشتاق عيسى بن هشام الى رؤية هذا الشيخ الذى يجمع بين ظرف الطبع وطرافة المجون فإذا هو أبو الفتح الاسكندرى إمام المسجد فى صباح الأمس !

أكان بديع الزمان يريد بهـذه المقامة أن يعرض ببعض الأشياخ الذين يظهرون بسمت مشرق، وينطوون على زيغ موبق ؟

لا، إن بديع الزمان نفسه مرتاب، ولذلك نراه ينطق أبا الفتح بهذه الأبيات :

دع من اللوم ولكن ... أى دكاك[3] تـرانى

أنا من يعـرفه كل ... تهـام ويمـانى

(١) البرق بالتحريك : التزين . (٢) عزر : أعين . (٣) الدكاك : المحتال .

أنا من كل غبار ... انا من كل مكان

ساعــةً ألزم محــرا ... بًا وأخرى بيت حان

وكذا يفعــل من يعـ ... ـقل فى هــذا الزمانِ

ومن المقامات التى أريدَ بهــا مجرد الوصف المقامة الحمدانية، وهى فى وصف الخيــل، وهى مشهورة، وقد شرحها صاحب "زهر الآداب"(1) .

٦ — أكثر بديع الزمان فى مقاماته من الكلام على الشعر والشــعراء ، فأنطق أبا الفتح فى المقامة العراقية بهذه الأسئلة الطريفة :

هل قالت العرب بيتا لا يمكن حله (2) ؟

وهل نظمت مدحا لم يعرف أهله (3) ؟

وهل لها بيت سمج وضعه، وحسن قطعه (4) ؟

وأى بيت لا يرقأ دمعه (5) ؟

وأى بيت يثقل وقعه (6) ؟

وأى بيت يشج عروضه ، ويأسو ضربه (7) ؟

---

(١) راجع ص ٢٨ و ٢٩ من الجزء الثانى .

(٢) مثاله قول الشاعر :

دراهمنا كلها جيــد ... فلا تحبسنا بتنقادها

فان هذا البيت كالمنثور لا تقديم فيه ولا تأخير .

(٣) مثاله قول الهذلى :

ولم أدر من ألقى عليــه رداءه ... على أنه قد سل عن ماجد محض

(٤) مثاله قول أبى نواس :

فتنا يرانا الله شر عصابة ... تجرر أذيال الفسوق ولا فخر

(٥) مثاله قول ذى الرمة :

ما بال عينك منها الماء ينسكب ... كأنه من كلى مفرية سرب

(٦) مثاله قول ابن الرومى :

اذا منّ لم يمنن بمن يمنه ... وقال لنفسى أيها النفس أمهلى

(٧) مثاله قول الشاعر :

دلفت له بأبيض مشرفىّ ... كما يدنو المصافح للسلام

وأى بيت يعظم وعيده و يصغر خطبه ؟[(١)]

وأى بيت هو أكثر رملا من يبرين ؟[(٢)]

وأى بيت هو كأسنان المظلوم[(٣)]، والمنشار المثلوم[(٤)] ؟

وأى بيت يسرك أوله ويسوءك آخره[(٥)] ؟

وأى بيت يصفعك باطنه ، ويخدعك ظاهره[(٦)] ؟

وأى بيت لا يخلق سامعه، حتى تذكر جوامعه[(٧)] ؟

وأى بيت لا يمكن لمسه[(٨)] ؟

وأى بيت يسهل عكسه[(٩)] ؟

---

(١) مثاله قول عمرو بن كلثوم :

كأن سيوفنا منا ومنهم ... مخاريق بأيدى لاعبينا

(٢) مثاله قول ذى الرمة :

معرورريا رمض الرضراض يركضه ... والشمس حيرى لها فى الجو تدويم

(٣) المظلوم هو الذى كسر ظلمه أى أسنانه .

(٤) مثاله قول الأعشى :

وقد غدوت الى الحانوت يتبعنى ... شاو مشل شلول شلشل شول

(٥) مثاله قول امرئ القيس :

مكر مفر مقبل مدبر معا ... كجلمود صخر حطه السيل من عل

(٦) مثاله قول الشاعر :

عاتبتها فبكت وقالت يافتى ... نجاك رب العرش من عتبى

(٧) مثاله قول طرفه :

وقوفا بها صحبى على مطيهم ... يقولون لا تهلك أسى وتجلد

فان السامع يظن أنك تنشد قول امرئ القيس .

(٨) مثاله قول الخبزرزى :

تقشع غيم الهجر عن قمر الحب ... وأشرق نور الصلح من ظلمة العتب

وقول أبى نواس :

نسيم عبير فى غلالة ماء ... وتمثال نور فى أديم هواء

(٩) مثاله قول حسان :

بيض الوجوه كريمة أحسابهم ... شم الأنوف من الطراز الأول

وأى بيت هو أطول من مثله، وكأنه ليس من أهله ؟ (١)

وأى بيت هو مهين بحرف، ورهين بحذف ؟ (٢)

وفى المقامة الشعرية ينطقه بهذه الأسئلة :

أى بيت شطره يرفع، وشطره يدفع ؟ (٣)

وأى بيت نصفه يغضب، ونصفه يلعب ؟ (٤)

وأى بيت إن حرّك غصنه، ذهب حسنه ؟ (٥)

وأى بيت مدحه ذم ؟ (٦)

وأى بيت يأكله الشاء، متى شاء ؟ (٧)

وأى بيت حله عقد، وكله نقد ؟ (٨)

---

(١) مثاله قول المتنبى :

عش ابق اسم سد جد قد مر انه اسر فه تسل   غظ ارم صب احم اغز اسب رع زع دل اثن نل

(٢) مثاله قول أبى نواس :

لقد ضاع شعرى على بابكم   كما ضاع در على خالصه

فإذا أنشدت «ضاع» كان هجاء، وإذا أنشدت «ضاء» كان مدحا .

(٣) مثاله قول الشاعر .

ولله عندى جانب لا أضيعه   وللهو عندى والخلاعة جانب

(٤) كقول الشاعر :

كأن سيوفنا منا ومنهم   مخاريق بأيدى لاعبينا

(٥) مثاله قول الشاعر :

لك قد لولا جوارح عينيـ   ـك لغنت عليه ورق الحمام

(٦) مثاله قول الشاعر :

وإن قومى وإن كانوا ذوى عدد   ليسوا من الشر فى شىء وإن هانا

(٧) مثاله قول الشاعر .

فيا للنوى جذ النوى قطع النوى   رأيت النوى قطاعة للقرائن

(٨) مثاله قول الأعشى :

دراهمنا كلها جيد   فلا تحبسنا بتنقادها

وأى بيت نصفه مدّ، ونصفه رد (١) ؟

وأى بيت إن أفلتناه، أضللناه (٢) ؟

وأى بيت قام، ثم سقط ونام (٣) ؟

وأى بيت أوله يطلب، وآخره يهرب (٤) ؟

وأى بيت ضاق، ووسع الآفاق (٥) ؟

وأى بيت كاد يذهب فعاد (٦) .

وفى المقامة القريضية ينطق عيسى بن هشام وأبا الفتح الإسكندرى بأسئلة وأجوبة تعيّن خصائص الشعراء المتقدّمين . واليك هذا الحوار .

عيسى بن هشام — مخاطبا أبا الفتح — يا فاضل! أُدنُ فقد منّيت، وهات فقد أثنيت .

أبو الفتح — سلونى أجبكم، واسمعوا أعجبكم !

عيسى بن هشام — ما تقول فى امرئ القيس ؟

---

(١) مثاله قول البكرى :

أتاك دينار صدق يقفص ستين. فلسا
من أكرم الناس إلا أصلا وورثا ونفسا

(٢) مثاله قول الشاعر :

ألا إننى بال على جمل بال يقود بنا بال ويتبعنا بال

(٣) كقول الآخر :

ألا أيها النوام ويحكمو هبوا أسائلكم هل يقتل الرجل الحب ؟

(٤) مثاله :

بجهل كجهل السيف والسيف منتضى وحلم كحلم السيف والسيف مغمد

(٥) كقول أبى نواس :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

(٦) كقول المتنبى :

وما أنا منهمو بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام

أبو الفتح — هو أول من وقف بالديار وعرصاتها، واغتدى والطير فى وكناتها، ووصف الخيل بصفاتها، ولم يقل الشعر كاسبا، ولم يجد القول راغبا، ففضل من تفتق للحيلة لسانه وانتجع للرغبة بنانه .

عيسى بن هشام — فما تقول فى النابغة ؟

أبو الفتح — يثلب اذا حنق، ويمدح اذا رغب، ويعتذر اذا وهب، ولا يرمى إلا صائبا .

عيسى بن هشام — فما تقول فى زهير ؟

أبو الفتح — يذيب الشعر والشعر يذيبه، ويدعو القول والسحر يجيبه .

عيسى بن هشام — فما تقول فى طَرَفة ؟

أبو الفتح — هو ماء الأشعار وطينتها، وكنز القوافى ومدينتها، مات ولم تظهر أسرار دفائنه، ولم تفتح أغلاق خزائنه .

عيسى بن هشام — فما تقول فى جرير والفرزدق، وأيهما أسبق ؟

أبو الفتح — جرير أرق شعرا، وأغزر غزرا، والفرزدق أمتن صخرا، وأكثر فخرا، وجرير أوجع هجوا ، وأشرف يوما، والفرزدق اذا افتخر أجزى ، واذا احتقر أزرى ، واذا وصف أوفى .

عيسى بن هشام — فما تقول فى المحدَثين من الشعراء والمتقدّمين منهم ؟

أبو الفتح — المتقدمون أشرف لفظا ، وأكثر من المعانى حظا ، والمتأخرون ألطف صنعا ، وأرق نسجا .

وهذا وذاك يبين كيف كان كتاب القرن الرابع يعنون بدراسة الشعر وتعقب أخبار الشعراء، وإنما لنجد مصداق ذلك فى مكان آخر إذ يحدثنا عيسى بن هشام بأن « البليغ من لم يقصر نظمه عن نثره ، ولم يزر كلامه بشعره » وقد أسلفنا القول بأن مدرسة القرن الرابع النثرية تعتمد فى أسسها على المذاهب الشعرية من حيث الصنعة والخيال.

٧ — ولم يكتف بديع الزمان بالخوض فى الشئون الأدبية، بل تعداها إلى المعضلات الكلامية؛ فعرض لمذهب المعتزلة بالتحقير والتسفيه ، واتخذ المتكلم من بين المجانين، إذ حدثنا أن عيسى بن هشام قال :

دخلت مارستان البصرة ومعى أبو داود المتكلم فنظرت إلى مجنون تأخذنى عينه وتدعنى فقال : إن تصدق الطير[١] فأنتم غرباء . فقلنا كذلك . فقال : من القوم ، لله أبوهم ؟ فقلت : أنا عيسى بن هشام ، وهذا أبو داود المتكلم . فقال : العسكرى ؟ قلت : نعم ، فقال : شاهت[٢] الوجوه وأهلها ! إن الخيرة لله لا لعبده ، والأمور بيد الله لا بيده[٣] . وأنتم يا مجوس هذه الأمة تعيشون جبراً[٤] ، وتموتون صبراً[٥] ، وتساقون إلى المقدور قهرا ، ولو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم[٦] . أفلا تنصفون ؟ إن كان الأمر كما تصفون ، وتقولون خالق الظالم ظالم ، أفلا تقولون خالق الهلك هالك ؟ أتعلمون يقينا ، أنكم أخبث من ابليس دينا ، قال رب بما أغويتنى ، فأقر وأنكرتم ، وآمن وكفرتم ، وتقولون خُيِّر فاختار ، وكلا فان المختار لا يبعج بطنه ، ولا يرمى من حالق ابنه ؛ فهل الإكراه ، إلا ما تراه ، والاكراه مرة بالمرة[٧] ومرة بالدرة ، فليخزكم أن القرآن بغيضكم ، وأن الحديث يغيظكم ، إذا سمعتم «من يضلل الله فلا هادى له» ألحدتم ، وإذا سمعتم «زويت لى الأرض فأُريت مشارقها ومغاربها» جحدتم ، وإذا سمعتم «عرضت علىّ الجنة حتى هممت أن أقطف ثمارها ، وعرضت علىّ النار حتى اتقيت حرها بيدى» أنغضتم[٨] رءوسكم ، ولويتم أعناقكم ، وإن قيل عذاب القبر تطيرتم ، وإن قيل الصراط تغامزتم ، وإن ذكر الميزان قلتم : من الفِرغ كفتاه ، وإن ذكر الكتاب قلتم : من القِد دفتاه . يا أعداء الكتاب والحديث بم تطيرون ؟ أبا الله وآياته ورسوله تستهزئون ؟ انما

---

(١) يريد : إن تصدق الفراسة . (٢) شاهت : قبحت . (٣) رد على المعتزلة الذين يقولون بأن المرء مختار فى أفعاله . (٤) أى مقهورين على الحياة . (٥) الموت صبرا أن يحبس الرجل حتى يموت والمراد أنهم محبوسون فى آجالهم .

(٦) اشارة إلى جواب القرآن فى الرد على من قالوا : « لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هاهنا » .

(٧) المرة بالكسر العقل . (٨) حركتموها كالمتعجبين .

مرقت مارقة فكانوا خَبَث الحديث، ثم مرقتم منها فأنتم خَبَث الخبيث . يامخانيث الخوارج ترون رأيهم إلا القتال، وأنت يابن هشام تؤمن ببعض وتكفر ببعض . سمعت أنك آفترشت منهم شيطانة[1]، ألم ينهك الله عز وجل أن تتخذ منهم بطانة ؟ ويلك هلا تخيرت لنطفتك، ونظرت لعقبك ! ثم قال : اللهم أبدلنى بهؤلاء خيرا منهم وأشهدنى ملائكتك[2] ! »

ثم يحدّثنا آبن هشام أنه بقى هو وأبو داود لايحيران جوابا ، ويتبين بعد المراجعة أن ذلك المجنون كان أبا الفتح الاسكندرى « ينبوع العجائب »

٨ — ولبديع الزمان مقامة تدل على نحو من فساد الحياة الاجتماعية فى بغداد لذلك الحين هى المقامة الرصافية ، وقد شرح فيها حيل اللصوص ، وهى حيل فيها القبيح والطريف عددتها فرأيتها تجاوز السبعين حيلة وما أظن قرائى ينتظرون أن ألخص تلك المقامة الشريرة فهم عنها أغنياء! على أن أكثر تلك الحيل لاينفع اليوم — فلا يأسف بعض الناس! — لأن أوضاع اللباس وطرق المعاش تغيرت فى الدنيا عما كانت عليه منذ عشرة قرون فى بغداد، ولعل اللصوص المحدّثين آخترعوا من الحيل مالو رآه بديع الزمان لبدت له حيل بغداده ألاعيب صبيانية !

وفى المقامة الرصافية قصة ماجنة أظرف المجون ، ولكنها لاتروى فى هذا الكتاب ، وقد أسقطها المرحوم الشيخ محمد عبده من طبعته ، وبقيت فى طبعة استانبول ، وخلاصتها أن عيسى بن هشام عنّ له على سطح البيت سواد فنظر فإذا هو غلام كانت له مع آبن هشام سابقة إدلال . فتحدث مع جاريته حديثا فهم منه اللص أن فى البيت ذخائر يهون بجانبها العرض . وتمت الخديعة ، وخرج من البيت وهو خزيان ، وصح لآبن هشام أن يقول :

« وفتش الغلام البيت ، فلم يجد سوى البيت » .

وهو تهكم ظريف !

---

(١) المراد إحدى نساء المعتزلة، والافتراش هنا الزواج .

(٢) يريد أن الموت خير من صحبة هؤلاء .

٩ — وبديع الزمان مفطور على الفكاهة، وهى منثورة فى رسائله ومقاماته، وفى هذا الكتاب طُرف مما تخيرناه[1]. فلنشر فى هذا الفصل إلى حديث عيسى بن هشام حين طال شَعره، واتسخ بدنه، فقد سأل غلامه أن يختار له حمّاما وحجاما "وليكن الحمّام واسع الرقعة، نظيف البقعة، طيب الهواء، معتدل الماء، وليكن الحجام خفيف اليد، حديد الموسى، نظيف الثياب، قليل الفضول".

ودخل الحمام، فدخل على أثره رجل وعمد الى قطعة طين فلطخ بها جبينه ووضعها على رأسه. ثم خرج ودخل آخر فجعل يدلكه دلكا يكد العظام، ويغمزه غمزا يهدّ الأوصال، ويصفر صفيرا يرش البزاق. ثم عمد إلى رأسه يغسله، وما لبث أن دخل الأول فلطم الثانى لطمة قعقعت أنيابه وقال: يا لُكَع! مالك ولهذا الرأس وهو لى؟ ثم عطف الثانى على الأول فضربه ضربة هتكت حجابه وقال: بل هذا الرأس حقى وملكى وفى يدى. ثم تلاكما حتى عيبا. وتحاكما الى صاحب الحمّام فقال الأول: أنا صاحب هذا الرأس، لأنى لطخت جبينه، ووضعت عليه طينه، وقال الثانى: بل أنا مالكه، لأنى دلكت حامله، وغمزت مفاصله!

فقال الحمامى: إئتونى بصاحب الرأس أسأله، ألك هذا الرأس أم له؟

وأتيا عيسى بن هشام فقالا: لنا عندك شهادة.

الحمامى — مخاطبا عيسى بن هشام — يا رجل! لا تقل غير الصدق، ولا تشهد بغير الحق، وقل لى: هذا الرأس لأيهما؟

عيسى ابن هشام — يا عافاك الله! هذا رأسى قد صحبنى فى الطريق، وطاف معى بالبيت العتيق. وما شككت أنه لى!

الحمّامى — اسكت يا فضولى!

ثم مال الحمّامى إلى أحد الخصمين وقال:

(١) ونوصى القارئ بالرجوع الى مناظرة بديع الزمان الخوارزمى المثبتة فى آخر الجزء الثانى من هذا الكتاب ففيها شواهد كثيرة على روح الفكاهة عند بديع الزمان.

يا هذا إلى كم هذه المنافسة مع الناس، بهذا الراس ! تسلّ عن قليل خطره، إلى لعنة الله وحر سقره . وهبْ أن هذا الرأس ليس، وأنا لم نر هذا التيس !

وكانت النتيجة أن خجل عيسى بن هشام ولبس ثيابه وانسلّ من الحمام .

وللقارئ أن يتأمل الدعابة فى هذه الأقصوصة فإنها فى غاية من الظرف .

أما قوله "اسكت يا فضولى !" فهو فى هذا الموضع من وثبات الخيال .

١٠ — وبجانب الأوصاف والفكاهات وضع بديع الزمان طائفة من العظات، كأنه أراد أن يودع مقاماته أظهر ضروب البيان ، من ذلك ما حدّثنا أن أبا الفتح الإسكندرى لما جهز ولده للتجارة أوصاه فقال :

"يا بنى ! إنى وإن وثقت بمتانة عقلك، وطهارة أصلك، فإنى شفيق، والشفيق سيئ الظن، ولست آمن عليك النفس وسلطانها، والشهوة وشيطانها، فاستعنْ عليهما نهارك بالصوم، وليلك بالنوم، إنه لَبوسٌ ظِهارته الجوع ، وبطانته الهجوع ، وما لبسهما أسد إلا لانت سورته، أفهمتهما يا ابن الخبيثة ؟! وكما أخشى عليك ذاك فلا آمن عليك لصين أحدهما الكرم، واسم الآخر القرم(١)، فإياك وإياهما . إن الكرم أسرع فى المال من السوس، وإن القرم أشأم من البسوس(٢) . ودعنى من قولهم : إن الله كريم . إنها خدعة الصبىّ عن اللبن . بلى إن الله لكريم ، ولكن كرم الله يزيدنا ولا ينقصه، وينفعنا ولا يضره، ومن كانت هذه حاله ، فلتكرم خصاله . فأما كرمٌ لا يزيدك حتى ينقصنى ، ولا يريشك حتى يبرينى ، فخذلان لا أقول عبقرىّ، ولكن بقرى(٣) . أفهمتهما يا ابن المشئومة ؟! إنما التجارة، تنبط الماء من الحجارة ، وبين الأكلة والأكلة ريح البحر، بيد أن لا خطر، والصين غير أن لا سفر، أفتتركه وهو معرض ثم تطلبه وهو معوز ؟ أفهمتهما لا أم لك ؟ ! إنه المال ، عافاك الله !. فلا تنفقن إلا من الربح، وعليك بالخبز والملح، ولك فى الخل والبصل رخصة مالم تُذمهما(٤) ، ولم تجمع

(١) القرم ، بالتحريك ، اشتداد الشهوة الى اللحم (٢) امرأة عربية ثارت بسببها الحرب اربعين عاما بين قبيلتين فضرب بها المثل فى الشؤم . (٣) منسوب الى بقر بضم ففتح وهو الداهية .

(٤) من أذمه وجده ذميا .

بينهما، واللحم لحمك وما أراك تأكله، والحلو طعام من لا يبالى على أى جنبيه يقع، والوجبات عيش الصالحين، والأكل على الجوع واقية الفوت، وعلى الشبع داعية الموت، ثم كن مع الناس كلاعب الشطرنج، خُذ كل ما معهم وآحفظ كل ما معك!

يابنى قد أسمعت وأبلغت، فإن قبلت فالله حسبُك، وأن أبيت فالله حسيبك»(١).

وهناك المقامة الوعظية وقد رصعها بأبيات من الشعر متحدة القافية والوزن، وهو فن يجيده بديع الزمان.

١١ — وهنـاك مقامات كثيرة نحسبها آنتُهبتْ من رسائله، وهى بعيـدة عن منحى القصص، وأغلب الظن أنها رتبت كذلك على أيدى بعض النساخ.

١٢ — وبديع الزمان فى مقاماته رجلُ حرص وحذر وآرتياب، ولا يُنطِق أبا الفتح بالحكمة إلا آقتناصا للمال، ففى المقامة الكوفية يُطرَق باب عيسى بن هشام فيسأل من المنتاب؟ فيجيب الطارق: «وفد الليل وبريده، وفلّ الجوع وطريده، وحرٌّ قاده الضر، والزمن المر، وضيفٌ وطؤه خفيف، وضالّته رغيف، وجار يستعدى على الجـوع، والجيب المرقـوع، وغريب أوقدت النـار على سفره، ونبح العوّاء فى أثره، ونبذتْ خلفه الحصيات، وكنستْ بعده العرصات، نِضوُه طليح، وعيشُه تبريح، ومن دون فرخيه مهامه فيح»(٢).

ويهش عيسى بن هشام لهذا السائل الأديب فينفحه بالمـال ويقول: زدنى سؤلا أزدك نوالا! فيقول الطارق:

«ما عُرِض عَرف العود، على أحر من نار الجـود، ولا لُقِى وفد البر، بأحسن من بريد الشكر، ومن ملك الفضل فليواس، فلن يذهب العرف بين الله والناس».

---

(١) ولهذه الوصية أشباه فى أدب بديع الزمان، ورسائله فى وصيته لآبن أخته معروفه، وقد ترجماها الى الفرنسية «أنظر الأصل الفرنسى ص ١٥٤ و ١٥٥».

(٢) المهامه جمع مهمه وهو البيداء، وفيح جمع أفيح وفيحاء، أى واسعة، والمعنى مأخوذ من قول ابن حلم الشيبانى:

ونائحت وفرخاها بحيث تراهما ... ومن دون أفراخى مهامه فيح

ويطرب عيسى بن هشام لهذا السجع الجميل ويفتح الباب فيرى السائل أبا الفتح فيقول: «شدّ والله يا أبا الفتح ما بلغتْ منك الخصاصة !» :

فيتبسم أبو الفتح وينشىء يقول .

لا يغــرنّك الذى	أنا فيه من الطلبْ
أنا فى ثروة تشــقّ	لها بردة الطــرب
أنا لو شئت لاتخـذ	ت سقوفا من الذهب
أنا طورا من النبيـ	ـط وطورا من العرب .

وفى المقامة القردية يفضل الحمق على العقل ويقول :

الذنب للأيــام لا لى	فأعتب على صرف الليالى
بالحمــق أدركت المنى	ورفلت فى حلل الجمال

١٣ — وخلاصة القول أن مقامات بديع الزمان تحفة من تحف النثر الفنى فى القرن الرابع، وقد أردنا أن نطيل بها الطواف ليتعرف اليها القارئ ، فقد كان مفهوما عند كثير من الناس أنها ألاعيب لفظية ليس فيها من المعانى مايستحق الدرس ،ولكنا بعدمواجهتها مرةومرة رأينا فيها من أمارات العقل والذكاء وخفة الروح مايوجب الإعجاب ،وكنا نحفظها فى الحداثة، غير أنا لم نكن ندرك خطرها كما تمثلت لنا فى هذه الأيام .

فى تلك المقامات بعض العيوب، ولكن أىّ عمل فنىّ سلم سلامة مطلقة من العيوب ؟

ونؤكد للقارئ أننا لم نكشف من محاسنها إلا القليل ، فليعد اليها يطالعها فى فهم وروية، وليتأمل بصفة خاصة قرار الألفاظ والتراكيب وصوغ الأمثال .

وسيرى القارى فى الجزء الثانى نحات من سيرة بديع الزمان وتحليل رسائله ، ولكن ذلك لا يغنى عن العودة الى مقارنة المقامات بالرسائل واستخلاص صور الحياة الاجتماعيـه لذلك العهد من آثار ذلك الكاتب الثجاج .

---

٣ - أحاديث ابن دريد

رأى القارئ أن بديع الزمان الهمذانى ليس المنشئ الأول لفن المقامات، وإنما حاكى أحاديث ابن دريد، فمن هو ابن دريد ؟ وما عسى أن تكون الأربعون حديثا التى أنشأها وفتح بها باب القَصَص لبديع الزمان ؟

١ — ولد أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد بالبصرة فى خلافة المعتصم سنة ٢٢٣ ثم صار الى عمان فأقام بها مدة، ثم صار الى فارس فسكنها مدة، ثم قدم بغداد فأقام بها إلى أن مات سنة ٣٢١

ولسنا هنا بصدد الإفاضة فى حياة ابن دريد وما وقع فيها من مختلف الأحداث، وما عُرف به من قوة الحفظ وكثرة الإملاء، وما أُخذ عليه من افتعال العربية وتوليد الألفاظ، وإدخال ما ليس من كلام العرب فى كلامها[1]، وإنما يهمنا أن نذكر بعض الجوانب الدقيقة من تلك الشخصية القوية التى حسبها الناس لا تحسن غير رواية اللغة والشعر وتصريف الأفعال. وسنرى أن ابن دريد بالرغم من شغله باللغة والرواية وكلفه بالبحوث الجافة التى تختم على القلب، كان رجلا دقيق الحس، عذب الروح، وليس يكبر عليه أن يكون فنانا بارعا يدين له أمثال بديع الزمان ممن طُبعوا على جودة الفهم وحسن البيان .

٢ — كان ابن دريد شاعرا . ولكن أى شاعر؟ شاعر مُقِلّ، تحفظ له الأبيات والمقطوعات، وبعض القصائد، ولكنه كان يسكب روحه فيما ينظم من الشعر، فتسرى معانيه قوية سحارة بلا جلبة ولا ضوضاء، كما تفعل الجفون النواعس بألباب الشعراء . خرج مرة يريد عمان فنزل تحت نخلة فاذا فاختتان تزقوان فى فرعها فقال :

أقول لورقاوين[2] فى فرع نخلة　　وقد طفل الإمساء أو جنح العصرُ

(١) ص ٤٨٦ ج ٦ ياقوت .　　(٢) مثنى ورقاء وهى الحمامة .

وقد بسطت هاتا لتلك جناحها ... ومال على هاتيك من هذه النحر

ليهنكما أن لم تُراعا بفرقة ... وما دبّ فى تشتيت شملكهما الدهر

فلم أر مثلى قطّع الشوق قلبه ... على أنه يحكى قساوته الصخر

وهى أبيات تفيض بالرفق والحنان، وتمثل آئتلاف الطير أرق تمثيل، ولا يعرف قيمتها إلا من ألف مناغاة الطير فى ضحوات الربيع وأصائل الخريف .

ومن شعر آبن دريد هذان البيتان :

عانقت منه وقد مال النعاس به ... والكاس تقسم سكرا بين جلاسى

ريحانة ضمخت بالمسك ناضرة ... تمجّ بَرد الندى فى حَر أنفاسى

وفى هذين البيتين صورة شعرية جذابة، والبيت الثانى يبدو وكأنه وثبة من وثبات الخيال .

٣ — فاذا تجاوزنا أمثال هذه الشواهد من شعر آبن دريد — وفيها وحدها الدلالة على التفوق فى الآفتنان والآبتداع — ثم انتقلنا إلى حياة الرجل الخاصة رأيناها شهيدة بدقة فهمه، وحلاوة نكتته، وبجرأته فى الخروج على ما ألفت الجماهير . جاءه يوما سائل فلم يكن عنده غير دنّ نبيذ فوهبه له . فجاء غلام وأنكر عليه ذلك، فاحتج بقوله تعالى : ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾[1] . وهى نكتة تدل على خفة الروح ولطف النسيم . وتذاكر جماعة يوما المتنزهات فى مجلس بعض الأمراء وآبن دريد حاضر، فقال بعضهم أنزه الأماكن غوطة دمشق وقال آخرون : نهر الأُبُلّة ، وقال آخرون بل سغد سمرقند ، وقال بعضهم نهروان بغداد، وقال بعضهم شِعب بَوّان بأرض فارس وقال آخر نوبهار بلخ . فقال ابن دريد : هذه متنزهات العيون ، فأين أنتم من متنزهات القلوب ؟ قالوا : وما هى يا أبا بكر ؟ قال : عيون الأخبار لابن قتيبة، والزهرة لابن داود، وقلق المشتاق لابن أبى طاهر، ثم أنشد :

ومن تك نزهته قينةً ... وكأس تُحثّ وكأس تصبّ

فنزهتنا وآستراحاتنا ... تلاقى العيون ودرس الكتب[2]

(١) ص ٨٩ ج ٦ ياقوت . (٢) ص ٤٩٣ ج ٦ ياقوت .

وهذا حديث طريف كانتْ لفتةُ ابن دريد فيه لفتة الشاعر الفيلسوف إذ يقول "هذه متنزهات العيون، فأين أنتم من متنزهات القلوب" على أن فى الشعر الذى أنشده كلمة تستوقف النظر، تلك كلمة "تلاقى العيون" التى قدمها فى متعة القلب على "درس الكتب" فهو رجل يرى الجمال فى الطبيعة الناطقة طبيعة الانسان الجذاب التى يؤثرها على جمال الأنهار والبحار والمروج الفيحاء، والرياض الغناء .

٤ — ومن الدلائل على خفة روحه وحلاوة نكتته تلك الرؤيا التى قصها علينا إذ قال :

"سقطت من منزلى بفارس فانكسرت ترقوتى، فسهرت ليلى، فلما كان آخر الليل حملتنى عيناى فرأيت فى نومى رجلا طويلا أصفر الوجه دخل علىّ وأخذ بعضادتى الباب وقال : أنشدنى أحسن ما قلت فى الخمر . فقلت : ما ترك أبو نواس شيئا . فقال : أنا أشعر منه . فقلت ومن أنت ؟ قال أنا أبو ناجية من أهل الشام، ثم أنشدنى :

وحمراء قبل المزج صفراء بعــدهُ بدت بين ثوبَىْ نرجس وشقائقِ

حكت وجنة المعشوق صِرفا فسلطوا عليها مزاجا فاكتست لون عاشق

فقلت له : أسأت . قال : ولم ؟ قلت لأنك قلت : (وحمــراء) فقدمت الحمرة ، ثم قلت : (بدت بين ثوبى نرجس وشقائق) فقدمت الصفرة . فألّا قدمتهـا على الأخرى كما قدمتها على الأولى ! فقال : وما هذا الاستقصاء فى هذا الوقت يا بغيض ! وقد رويتُ هذه القصة على نحو آخر فى كتاب طبقات النحاة لابن الأنبارى ص ٣٢٤ فلتراجع هناك .

٥ — وكان ابن دريد فوق هــذه المرونة العقلية جريئا فى بيته وفى درســه جرأة جامحة لا يسمو اليها ولا يقوى على تكاليفها إلا من وثق بأنه أمة وحده وأن على الناس أن يسمعوا له طائعين . فاذا سمعت أنه ألف أكثر من عشرين كتابا فى اللغة والأدب وأنه كان أعرف أهل زمانه بمـا ترك الأولون فاذكر بجانب ذلك أنه كان رجلا سرحا طروبا ، وأن نفسه اللعوب

(١) ص ٤٨٧ ج ٦ ياقوت .

أوحت اليه أفانين من الأدب بهرت معاصريه وأعطته فى النثر قوة بارعة تجعله فى الصف الأول من صفوف المبدعين .

٦ — ولكن ما هى آثاره النثرية ؟

هى تلك الأربعون حديثا التى حدثنا عنها الحصرى فى زهر الآداب ، والتى هاجت بديع الزمان وحملته على أن يكتب فى معارضتها أربعمائة مقامة لم يبق منها إلا أربعون . وقد شقيتُ فى البحث عن تلك الأحاديث ، ثم عدت أتلمس الصواب فيما افترضه الدكتور طه حسين وأخذت أتتبع كل ما رواه القالى عن ابن دريد فوجدته روى عنه أكثر من ستين حديثا بعضها قصير وبعضها طويل . ثم قابلت تلك الأحاديث بالحديث الشائق الذى نقله عنه حمزة الاصفهانى جامع ديوان أبى نواس فصحت لدىّ النتائج الآتية :

أولا — حديث ابن دريد فى حج أبى نواس حديث ممتع خلاب كتب بطريقة روائية تصلح تمام الصلاحية لأن تكون أساسا لفن المقامات . ولست أشك الان فى أن هذا الحديث جزء من الأربعين حديثا التى ابتكرها ابن دريد .

ثانيا — الأحاديث التى نقلها القالى عن ابن دريد تشتمل على طائفة من القصص المسجوعة تقرب فى وضعها من قصته عن حج أبى نواس وتصلح أيضا أن تكون أساسا لفن المقامات . فلا بأس من الاطمئنان إلى أنها شطر من الأربعين حديثا التى عارضها بديع الزمان.

ثالثا — إذا غضضنا النظر عن الأحاديث القصيرة جدا التى نقلها القالى عن ابن دريد وعددناها مما رواه عن شيوخه أو مما وقع اليه من كلام الاعراب ، كان ما بقى من أحاديثه المتشابهة فى القدر والوضع والأسلوب قريبا من الأربعين .

رابعا — يلاحظ أن أكثر ما روى القالى عن ابن دريد من الأحاديث جرى على ألسنة ناس مجهولين : فأشخاصه يكونون حينا من الأعراب ، وتارة يكونون من أقيال اليمن الذين لا يعرف لهم اسم ولا يحفظ لهم تاريخ ، وأحيانا يكونون من النكرات التى لا يعرف لها وجود وهذا دليل على الوضع والاختراع .

خامسا — لاحظ صاحب زهر الآداب أن الأربعين حديثا التى ابتكرها ابن دريد (جاء اكثرها مما تنبو عن قبوله الطباع، ولا ترفع له حجبها الأسماع) وأنها وقعت "فى معارض عجمية وألفاظ حوشية" ولو أننا تتبعنا ما نقله القالى من تلك الأحاديث لوجدنا الصنعة والإغراب ظاهرين فيها كل الظهور . وربما ساغ لنا أن نفترض أن ابن دريد تعمد أن يدس فى أحاديثه بعض الألفاظ التى اتُّهِم بافتعالها وتوليدها، فقد اتهمه أبو منصور الأزهرى فى مقدّمة كتاب التهذيب بادخال ما ليس من كلام العرب فى كلامها، فكان من همه إذن أن يجرى ما اتُّهِم بافتعاله على ألسنة الاعراب لتسقط عنه تهمة الاختلاق .

٧ — بعد ذلك نرى من المهم أن نتناول بالتحليل بعض أحاديث ابن دريد، ولنذكر أوّلا أن تلك الأحاديث فى جملتها تمثل جانب الدعابة والفن من ذلك الرجل الخليع . وأى نكتة أدق وأرشق من قصة توضح مثلا عن حج أبى نواس؟ إن رحيل أبى نواس إلى بيت الله الحرام هو فى نفسه قصيدة من قصائد المجون ، فكان من الحتم أن يُعنَى بعض الكتاب المازحين بعرض تلك الشخصية عرضا تلتقى فيه الفكاهة والسخرية بصورة توهم القارئ أن ما تحت عينيه جِدٌّ صُراح . وكذلك فعل ابن دريد فأنطق أبا نواس بقصة طريفة حدّثنا فيها أنه لقى فى طريقه نَصَبا إذ انهمل المطر فى أرض بنى فزارة ففزع إلى بعض الخيام فاذا جارية مبرقعة ترنو بطرف مريض الجفون ساحر النظر، فاستسقاها، فمضت تتهادى فى جسم خصب رشيق، وأحضرت إليه الماء ، ثم كان منه حوار مملوء بالسفه واللؤم أراد به الوصول إلى معاينة ما تحت تلك الثياب من أسرار الجمال . ولكن طبل الرحيل صرفه فانصرف، وفى قلبه حسرة كامنة وكربٌ دخيل، فلما قضى حجه ورجع مر بتلك الخيام طامعا فى الصيد، ولكن مطامعه انتهت بخيبة مخجلة نكتفى فى الابانة عنها بهذه الاشارة ، ونحيل القارئ على مقدّمة الديوان ليرى كيف برع ابن دريد فى السخرية من أبى نواس .

٨ — ثم ننظر بعد ذلك فنرى ابن دريد اهتم بتصوير التمائل العربية وكلف بنوع خاص بتقديم طائفة من الصور المختلفة عن أحلام النساء فى فهم الرجال ، وإعجاب البنات بأعمال

الآباء، وما يقع من الملاحاة بين الأزواج، والتواصى بين الشباب والكهول. كل ذلك بطريقة قوية أخاذة تجعل له مكانا بين العالمين بالغرائز وأهواء النفوس. ونلاحظ أنه يميل إلى الفكاهة حين يعرض للهواجس الجنسية فينطق النساء والبنات بألفاظ وتعابير تغلب عليها النكتة، وبخاصة حين يتكلم عن فتاتين تتبادلان الأمانى أو زوجين يتقارضان الهجاء، فتلك فتاة تصف الزوج المشتهى بأنه إن ضم قضقض وإن دسر أغمض[1]، وتلك امرأة تخاصم زوجها فتصمه بأنه يشبع ليلة يضاف، وينام ليلة يخاف[2]، وأولئك بنات عنسهن أبوهن فتهامسن بحيث يسمع بأبيات من الشعر قهرته على أن يعجل لهن بالزواج[3].

٩ — فإذا تحدث ابن دريد عن شجعان العرب وفرسانهم وأجوادهم رأيناه رجلا جزل الرأى بعيد الغور ينطق بالحكم وفصل الخطاب، فنراه تارة يقول على لسان أوس بن حارثة "المنية ولا الدنية، والعتاب قبل العقاب، والتجلد لا التبلد، والقبر خير من الفقر، ومن قل ذل، ومن أمر قل[4]، والدهر يومان فيوم لك ويوم عليك[5]". ونراه أخرى ينطق رجلا أعمى من أزد السراة يقوده شاب جميل فيقول "يا ابن أخى! إن اغترارك بالشباب كالتذاذك بسادير الأحلام، ثم تنقشع فلا تمسك منها إلا بالحسرة عليها. ثم تعرى راحلة الصبا وتشرب سلوة الهوى. واعلم أن أغنى الناس يوم الفقر من قدم ذخيره، وأشدهم اغتباطا يوم الحسرة[6] من أحسن سريرة[7]".

١٠ — وبمراجعة أحاديث ابن دريد نلاحظ أنه يتعقب أعيان الجاهلية فينطقهم بألوان من الحوار تمثل ما كان يحب العرب أن يعرف عن أسلافهم من كرم الطباع وشرف الأحساب. ولو بقيت لنا مقامات بديع الزمان كاملة لعرفنا إلى أى حد حاكى ابن دريد فى هذا الباب. فإن قصة بشر بن عوانة التى اخترعها بديع الزمان نموذج طريف فى ابتداع الأقاصيص ...

إلى هنا عرفنا الفرق بين مقامات بديع الزمان وأحاديث ابن دريد. وعرفنا من السابق ومن المسبوق، فلننظر ما ترك معاصروهم من هذا البدع الجديد.

---

(١) ص ١٧ ج ١ أمالى. (٢) ص ١٠٤ (٣) ص ١٠٧ ج ٢ (٤) أمر الرجل كثر عدده.
(٥) ص ١٠٢ ج ١ (٦) ربما كان الصواب «الحشر» بدل الحسرة. (٧) ج ٢ ص ٢١٦

نموذج من أحاديث ابن دريد

أخبرنا عبد الرحمن عن عمه قال :

دُفعتُ يوما فى تلمسى بالبادية الى وادٍ خَلاء لا أنيس به إلا بيت معتنز[١] بفنائه أعنز، وقد ظمئت ، فيممته فسلمت ، فاذا عجوز قد برزت كأنها نعامة راخم[٢]، فقلت : هل من ماء ؟ فقالت : أو لبن ؟ فقلت ما كان بغيتى إلا الماء، فاذا يسر الله اللبن فانى اليه فقير . فقامت الى قَعب فأفرغت فيه ماء ونظفت غسله، ثم جاءت الى الأعنز فتغبرتهن حتى آحتلبت قُراب ملء القعب، ثم أفرغتْ عليه ماء حتى رغا وطفت ثُمالته كأنها غمامة بيضاء ، ثم ناولتنى إياه فشربت حتى تحببت[٣] ريا، وآطمأننت . فقلت إنى أراك معتنزة فى هذا الوادى الموحش، والحِلة[٤] منك قريب، فلو آنضممت الى جنابهم[٥] فأنست بهم . فقالت : يا آبن أخى! إنى لآنس بالوحشة، وأستريح الى الوحدة، ويطمئن قلبى الى هذا الوادى الموحش، فأتذكر من عهدت، فكأنى أخاطبُ أعيانهم، وأتراءى أشباحهم، وتتخيل لى أندية رجالهم، وملاعب ولدانهم، ومُندّى أموالهم . والله يا آبن أخى لقد رأيت هذا الوادى بشع[٦] اللديدين[٧] بأهل أدواح[٨] وقباب، ونَعَم كالهضاب[٩]، وخيل كالذئاب، وفتيان كالرماح، يبارون الرياح، ويحمون الصباح، فأحال عليهم الجلاء قَمًّا[١٠] بغرفة فأصبحت الاثار دارسة، والمحالّ طامسة، وكذلك سيرة الدهر فيمن وثق به . ثم قالت : ارم بعينيك فى هذا المـلا[١١] المتباطن[١٢] . فنظرت فاذا قبورٌ نحو أربعين أو خمسين . فقالت : ألا ترى تلك الأجداث ؟ قلت نعم . قالت : ما آنطوت إلا على أخ أو آبن أخ أو عم أو آبن عم، فأصبحوا قد ألمأت[١٣] عليهم الأرض، وأنا أترقب ما غالهم . انصرف راشدا رحمك الله !

---

(١) معتنز: منفرد . (٢) الراخم التى تحضن بيضها . (٣) تحببت : امتلأت . (٤) والجمع الحلال: وهى بيوت الناس . (٥) الجناب : فناء الدار . (٦) بشع : ملآن . (٧) اللديدان : الجانبان . (٨) الأدواح : جمع دوحة وهى الشجرة العظيمة . (٩) الهضاب : الجبال الصغار . (١٠) قما : كنسا، قمت البيت : كنسته . والغرفة واحدة الغرف وهو ضرب من الشجر . (١١) الملا : الفضا . (١٢) متباطن : متطامن . (١٣) ألمأت عليهم : احتوت عليهم وتلمأت عليه الأرض : استوت عليه وورايته .

٤ – روايات الأغانى

١ – من مشاهير الكتّاب فى القرن الرابع أبو الفرج الأصبهانى المتوفى سنة ٣٥٦ فى خلافة المطيع لله[١] . والأصبهانى هذا يعدّ فى رأيى أكبر مؤلف عرفته اللغة العربية . ولا يوجد فى المؤلفين من بعده مَن لم يعوّل عليه ، ويندر أن نجد باحثا فى تاريخ الأدب أو تاريخ الاسلام لم يتخذ كتاب الأغانى مرجعا له . والأغانى هذا كتاب عظيم فى ٢١ مجلدا ألفه الأصبهانى فى خمسين سنة وكتبه مرة واحده فى عمره وأهداه الى سيف الدولة بن حمدان[٢] .

٢ – وشهرة الأصبهانى وكتابه مستفيضة فلا حاجة لإعادة ما يعرفه الناس . وانما أريد هنا أن أنص على ناحيتين فى الأصبهانى وكتابه لم أجد من تنبه لهما من الباحثين . ولهاتين الناحيتين أهمية عظيمة فى فهم الحياة الأدبية ، وسيكون لهما أثر عظيم فى دعوة المؤلفين الى الأحتياط حين يرجعون الى كتاب الأغانى يتلمسون الشواهد فى الأدب وفى التاريخ .

الناحية الأولى خاص بالأصبهانى : تلك الناحية هى خلقه الشخصى . فقد كان الأصبهانى مسرفا أشنع الإسراف فى اللذات والشهوات ، وقد كان لهذا الجانب من تكوينه الخلقى أثر ظاهر فى كتابه ؛ فان كتاب الأغانى أحفل كتاب بأخبار الخلاعة والمجون . وهو حين يعرض للكتاب والشعراء يهتم بسرد الجوانب الضعيفة من أخلاقهم الشخصية ، ويهمل الجوانب الجدية إهمالا ظاهرا يدل على أنه كان قليل العناية بتدوين أخبار الجدّ والرزانة والتجمل والاعتدال . وهذه الناحية من الأصبهانى أفسدت كثيرا من آراء المؤلفين الذين اعتمدوا عليه ، ونظرة فيما كتبه المرحوم جورجى زيدان فى كتابه تاريخ أدب اللغة العربية ، وما كتبه الدكتور طه حسين فى حديث الأربعاء تكتفى للاقتناع بأن الاعتماد على كتاب الأغانى جرّ هذين الباحثين الى الخط

---

(١) ياقوت ص ١٤٩ ج ٥ (٢) ياقوت ج ٥ ص ١٤٩

من أخلاق الجماهير فى عصر الدولة العباسية ، وحملهما على الحكم بأن ذلك العصر كان عصر شك وفسق ومجون .

٣ — ولا أريد بهذا أن أحكم بأن الأصبهانى كان يتعمد الآختلاق، وأن الجمهور فى العصر العباسى كان مغمورا بالطهر والعفاف، كلا، فقد قلت غير مرة إن الحياة الانسانية مزيج من الشك واليقين، والحلم والجهل، والهدى والضلال، و إن الانسان لا يكون خيرا محضا ولا شرا محضا ، وإنما بقاؤه فى أن تكون سرائره مسرحا لنوازع الغىّ والرشد، والبر والفجور، ولكنى أريد أن أقول : إن إكثار الأصبهانى من تتبع سقطات الشعراء ، وتلمس هفوات الكتّاب، جعل فى كتابه جوّا مشبعا بأوزار الإثم والغواية ، وأذاع فى الناس فكرة خاطئة هى آقتران العبقرية بالنزق والطيش والخروج على ما ألفت الجماهير من رعاية العرف والدين .

٤ — أما الناحية الثانية فهى خاصة بكتاب الأغانى: تلك الناحية هى نظم ذلك الكتاب، ففى مقدمته عبارات صريحة فى الدلالة على أن مؤلفه قصر آهتمامه أو كاد على إمتاع النفوس والقلوب والأذواق: فهو كتاب أدب لا كتاب تاريخ . وأريد بذلك أن المؤلف أراد أن يقدّم لأهل عصره أكبر مجموعة تُغذّى بها الأندية ومجامع السمر ومواطن اللهو ومغانى الشراب . وإنه ليحدثنا فى المقدمة بأنه أتى فى كل فصل من كتابه بِفقَر إذا تأملها قارئها لم يزل متنقلا بها من فائدة الى مثلها ومتصرفا فيها بين جد وهزل ، وآثار وأخبار، وسير وأشعار متصلة بأيام العرب المشهورة، وأخبارها المأثورة، وقصص الملوك فى الجاهلية والخلفاء فى الاسلام . وأخبرنا بعد ذلك أنه آهتم بالغناء الذى عرف له قصة تستفاد وحديثا يستحسن . وعلل ذلك بقوله : "إذ ليس لكل الأغانى خبر نعرفه ولا فى كل ما له خبر فائدة، ولا لكل ما فيه بعض الفائدة رونقٌ يروق الناظر ويلهى السامع"(1) .

وأحب أن يتأمل القارئ قوله : "رونق يروق الناظر ويلهى السامع" فهذا التعبير هو الوصف الصادق لما آختار الأصبهانى أن يدور عليه كتابه حين أراد أن يقدّم ما راقه من أيام

(1) ص ٢

العرب وقصص الملوك فى الجاهلية والخلفاء فى الاسلام، وخصوصا إذا لاحظنا أن كلامه يشعر بأنه مستعد لإهمال ما فيه بعض الفائدة إذا خلا من ذلك الرونق الذى "يروق الناظر ويلهى السامع". فهو إذن يساير القرّاء المتطلعين الى النواحى الطريفة من أخبار الملوك والخلفاء والوزراء والكتّاب والشعراء . ولهذا النحو فى التأليف قيمة عظيمة جدا إذا فهمه القارئ على وجهه الصحيح : فهو دليلٌ على خصوبة التصوّر والخيال، وبرهان على أن كتّاب اللغة العربية لم يحرَموا من القَصَص الشائق الخلّاب، ولم يفتهم أن يقدّموا لأوقات اللهو والفراغ ما تحتاج اليه العقول المكدودة والنفوس المحزونة من طرائف الأقاصيص وغرائب الأسمار . ولكن الخطر كل الخطر أن يطمئن الباحثون الى أن لروايات الأغانى قيمة تاريخية، وأن يبنوا على أساسها ما يشاءون من حقائق التاريخ . لاسيما وصاحب الأغانى يصارحنا بأن "فى طباع البشر محبة الانتقال من شىء الى شىء، والاستراحة من معهود الى مستجدّ، وكلُّ منتقَل اليه أشهى الى النفس من المنتقَل عنه، والمبتكر أغلب على القلب من الموجود"(1) وأن "انتقال القارئ من خبر الى غيره ومن قصة الى سواها ومن أخبار قديمة الى محدَثة ومليك الى سوقة وجدّ الى هزل" أدعى الى نشاطه وأبعث على شهوته لتصفح ما فى الكتاب من مختلف الفنون .

٥ — ولأضرب المثل بما قصه صاحب الأغانى من أخبار عمر بن أبى ربيعة، وهى أخبار ظنها كثير من الباحثين صورة لحياة الحجاز فى القرن الأول للهجرة، وقد حدّثنى المسيو ماسينيون بأن لأشعار عمر بن أبى ربيعة وحوادثه أهمية عظيمة من هذه الناحية . وأنا قد اعتمدت بالفعل على كتاب الأغانى حين وصّلت أحاديث مَن عرف ذلك الشاعر من الملاح فى الطبعة الثالثة من كتابى "حب ابن أبى ربيعة وشعره" ولكننى دعوت القارئ الى الاحتراس وبينت له أننى أريد أن أرسم من ابن أبى ربيعة صورة جذابة تشبه صورة ميسيه عند الفرنسيين وجوت عند الألمان وبيرون عند الانجليز . وأنا أستبيح هذا النحو من استغلال كتب الأدب والتاريخ، فإن الأدب يقصد به إمتاع القلوب كما يراد به إقناع العقول . ومتى نص الكاتب

(1) ص ٤

على أن وجهته فنيـة محضة وأن منحاه أدبيّ صِرف فقد أبرأ ذمته عند من يريد أن يتخذ من أقاصيص الأدب صـورة صادقة لحياة الأشخاص وما أحاط بهم من مختلف البيئات وشتى الظروف . وكذلك فعلت حين قلت :

"إن كثيرا من حوادث ابن أبى ربيعة الغرامية من صنع الخيال . وقد قبلناه على علاته واكتفينا بتلك الإشارة عنـد التمهيد لأخبار الملاح ، إذ كانت حوادث ابن أبى ربيعـة التى أضيفت اليه تدلنا على شيئين : فهى أولا علامة على أن المتقدمين أنسوا بروحه وأسلموا قلوبهم لوحيـه فأبدعوا فى ظلال ذكراه ما شاء الخيال من أحاديث الحب الظافر والهوى الغلّاب ، وهى ثانيا دليل على أنه كان للمتقدّمين ميلٌ الى القَصَص الغرامى وحظ من الإجادة فيه ، فكان من الخير أن نستغل تلك الباكورة القَصصية ونحن نتحدث عمن هوِىَ ذلك الشاعر من حسان النساء[1]" .

لكن صاحب الأغانى لم يفعل شيئا من ذلك ، وإنما ساق أخبار ابن أبى ربيعة كلها على أنها حقائق ، وساقها مروية بالسند ، والرواية بالسـند شىء ساحر فُتن به كثير من الناس وظنوه علما دقيقا له آداب وشروط ، واعتمادا على هذا العلم الدقيق اطمأن أكثر الباحثين الى روايات الأغانى فضلوا وأضلوا فى حقائق التاريخ .

٦ — قلت إن صاحب الأغانى كان يهتم بالنواحى الطريفة من السير والأخبار . فلأذكر من أدلة ذلك أنه حدّثنا بسـنده عن ابن أخى زرقان عن أبيه قال : أدركت مولى لعمر بن أبى ربيعة شيخا كبيرا فقلت له : "حدّثنى عن عمر بحديث غريب" وكلمة "حديث غريب" هذه لها معناها فيما نحن بسبيله من أخذ الرواة بالتلفيق والاختلاق ، فان البحث عن الأوضاع الغريبة من أحاديث عمر بن أبى ربيعـة يدل على ظمأ تلك النفوس الى النادر المستطرف من القصص والأحاديث . وما عسى أن يكون ذلك الخبر الغريب؟ هو خبر يشبه من أكثر نواحيه قصة حج أبى نواس التى اخترعها ابن دريد . فأبو نواس حين رجع من حجه اجتذبه جماعة من

(١) راجع كتاب « حب ابن أبى ربيعة وشعره » ص ٢٩٥ من الطبعة الثالثة .

حسان النساء . وما كاد يطمئن الى ظفره بما كان يشتهى من جميل الصيد حتى دخل عليه جماعة من العبيد فى حالة جارحة بددت ما نظم من ساحر الأحلام . وابن أبى ربيعة فى تحجه تعرض لنسوة من جوارى بنى أمية فخلبنه ووعدنه بتذكرة طيبة تكون تحفة له كلما تذكر أنسه بهن فى أيام الطواف ، فلما بعث غلامه ليتسلم التذكرة عاد ومعه صندوق لطيف مقفل مختوم كان يظن أنه أودع طيبا أو جوهرا ، ففتحه فاذا هو مملوء من المضارب وهى الكيرنجات واذا على كل واحد منها اسم رجل من مجان مكة وفيها اثنان كبيران على أحدهما الحارث بن خالد وهو يومئذ أمير مكة وعلى الآخر عمر بن أبى ربيعة . واذا كانت المضارب والكيرنجات هى آلات الفساد فقد تم التشابه بين قصة عمر وقصة أبى نواس .

وتجد صاحب الأغانى فى مكان آخر يروى بسنده عن عثمان بن ابراهيم الخاطبى أنه قال :

” أتيت عمر بن أبى ربيعة بعد أن نسك بسنين وهو فى مجلس قومه من بنى مخزوم فانتظرت حتى تفرق القوم ثم دنوت منه ومعى صاحب لى ظريف وكان قد قال لى : تعال حتى نهيجه على ذكر الغزل فننظر هل بقى فى نفسه منه شىء؟ فقال له صاحبى : يا أبا الخطاب، أكرمك الله ! لقد أحسن العذرى وأجاد فيما قال، فنظر عمر اليه ثم قال له : وماذا قال؟ قال حيث يقول :

لو جُذَّ بالسيف رأسى فى مودّتها   لمرّ يهوى سريعا نحوها راسى

ثم مضى يهيجه بالشعر حتى طرب ، وحدثهما بحديث وُصف بأنه ” حديث حلو “ وتلك الحلاوة لها معناها أيضا فهى نص على أنه وضع ليكون فكاهة طريفة يتنقل بها السامرون فى مجالس الشراب . ويتلخص الحديث فى أن خالدا الخريت صاحب عمر حدثه عن نسوة مررن به قبيل المساء لم ير مثلهن فى بدو ولا حضر، فيهن هند بنت الحارث المرية ، وأشار عليه بأن يأتى متنكرا ليسمع من حديثهن ويتمتع بالنظر اليهن ولا يعلمن من هو . فقال له عمر : ويحك ! وكيف أخفى نفسى ؟ فأشار اليه بأن يلبس لبسة أعرابى ثم يجلس على قعود فلا يشعرن إلا به وقد هجم عليهن : فأطاع عمر ثم وقف بقرب النسوة وأنشدهن ما سألن إنشاده

من شعر كثيِّر وجميل والأحوص ونُصيْب . وبعد لحظات تغامز النساء وجعل بعضهن يقول لبعض : كأنا نعرف هـذا الأعرابى! ما أشبهه بعمر بن أبى ربيعـة ! ثم مدّت هنـد يدها فانتزعت عمامته وألقتها عن رأسه ثم قالت : هيه ياعمر ! أتراك خدعتنا منذ اليوم ؟ بل نحن والله خدعناك واحتلنا عليـك بخالد فأرسلناه اليك لتأتينا فى أسوأ هيئة ونحن كما ترى ! ثم قالت بعد أن أخذا فى الحـديث : ويحك ياعمر ؟ اسمع منى، لو رأيتنى منـذ أيام وأصبحت عند أهلى فأدخلت رأسى فى جيبى فنظرت الى حِرى فاذا هو ملء الكف ومنيـة المتمنى فناديت ياعمراه ياعمراه! فصاح عمر : يالبيكاه يالبيكاه! ومدّ فى الثالثة صوته، الى آخر الحديث .

ونحن نجد لهذه القصة أشباها كثيرة من حيث الغرض والأسلوب . فقد حدّث ابن دريد أن رجلا جلس الى مجنون ليلى فى ظل شجرة فقال : ما أشعر قيسا حيث يقول :

يبيت ويضحى كل يوم وليـلة	على منهج تبكى عليـه القبائلُ
قتيلٌ للبنى صدَّع الحب قلبـهُ	وفى الحب شغلٌ للمحبين شاغل

فقال المجنون أنا أشعر منه حيث أقول :

سـلبت عظامى لحمها فتركتها	معـرَّقة تضحَى لديك وتخصَرُ
وأخليتها من مخهـا فكأنها	قوارير فى أجوافها الريح تصفر
اذا سمعت ذكر الفراق تقطعت	علائقها مما تخاف وتحـذر
خذى بيدى ثم انهضى بى تبينى	بىَ الضر إلا أننى أتسـتر(1)

وللحديث بقية، وفى هذا ما يكفى لبيان الأسلوب الذى كان يجرى عليه الرواة فى تصوير العشاق الذين تسلوا أو يئسوا، وما كان يعمل أرباب الفضول فى تهييج ما كانوا يكتمون من أسرار الوجد الدفين ...

ويشبه هذين الحديثين مارواه محمد بن خلف بسنده عن على ابن عاصم إذ قال :

---

(1) ص ١٦٣ ج ١ أمالى .

" قال لى رجل من أهل الكوفة من بعض اخوانى : هل لك فى عاشق تراه ؟ فمضيت معه فرأيت فتى كأنما نزعت الروح من جسده وهو مؤتزر بإزار ومرتد بآخر وإذا هو مفكر وفى ساعده وردة فذكرنا له بيتا من الشعر فتهيج وقال :

جعلت من وردتها تميمة فى عضدى
أشمها من حبها إذا علانى كمدى — الخ[1]

وما روى عن هند بنت الحارث فى آستدراجها لعمر وآستقدامه بأسوأ هيئة يشبه ما روى عن الثريا بنت على حين دست من يخبره بأنه سمع عند رحيله عن الطائف صوتا وصياحا عاليا على آمرأة من قريش آسمها آسم نجم فى السماء وقد ذهب عنه آسمه . فقال عمر : الثريا ؟ قال : نعم ، وكان قد بلغ عمر قبل ذلك أنها عليلة ، فوجه فرسه الى الطائف يركضه ملء فروجه وسلك طريق كداد وهى أخشن الطرق وأقربها حتى آنتهى الى الثريا وقد توقعته وهى تتشوف له فوجدها سليمة ، فأخبرها الخبر فضحكت وقالت : أنا والله أمرتهم لأختبر مالى عندك !

ومن أحلى القصص التى رواها صاحب الأغانى عن محمد بن خلف قصة عمر مع فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، وخلاصتها أن آمرأة أقبلت عليه وهو فى فناء مضربه وغلمانه حوله فسلمت عليه وسألته : هل لك فى محادثة أحسن الناس وجها وأتمهم خلقا وأكملهم أدبا وأشرفهم حسبا ؟ قال : ما أحب ذلك الىّ ! فاشترطت عليه أن تمكنه من عينيه فتشدهما وتقوده حتى إذا توسط الموضع الذى تريد حلت الشد ثم تفعل به ذلك عند إخراجه حتى تنتهى به الى مضربه . فقبل عمر ، ثم قادته الى آمرأة لم ير مثلها قط جمالا وكمالا ، فسلم وجلس ، ثم كان بينهما وبينه حوار آنتهى بطرده ، فعاد الى مضربه كاسف البال ، ثم عادت المرأة فى اليوم التالى فقادته مرة ثانية آنتهت بمثل ما آنتهت به المرة الأولى من الإخفاق ، وظلت الحال على ذلك أياما حتى آهتدى عمر الى أنها فاطمة بنت عبد الملك ، فى حديث شائق طويل .

---

(١) ص ٧ مصارع العشاق وقد وردت هذه الحكاية فى الأمالى ج ٣ ص ١٤٥ مروية عن عبد الله بن خلف .

وقد آستمر صاحب الأغانى ينقل من اخبار عمـر بن أبى ربيعة ما طاب له من غير نقد ولا تمحيص . ولكنه فطن فى بعض ما رواه الى تلفيق الرواة حين عرض الى تزويج الثريا وخروجها الى مصر وعمر غائب ، فقال : « وهـذا الخبر عنـدى مصنوع ، وشعره مضعف يدل على ذلك . ولكنى ذكرته كما وقع الىّ[1] » .

٧ — هنا دلنا صاحب الأغانى على آرتيابه فى بعض الأخبار، ولكن لماذا يذكر ما يرتاب فيه كما يقع اليه ؟ يذكره لأنه يريد أن يقدّم ما يروق الناظر ويلهى السامع ، كما أشرنا من قبل . ولكن لا يفوتنـا أن نشير الى أن هـذا الخبر الذى حدّثنا الأصبهانى بأنه مصنوع هو كذلك منقول عن جماعة من الرواة ، كان يصح أن يحتج بروايتهم من يصدّقون كل شىء روى بأسانيد، لو لم ينص الأصبهانى على أنه مدسوس .

وفى رأيى أن أكثر أخبار عمر بن أبى ربيعة وُضع تفسيرا لشعره، لأن كل قصيدة من قصائده تشير الى حادثة من حوادثه الغرامية ، وقد صنع الرواة مثل هـذا الصنع فى أخبار أبى نواس ، فقد لفقوا حديثا يشرح قوله فى جِنان :

ياذا الذى عن جنـان ظل يخبرنا	بالله قـل وأعـدْ ياطيب الخبرِ
قال آشتكتك وقالت ما آبتُليتُ بهِ	أراه من حيث ما أقبلت فى أثرى
ويُعمِل الطرف نحوى إن مررت به	حتى ليخجلنى من حـدّة النظر
وان وقفت له كيما يكلمـنى	فى الموضع الخِلو لم ينطق من الحَصَر
مازال يفعل بى هـذا ويدمنه	حتى لقد صار من همى ومن وطرى[2]

واخترع الرواة كذلك قصة طريفة لتفسير أبيات أبى نواس التى مطلعها :

أسأل القادمين من حكمان	كيف خلفتما أبا عثمان[3]

(١) ٢٣٦ ج ١ "وما قيمة تضعيف الشعر فى هذا الخبر ؟ كان ينبغى تحقيقه من وجهة تاريخية إن أمكن" .

(٢) الأغانى ج ٨ ص ٤ طبع الساسى . (٣) ج ١٨ ص ٥

وقد تنبه كثير من الباحثين إلى ما دُسّ على أبى نواس، ولم أجد من أشار إلى ما دس على عمر ابن أبى ربيعة ، مع أن الرجلين يشتركان فى أن كلا منهما قضى معظم حياته فى اللهو والعبث والمجون . وإذا جارينا صاحب الأغانى فى الاستدلال على وضع الشعر بضعفه، فان فى شعر ابن أبى ربيعة قصائد كثيرة يغلب عليها الضعف والانحلال ، حتى ليبعد معظم شعره عن المتانة التى عرفتْ فى عصره وطبع عليها عدد من قصائده الطّوال .

هـذا . ولو مضينا نحصى ما فى روايات الأغانى من التلفيق لطال بنا القول ، فلنكتف بهذا، ولنسجل مرة ثانية أن الأصبهانى أراد أن يكون كتابه معرضا لما تجمّع بين أيدى معاصريه من طرف الأقاصيص، فليعتبره القارئ كتاب أدب لا كتاب تاريخ .

٨ ــ بقيت مسألة لها خطر فى هذا الباب : قد يتوهم القارئ أننا نجزم بأن صاحب الأغانى اخترع ما دونه من أخبار عمر بن أبى ربيعة ، فلننف هذا الوهم ، ولنذكر أننا رأينا فى ارشاد الأريب لياقوت أن ابن بسام كان ألف كتابا فى أخبار عمر، وقد روى فيه عن الزبير بن بكار وعمر بن شبة وحماد بن اسحق ومحمد بن حبيب ويعقوب بن أبى شيبة وأحمد ابن الحارث الخراز[(1)] .

وبعض من روى عنهم ابن بسام يكثر النقل عنهم فى كتاب الأغانى، وخاصة عمر بن شبة والزبير بن بكار . وابن بسام هـذا من رجال القرن الثالث . وفى كتابه عن عمر دليل على أن أخبار ذلك الشاعر كانت معروفة قبل الأصبهانى بنحو قرن أو يزيد، وكانت موضع عناية المؤلفين .

ولو وصل الينا كتاب ابن بسام لعرفنا الفرق بين طريقته وطريقة أبى الفرج فى صياغة الأخبار، ولكننا على أى حال نرجح أن أبا الفرج له يدٌ فى تلوين تلك الأخبار ووضعها فى قوالب يغلب عليها اللهو والمجون، فهو لم يخلقها كلها، لأن عبث ابن أبى ربيعة كان مشهورا قبل ذلك، ولكنه نفخ فيها من روحه، وصاغها بلباقة وافتنان .

(١) انظر ص ٢١٩ ج ٥

* * *

ولو خلينا الأخبار المروية جانبا، ونظرنا فيما حدث به أبو الفرج عن نفسه، لعرفنا مبلغ حذقه فى وضع الأقاصيص .

والى القارئ هاتين النادرتين :

١ — قال أبو الفرج : خرجت أنا وأبو الفتح أحمد بن ابراهيم بن على بن عيسى رحمه الله ماضيين الى دير الثعالب فى يوم من سنة ٣٤٥ للنزهة، ومشاهدة آجتماع النصارى هناك، والشرب على نهر يزدجرد الذى يجرى على باب هذا الدير، وفيه جماعة من أولاد كتّاب النصارى من أحداثهم، واذا بفتاة كأنها الدينار المنقوش تمايل وتتثنى كغصن الريحان فى نسيم الشّمال . فضربت بيدها الى يد أبى الفتح وقالت : يا سيدى! تعال آقرأ هذا الشعر المكتوب على حائط هذا الشاهد، فمضينا معها ، وبنا من السرور بها وبظرفها وملاحة منطقها ما الله به عليم . فلما دخلنا البيت كشفت عن ذراع كأنه الفضة وأومأت الى الموضع فاذا فيه مكتوب :

خرجتْ يوم عيدها ... فى ثياب الرواهبِ
فتنت بآختيالها ... كل جاءٍ وذاهب
لشقائى رأيتها ... يوم دير الثعالب
تتهادى بنسوة ... كاعب فى كواعب
هى فيهم كأنها الـ ... ـبدر بين الكواكب

فقلت لها : أنت والله المقصودة بهذه الأبيات . ولم نشك أنها كتبت الأبيات، ولم نفارقها بقية يومنا . وقلت لها هذه الأبيات وأنشدتها إياها ففرحت :

مرّت بنا فى الدير خمصانه ... ساحرةُ الناظر فتانه
أبرزها الذكران من خدرها ... تعظّم الدير ورهبانه
مرّتْ بنا تخطر فى مشيها ... كأنما قامتها بانه
هبت لنا ريح فمالت بها ... كما تثنّى غصن ريحانه
فتيمت قلبى وهاجت له ... أحزانه قدما وأشجانه

وحصلت بينها و بين أبى الفتح عشرة بعد ذلك ، ثم خرج الى الشام وتوفى بها ، ولا أعرف لها خبرا بعد ذلك[1] .

٢ — وقال فى كلمة ثانية : كنت فى أيام الشبيبة والصبى آلف فتى من أولاد الجند فى السنة التى توفى فيها معز الدولة ، وولى بختيار ، وكانت لأبيه حال كبيرة ومنزلة من الدولة ورتبة ، وكان الفتى فى نهاية حسن الوجه ، وسلاسة الخلق ، وكرم الطبع ، ممن يحب الأدب ويميل الى أهله ، ولم يترك قريحته حتى عرف صدرا من العلم وجمع خزانة من الكتب حسنة . مضت لى معه سير لو حفظت لكانت فى كتاب مفرد من مكاتبات ومعاتبات ، وغير ذلك مما يطول شرحه . منها أننى جئته يوم جمعة غدوة فوجدته قد ركب الى الحلبة . وكانت عادته أن يركب إليها فى كل يوم ثلاثاء و يوم جمعة . فجلست على دكة على باب دار أبيه فى موضع فسيح كان عمّرها وفرشها . فكنا نجلس عليها للحادثة الى آرتفاع النهار . ثم ندخل اذا أقمت عنده الى حجرة لطيفة كانت مفردة له لنجتمع على الشراب والشطرنج وما أشبههما . فطال جلوسى فى ذلك اليوم منتظرا له ، فأبطأ وتصبّح من أجل رهان كان بين فرسين لبختيار ، فعرض لى لقاء صديق ، فقمت لأمضى ثم أعود إليه ، فهجس لى أن كتبت على الحائط الذى كنا نستند إليه هذه الأبيات :

يا من أظل بباب داره ... ويطول حبسى لانتظاره

وحياة طرفك وآحوراره ... ومجال صدغك فى مداره

لاحُلتُ عمرى عن هوا ... ك ولو صَليتُ بحرّ ناره

وقمت . فلما عاد قرأ الأبيات وغضب من فعلى لئلا يقف عليه من يحتشمه . وكان شديد الكتمان لما بينى و بينه مطالبا بمثل ذلك مراقبةً لأبيه ، إلا أن ظرفه وكيد محبته لى وميله إلىّ لم يدعه حتى أجاب بما كتب تحتها . ورجعت من ساعتى فوجدته فى دار أبيه فاستأذنت عليه فخرج إلىّ خادم لهم فقال : يقول لك : لا التقينا حتى تقف على الجواب عن الأبيات ، فانه تحتها . فصعدت الدكة فاذا تحت الأبيات بخطه :

(١) ياقوت ج ٥ ص ١٥٨ و ١٥٩

" ما هذه الشناعة ؟ ومن فسّح لك فى هذه الإذاعة ؟ وما أوجب خروجك عن الطاعة؟ ولكن أنا جنيت على نفسى وعليك : ملّكتك فطغيت، وأطعتك فتعدّيت ، وما أحتشم أن أقول : هذا تعرض للإعراض عنك . والسلام ".

فعلمت أنى قد أخطأت، وسقطت — شهد الله — قوتى وحركتى، فأخذتنى الندامة والحيرة، ثم أذن لى فدخلت فقبلت يده فمنعنى، وقلت : يا سيدى! غلطة غلطتها، وهفوة هفوتها، فإن لم تتجاوز عنها وتعفُ هلكت . فقال لى : أنت فى أوسع العذر بعد أن لا يكون لها أخت . وعاتبنى على ذلك عتابا عرفت صحته . ولم تمض إلا مُديدة حتى قُبض على أبيه وهرب . فاحتاج الى الآستتار فلم يأنس هو ولا أهله إلا بكونه عندى . فأنا على غفلة إذ دخل فى خف وإزار، وكادت مرارتى تنفطر فرحا، فلقيته أقبّل رجليه وهو يضحك ويقول : يأتيها رزقها وهى نائمة! هذا يا حبيبى بخت من لا يصوم ولا يصلى فى الحقيقة — وكان أخف الناس روحا وأقلعهم لبادرة . وبتنا فى تلك الليلة عروسين لا نعقل سكرا ! وآصطبحنا وقلت هذه الأبيات :

بتّ وبات الحبيب ندمانى ... من بعد نأى وطول هجران

نشرب قفصية معتقة ... بحانة الشط منذ أزمان

وكلما دارت الكؤوس لنا ... ألثمنى فاه ثم غنانى

الحمد لله لا شريك له ... أطاعنى الدهر بعد عصيان

ولم يزل مقيما عندى نحو الشهر حتى آستقام أمر أبيه، ثم عاد الى داره[(1)] .

فهذه الأخبار التى رواها أبو الفرج عن نفسه تعيّن اتجاهاته الذوقية فى الحياة .

ومن هنا جاء غرامه بتعقب أخبار الخلاعة والمجون فيمن ترجم لهم من الشعراء .

(1) ص ١٦٠ و ١٦٢ ج ٥ ياقوت .

٥ – أخبار ابن دريد

١ – لقد تكلمت عن ابن دريد فى فصل سبق، وإنى لعائد إليه لأستقصى أمره، إذ كنت أول من كشف الغطاء عن محاولاته فى النثر الفنى، ولأذكر أولا أن الذى كان يريب الدكتور طه حسين من ابن دريد هو روايته عن عبد الرحمن ابن أخى الأصمعى، وكان يرى فى كلمة "ابن أخى الأصمعى" مثارا للشك. وقد رأيت أن أتعقب هذه الفكرة فوصلت الى أن رواة العرب كانوا يستعملون مثل هذا التعبير، فاننا نجد الأصبهانى ينقل "حدثنى أبو مسلم عن ابن أخى رزقان"[1].

وفى معجم ياقوت "قال أبو حيان: وكان يختلف الى مجلس أبى سعيد على بن المستنير وكان هذا ابن بنت قطرب" وكلمة "ابن بنت قطرب" تدل على أنهم كانوا يعطون قيمة لمن يتصلون بكبار العلماء اتصال قرابة. ومثل هذا ما نقل ياقوت: "حدث يموت بن المزرع عن خاله الجاحظ"[2]. وفى الأغانى: "أخبرنى محمد بن جعفر صهر المبرد"[3]. وكان مثار الشك أن عبد الرحمن هذا لم يذكر أحد من أبوه، وقد وصلت بعد البحث الى أنه عبد الرحمن بن عبد الله[4] وقد ذكره ابن الأنبارى فى طبقات النحاة بين من أخذ عنهم ابن دريد[5]. لكن بقيت مسألة تثير الشك: ذلك أن هناك راوية ادعى أنه ابن أخت الأصمعى وهو أحمد بن حاتم وأنكر عليه ذلك[6]. وأحمد هذا الذى استباح لنفسه أن ينسب الى الأصمعى كذبا كان أثبت من عبد الرحمن فيما نقل ياقوت. فعبد الرحمن إذن متهم فى روايته، وهذا الاتهام له خطره فيما نقله عنه ابن دريد.

---

(١) ص ١٦٩ طبع دار الكتب المصرية، وفى معجم ياقوت ص ٩٨ ج ١ (٢) ص ٧٨ ج ٦ — وفى بغية الوعاة أخذ عبد القاهر بن عبد الرحمن النحوى عن «ابن أخت» الفارسى ولم يأخذ عن غيره — ٣١٠ (٣) ص ٤ ج ١٨ (٤) وفيات الأعيان ص ٣١٠ ج ٢ (٥) ص ٣٢٢ (٦) ياقوت ص ٤٠٥ ج ١

٢ — وقد وصلت الى نصوص مهمة تبين آختلاق آبن دريد وتلفيقه وتثبت أنه راع معاصريه بكثرة مايروى من الأخبار حتى آضطروا الى الارتياب فى أمانتـه . ولننظر ما نقل ياقوت من خط أبى على المحسن : سألت القاضى أباسعيد السيرافى رحمه الله عن الأخبار التى يرويها عن ابن دريد، وكنت أقرؤها عليه، أكان يمليها من حفظه ؟ فقال : لا، كانت تجمع من كتبه وغيرها ثم تقرأ عليه؛ وسألت أبا عبد الله محمد بن عمران المرزبانى — رحمه الله — عن ذلك، فقال : لم يكن يمليها من كتاب ولا حفظ ولكن كان يكتبها ثم يخرجها الينا بخطه فاذا كتبناها خرق ما كانت فيه[1] .

وعبارة " لم يكن يمليها من كتاب ولا حفظ " عبارة خطيرة الدلالة على آتهام ابن دريد بالتلفيق وأخذه بوضع الأقاصيص .

وقال ابن خلكان فى أخبار ابن دريد : " سئل عنه الدارقطنى : أثقة هو أم لا ؟ فقال : تكلموا فيه، وقيل إنه كان يتسامح فى الرواية فيسند الى كل واحد ما يخطر له[2] " .

وهذا النص صريح فى أن ابن دريد كان متهما بين معاصريه، وأنهم أطالوا القول فيه، وأنه كان مأخوذا بعدم الثقة فيما ينسبه الى الرواة، فاذا أضيف هذا الى ما حدثنا به الحصرى من اختراعه الأحاديث عرفنا ان له يدا فى صنع ما نسبه الى العرب القدماء .

٣ — وهناك جانب عقلى من ابن دريد لابدّ من الإشارة إليه : ذلك أنه مع سعة علمه وقوة ذكائه كان يطمئن الى بعض الحقائق المزيفة التى يتداولها الناس، فكان يذكر أن أول من أقوى فى الشعر أبونا آدم عليه السلام فى قوله :

تغيرت البلاد ومن عليها	فوجه الأرض مغبرٌّ قبيحُ
تغير كل ذى طعم ولون	وقل بشاشة الوجه المليحُ[3]

وهى سذاجة مطبقــة أن يظن أن آدم كان يتكلم العربية حتى يؤخذ عليــه أنه أول من وقع فى الإقواء .

---

(١) ص ٢٤٨ ج ٦ (٢) ص ٣١٠ ج ٢ وفيات الأعيان . (٣) ص ١٠٣ ج ٣ ياقوت .

٤ — وهناك قصة نقلها ابن دريد عن العكلى قال :

كان لقمان بن عاد الذى عمّر عمر سبعة أنسر مبتلى بالنساء، وكان يتزوج المرأة فتخونه، حتى تزوج جارية صغيرة لم تعرف الرجال، ثم نقر لها بيتا فى سفح جبل وجعل له درجة بسلاسل ينزل بها ويصعد، فاذا خرج رفعت السلاسل، حتى عرض لها فتى من العماليق فوقعت فى نفسه فأتى بنى أبيه فقال : والله لأجنين عليكم حربا لا تقومون لها . قالوا : وما ذاك؟ قال : إمرأة لقمان بن عاد هى أحب الناس إلىّ . قالوا : فكيف نحتال لها؟ قال : اجمعوا سيوفكم ثم اجعلونى بينها وشدوها حزمة عظيمة، ثم آئتوا لقمان فقولوا : إنا أردنا أن نسافر ونحن نستودعك سيوفنا حتى نرجع، وسموا له يوما، وأقبلوا بالسيوف فدفعوها الى لقمان فوضعها فى ناحية بيته وخرج، وتحرك الرجل فخلت الجارية عنه، فكان يأتيها، فاذا أحست بلقمان جعلته بين السيوف حتى انقضت الأيام . ثم جاءوا الى لقمان فاسترجعوا سيوفهم، فرفع لقمان رأسه بعد ذلك فاذا نخامة تنوس فى سقف البيت، فقال لامرأته : من نخم هذه ؟ قالت : أنا . قال : فتنخمى، ففعلت فلم تصنع شيئا، فقال : ياويلتاه ! والسيوف دهتنى ! ثم رمى بها من ذروة الجبل فتقطعت قطعا وانحدر مغضبا، فاذا ابنة له يقال لها صحر فقالت له : يا أبتاه، ما شأنك ؟ قال : وأنت أيضا من النساء ؟ فضرب رأسها بصخرة فقالت العرب : ما أذنبت إلا ذنب صحر .[1]

ولقمان بن عاد الذى عمر عمر سبعة أنسر من الشخصيات الخرافية، والقصة مخترعة يراد بها إثبات أن كيد النساء عظيم وأنه لا ينجو من مكرهن مخلوق . وقد تكون القصة وضعت تفسيرا لذلك المثل : " ما أذنبت إلا ذنب صحر " فهناك أمثال كثيرة جُهلتْ مواردها فاحتال الرواة وألبسوها أقاصيص جديدة لتتم بها العبرة وليفهمها الناس موصولة بأسباب الحياة .

٥ — وهذا العصر الذى دهش فيه المتأدبون من الأخبار التى كان يرويها ابن دريد كانت تجرى فيه أشياء أخرى تدل على أن الرواة كانوا ألفوا التلفيق ، ففى ترجمة السيرافى

---

(١) ص ٤٨ و ٤٩ مصارع العشاق .

أن نصر بن نوح وكان من أدباء ملوك آل ساسان كتب إليه كتابا سأله فيه عن أمثال مصنوعة على العرب شك فيها [(١)] .

ولو وقفنا على تلك الأمثال المصنوعة لاستطعنا أن نفهم ما بينها وبين الأخبار التى افتعلها ابن دريد من قرب أو بعد، ولكن ذلك الكتاب ضاع كما ضاع ما نقله السيرافى من أخبار ابن دريد . وفى معجم ياقوت إشارة الى إن المحسن بن الحسين أملى بصيدا حكايات مقطعة بعضها عن ابن خالويه [(٢)] . وابن خالويه هـذا من تلامذة ابن دريد ، أفنستطيع أن نفترض [(٣)] أن لتلك الحكايات قيمة أدبية، وكان ابن دريد يتخير لأخباره وأحاديثه أدق الأساليب ؟

وتعقب روح العصر له أهمية فى فهم هذا الموضوع، وقد كان ابن فارس يقول : سمعت أبا أحمد بن أبى التيار يقول : أبو أحمد العسكرى يكذب على الصولى مثلما كان الصولى يكذب على الغلابى مثلما كان الغلابى يكذب على سائر الناس [(٤)]، وقد يمكن أن نقول على أساس هذه النكتة : ابن دريد يكذب على عبد الرحمن بن عبد الله مثلما كان عبد الرحمن يكذب على الأصمعى مثلما كان الأصمعى يكذب على سائر الناس !

٦ — وقد عاصر ابن دريد رجل ملفق هو أبو عمر الزاهد محمد بن عبد الواحد راوية ثعلب، بلغ من شهرته بالاختلاق أن قيل فيه : "لو طائر طار فى الجو لقال أبو عمر الزاهد حدثنا ثعلب عن ابن الأعرابى ويذكر فى معنى ذلك شيئا [(٥)]" . وله حادثة عجيبة دهش لها معاصروه : ذلك أن معز الدولة بن بويه قلد شرطة بغداد غلاما تركيا من مماليكه اسمه خواجا فبلغ ذلك أبا عمر الزاهد وكان يملى كتابه اليواقيت فى اللغة فقال للجماعة فى مجلس الإملاء : اكتبوا "ياقوتة خواجا : الخواجة فى أصل اللغة الجوع" ثم فرّع على هـذا بابا وأملاه عليهم فاستعظموا كذبه وتتبعوه [(٦)] . وقد أخذ على السيرفى أنه كان يشهد كذبا إذ يكتب بخطه فى ذيل

---

(١) ص ١٠٠ ج ٣ ياقوت . (٢) ص ٢٢٩ ج ٦ (٣) ص ٣٨٣ طبقات النحاة .

(٤) ص ١١ ج ٢ ياقوت . (٥) ص ٢٦ ج ٧ ياقوت .

(٦) ص ٢٧ ج ٧ ياقوت .

الكتب أنه راجعها وأنها صحيحة لتشترى بأكثر من ثمن مثلها[1] . وهذا نوع من التهاون له خطره فى تقدير أمانة العلماء .

٧ — وأكبر مجموعة باقية من أخبار ابن دريد هى ما نقله عنه أبو على القالى فى أماليه. وهذه المجموعة منقولة بصيغ مختلفة فبعضها يصل الى ابن الكلبى وبعضها الى الأصمعى، وجزء منها مروى عن أبى حاتم السجستانى . والجزء الذى وصله بابن الكلبى يتحدث فى الأغلب عن شئون يمنية . منها ذلك الحديث الذى يصف كيف كان قَيْلٌ من أقيال حمير مُنِع الولد دهرًا ثم ولدت له بنت فبنى لها قصرا منيفا بعيدا من الناس ووكل بها نساء من بنات الأقيال يخدمنها ويؤدبنها حتى بلغت مبلغ النساء فنشأت أحسن منشأ وأتمه فى عقلها وكمالها فلما مات أبوه ملكها أهل مخلافها فاصطنعت النسوة اللواتى ربينها وأحسنت اليهن وكانت تشاورهن ولا تقطع أمرًا دونهن، فقلن لها يوما: " يا ابنة الكرام لو تزوجت لتم لك الملك! فقالت: وما الزوج؟ فقالت إحداهن : الزوج عز فى الشدائد، وفى الخطوب مساعد، إن غضبتِ عطف، وإن مرضتِ لطف . قالت : نعم هذا الشىء ! فقالت الثانية : الزوج شعارى حين أَصرد[2]، ومتكئى حين أرقد ، وأنسى حين أفرد . فقالت : إن هذا لمن كمال العيش ! فقالت الثالثة : الزوج لما عنانى كاف، ولما شفَّنى شاف، يكفينى فقد الألاف ، ريقه كالشهد ، وعناقه كالخلد، لا يمل قِرانه، ولا يخاف حِرانه . فقالت : أمهلننى أنظر فيما قلتن، واحتجبت عنهن سبعا ثم دعتهن فقالت : قد نظرت فيما قلتن فوجدتنى أملكه رقى، وأبثه باطلى وحقى، فان كان محمود الخلائق، مأمون البوائق، فقد أدركت بغيتى، وان كان غير ذلك فقد طالت شقوتى، على أنه لا ينبغى إلا أن يكون كفؤا كريما يسود عشيرته، ويربُّ فصيلته، لا أتقنع به عارا فى حياتى ، ولا أرفع به شنارا لقومى بعد وفاتى . فعليكن فابغينه ، وتفرقن فى الأحياء، وإياكن أتتنى بما أحب فلها أجزل الحباء، وعلىَّ لها الوفاء[3] " .

وقد عاد النساء بعد البحث فوصفت كل واحدة منهن الزوج الذى فضلته فى عبارات جميلة أراد بها الكاتب أن يدوّن أخلاق الرجال .

(١) ص ١٠٥ ج ٣ ياقوت . (٢) من الصرد وهو البرد . (٣) ص ٨٠ ج ١ أمالى .

٨ — وهناك أخبار أراد بها الكاتب أن يوجّه قراءه وجهة علمية صرفة كحديث الرواد الذين أرسلتهم مذحج حين أجدبت فقد وصف كل رائد واديا وصفا يمتاز من وصف غيره ، فى عبارات مصنوعة أنيقة تؤدّى ما رمى اليه الكاتب من جمع الأوصاف الحسية للوديان المعشبة[1] . ويشبه هذا الحديث من الوجهة التعليمية ما نقله ابن دريد بسنده عن أبى عبيدة من أنه اجتمع عند يزيد بن معاوية أبو زبيد الطائى وجميل بن معمر العذرى والأخطل التغلبى فقال لهم : أيكم يصف الأسد فى غير شعر ؟ فوصفوه بالتعاقب وصفا فنيا فى عبارات جزلة مسجوعة تذكر بما رواه ابن دريد منسوبا الى الأعراب[2] .

٩ — أما ما وصله ابن دريد بالأصمعى فهو فى جملته يتحدّث عن أهل البادية ، ومن طريفه هذه الأقصوصة التى حكاها الأصمعى إذ قال :

"مررت بحمى الربذة فاذا صبيان يتقامسون[3] فى الماء ، وشاب جميل الوجه ملوّح الجسم قاعد . فسلمت عليه فرد علىّ السلام . وقال من أين وضح الراكب ؟ قلت من الحمى . قال : ومتى عهدك به ؟ قلت : رائحا . قال : وأين كان مبيتك ؟ قلت : أدنى هذه المشاقر[4] . فألقى نفسه على ظهره وتنفس الصعداء ، فقلت : تفسأ[5] حجاب قلبه ، وأنشأ يقول :

سقى بلدا أمست سليمى تحلّهُ ... من المزن ما تروى به وتسيمُ

وإن لم أكن من قاطنيه فانه ... يحلّ به شخص علىّ كريم

ألا حبذا من ليس يعدل قربهُ ... لدىّ وان شط المزار نعيم

ومن لامنى فيه حميم وصاحب ... فردّ بغيظ صاحب وحميم

ثم سكت سكتة كالمغمى عليه فصحت بالأصيبية فأتوا بماء فصببته على وجهه فأفاق وأنشأ يقول :

اذا الصب الغريب رأى خشوعى ... وأنفاسى تزين بالخشوع

---

(١) أنظر ص ١٨٣ ج ١ أمالى .   (٢) راجع ص ١٨٣ ، ١٨٤ ج ٣

(٣) يتقامسون : يتغاطون .   (٤) المشاقر : منابت العرفج .   (٥) تفسأ : تشقق .

ولى عينٌ أضَرّ بها التفاتى　　الى الأجراع مطلقه الدموع
الى الخلوات تأنس فيك نفسى　　كما أنس الوحيد الى الجميع[(١)]

وفيما وصله ابن دريد بالأصمعى أخبار تتجه وجهة تعليمية كحديث الأعرابى الذى وصف بنيه[(٢)] والأعرابى الذى وصف قومه[(٣)] والأعرابى الذى وصف المطر[(٤)] . وهناك حديث وصله بالاصمعى وردت فيه القصه المشهورة التى روت كيف مات الشاعر الجاهلى عَبيد بن الأبرص وهى فى رأينا قصة موضوعة أريد بها شرح المثل المعروف « حال الجَريض دون القريض » وقراءة هذه القصة تعطى فكرة عن احتيال الكتّاب والقصاصين فى إحياء العهود الجاهلية[(٥)] .

أما ماينقله ابن دريد عن أبى حاتم السجستانى فهو فى الأكثر من كلام الأعراب الذين يفدون على الحواضر كحديث الأعرابى الذى وقف بالمسجد الحرام يصف ما وقع فيه قومه من القحط ويطلب الاحسان ، وهو حديث منمق يجرى بنفس اللغة التى كتبت بها أحاديث ابن دريد[(٦)] وهناك حديث وصف به ماوقع من الملاحاة بين الوليد بن عقبة وعمرو بن سعيد فى مجلس معاوية وهو كذلك حديث مصنوع[(٧)] .

١٠ — وهناك حديث احتفل به ابن دريد ليسبغ عليه ثوب الجلال ، إذ ذكر أن أبا حاتم كان يضن به ويقول « ما حدّثنى به أبو عبيدة حتى اختلفت اليه مدة ، وتحملت عليه بأصدقائه من الثقفيين وكان لهم مواخيا » وسنرى مثل هذه العبارة حين ينقل التوحيدى حديث السقيفة ، فالجو واحد ، وطريقة التشويق تكاد تكون واحدة عند أولئك الكتّاب . وهذا الحديث مهم من حيث دلالته على تصوّر كاتبه لطائفة من الأخلاق الاجتماعية فى ذلك الحين ، والحديث يقع بين عامر بن الظَّرِب العَدوانى وحممة بن رافع الدوسى وقد اجتمعا عند ملك من ملوك حمير ، فقال الملك تساءلا حتى أسمع ما تقولان ، فقال عامر لحممة : أين تحب أن

(١) ص ٣٨ ج ١ أمالى . (٢) ص ٥٣ ج ١ (٣) ص ١٣٩ ج ١ (٤) ص ١٧٣ ج ١
(٥) ارجع الى هذه القصة فى ص ١٩٩ ، ٢٠٠ جزء ٣ من الأمالى . (٦) راجع ص ١١٣ ج ١ أمالى .
(٧) أنظر ص ٤٠ ج ٢ أمالى .

نكون أياديك ؟ قال : عند ذى المرض العديم ، وذى الخلة الكريم ، والمعسر الغريم ، والمستضعف الهضيم . قال : من أحق الناس بالمقت؟ قال : الفقير المختال ، والضعيف الصوال ، والعيي القوال . قال : فمن أحق الناس بالمنع؟ قال : الحريص الكائد [١] ، والمستميد الحاسد ، والملحف الواجد . قال : من أجدر الناس بالصنيعة؟ قال : من اذا أعطى شكر ، واذا منع عذر ، واذا موطل صبر ، واذا قدم العهد ذكر . قال : من أكرم الناس عشرة ؟ قال : من إن قورب منح ، وإن بعد مدح ، وإن ظلم صفح ، وإن ضويق سمح . قال : من ألأم الناس؟ قال : من اذا سأل خضع ، واذا سئل منع ، واذا ملك كنع [٢] ، ظاهره جشع ، وباطنه طبع . قال : فمن أحلم الناس؟ قال : من عفا اذا قدر ، وأجمل اذا انتصر ، ولم تطغه عزة الظفر . قال : فمن أحزم الناس؟ قال : من أخذ رقاب الأمور بيديه ، وجعل العواقب نصب عينيه ، ونبذ التهيب دبر أذنيه [٣] .

وللحديث بقية ، ولكنى اكتفيت بهذا القدر . وقد لفت نظرى قوله بعد ذلك :

"قال : فمن أبلغ الناس ؟ قال : من جلّى المعنى المزيز ، باللفظ الوجيز ، وطبق المفصل قبل التحزيز" .

ففى ذلك إشارة الى أنه كان مفهوما عندهم أن الجاهليين كانوا يدركون ماهية البلاغة ويتساءلون عن الكلام البليغ .

---

(١) الكائد : الجاحد . (٢) كنع انقبض . (٣) راجع ص ٢٨٠ ح ٢ أمالى .

٦ — عطايات ابن الأنباري

١ — ابن الأنباري هو أبو بكر محمد بن القاسم المتوفى سنة ٣٢٨ ببغداد . كان من أعلم الناس باللغة والشعر وعلوم القرآن . والذين ترجموا له ذكروا أنه كان صدوقا ثقة[(١)] . ومن شعره :

اذا زيد شرا زاد صبرا كأنما ... هو المسك ما بين الصلاية والفهر

لأن فتيت المسك يزداد طيبةُ ... على السحق والحر اصطبارا على الضر

وأنا لا أتهمه بالاختراع . ولكنه روى أحاديث قصيرة تلوح عليها علامات الصنع ، من ذلك ما رواه أنه مات رجل كان يعول اثنى عشر ألف انسان ، فلما حمل على النعش صرّ على أعناق الرجال ، فقال رجل فى الجنازة :

وليس صرير النعش ما تسمعونهُ ... ولكنه أعناق قوم تَقَصَّفُ

وليس فتيق المسك ما تجدونه ... ولكنه ذاك الثناء المخلَّف

وعبارة : « مات رجل كان يعول اثنى عشر ألف إنسان » صريحة فى خلق هذه الحادثة للإشادة بنبل الاخلاق العربية .

٢ — وقد روى عن أبيه قصة طريفة فقال : كان بمكة رجل سفيه يجمع بين الرجال والنساء فشكا ذلك أهل مكة إلى الوالى فغربه إلى عرفات فاتخذها منزلا ، ودخل مكة مستترا ، فلقى حُرفاءه من الرجال والنساء فقال : ما يمنعكم ؟ قالوا وأين بك وأنت بعرفات ؟ فقال : حمار بدرهمين وقد صرتم إلى الأمن والنزهة ! قالوا : نشهد أنك صادق ، وكانوا يأتونه ، وكثر ذلك حتى أفسد على أهل مكة أحداثهم وسفهاءهم وحواشيهم ، فعادوا بالشكاية إلى أمير مكة فارسل اليه فأتى به ، فقال : أىْ عدو الله ! طردتك من حرم الله فصرت إلى

(١) وفيات الأعيان ص ٣١٩ ج ٢ و ٩١ بغية الوعاة .

المشعر الأعظم تفسد فيه وتجمع الفساق، فقال : أصلح الله الأمير يكذبون علىّ ويحسدوننى! قالوا : بيننا وبينه واحدة، قال : ما هى، قالوا : تجمع حمير المكارين وترسلها بعرفات، فان لم تقصد الى بيته لما تعرف من إتيان الخراب والسفهاء إياه فالقول ما قال . فقال الوالى : إن فى هـذا لدليلا . وأمر بحمير فجمعت ثم أرسلت فقصـدت نحو منزله فأتاه بذلك أمناؤه، فقال : ما بعد هذا شىء، جردوه، فلما نظر الى السياط قال : لا بدّ من ضربى أصلح الله الأمير؟ قال : لا بدّ منـه ! قال : اضرب، فوالله ما فى هذا شىء أشدّ علينا من أن تسخر منا أهل العراق فيقولون : أهل مكة يجيزون شهـادة الحمير ! فضحك الأمير وقال : والله لا أضربك اليوم، وأمر بتخلية سبيله . (1)

ولنقيد أن ما يرويه ابن الانبارى لا صنعة فيـه فهو يجرى فى لغـة مقبولة لا يلتزم فيهـا السجع ولا الازدواج . ويمكن الاطمئنان الى أنه كان يتحـدث عن أخبـار كانت معروفة فى عصره بشىء يسير من الترتيب لم يصل قط الى مثل ما صنعه ابن دريد .

٣ — وفى مجموعة (التحفة البهية والطرفة الشهية) المطبوعة فى الآستانة سنة ١٣٠٢ هـ مانصـه :

ومن غرائب هذا الأسلوب وعجائبه ما أورده محمد بن القاسم الأنبارى رحمه الله قال :

إن سوارا صاحب رحبة سوار وهو من المشهورين قال : انصرفت يوما من دار الخليفة المهدى فلمـا دخلت منزلى دعوت بالطعام فلم تقبـله نفسى . فأمرت به فرفع ، ثم دعوت جارية أحدّثها وأشتغل بها فلم تطب نفسى، فدخل وقت القائلة فلم يأخذنى النوم ، فنهضت وأمرت ببغلة لى فأسرجت وأحضرت فركبتها فلمـا خرجت استقبلنى وكيل لى ومعـه مال، فقلت ما هذا؟ فقال : ألفا درهم جئت بها من مستغلك الجديد، قلت أمسكها معك، واتبعنى . فأطلقت رأس البغلة حتى عبرت الجسر، ثم مضيت فى شارع الرقيق حتى انتهيت إلى الصحراء، ثم رجعت إلى باب الأنبار وانتهيت إلى باب دار نظيف عليه شجرة وعلى الباب خادم فعطشت

(1) ص ٣١١ ج ٢ أمالى .

فقلت للخادم : أعندك ماء تستقينيه؟ قال نعم ، ثم دخل وأحضر قلة نظيفة طيبة الرائحة عليها منديل فناولنى فشربت وحضر وقت العصر فدخلت مسجدا على البـاب فصليت فيه ، فلما قضيت صلاتى إذا أنا بأعمى يتلمس فقلت ما تريد يا هذا؟ قال : إياك أريد، قلت : فما حاجتك؟ فجاء حتى جلس إلى جانبى وقال : شممت منك رائحـة طيبة فظننت أنك من أهل النعيم فأردت أن أحدثك بشيء ،فقلت قل،قال : ألا ترى إلى باب هذا القصر؟ قلت نعم، قال هذا قصر كان لأبى فباعه وخرج إلى خراسان ، وخرجت معه فزالت عنا النعم التى كنا فيها وعميت، فقدمت هـذه المدينة ، فأتيت صاحب هذه الدار لأسأله شيئا يصلنى به فأتوصل إلى سـوار فانه كان صـديقا لأبى، فقلت ومن أبوك؟ قال فلان بن فلان فعرفته، وإذا هو كان أصدق النـاس إلىّ، فقلت له ياهـذا إن الله تبارك وتعالى قـد أتاك بسوّار ومنعه من الطعام والنوم والقرار حتى جاء به فأقعده بين يديك ثم دعوت الوكيل فأخذت الدراهم منـه فدفعتها إليه وقلت إذا كان غد فسر إلى منزلى ثم مضيت وقلت ما أحدّث أمير المؤمنين بشيء أظرف من هـذا فأتيته فاستأذنت عليه فأذن لى فلما دخلت إليه حدّثته بمـا جرى لى فأعجبه ذلك وأمر لى بألف دينـار فأحضرتْ فقال : ادفعها إلى الأعمى، فنهضت فقال : اجلس، فجلست، فقال : أعليك دَين؟ قلت نعم . قال : كم دينك؟ قلت خمسون ألفا، فحدّثنى ساعة وقال : امض الى منزلك، فمضيت إلى منزلى، فاذا بخادم معه خمسون ألفا وقال : يقول لك أمير المؤمنين : اقض بها دينك، قال : فقبضت ذلك منه،فلما كان من الغد أبطأ علىّ الأعمى وأتانى رسول المهدى يدعونى بجئته فقال : قد فكرت البارحة فى أمرك، قلت يُقضَى دينه ثم يحتاج الى القرض أيضا . وقد أمرت لك بخمسين ألفا أخرى ، قال : فقبضتها وانصرفت ، فجاءنى الأعمى فدفعت إليـه الألف دينار ، وقلت له : قـد رزق الله تعالى بكرمه وكافأ على إحسان أبيك وكافأنى على إسداء المعروف إليك . ثم أعطيته شيئا آخر فأخذه وانصرف .

وهذه القصة أطول من سابقتيها، وهى خالية من الشعر الذى حُلّيت به الأولى والفكاهة التى بنيت عليها الثانية، وتتضمن الدعوة إلى البر والمعروف بما اشتملت عليه من حسن الجزاء .

وهـذا النمط من القَصص الأخلاقى كان كثير الذيوع فى القرن الثـانى والثالث والرابع، ومن أشهر من كتب فيـه أبو جعفر أحمد بن يوسف أحد كتّاب الدولة الطولونية، وسنعود إليه فى بحث خاص .

٤ — وتلك القصص المتفرقة فى كتب الأدب منسوبةً إلى ابن الأنبـارى تدل على أنه كان مغرما بتصوير الشخصيات عن طريق القصص الأخلاقى والوصفى والفكاهى، وهو منحى طريف كنا نود لو ظفرنا بما يميزه من الشواهد الوافية، ولكن فى ذلك القليل المبعثر هنا وهنـاك ما يكفى للاطمئنان الى أن ابن الأنبارى كانت له يد فيما نسب الى الخلفاء والوزراء والقضاة والأعراب من طرائف القصص وروائع الأحاديث .

(١) ص ١٩٦ — ١٩٧

٧ – التوابع والزوابع

سياحة شاعر فى وادى الشياطين

معنى التوابع والزوابع – متى ألف ابن شهيد رسالته – متى ألفت رسالة الغفران – التشابه بين موضوع الرسالتين – كيف اتصل ابن شهيد بعالم الجن – هل كان للكتاب والخطباء شياطين ؟ – الفكاهة فى رسالة التوابع – بغال الجن وحميرهم يتعاشقون و يتغزلون – بغلة أبى عيسى تتباكى مع ابن شهيد وتسأله عن حاله وعن إخوانه – أوزة من أهل العلم والأدب تناظر ابن شهيد – دقة ابن شهيد فى نقل آراء الكتاب – رأى ابن شهيد فى لغة معاصريه من أهل الأندلس – توجع ابن شهيد من حقد معاصريه وحسدهم – شكواه من زمانه – غرامه بمعارضة كتاب المشرق وشعرائه – ملاحاة ابن شهيد لشيطان أنف الناقة – حرصه على إظهار فضله وتفوقه – إجازة الجن إياه وتقديمهم له – رأيه فى أن البيان نفحة سماوية لا صلة لها بالنحو والتصريف – ابن شهيد عند نفسه أشعر الناس وخاصة فى الرثاء .

١ – التوابع جمع تابع وتابعة وهو الجنى والجنية يكونان مع الانسان يتبعانه حيث ذهب ، والزوابع جمع زوبعة وهو اسم شيطان أو رئيس للجن ، ومنه سمى الإعصار زوبعة إذ يقال فيه شيطان مارد كما جاء فى القاموس المحيط .

٢ – والتوابع والزوابع اسم رسالة نفيسة – لم يبق منها إلا شذرات فى كتاب مخطوط هو الذخيرة – ألفها أبو عامر ابن شهيد الأندلسى[1] ، ولم نجد لها صدى يذكر فى كتب القدماء ، وأول من وجه نظرنا اليها هو المرحوم الأستاذ محمد المهدى فى محاضراته بالجامعة المصرية سنة ١٩١٥ ثم عاد الدكتور أحمد ضيف فحدثنا عنها فى سنة ١٩٢٢ ومن رأى الدكتور ضيف أن التوابع والزوابع محاكاة لرسالة الغفران وأن ابن شهيد كان يقلد أبا العلاء لأنه أدرك عصره ، ولأن شهرة أبى العلاء كانت ذائعة فى المشرق والمغرب ، وكان أهل الأندلس يقلدون أهل المشرق فى كل شىء . وأقوى حجة عند الدكتور ضيف أن عصر ابن شهيد يندرج فى عصر أبى العلاء[2] ، فقد عاش من سنة ٣٨٢ الى سنة ٤٢٦ وعاش المعرى من سنة ٣٦٣ الى سنة ٤٤٩

(١) انظر ترجمة ابن شهيد فى الجزء الثانى ص ٣٠٢ وانظر تحليل نثره ص ٣١٠ وراجع آراءه فى النقد الأدبى ص ٤٨ (٢) راجع بلاغة العرب فى الأندلس ص ٤٨

٣ — وقد رأينا أن نحقق هذه المسألة فبحثنا طويلا عن التاريخ الذى وضعت فيه رسالة التوابع والزوابع فلم نهتد، ولكنا رأينا فى الرسالة نفسها مايدل على أنه وضعها وهو كهل: فقد جاء على لسانه ما يشير إلى أن من إخوانه (من بلغ الإمارة وانتهى الى الوزارة)[1] وألقى إليه على لسان أوزة جنّية هذا السؤال :

"ما أبقت الأيام منك؟"[1] .

وفى هذا السؤال إشارة الى أنه كان ودع نضارة الشباب .

ولكن لا ينبغى أن تخدعنا هذه التعابير، فهناك نص يدل على أنه وضعها وهو شاب، فقد حدثنا فى (التوابع والزوابع) أن الجن قالوا له : "قد بلغنا أنك لا تجارى فى أبناء جنسك، ولا يملّ من الطعن عليك، والاعتراض لك، فمن أشدهم عليك؟" وأنه أجاب "جاران دارهما صقب، وثالث نابته نوب، فامتطى ظهر النوى، وألقت به فى سر قسطه العصا، انتضى على لسانه عند المستعين، وساعدته زرافة من الحاسدين ... الخ[2]" .

وهذا الكلام يشعر بأنه كتب هذه الرسالة فى عهد المستعين . والمستعين هذا هو سليمان ابن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الأموى، الذى بويع بقرطبة منتصف ربيع الأول سنة ٤٠٠ بعد مقتل عمه هشام بن سليمان وجددت له البيعة سنة ٤٠٣ ثم مات مقتولا سنة ٤٠٧[3]

ومن هنا يمكن أن نرجح أن رسالة (التوابع والزوابع) كتبت بين سنة ٤٠٣ وسنة ٤٠٧

هذا جانب من المسألة، أما الجانب الآخر فهو التاريخ الذى وضعت فيه رسالة الغفران.

وقد بحثنا طويلا فى كتب التراجم عن التاريخ الذى كتب فيه المعرى رسالة الغفران فلم نهتد، ولكنا وصلنا بعد التأمل إلى تقريب التاريخ ، ذلك أن رسالة الغفران جواب على

---

(١) الذخيرة ج ١ ص ١٥٢ (٢) الذخيرة ج ١ ص ١٣٨ (٣) فى الذخيرة تفاصيل مزعجة لما وقع بين المستعين وبين هشام بن سليمان، وصور شنيعة لما كان يجرى فى الأندلس من اشتعال الفتنة واغتلاء العصبية لذلك العهد . أنظر ص ١٧ — ٢٤ ج ١

رسالة ابن القارح ، وقد عدنا الى رسالة ابن القارح فدرسناها فقرة فقرة حتى انتهينا الى قوله : " وكيف أشكو من قاتتي وتالى نيفا وسبعين سنة "[١] . فعرفنا أنه وضعها بعد أن جاوز السبعين ، ثم نظرنا فوجدناه ولد سنة ٣٥١ فاذا أضفنا الى هذا الرقم — ٧٠ — وجدناه كتب رسالته حوالى سنة ٣٢١ وتكون النتيجة أن رسالة الغفران كتبت حوالى سنة ٤٢٢ ؛ واذا قدرنا أن ابن القارح قال نيفا وسبعين . وللنيف دلالته ، وقدرنا أن أبا العلاء اعتذر عن تأخير الاجابة بأنه مستطيع بغيره كان من الممكن أن تكون رسالة الغفران كتبت بين سنة ٢٢ و ٢٤[٢]

ونتيجة هذا التحقيق أن رسالة الغفران كتبت بعد رسالة التوابع والزوابع بنحو عشرين سنة ، وبذلك يتبين أن الدكتور ضيف لم يكن مصيبا حين افترض أن ابن شهيد قلد أبا العلاء ، وصار من المرجح أن يكون أبو العلاء هو الذى قلد ابن شهيد ، وكما كان الأندلسيون يقلدون أهل المشرق فى كل شىء كان أهل المشرق يحرصون أشد الحرص على متابعة الحركة الأدبية فى الأندلس ، بدليل أن رسائل ابن شهيد ذاعت فى الشرق ودونها المؤلفون الشرقيون قبل أن يموت وقبل أن توضع رسالة الغفران .

٤ — والواقع أن التشابه تام بين الرسالتين ، فالموضوع واحد وهو عرض المشاكل الأدبية والعقلية بطريقة قصصية ، والخلاف فى جوهر الموضوع يرجع الى روح الكاتبين : فأبو العلاء يحرص أولا وقبل كل شىء على عرض المعضلات الدينية والفلسفية ، وابن شهيد يحرص على عرض المشكلات الأدبية والبيانية ، ويتفق كلا الرجلين على التعريض بمعاصريه وشرح ما أخذ على المتقدمين من أساطين العقل والبيان . والمسرح واحد تقريبا : فهو عند ابن شهيد وادى الجن فى الدنيا ، وهو عند أبى العلاء وادى الإنس فى الآخرة : أى الفردوس

---

(١) رسائل البلغاء ص ١١٢

(٢) بعد تحرير هذه المسألة وصلنا الى نص فى رسالة الغفران يدل على أنها كتبت سنة ٤٢٤ ؛ إذ يقول المعرى : " ولا يجوز أن يخبر مخبر منذ مائة سنة أن أمير حلب حرسها الله فى سنة أربع وعشرين وأربعمائة اسمه فلان ابن فلان " راجع ص ٤٨ ج ٢ من الطبعة الثانية لرسالة الغفران شرح الأديب كامل كيلانى .

والجحيم . فالممثلون عند ابن شهيد جنٌّ يسخرون الناس، وعند أبى العلاء إنس تسخرهم الملائكة والشياطين، وكان لكل إنسان فى عرفهم ملك وشيطان .

٥ — وجّه ابن شهيد رسالته الى أبى بكر بن حزم فبين فى فاتحتها أنه كان فى حداثته يحن الى الآداب ويصبو الى تأليف الكلام، فآبتاع الدواوين وجلس الى الأساتيذ فنبض فيه عرق الفهم ودرّ له شريان العلم وأنه كان له فى أوائل صبوته هوى آشتد له كلفه ثم لحقه ملل فى أثناء ذلك الميل ، فاتفق أن مات من كان يهواه مدّة ذلك الملال بجزع وأخذ فى رثائه فقال :

تولى الحمام بظبي الخدور وفاز الردى بالغزال الغرير

الى أن آنتهى الى الاعتذار من الملل الذى كان فقال :

وكنت مللتك لا عن قلى ولا عن فساد نوى فى الضمير

ثم أُرتج عليه فاذا هو بفارس بباب المجلس على فرس أدهم قد آتكأ على رمحه وصاح به : "أعجزًا يافتى الإنس؟" .

فأجاب : "لا وأبيك ! للكلام أحيان وهذا شأن الانسان" فقال : قل بعده :

كمثل ملال الفتى للنعيم اذا دام فيه رحال السرور

فأثبت إجازته وقال: "وبأبى من أنت؟" قال: "زهير بن نمير من أشجع الجن، تصوّرت لك رغبة فى آصطفائك" .

فقال آبن شهيد : "أهلا بك أيها الوجه الوضاح! صادفت قلبا اليك مقلوبا ، وهوى نحوك مجنوبا"(١) وهنا ينطلق ابن شهيد فيقص علينا أنهما تحادثا وتذاكرا أخبار الخطباء والشعراء ومن كان يألفهم من التوابع والزوابع وأنه سأل صاحبه زهير بن نمير أن يحتال له فى لقاء من اتفق من الشياطين، فيمضى زهير ليستأذن شيخ الجن ويعود وقد آذن له فيركب ابن شهيد مع صاحبه على متن الأدهم ويسيران كالطير يجتاب الجو فالجو، ويقطع الدو فالدو، حتى يلمحا

(١) ص ١٢٥ و ١٢٦

أرضا لا كأرضنا، ويشارفنا جوا لا كجونا، متفرع الشجر، عطر الزهر . وهناك يقول الجني مخاطبا ابن شهيد :

"حللت أرض الجن، أباعامر؟ فبمن تريد أن تبدأ؟" .

فيجيب ابن شهيد :

"الخطباء أولى بالتقديم، ولكني الى الشعراء أشوق" .

ومن هنا نفهم أنه كان للخطباء والكتاب شياطين، كما كان للشعراء شياطين، وهذه أول مرة أرى فيها أن العرب كانوا يعتقدون وجود شياطين للكتاب والخطباء، وقد حدثنا ابن شهيد أنه صادف فى أرض الجن شيطان الجاحظ، وشيطان بديع الزمان، وشيطان عبد الحميد . فهل كان العرب يرون ذلك أم هو اختراع ابن شهيد [1] ؟

٦ — رسالة التوابع نفيسة جدا ومؤلفها خفيف الظل الى حد بعيد، وقد وقعت له فيها مكاهات تبعث الأنس الى النفس، من ذلك ما قصه علينا من أنه أشرف بأرض الجن "على قرارة غيناء، تفتر عن بركة ماء، وفيها عانة من حمير الجن وبغالها قد أصابها أولق [2] : فهى تصطك بالحوافر، وتنفخ من المناخر، وقد اشتد ضراطها، وعلا شحيجها ونهاقها" .

فلما بصرت بهم أجفلت اليهم وهى تقول :

"جاءكم على رجليه" .

فارتاع ابن شهيد وتبسم زهير وقد عرف القصد وقال له : تهيأ للحكم .

قال ابن شهيد : فلما لحقت بنا بدأتنى بالتفدية، وحيتنى بالسكينة . فقلت : ما الخطب، حمى حماك أيتها العانة وأخصب مرعاك ! قالت : شعران لبغل وحمار من عشاقنا اختلفنا فيهما وقد رضيناك حكما . قلت : حتى أسمع ! فتقدمت الى بغلة شهباء عليها

---

(١) فى كتاب البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ١٥٩ ما يفيد أنه كان للكهان شياطين، وكان فيهم الكتاب والخطباء.

(٢) الأولق : الجنون .

جلها و برقعها لم تدخل فيما دخلت فيه العانة من سوء العجلة وسخف الحركة — فقالت :
الشعر لبغل من بغالنا وهو :

على كل صبٍّ من هواه دليلُ سقامٌ على جِدّ الهوى ونحولُ
وما زال هذا الحب داء مبرحا اذا ما آعترى بغلا فليس يزول
بنفسى التى أما مَلاحظ طرفها فسحرٌ وأما خدها فأسيل
تعبتُ بما حُمِّلت من ثقل حبها وانى لَبغلٌ للثقال حمول
وما نلت منها نائلا غير أننى اذا هى بالت بلت حيث تبول

والآخر لدكين الحمار وهو :

دهيت لهذا الحب منذ هويتُ وراثت إراداتى فلست أريثُ
كلفتِ بإلفى منذ عشرين حجة يجول هواها فى الحشا ويعيث
وغيّر منها قلبها لى نميمةٌ نماها أحمّ الخصيتين خبيث
وما نلت منها محرما غير أننى اذا هى راثت رثت حيث تروث

قال ابن شهيد : فآستضحك زهير وتماسكتُ وقلت للمنشدة : ما هويث ؟ قالت : هويت بلغة الحمير ! قلت والله إن للروث لرائحة كريهة ولقد كان أنف الناقة أجدر أن يحكم فى الشعرين ! فقالت : فهمت عنك، وأشارت الى العانة أن ركبا مغلوب . وآنصرفت قانعة راضية .[1]

٧ — وتتفرع عن هذه الفكاهة نكتة أبدع وأظرف إذ يقول ابن شهيد :

"وقالت لى البغلة : أما تعرفنى، أبا عامر ! قلت : لو كان ثَم علامة ! فأماطت لثامها فاذا هى بغلة أبى عيسى ، والخال على خدها ، فتباكينا طويلا ، وقد أخذنا فى ذكر أيامنا فقالت :

(١) راجع ص ١٥١ و ١٥٢

ما أبقت الأيام منك ؟ قلت : ما ترين ! قالت شبّ عمرو عن الطوق ! وما فعل الأحبة ؟

قلت : شب الغلمان ، وشاخ الفتيان ، وتنكرت الأخلاق ، ومن إخواننا من بلغ الإمارة ، وآنتهى إلى الوزارة . فتنفست الصّعداء وقالت : سقاهم الله سَبَل العهد ، وإن حالوا عن العهد ، ونسوا أيام الود ! بحرمة الأدب إلا أقرأتهم سلامى ! فقلت : كما تأمرين .

٨ — وهناك فكاهة من مبتكرات ابن شهيد تدل على فهمه لعالم الطير كما دلت الفكاهات الماضية على فهمه لعالم الحيوان ، ذلك أنه يحدثنا عن أوزة كانت فى البركة بالقرب منهم :

” أوزة بيضاء شهلاء فى مثل جثمان النعامة ، كأنما ذُرّ عليها الكافور ، أو لبست غِلالة من دمقس الحرير ، ... فى طهرها صفاء ، تثنى سالفتها وتكسر حدقتها ، وتلولب قمحدُوتها ، فترى الحسن مستعارا منها ، والشكل مأخوذا عنها “ .

وقد صاحت تلك الأوزة بالبغلة :

” لقد حكمتم بالهوى ، ورضيتم من صاحبكم بغير الرضى “ .

فيسأل ابن شهيد صاحبه : ما شأن هذه الأوزة ؟ فيجيبه : ”هى تابعة شيخ من مشيختكم تسمى العاقلة ، وتسمى أم عفيف ، وهى ذات حظ من الأدب فآستعدّ لها “ .

فيقول لها ابن شهيد : ” أيتها الأوزة الجميلة ، العريضة الطويلة : لجمال صفتك باعتدال منكبيك ، وآستقامة جناحيك ، وطول جيدك ، وصغر رأسك ، تقابلين الضيف بمثل هذا الكلام وتلقين الطائر الغريب بشبه هذا المقال ، وأنا الذى همت بالأوزّ صبابة ، وآحتملت فى الكتاب بها غض كل مقالة ، وأنا الذى استرجعتها للوطن المألوف ، وحببتها إلى كل غِطريف ، فآتخذتها السادة بأرضنا ، وآستهلك عليها الظرفاء منا ، ورضيتْها بدلا من العصافير ، ومتكلمات الزرازير ، ونسيتْ لذة الحمام ، ونقار الديوك ، ونطاح الكباش “ .

عند ذلك داخلها العجب من كلام ابن شهيد ، ثم تدفعت وقد اعترتها خفة شديدة فى مائها ، فمرّة سابحة ، ومرّة طائرة ، تغطس هنا وتخرج هناك ، وهذا الفعل معروف فى الأوز عند الفرح والمرح . ثم سكنت وأقامت عنقها وعرضت صدرها وقالت لابن شهيد :

"أيها الغار المغرور! كيف تحكم فى الفروع وأنت لا تُحكم الأصول ؟ ما الذى تحسن ؟ "

ثم يلاحيها وتلاحيه حول الشعر والخطابة والنحو والغريب الى أن يسألها : يا أم عفيف ! بالذى جعل رداءك ماء ، وحشا رأسك هواء، أيهما أفضل؟ الأدب أم العقل؟ فتجيب : بل العقل . فيقول ابن شهيد : وهل تعرفين فى الخلائق أحمق من أوزة ؟

فتجيب : لا !

فيقول : فتطلّبي عقل التجربة إذ لا سبيل لك الى عقل الطبيعة[1] !

٩ — وابن شهيد فى رسالته التوابع مغرم بأن ينطق الجن بالآراء التى كان يحرص عليها من يُنسبون اليهم . من ذلك أنه حين اتصل بأبى عيينة عتبة بن أرقم شيطان الجاحظ سمع منه هذا الملام :

" إنك لخطيب وحائك للكلام مجيد، لولا أنك مغرم بالسجع فكلامك لا نثر[2]" . وهذا هو مذهب الجاحظ الذى كان يؤثر الكلام المرسل على المسجوع ويميل فى نثره الى المقابلة والازدواج .

١٠ — وقد ساقت هذه المناسبة ابن شهيد الى أن يعلن رأيه فى لغة معاصريه من أهل الأندلس فيقول :

" ليس هذا — أعزك الله ! — منى جهلا بأفن[3] السجع ، وما فى المماثلة والمقابلة من فضل، ولكنى عدمت ببلدى فرسان الكلام، ودهيت بغباوة أهل الزمان، وبالحرى أن أحدثهم

(١) راجع ص ١٥٢ و ١٥٣ (٢) ص ١٣٥ (٣) فى الأصل "بأفق" وهو تحريف ، والأفن معناه العيب ، وهى لفظة يستعملها ابن شهيد . راجع ص ١٣٨ من الذخيرة .

بالازدواج . ولو فرشت للكلام فيهم طوله ، وتحركت لهم حركته ، لكان أرفع لى وأوج فى قلوبهم"[١] .

فيدهش الجنى ويقول :

"أهذا على تلك المناظر ، وكبير تلك المحابر ، وكمال تلك الطيالس ؟" .

فيجيب ابن شهيد : "نعم ! — انما يجنى الشجر ، وليس له ثمر ولا عتر" فيقول الجنى : كيف كلامهم بينهم ؟ فيجيب ابن شهيد ليس لسيبويه فيه عمل ولا للفراهيدى اليه طريق ، ولا للبيان عليه سمة ، انما هى لكنة يؤدون بها المعانى تأدية المجوسى والنبطى" .

فيصيح الجنى : إنا لله ! ذهبت العرب كلامها ، إرمهم بسجع الكهان فعسى أن ينفعك عندهم ، ويطير لك ذكرا فيهم ، وما أراك مع ذلك إلا ثقيل الوطأة عليهم كريه المجىء اليهم[٢] !

١١ — وفى تضاعيف الرسالة فقرات تشعر بأن ابن شهيد كان مبتلًى بحقد معاصريه وحسدهم و إسرافهم فى الكيد له والغض من شأنه ، فقد حدثنا أنه قرأ على الجن رسالة فى وصف الحلواء فاستحسنوها وقالوا :

"إن لسجعك موضعا من القلب ، ومكانا من النفس ، وقد أعرته من طبعك ، وحلاوة لفظك ، وطلاوة سوقك ، ما أزال أفنه ، ورفع غبنه ، وقد بلغنا أنك لا تجارى فى أبناء جنسك ، ولا يمل من الطعن عليك والاعتراض لك ، فمن أشدهم عليك" ؟

"وهنا يجيب ابن شهيد بأن أشد أعدائه جاران تصاقب دارهما داره ، وثالث امتطى ظهر النوى ، فألقت به فى سرقسطه : حيث ينتضى عليه لسانه عند المستعين ، وتساعده على إفكه زرافة من الحاسدين" وأنه أنشد فى أولئك الأعداء :

وبلِّغت أقواما تجيش صدورهم ... علىّ وإنى منهمو فارغ الصدر
أصاخوا إلى قولى فأسمعت مُعجزا ... وغاصوا على سرى فأعياهمو أمرى[٣]

(١) ص ١٣٥ (٢) ص ١٣٥ ص ١٣٥ و ١٣٦ (٣) راجع ص ١٢٨

١٢ — ولا يكتفى ابن شهيد باعلان حزنه لتحامل معاصريه، بل يضيف الى ذلك صرخته من عدوان زمانه فينطق الجن — وقد آستجادوا شعره — بهذه الكلمة الموجعة :
" ما أنت إلا محسنٌ على إساءة زمانك! "[(1)] .

١٣ — وآبن شهيد مغرم بمعارضة كتّاب المشرق وشعرائه، حريص على التفوق عليهم، فقد حدّثنا أنه قابل بأرض الجن "زبدة الحقب" شيطان بديع الزمان فقال له : اقترح علىّ وصف جارية فوصفها، فقال له الجنى : أحسنت! فقال له ابن شهيد : أسمعنى وصفك للماء. فقال الجنى : ذلك من العقم "يريد أنه معنًى لا تمكن معارضته" ثم آنطلق يقول : "أزرق كعين السِّنور، صاف كقضيب البلور، انتُخِب من الفرات، وآستعمل بعد البيات، فكان كلسان الشمعة، فى صفاء الدمعة"[(2)] .

ويعارضه ابن شهيد فيقول :

"أنظرْ يا سيدى كأنه عصير صباح، أو ذوب قمر ليساح، ينصبّ من إنائه، إنصباب الكوكب الدرىّ من سمائه، العين كانونه، والقمر عفرينه، كأنه خيط من غزل فلق، أو مخصرة ضربت من ورق، يرفع عنك فتروى، ويصدع به قلبك فتحيا"[(3)] .

عندئذ ضرب شيطان بديع الزمان الأرض برجله فانفجرتْ له عن عين تدهدى اليها فاجتمعت عليه وغاب وهو خجل خزيان !

١٤ — ولم يقف الزهو بابن شهيد عند إعلان التفوق على كتّاب المشرق، بل مضى يحدّثنا أنه ناوش شيطان أنف الناقة وآنتصر عليه بحيث علتْ أنف الناقة كآبة، وآختلط كلامه، وبدت منه ساعتئذ بوادٍ فى خطابه رحمه لها من حضر، وأشفق عليه منها من نظر، فشمر له عن ساعدٍ فتًى من الجن كان الى جنب أنف الناقة وقال :

" وهل يسوء قريحتك، أو ينقص من بديهتك، لو تجافيت لأنف الناقة وجُدت له، فانه على علاته زِىّ علم، وزنبيل فهم، وكنف رواية ؟ " .

(١) ص ١٣٠ (٢) مأخوذ من المقامة المضيرية . (٣) ص ١٣٩ و ١٤٠

فقال ابن شهيد لصاحبه زهير : من هذا ؟ فقال : هو أبو الآداب صاحب أبى إسحاق ابن حمام جارك .

فقال له ابن شهيد : رفقا على أخيك بغرب لسانك ! وهل كان يضر أنف الناقة وينقص من علمه، ويفلّ شفر فهمه، أن يصبر لى على زلة تمر به فى شعر أو خطبة : فلا يهتف بها بين تلاميذه ويجعلها طرمذة من طراميذه !

فقال الفتى الجنى : إن الشيوخ قد تهفو أحلامهم فى الندرة .

فيقول ابن شهيد : إنها المرة بعد المرة[1] !

ثم يحدثنا وهو مزهوّ مفتون أن أساطين الجن حاروا فى أمره فلم يدروا : أشاعر هو أم خطيب ، وأنهم انصرفوا والأبصار اليه ناظرة، والأعناق نحوه مائلة .

ومثل ابن شهيد فى عبقريته يعذر فى مثل هذا الفُتُون !

١٥ — ويتصل بحرص ابن شهيد على إظهار تفوّقه وفضله ما نراه فى غير موطن من التوابع من النص على أن زعماء الجن أجازوه ، وبلغ الأمر بأحدهم أن فتن ببيت من شعره فقام يردّده ويرقص، قال ابن شهيد :

ثم أفاق وقال : "والله هذا شىء لم نلهمه نحن، ثم استدنانى فدنوت منه فقبل بين عينى وقال : اذهب فانك مُجازٌ على بظر أم الكاره[2] ! " .

وأولئك الكارهون هم بالطبع من عالم الإنس ، يضاف اليهم من ناوأه من زعماء الجن .

١٦ — وفى رسالة التوابع إشارة لطيفة الى رأى ابن شهيد فى البيان وهو يعتقد أن البيان نفحة سماوية لا صلة بينها وبين معرفة النحو والتصريف ، فليس يكفى أن يختلف الانسان الى الأساتذة يتلقى عنهم، وليس يغنى أن يراجع الكتب والدواوين ، وانما يجب أن تكون هنالك فطرة سمحة وطبيعة سخية يصدر عنها النثر الجيد والشعر البليغ[3] .

(١) راجع ١٤١ و ١٤٢ (٢) ص ١٣٣ (٣) تجد آراء ابن شهيد فى النقد الأدبى مبسوطة بالجزء الثانى من هذا الكتاب ص ٤٨ — ٥٨

وفى هذا يحدّثنا ابن شهيد أنه اصطدم فى وادى الجن بشيطان أنف الناقة وأنه استطال على ذلك الشيطان وقال له : طارحنى كتاب الخليل وشرح ابن درستويه . فقال الجنى :

"دع عنك هذا، أنا أبو البيان" .

فقال ابن شهيد لاهًا لله ! إنما أنت كمغن وسط لايحسن فيطرب، ولا يسيء فيلحَى .

قال الجنى :

"لقد علمنيه المؤدبون" .

فقال ابن شهيد .

"ليس هو من شأنهم، إنما هو من تعليم الله حيث يقول : ﴿الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان﴾ . ليس من شعر يفسر، ولا أرض تكسر، حتى يكون نفسك من أنفاسك، وقليبك من قلبك، وحتى تتناول الوضيع فترفعه، والرفيع فتضعه، والقبيح فتحسنه"(1) .

ومعنى هذه الفقرات أن البيان شيء آخر غير الكلام المفيد، فمن الناس من تقرأ له فلا تحمده ولا تذمه، وشر الكتاب من يمرون على القراء فلا يكون لهم قادح ولا مادح ولا عدو ولا صديق .

ولا عيب فيما رآه ابن شهيد إلا أنه قدّم له شواهد فى وصف الثعلب والبرغوث تدل على ذكاء ولكنها بعيدة عن سحر البيان(2) .

١٧ — فى رسالة التوابع إشارات كثيرة تدل على رأى ابن شهيد فى شعره، وهو عند نفسه أشعر الناس وخاصة فى باب الرثاء، فان الجن حين يطارحونه الشعر يسألونه عن مراثيه، والى القارئ نموذجا مما اختاره من شعره فى الرثاء :

أفى كل عام مصرعٌ لعظيم ... أصاب المنايا حادثى وقديمى

فكيف لقائى الحادثات اذا سطت ... وقد فلّ سيفى منهمو وعزيمى

---

(1) ص ١٣٩ (2) راجع أوصافه للثعلب والبرغوث فى الذخيرة ص ١٣٩ ج ١ ويتيمة الدهر ص ٣٩١ ج ١

وكيف آهتدائى فى الخطوب اذا دجت وقــد فقدت عيناى ضـوء نجومى
مضى السلف الوضّاح إلا بقيــةً كغرة مسودّ القميص بهــيم
أما وأبى الأيام لولا آعتــداؤها لظاهرتُ فى ساداتها بقـــروم
وقارعت من يبغى قـــراعىَ منهمو بأحــلام بطش أو بطيش حــلوم
أنا السيف لم يتعب له كف ضارب صروم اذا صادفت كف صريم
سـعيت بأحرار الرجال فخـانني رجال ولم أنجــد بجد عظــيم
وضيعنى الأمـــلاك[1] بدءا وعودة فضـعت بدار منهـــمو وحريم[2]

(١) الأملاك : الملوك . (٢) فى يتيمة الدهر طائفة صالحة من شـعر ابن شهيد تجدها فى الصفحات ٣٨٢ — ٣٨٩ من الجزء الأول .

٨ – الإنسان والحيوان أمام محكمة الجن

١ – تلك رسالة كتبها جندى مجهول من رجال الفكر والبيان الذين كتبوا رسائل إخوان الصفاء . وكاتبنا هذا رجل متفوق فى علم الحيوان ، ورسالته عن محاكمة الانسان أمام محكمة الجن لبطشه بالحيوان تجرى مجرى القَصص الطريف . ولكن هذا القَصص يدور حول محور واحد هو شرح طبائع الطير والحيوان ، ولذلك نرى الكاتب يبدئ ويعيد فى الكلام عن خواص الكائنات الحية التى آستبدّ بها الانسان ، وينطلق فيسرد طبائعها جنسا جنسا ، ثم يمضى فيُنطقها بما أُودعت غرائزها من ضروب الأسرار ، ولا يزال يمعن فى الدرس والبحث حتى يمكّن القارئ من معارف جمة طريفة تشوق العقل والخيال .

٢ – وكاتب هذه الرسالة متأثر بكتاب كليلة ودمنة ، وآية ذلك أنه آختار كليلة رئيسا لوفد السباع[1] . ووصفه بأنه "كليلة أخو دمنة" وهنا أخطأ الكاتب خطأ فنيا ، فان الخرافة تحدّثنا أن كليلة مات حزنا على دمنة بعد أن أُودع دمنةُ السجن زمنا رهن المحاكمة جزاءً بما كسبت يداه من الدس لشتربة الذى راح فريسة لدسائسه ومكايده . وكان ذلك قبل الاسلام بآماد طوال ، على حين وقعت محاكمة الانسان أمام محكمة الجن بعد أن ظهر الاسلام وخضع الجن لتعاليم القرآن .

٣ – وقصة الخصومة بين الانسان والحيوان تتلخص فى أن بنى آدم كانوا فى بداية الحياة قلقين خائفين مستوحشين من كثرة السباع والوحوش فى الأرض ، وكانوا يأوون فى رءوس الجبال والتلال ، وفى المغارات والكهوف ، وكانوا يأكلون من ثمر الأشجار وبقول الأرض وحب النبات ، ويستترون بأوراق الشجر من الحر والبرد . ثم تحضروا فبنوا المدن

---

(١) ص ٢٠٦ ج ٢

والقرى والحصون. ثم سخروا من الأنعام البقر والغنم والجمال، ومن البهائم الخيل والبغال والحمير، وقيدوها وألجموها وصرفوها فى مآربهم من الركوب والحمل والدراس، وأتعبوها فى آستخدامها، وكلفوها أكثر من طاقتها ، ومنعوها من التصرف فى مآربها ، بعد ما كانت مُخَلّاة فى البرارى والآجام والغياض تذهب وتجىء حيث أرادت فى طلب مراعيها ومشاربها ومصالحها . ونفرت منهم بقيتها من حمر الوحوش والغزلان والسباع والطيور بعد ما كانت مطمئنة فى أوطانها وأماكنها ، وهربت من ديار بنى آدم الى البرارى البعيدة ، والآجام والدِّحال[1] ورءوس الجبال، وشمر بنو آدم فى طلبها بأنواع من الحيل والقنص والشباك والفخاخ، وآعتقد بنو آدم أنها عبيد لهم هربت وخلعت الطاعة وعصت . ومضى الأمر على ذلك الى أن ظهر الاسلام وخضع له فريق من بنى الجان .

٤ — وآتفق أن ولى أمر المسلمين من الجن ملك يقال له "بيراست الحكيم" ولقبه "شاه مردان" وكانت دار مملكته مردان فى جزيرة يقال لها "صاغون"[2] فى وسط البحر الأخضر مما يلى خط الآستواء، وهى جزيرة طيبة الهواء والتربة ، فيها أنهار عذبة، وعيون جارية ، وهى كثيرة الريف والمرافق وفنون الأشجار وألوان الثمار والرياض والأنهار والرياحين والأنوار . وحدث أن طرحت العاصفة فى وقت من الزمان مركبا من سفن البحر الى ساحل تلك الجزيرة ، وكان فى المركب قوم من التجار والصناع وأهل العلم وأغنياء الناس، فخرجوا الى تلك الجزيرة وفُتنوا بما فيها من الفواكه والبقول والرياحين، وصادفوا ما فيها من البهائم والأنعام والطيور والسباع والوحوش والهوام والحشرات فى أُلفة لا يشوبها تنافر ولا شقاق . وآستطاب القوم المقام فى تلك الجزيرة وبنوا هنالك وسكنوا، ثم أخذوا يتعرّضون لما فيها من البهائم والأنعام ليسخروها فيركبوها ويحملوا عليها أثقالهم على المنوال الذى كانوا يفعلون فى بلدانهم ، فنفرت منهم وهربت ، وشمروا فى طلبها لآعتقادهم أنها عبيدٌ خرجت عن

(١) الدحال جمع دحل بالفتح ويضم، وهو نقب ضيق فمه، متسع أسفله حتى يمشى فيه . (٢) هكذا أثبتها الكاتب . والفرنسيون ينطقونها سيجون Saigon وسألت أحد الصينيين فأخبرنى أنهم ينطقونها "سيكون" .

طاعتهم . فلما رأت تلك البهائم رغبتهم فى آستعبادها جمعت زعماءها وخطباءها وذهبت الى بيراست الحكيم ملك الجن وشكت اليه ما لقيت من جور بنى آدم ، فبعث ملك الجن رسولا الى أولئك القوم ودعاهم الى حضرته ، فذهبت طائفة من أهل ذلك المركب الى هناك ، وكانوا نحوا من سبعين رجلا من بلدان شتى . وبذلك تبدأ قصة التحكيم[1] .

٥ — وأول ما ينبغى ملاحظته فى هذه المحاكمة هو روح الفكاهة الذى يظهر من فصل الى فصل . ومن أمثلة ذلك أن زعيم الإنس آستدل على حقهم فى تسخير الحيوان بهذه الآيات ﴿ والأنعامَ خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تُريحون وحين تسرحون ... وعليها وعلى الفلك تحملون ... والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ... لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا آستويتم عليه ﴾ .

فلما طلب ملك الجن من زعماء الحيوان أن يجيبوا على هذه الآيات قام البغل فقال :

" ليس فى شىء مما قرأ هذا الإنسىّ من آيات القرآن ، أيها الملك ، دلالة على ما زعم أنهم أرباب ونحن عبيد لهم ، انما هى آيات تذكار بإنعام الله عليهم وإحسانه فقال؟ ﴿ سخرها لكم ﴾ . كما قال : ﴿ سخر الشمس والقمر والسحاب والرياح ﴾ . أفترى أيها الملك أنها عبيد لهم وأنهم أربابها[2] ؟ " .

ومن ظريف الفكاهة أن الثعبان وقف يتحدث عن مصير الحشرات والهوام فى المحاكمة فبدا له أن أكثرها صم بكم عمىٌ بلا يدين ولا رجلين ولا جناحين ولا منقار ولا مخلب ، ولا ريش على أبدانها ولا شعر ولا وبر ولا صوف ، وأن أكثرها عراة حفاة ضعفاء فقراء مساكين بلا حيلة ولا حول ولا قوّة .

وهنا يحدّثنا المؤلف أن الثعبان أدركته الرحمة والشفقة والرأفة ورقّ قلبه فدمعت عيناه من الحزن !

---

(١) راجع ص ١٧٣ — ١٧٦ ج ٢

(٢) ص ١٧٧

٦ — وفى الرسالة فقرات تدل على أن المؤلف مأخوذ بفلسفة اليونان، وآنظر هذه الكلمة فهى تذكّر بنظرية المثال التى شرحها أفلاطون :

" ثم آعلم أيها الملك العادل أن هذه الصور والأشكال والهيا كل والصفات التى تراها فى عالم الأجسام وجواهر الأجرام هى مثالات وأشباه وأصباغ لتلك الصور التى فى عالم الأرواح ، غير أن تلك نورانية شفافة وهذه ظلمانية كاسفة ، ومناسبة هذه الى تلك كنسبة التصاوير والنقوش التى على وجوه الألواح وسطوح الحيطان الى هذه الصور والأشكال التى عليها هذه الحيوانات من اللحم والدم والعظام والجلود ، لأن تلك الصور التى فى عالم الأرواح محركات وهذه متحركات ، والتى دون هذه ساكنات صامتات ومحسوسات فانيات باليات ، وتلك ناطقات معقولات وروحانيات غير مرئيات باقيات"[1] .

٧ — وفى الرسالة أوصاف حسية وعقلية لمختلف الشعوب ، ويستطيع الباحث أن يستخرج منها صروب الملابس والعادات إن بدا له أن يضع قصة تمثيلية تقع حوادثها فى القرن الرابع ، فالهندى لذلك العهد كان "طويل اللحية ، موفور الشعر ، متوشحا بإزار أحمر على وسطه"[2] والعبرانى من أهل الشام كان " يرتدى برداء أصفر وبيده مدرجة ينظر فيها ويزمزم"[3] والسريانى من آل المسيح كان "يلبس ثيابا من الصوف وعلى وسطه منطقة من السيور"[4] والقرشى كان "يلبس ثوبين : رداء وإزارا ، شبه المحرِم"[5] واليونانى "كانت على رأسه مشدّة"[6] ولم يعين المؤلف ثياب الفارسى وان كان وصفه بحسن الهندام[7] ، وكذلك وصف مندوب العراق[8] .

٧ — أنطق المؤلف زعماء الوفود بمحامد أممهم ، ثم أنطق صاحب العزيمة من وزراء الجنّ بمساوى تلك الأمم . فمندوب الهند يفاخر بأن الله بعث فى بلاده الأنبياء وجعل أكثر أهلها الحكماء ، وخصهم بالسحر والعزائم والكهانة ، فيقول الجنى وهو يحاوره : " لو أتممت

---

(١) ص ٢٣٢ (٢) ص ٣٣٦ (٣) ص ٣٢٧ (٤) ص ٣٢٨ (٥) ص ٣٢٩

(٦) ص ٣٤ (٧) ص ٣٤٢ (٨) ص ٣٣٤

الخطبة وقلت : ثم بلينا بحرق الأجساد وعبـادة الأصنام والقرود وكثرة أولاد الزنا وآسوداد الوجـــوه ! ".[١]

والعبرانى يفاخر بأن الله آصطفى إسرائيل ومن ذريتــه موسى بن عمران الذى فلق البحر وأغرق فرعون ، وأن الله أنزل على بنى إسرائيل المن والسلوى وجعلهم ملوكا وأعطاهم مالم يعط أحدا من العالمين . فيقاطعه الجنى : "نسيت ولم تقل : وجعل منا القردة والخنازير وعبدة الطاغوت ! ".[٢]

ويفاخر السريانى بأن الله آتخذ من العذراء البتول جســد الناسوت ، وقرن به جوهر اللاهوت، وأيده بروح القدس، وأظهر على يده العجائب، وأحيا به آل إسرائيل من موت الخطيئـــة ».[٣]

فيضيف الجنى : "قل أيضا : فما رعيناها حق رعايتها وكفرنا وقلنا ثالث ثلاثة، وعبدنا الصلبان، وأكلنا لحم الخنزير فى القربان، وقلنا على الله الزور والبهتان ؟ ".

ويتكلم القرشى فيذكر أن الله خص أمته بخير الأديان وأكرمها بتلاوة القرآن وصوم شهر رمضان . فيقــول له الجنى : " قل أيضا : إنا رجعنا بعــد وفاة نبينا مرتدين ، وقتلنا الأئمة الخيّرين، طلبا للدنيا بالدين" .

وفى هذه الفقرة يعبر المؤلف عن نزعة دينية كان يناصرها إخوان الصفاء .

ويخطب مندوب العراق فيذكر أن الله خص قومه بأوسط البلاد مسكنا وأطيبها هواء ، وأكثرها أنهارا وأشجارا وثمـارا، وأن الله فضلهم على كثير من خلقه : فمنهـم نوح وإدريس وإبراهيم، ومنهم كان الملوك الذين سيطروا على العالم القديم . فيقول الجنى: "ومن عندكم خرج الطوفان، ومنـكم كان نمروذ الجبار ، وبخت نصر محرف التـوراة وقاتل أولاد سليمان وآل إسرائيـــل" .[٤]

---

(١) ص ٣٣٧ (٢) ص ٣٣٨ (٣) ص ٣٣٩ (٤) ص ٣٣٦

ويتقدم مندوب اليونان فيفخر بأن الله خص بلادهم بكثرة البقول ، وخص قومه برجحان العقول ، ودقة التمييز ، وجودة الفهم ، وكثرة العلوم والصنائع والطب والهندسة والنجوم وعلم تركيب الأفلاك ، ومعرفة منافع الحيوان والنبات والمعادن والحركات وآلات الرصد والطلسمات ، وعلم الرياضيات والمنطقيات والطبيعيات والالهيات .

وهنا ينهض الجني فيقول :

” من أين لكم هذه العلوم والحكمة التي ذكرتها وافتخرت بها ؟ لولا أنكم أخذتم بعضها من آل إسرائيل أيام بطليموس ، وبعضها من أيام مسيطوس ، فنقلتموها إلى بلادكم ، ونسبتموها إلى أنفسكم“ [1] .

وفى هذه النقطة يحاول المؤلف أن يثبت أن العلوم قديمة أخذها بعض الأمم عن بعض ، وهو بهذا يدفع طغيان الثقافة اليونانية التى كان أشياعها يترددون إذ ذاك فى الأقطار الاسلامية . وإنه ليذكر أن ملك الجن نظر إلى اليونانى وسأله : ماذا تقول؟ وأن اليونانى أجاب :

” صدق الحكيم فيما قال ، فاذا أخذنا عنهم فان علومنا وعلوم سائر الأمم بعضها من بعض ، ولو لم يكن كذلك فمن أين للفرس علم النجوم وتركيب الأفلاك وآلات الرصد ، لولا أنهم أخذوها من أهل الهند ؟ ومن أين كان لبنى إسرائيل علم الحيل والسحر والعزائم ونصب الطلسمات واستخراج المقادير ، لولا أن سليمان عليه السلام أخذها من خزائن علوم سائر الأمم حينما غلب عليهم ونقلها إلى لغة العبرانيين وإلى بلاد الشام وكانت مملكته فى بلاد فلسطين“ [1] ؟

٩ — وقد أجاد المؤلف إنطاق زعماء الشعوب فوضع على لسان كل خطيب تعابير تعين ما لقومه من الأذواق فى العلوم والفنون ، ومن أظرف ما جاء من ذلك قوله على لسان مندوب اليونان :

” الحمد لله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى كان قبل الهيولى ذات الصورة والأبعاد ! الحمد لله الذى أفاض من جوده العقل الفعّال ! الحمد لله الذى أنتج من نوره العقل فى جوهر

---

(١) ص ٢٤٢

النفس الكلية ! الحمد لله الذى أظهر من قوة النفس عنصر الأكوان ذوات الهيولى والكيان! الحمد لله مركب الأفلاك والكواكب السيارات، الموكل بدورانها النفوس والأرواح، والملائكة ذات الصور والأشباح" .

١٠ — وفى المحاورة فقرة تدل على أن العربيــة لم تسد سيادة تامة فى أرض فارس حتى القرن الرابع، فقد جاء على لسان مندوب الفرس ما نصه :"ومنا من يقرأ القرآن ويلحنه ولا يعرف معناه ويؤمن بمحمد ويصدّقه وينصره[1]" .

١١ — وعرض المؤلف لأمة يأجوج ومأجوج التى تحدث عنها القرآن فذكر أنهما "أمتان صورتهما آدمية ، ونفوسهما سبعية ، لا تعرفان التدبير ولا السياسة ولا البيع ولا الشراء ولا الحرفة ولا الحرث ولا الزرع ، بل الصيـد من السباع والوحوش والسمك والنهب والغارات بعضها على بعض[2]" .

وهو شىء من التفصيل لمـا أجمله القرآن فى سورة الكهف، وان لم يحدّد موقع هـذه الأمة من التاريخ .

١٢ — ومن فلسفة كاتب الرسالة أن الطبيعة يأكل بعضهـا بعضا ، ومن فساد شىء يكون صلاح شىء آخر، فحيوانات البحر تفزع من التنين وتهابه ، وهو لا يفزع إلا من دابة صغيرة تلسعه ، فاذا لسعتــه دب سمها فى جسمه فمات واجتمعت عليـه الحيوانات البحرية تأكله فيكون لهـا عيشا رغدا أياما ، كما تأكل كبار السباع صغارها مدة من الزمان ، وكذلك حكم الجوارح من الطـير : فالعصافير والقنـابير والخطاطيف تأكل الجراد والنمل والذباب ، والبواشق والشواهين تصطاد العصافير والقنابير . وهكذا سيرة بنى آدم : فانهم يأكلون لحوم الجدى والحملان والغنم والبقر والطير، ثم إذا ماتوا أكلتهم فى قبورهم الديدان والنمل والذباب[3]!

١٣ — وتحدث الكاتب عن النقل بالعربات، وحديثه هنا طريف ، لأن العربة موجودة من قديم الأزمان ، ولكنا نجد أثرها قليلا فى المدنية الاسلامية ، بحيث يظن أن

(١) ص ٢٤٤ (٢) راجع ص ٢٤٨ (٣) راجع ص ٢٤٨

أن المسلمين الأولين لم ينتفعوا كثيرا بهذه الأداة فى حمل الأثقال ، وقد وردت فى كلام الكاتب كأنها أعجوبة؛ وفى ذلك دلالة على أنها كانت قليلة الاستعمال، فقد قرنها بالحيلة فى الغوص إلى قاع البحار لاستخراج الدر والمرجان والصعود إلى رءوس الجبال لإنزال النسور والعقبان؛ فقال : "وهكذا بالحيلة يعملون العجلة من الخشب ويشدونها فى صدور الثيران وأكتافها ، ثم يحملون عليها الأحمال الثقال وينقلونها من المشرق إلى المغرب ، ومن المغرب إلى المشرق؛ ويقطعون البرارى والقفار والمفاوز"[1] .

١٤ — ويحدثنا الكاتب أن زعماء الحيوان اجتمعوا لينتخبوا رسولا منهم يجادل زعماء الانسان،ثم اختاروا أحد الحكماء من بنات آوى،فتلطف ابن آوى فى الاعتذار وقال: "وكيف أصنع مع كثرة أعدائى هناك من أبناء جنسنا؟" فقال الأسد : "من هم؟" فقال : "الكلاب" فسأل الأسد : كيف يصير الكلاب أعداء للسباع وأصدقاء لبنى آدم ؟ فقال ابن آوى : أليس قد استأمنت الى بنى آدم وصارت معينة لهم علينا معشر السباع ؟ فيسأل الأسد عن علة ذلك فلا يعرفها أحد غير الذئب .

وهنا ينطلق المؤلف فينطق الذئب بالأسباب التى جمعت بين الانسان والكلب فيقول :

" إنما دعا الكلاب الى مجاورة بنى آدم ومداخلتهم مشاكلة الطباع ومجانسة الأخلاق، وما وجدت عندهم من المرغوبات واللذات ومن المأكولات والمشروبات ، وما فى طباعها من الحرص والشره واللؤم والبخل، وما فى جبلتها من الأخلاق المذمومة الموجودة فى بنى آدم، مما السباع عنه بمعزل: وذلك أن الكلاب تأكل اللحمان ميتا وجيفا ومذبوحا، قديدا ومطبوخا ومشويا، ومالحا وطريا، وجيدا ورديئا، وثمارا وبقولا وخبزا، ولبنا وحليبا، وحامضا وجبنا وسمنا ودسما، ودبسا وشيرجا، وناطفا وعسلا، وسويقا وكامخا . وما شاكلها من أصناف مأكولات بنى آدم التى أكثر السباع لا يأكلها ولا يعرفها " .

ويضيف الخطيب الى هذا التعليل الطريف للتشابه بين الكلاب والناس فى التوافق والتوارد على مختلف الألوان من الطعام والشراب أن الكلاب لا تترك أحدا من السباع يدخل

(١) ص ٢٢١

قرية أو مدينة مخافة أن ينازعها فى شىء مما هى فيه ، حتى أنه ربما يدخل أحد من بنات آوى أو بنات أبى الحصين قرية بالليل ليسرق منها دجاجة أو ديكا أو سنّورا، أو يجر جيفة مطروحة، أو كسرة مرمية، أو ثمرة متغيرة، فتحمل عليه الكلاب وتطرده وتخرجه من القرية .

ولا يكتفى الخطيب بذلك بل يلح فى فرض المشابهة بين الانسان والكلب، فيذكر أن الكلب اذا رأى فى يد أحد من بنى آدم من الرجال والنساء والصبيان رغيفا أو كسرة أو تمرة أو لقمة طمع فيها وتبعه، وأخذ يبصبص بذنبه، ويحرّك رأسه، ويحدّ النظر الى حدقته حتى يستحى أحدهم فيرمى بها اليه ! وعندئذ يعدو اليها بسرعة، ويأخذها فى عجلة، مخافة أن يسبقه اليها غيره! ويقول الخطيب — ولا تنس أنه الذئب ! — :

"وكل هذه الأخلاق المذمومة موجودة فى الإنس والكلاب، فمجانسة الأخلاق ومشاكلة الطباع دعت الكلاب الى أن فارقت أبناء جنسها من السباع ، وآستأنست الى الإنس، وصارت معينتهم على أبناء جنسها من السباع[1] " .

١٥ — وعرض المؤلف لمسألة دقيقة ثار من حولها الجدل أزمانا طوالا ، وهى خلق الجن، وأصل العداوة بينها و بين الإنس، فقد تخوف أحد زعماء الجن من عاقبة التدخل بين الانسان والحيوان، لأن الانس أمم قوية، ومن المحتمل أن يثوروا على الجن فتقوم بينهم حروب يخسر فيها الغالب والمغلوب .

وقد تأنق الكاتب فى عرض أدوار الخصومة بين الانس والجن والظروف التى كان يقع فيها صلح أو قتال . والذى تجب الاشارة اليه هنا أن إخوان الصفا يعتقدون بما يسمى "القران" وهو عندهم تحوّل حظوظ الأنواع من حال الى حال : فقد خشى أحد خطباء الجن من أن تعجز البهائم عن مقاومة الإنس فى الخطاب لقصورها عن الفصاحة والبيان، وأن يجد الإنس من ذرابة ألسنتهم وجودة عباراتهم ما يقضى بأن تظل البهائم أسيرة فى أيديهم يسومونها سوء العذاب . وكان جواب وزير الجن أن ذلك إن وقع فستكون النتيجة أن

(١) ص ٢٠٧ ج ٢

"تصير البهائم فى الأسر والعبودية الى أن ينقضى دور القران ويستأنف نشوء آخر، ويأتى الله لنا بالفرج والخلاص، كما نجى آل إسرائيل من عذاب فرعون، وكما نجى آل داود من عذاب بخت نصر، وكما نجى آل حمير من عذاب آل تُبّع، وكما نجى آل ساسان من عذاب اليونان، وكما نجى آل عمران من عذاب أردشير"[1] .

و "القران" هذا أمل جميل، ولو تأخر الزمن بالمؤلف لرجونا أن يقول :

"وكما نجى أهل مصر من عدوان الانجليز !".

١٦ — ولم يقف المؤلف عند حدود درس الحيوان ، ولكنه آستطرد فشرح كثيرا من الظواهر الاجتماعيـة ، وتحدّث عن الملوك والوزراء والعلماء والفقهاء ، وأفاض فى ذكر الأسباب التى قوّضت العروش وحوّلت الأعزة الى أذلة صاغرين، ولم يشهد الكاتب لأحد من الملوك بالعدل إلا لملكين اثنين : ملك الجن وملك النحل[2] .

ويطول القول لو مضينا ندرس ما عرض له الكاتب من المعضلات العلمية والفلسفية والاجتماعية؛ فليرجع القارئ الى أصل الرسالة إن شاء[3] .

١٧ — وقد يسأل القارئ عن نتيجة المحاكمة التى فصّل أخبارها الكاتب فى خمسين ومائة صفحة، وهو سؤال لا بدّ أن يخطر بالبال .

ونجيب بأن المحاكمة لم تنته الى شىء : لأن زعماء الحيوان فكروا فى الوصول الى الحرّية عن طريق المفاوضات، ولو آستمعوا لنصيحة الأسد حين صمم على أن يصدع القوة بالقوة، ويفلّ الحديد بالحديد، لما آحتاجوا الى محكمة الجن في جزيرة صاغون !

﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ .

---

(١) ص ١٩٨ ج ٢ (٢) وصف المؤلف ملك الجن بالحكمة والعدل، أما ملك النحل فوصفه بالاشفاق على رعيته والرحمة لهم والتحنن عليهم (ص ٢٥٢) ويحسن بالقارئ أن يرجع الى ص ٢٥٠ و ٢٥١ ليرى كيف علل المؤلف كثرة الملوك عنـد الانس : فقد نفذ الى صميم الحياة عند مختلف الشعوب، وفهم كيف تختلف العقول والطباع والأهواء باختلاف الأقاليم . (٣) لم يكن من همنا أن نحلل الرسالة التى عرضنا لها فى هذا الفصل تحليلا وافيا، وإنما قصدنا إلى إعطاء القارئ فكرة عن أسلوب الكاتب فى عرض المسائل العلمية عن طريق القصص، وهو أسلوب له قيمة فنية، وله أثر فى تشويق الجمهور الى تعقب الدقائق فى مثل علم الحيوان . ولنشر هنا الى أن أسلوب هذه الرسالة خال من التكلف وهو فى جملته يمتاز بالوضوح والصفاء .

٩ – أخبار التوحيدى (*)

١ – يختلف عمل التوحيدى عن أعمال كتّاب الأخبار والأقاصيص أشدّ الاختلاف: فهو لا يهتم بأهل البادية ، ولا يسلك مسلك الرواة الذين يُعنَون بتقييد الغريب من الأخبار والأشعار ، وإنما يهتم بالنواحى التاريخية والأدبية من حياة الرجال : فهو الذى دوّن المناظرة بين أبى سعيد السيرافى [(١)] ومتى بن يونس [(٢)] فى المفاضلة بين النحو العربى والمنطق اليونانى . وهذه المناظرة تدل على قوّة عجيبة فى التوحيدى ، وهى مَثَل أعلى فى لغة الجدل والحوار بين المتناظرين . ولا يتسع المقام لتحليل هذه المناظرة فليرجع إليها من شاء فى معجم ياقوت [(٣)] .

ولكن لا بدّ أن نشير هنا إلى أن التوحيدى يصرّح بأن أهل عصره كانوا ينقلون فلسفة اليونان عن اللغة السريانية ، ويقول على لسان السيرافى فى محاورة متى :

” أنت لا تعرف لغة يونان ، فكيف صرت تدعونا الى لغة لا تفى بها ، وقد عفت منذ زمن طويل وباد أهلها ، وانقرض القوم الذين كانوا يتفاوضون بها ويتفاهمون أغراضهم بتصرفها؟ على أنك تنقل عن السريانية ، فما تقول فى معان متحوّلة بالنقل من لغة يونان إلى لغة أخرى سريانية ، ثم من هذه الى لغة أخرى عربية؟ [(٤)] ! “ .

٢ – ولعل هذا هو السر فى أن العرب ظل محصولهم الفلسفى غامضا : لأنهم اضطروا الى العناية بدرس ما وصل إليهم عن اليونان فى إبهام وغموض . وقد واجهتُ هذه

(*) فى هذا الكتاب فصل عن أبى حيان التوحيدى فى الباب الخامس ص ١٣٣ — ١٤٤ ج ٢

(١) توفى السيرافى فى بغداد سنة ٣٦٨ وكان من كبار النحاة .

(٢) متى بن يونس باحث من رجال القرن الرابع كان مشغوفا بنشر علوم اليونان .

(٣) معجم الأدباء ج ٣ ص ١٠٥ — ١٢٤

(٤) ص ١٠٨ ج ٣

المشكلة وأنا أدرس فلسفة الغزالى فوصلت بعد الدرس إلى أن الفلاسفة المتفوّقين من العرب هم الرجال الذين بنوا فلسفتهم على أساس العقلية العربية ، وكان آتصالهم بالفلسفة اليونانية اتصال ثقافة لا آتصال نقل ومحاكاة ، وكذلك نجح ابن رشد ونجح الغزالى : لأنهما آبتدآ من نقطة مفهومة : هى النفس العربية أو الإسلامية ، ثم مضيا يتعقبان ما يقضى به العقل أو ما يوحى به الدين ، وآستطاعا بذلك أن يخلقا الحماسة للفلسفة فى البيئات الإسلامية ، وأن يخلقا لها ألوفا مؤلفة من الأصدقاء والأعداء .

٣ — ومن أهم ما أبدع التوحيدى حديث السقيفة ، وهو حديث عجيب مهد له بالكلمة الآتية[1] :

"سمرنا عند القاضى أبى حامد ليلة ببغداد بدار آبن جيشان بشارع الماديان : فتصرف بنا الحديث كل متصرَّف . وكان والله غزير الرواية ، لطيف الدراية ، له فى كل جو متنفَّس ، وفى كل نار مقتبَس ، بجرى حديث السقيفة ، وتنازع القوم الخلافة ، فقال كلٌّ فنا ، وقال قولا ، وعرض بشيء . فقال أبو حامد : هل فيكم من يحفظ رسالة أبى بكر إلى على وجواب علىّ له ومبايعته اياه عقيب تلك الرسالة ؟

فقال الجماعة : لا ، والله ! فقال : هى والله من درر الحقائق المصونة ، ومخبآت الصناديق المحوطة ، ومنذ حفظتها ما رويتها إلا للمهلبى فى وزارته ، فكتبها عنى فى خلوة بيده وقال : لا أعرف فى الأرض رسالة أعقل منها ولا أبين ، وإنها لتدل على علم وحلم ، وفصاحة وفقاهة ، وبعد غور ، وشدة غوص . فقال له واحد من القوم : أيها القاضى ! فلو أتممت المنة علينا بروايتها سمعناها ورويناها عنك ، فنحن أوعى لها من المهلبى وأوجب ذماما عليك" الخ .

٤ — وحديث السقيفة حديث ممتع ، والذى يهمنا قبل تحليله هو إيراد ما كتبه ابن أبى الحديد فى التعقيب عليه ، لأن لذلك أهمية عظيمة فى إعطاء ما نحن بصدده من إنشاء

(١) ورد حديث السقيفة فى شرح ابن أبى الحديد لنهج البلاغة ص ٥٩٢ ج ٢ ورأيته القلقشندى فى صبح الأعشى ص ٢٣٧ ج ١ وبين النصين آختلاف قليل .

القصص التاريخى صبغة واقعية ، ويتلخص نقد ابن أبى الحديد فى أن حديث السقيفة هذا شبيه بكلام التوحيدى ومذهبه فى الخطابة والبلاغة ، وأن خطب عمر وأبى بكر ورسائلهما خالية من البديع ومن صناعة المحدَثين الظاهرة فى ذلك الحديث ، وأن الذى يتأمل كلام التوحيدى يعرف أن ذلك الحديث خرج من معدنه ، ويدل عليه أنه أسنده الى القاضى أبى حامد المروذى وهذه عادته فى كتابه (البصائر) يسند الى أبى حامد كل ما يريد أن يقوله هو من تلقاء نفسه اذا كان كارِها لأن ينسب اليه ، ومما يؤيد أنه مصنوع أن المتكلمين على اختلاف مقالاتهم من المعتزلة والشيعة والأشعرية وأصحاب الحديث وكل من صنف فى علم الكلام والإمامة لم يذكر أحد منهم كلمة واحدة من هذه الحكاية . ولقد كان الرضى يلتقط من كلام علىّ اللفظة الشاردة والكلمة المفردة الصادرة عنه فى معرض التألم والتظلم فيحتج بها ويعتمد عليها وكأنما ظفر بملك الدنيا ويودعها كتبه وتصانيفه ، فأين كان الرضىّ من هذا الحديث ؟ وكان الباقلانى شديدا على الشيعة عظيم العصبية على علىّ ، فلو ظفر بكلمة من كلام أبى بكر وعمر فى هذا الحديث لملأ الكتب والتصانيف بها وجعلها هِجِّيراه ودأبه ، ثم قال : « والأمر فيما ذكرناه من وضع هذه القصة ظاهر لمن عنده أدنى ذوق فى علم البيان ومعرفة كلام الرجال ، ولمن عنده أدنى معرفة بعلم السير وأقل أنس بالتواريخ »[1] .

٥ — وخلاصة الحادث الذى وضع من أجله هذا الحديث أن أبا بكر لما ٱستقامت له الخلافة بين المهاجرين والأنصار بلغهُ عن علىّ تلكؤ وشماس[2] فكره أن يتمادى الحال فتبدو العورة وتتفرق ذات البين ، فدعا اليه أبا عبيدة فى خلوة ، وكان عنده عمر بن الخطاب ، وأوصاه بأن يتلطف فى دعوة علىّ الى مبايعة أبى بكر وإعلان الرضا عن خلافته ، فلما همّ أبو عبيدة بالٱنصراف لمعالجة الأمر الذى نُدب له تبعه عمر فزوده بآيات من التلطف يلقى بها ابن أبى طالب ، فلما وصل اليه بثه ما تلقاه من أبى بكر وعمر : فرقّ قلب علىّ وٱعتذر عن تخلفه بحزنه البليغ على فقد الرسول . ثم عاد أبو عبيدة فبلغّ عمر نجاح مسعاه . وفى اليوم التالى ذهب علىّ الى

(١) ص ٥٩٧ ج ٢ شرح نهج البلاغة .   (٢) التلكؤ : الإبطاء والاعتلال . والشماس : النفور .

المسجد فاخترق الجماعة وبايع أبا بكر، ثم آستأذن للقيام وتبعه عمر مكرما له مستأثرا لما عنده .

تلك خلاصة القصة. ولكن أهمية الحديث ترجع الى ما فيه من الصور الفنية التى تأنق التوحيدى فى صوغها كل التأنق . وآنظر ما وصف به أبو بكر بوادر الشر المخوف الذى يهدّد كيان المسلمين لو طال الشقاق[1] :

" امض الى علىّ وآخفض له جناحك ، وآغضض عنده صوتك ، وآعلم أنه سلالة أبى طالب . ومكانُه ممن فقدناه بالأمس — صلى الله عليه وسلم ! — مكانُه . وقل له : البحر مَغرقة، والبر مَفرقه، والجو أكلف ، والليل أغدف، والسماء جلواء، والأرض صلعاء ، والصعود متعذر ، والهبوط متعسر ، والحق عطوف رءوف ، والباطل عنوف عسوف ، والعجب قدّاحة الشر، والضغن رائد البوار، والتعريض شجار الفتنة، والقحة ثقوب العداوة. وهذا الشيطان متكئ على شماله ، متحيل بيمينه، نافخ خصييه لأهله ، ينتظر الشتات والفرقة، ويدب بين الأمة بالشحناء والعداوة ... يوسوس بالفجور، ويدلى بالغرور، ويمنّى أهل الشرور ... ولابد الآن من قول ينفع إذا أضر السكوت وخيف غبه . ولقد أرشدك من أفاء ضالتك، وصافاك من أحيا مودته بعتابك، وأراد لك الخير من آثر البقاء معك . ما هذا الذى تسول لك نفسك، ويدوى به قلبك ، ويلتوى عليه رأيك، ويتخاوص دونه طرفك ، ويسرى فيه ظعنك ، ويترادّ معه نفسك ، وتكثر عنده صعداؤك ، ولا يفيض به لسانك ؟ أعجمةٌ بعد إفصاح ؟ أتلبيسٌ بعد إيضاح ؟ أدين غير دين الله ؟ أخلق غير خلق القرآن ؟ ... إنك والله جدّ عارف باستجابتنا لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وبخروجنا عن أوطاننا وأموالنا وأولادنا وأحبتنا، هجرة لله عز وجل، ونصرة لدينه، فى زمان أنت فيه فى كِنّ الصبا، وخدر الغرارة، وعنفوان الشبيبة، غافل عما يشيب ويريب، لا تعى ما يراد ويشاد ،

---

(١) خدع جماعة من رجال وزارة المعارف المصرية فظنوا هذه المحاورة صحيحة النسب فاختاروا منها قطعة نسبوها الى أبى بكر فى كتاب المحفوظات للمدارس الثانوية .

ولا تحصل ما يساق ويقاد، سوى ما أنت جار عليه الى غايتك التى اليها عدل بك، وعندها حط رحلك، غير مجهول القدر، ولا مجحود الفضل . ونحن فى أثناء ذلك نعانى أحوالا تزيل الرواسى، ونقاسى أهوالا تشيب النواصى، خائضين غمارها، راكبين تيارها، نتجرع صعابها، ونشرج عبابها، ونحكم آساسها، ونبرم أمراسها، والعيون تحدج بالحسد، والأنوف تعطس بالكبر، والصدور تستعر بالغيظ، والأعناق تتطاول بالفخر، والشفاه تشحذ بالمكر، والأرض تميد بالخوف، لا ننتظر عند المساء صباحا، ولا عند الصباح مساء، ولا ندفع فى نحر أمر إلا بعد أن نحسو الموت دونه، ولا نبلغ مرادا إلا بعد الا بعد الإياس من الحياة عنده" الخ.

وهناك صفحة فى غاية من الجودة كتبت على لسان عمر، رضى الله عنه، أوصى أبا عبيدة أن يواجه بها عليا كرم الله وجهه، وصفحة أخرى خاطب بها عمر عليا حين تلاقيا بعد البيعة، وهذه وتلك من آيات النثر الفنى .

والحديث طويل . ولا حاجة الى الافاضة فى تحليله فليرجع اليه القارئ إن شاء .

وهذا النمط من تنسيق الأخبار معروف عن التوحيدى، وما نحسبه ألف كتابا إلا أنطق الناس فيه بفنون من الأحاديث فيها متعة للعقل والذوق والإحساس[1] .

---

(١) ضاق المجال عن تحليل المناظرات التى دونها التوحيدى ، و يكفى أن يعرف القارئ ان تدوين المناظرات كان من أهم ما يمتاز به القرن الرابع ، ونحن نرشد الى هذا العنصر من النثر الفنى ليتعقبه من شاء، فقد يطول القول ان مضينا ندرس كل ما اهتم به كتاب ذلك العهد من فنون البيان .

١٠ – قصص الببغاء [1]

١ – أما البيغاء فكاتب شاعر، كان فى ريعان شبابه متصلا بسيف الدولة، ثم تنقلت به الأحوال بعد وفاة صاحبه، فورد الموصل و بغداد ونادم بهما الملوك والرؤساء . وظل ينعم تارة و يشقى تارة أخرى حتى وافاه حمامه لثلاث بقين من شعبان سنة ٣٩٨

وليس لدينا من النصوص ما يكفى لبيـان الاتجاهات الفنية التى كانت تغلب على البيغاء فى القَصَص. ولكن يظهر أنه كان معروفا بهذا الفن، حتى آستطاع الصابى أن يخاطبه بقوله :

خوشيت ياقس الطيـــور فصـاحةً   اذا أنشد المنظوم أو درس القصص [2]

٢ – وقد بقى لنـا من قصصه حكاية ذكر الثعالبى أنه لم يســمع أظرف منها فى فنها، ولا ألطف ولا أعذب ولا أخف [3] . ونحن كذلك نشهد بأننا لم نقرأ فى الأدب العربى أظرف من تلك الحكاية ، وهى تمثل الحرية التى كان يمرح فى ظلالها رجال الأدب فى ذلك الحين . ولغة البيغـاء فى تلك القصـة سهلة مقبولة لا يظهر فيها تصنع ولا تكلف ، وهو لا يستعمل السجع الا حيث يقضى السياق بالتأنق والتنسيق ، فالسجع عنده حلية فنية يلجأ اليها حين يريد تصوير سمة من سمات الجمال، أو نزعة من نزعات الوجدان . ولو سلك الأدباء مسلك البيغاء فى ذلك القَصَص الغرامى لسلمت اللغة العربية من الجفاف الذى غلب عليها فى النثر ووقف به موقف الجمود . والشـعر من هـذه الناحية أسلس وأرق ، فقد كان للشعر ما يشـبه التقاليد المرسومة التى تبيح التحدّث عن هفوات الصبا ونزوات الشباب . ولعل هذا كان من أسباب ظهور الشعر على النثر فى البلاغة العربيـة ، فانا نرى للشعر المكان الأول فى الأندية والمحـافل

---

(١) راجع ترجمة أبى الفرج البيغا وتحليل رسائله فى الجزء الثانى ص ٢٢٦ — ٢٤٢ من هذا الكتاب .

(٢) ص ١٨٨ ج ١ يتيمة الدهر .   (٣) ج ١ ص ١٧٤

والمواسم . ونراه كذلك أول ما تتوجه اليه عناية الناقدين ، إذ كان أقرب ألوان الأدب إلى النفوس ، وأحبها الى القلوب ، لاهتمام أصحابه بالحديث عن أهواء الناس وشهواتهم وظنونهم فى عالم الجد وعالم المجون ، ولكن النثر لما قُصر قديما على الشئون الجدية من علم وأدب وسياسة ودين كان نصيبه أن يحبَس على فئة قليلة هى الجمهور المحدود جمهور الساسة والعلماء والهداة ، وهو جمهور له قيمته وخطره ، ولكنه لقلته لم يستطع فى أى عصر أن يذيع فنا من الفنون الأدبية التى يموت أصحابها ان لم تغزُ فى وقت واحد ساكنى القصور والأكواخ . ومن أجل هذا كانت الأقاصيص فى النثر من أهم ما يمتاز به الأدب فى القرن الرابع ، ففى كتابات بديع الزمان والتوحيدى والتنوخى والببغا والأزدى نماذج فنية فيها فتن للعقول والقلوب والأهواء والأحاسيس ، لا تقل أثرا فى أنفس قارئيها وسامعيها عما يقدم الشعر البليغ من صنوف اللذة والإمتاع .

قال أبو الفرج . تأخرت بدمشق عن سيف الدولة رحمه الله مكرها وقد سار عنها فى بعض وقائعه . وكان الخطر شديدا على من أراد اللحاق به من أصحابه ، حتى أن ذلك كان مؤديا إلى النهب وطول الاعتقال ، واضطررت إلى إعمال الحيلة فى التخلص والسلامة بخدمة من بها من رؤساء الدولة الإخشيدية ، وكان سنى فى ذلك الوقت عشرين سنة ، وكان انقطاعى منهم إلى أبى بكر بن على بن صالح الرزبادى لتقدمه فى الرياسة ومكانه من الفضل والصناعة ، فأحسن تقبلى وبالغ فى الإحسان بى وحصلت تحت الضرورة فى المقام فتوفرت على قصد البقاع الحسنة والمتنزهات المطرفة تسليا وتعللا ، فلما كان فى بعض الأيام عملت على قصد دير مران وهذا الدير مشهور الموقع فى الجلالة وحسن المنظر . واستصحبت بعض من كنت آنس به وتقدمت لحمل ما يصلحنا وتوجهنا نحوه فلما نزلناه أخذنا فى شأننا وقد كنت اخترت من رهبانه لعشرتنا من توسمت فيه رقة الطبع ، وسجاحة الخُلق ، حسبما جرى به الرسم فى غشيان الأعمار وطرق الديرة من التظرف بعشرة أهلها والأنس بسكانها ، ولم تزل الأقداح دائرة بين مطرب الغناء وزاهر المذاكرة إلى أن فض اللهو ختامه ، ولوح السكر لصحبي أعلامه ، وحانت

منى عطرة الى بعض الرهبان فوجدته الى خطابى متوثبا ، ولنظرى إليه مترقبا . فلما أخذته عينى كف يرغمنى بخفى الغمز ، ووحى الإيماء ، فاستوحشت لذلك وأنكرته ونهضت عجلا واستحضرته ، فأخرج الى رقعة مختومة وقال لى : قد لزمك فرض الأمان فيما تقتضيه هذه الرقعة . وسقط زمام كاتبها فى سترها بك عنى . ففضضتها فإذا فيها بأحسن خط وأملحه وأقرأه وأوضحه :

(بسم الله الرحمن الرحيم) لم أزل فيما تؤديه هذه المخاطبة يا مولاى بين حزم يحث على الانقباض عنك ، وحسن ظن يحض على التسامح بتنفيس الحظ منك . إلى أن استنزلتنى الرغبة فيك ، على حكم الثقة بك ، من غير خبرة ، ورفعت بينى وبينك سجف الحشمة فأطعت بالانبساط أوامر الأنسة وانتهزت فى التوصل إلى مودتك فائت الفرصة . والمستماحُ منك جعلنى الله فداك زورةٌ أرتجع بها ما اغتصبتنيه الأيام من المسرة مهنأة بالانفراد إلا من غلامك الذى هو مادة مسرتك ، وما ذاك عن خلقٍ يضيق بطارق ، ولكن لأخذى بالاحتياط على حالى . فإن صادف ما خطبته منك أيدك الله قبولا ولديك نَفاقا فمُنيةٌ غفل الدهر عنها أو فارق مذهبه فيما أهداه الى منها . وإن جرى على رسمه فى المضايقة فيما أوثره وأهواه ، وأترقبه من قربك وأتمناه ، فذمام المروءة يلزمك رد هذه الرقعة وسترها وتناسيها واطراح ذكرها .

وإذا بأبيات تتلو الخطاب وهى :

يا عامر العمر بالفتوة والقصـ	ـف وحث الكئوس والطرب
هل لك فى صاحب تناسب فى الـ	ـغـربة أخلاقه وبالأدب
أوحشه الدهر فاستراح الى	قربك مستنصرا على النوب
فإن تقبلت ما أتاك به	لم تشن الظن فيه بالكذب
وإن أتى الزهد دون رغبتنا	فكن كمن لم يقل ولم يجب

قال أبو الفرج : فورد علىّ ما حيرنى ، واسترد ما كان الشراب حازه من تمييزى ، وحصل لى فى الجملة أن أغلب الأوصاف على صاحبها الكتابة خطا وترسلا ونظما ، فشاهدته

بالفراسة من ألفاظه ، وحمدت أخلاقه قبل الآختبار من رقعته ، وقلت للراهب : ويحك من هذا وكيف السبيل الى لقائه ؟ فقال أما ذكر حاله فاليه اذا آجتمعتما . وأما السبيل الى لقائه فمتسهل إن شئت . قلت : دلّنى . قال : تظهر فتورا وتنصب عذرا تفارق به أصحابك منصرفا ، وإذا حصلت بباب الدير عدلتُ بك الى باب خفىّ تدخل منه . فرددت الرقعة عليه وقلت : ارفعها ليتأكد أنسه بى وسكونه إلىّ ، وعرفه أن التوفر على إعمال الحيلة فى المبادرة الى حضرته على ما آثره من التفرد أولى من التشاغل باصدار جواب وقطع وقت بمكاتبته . ومضى الراهب وعدت الى أصحابى بغير النشاط الذى نهضت به فأنكروا ذلك ، فاعتذرت اليهم بشىء عرض لى وآستدعيت ما أركبه ، وتقدّمت الى من كان معى ممن يخدم بالتوفر على خدمتهم ، وقد كنا عملنا على المبيت فأجمعوا على تعجل السكر والآنصراف ، وخرجت من باب الدير ومعى صبى كنت آنس به وبخدمته ، وتقدمت الى الشاكرىّ برد الدابة وستر خبرى ومباكرتى . وتلقانى الراهب وعدل بى الى طريق فى مضيق وأدخلنى إلى الدير من باب غامض وصار بى إلى باب قَلّاية(1) متميز عما يجاوره من الأبواب نظافة وحسنا فقرعه بحركات مختلفة كالعلامة ، فابتدرَنا منه غلام كأن البدر ركِّب على أزراره ، مهفهفُ الكشح مخطفُه ، معتدلُ القوام أهيفُه ، تخال الشمس برقعت غرته ، والليل ناسب أصداغه وطرته ، فى غلالة تنم على ما تستره ، وتجفو مع رقتها عما تظهره ، وعلى رأسه مجلسية مصمت فبهر عقلى ، وآستوقف نظرى ، ثم أجفل كالظبي المذعور ، وتلوته والراهب إلى صحن القَلّاية فاذا أنا ببيت فضىّ الحيطان ، رخامىّ الأركان ، يضم طارقة خيش مفروشة بحصير مستعمل ، فوثب الينا منه فتًى مقتبل الشبيبة ، حسن الصورة ، ظاهر النبل والهيئة ، مثر من اللباس بزى غلامه ، فلقينى حافيا يعثر بسراويله ، وآعتنقنى ثم قال : انما آستخدمت هذا الغلام فى تلقيك ياسيدى لأجعل ما لعلك آستحسنته دن وجهه مصانعا عما ترِدُ عليه من مشاهدتى ، فاستحسنت آختصاره الطريق الى بسطى وآرتجاله النادرة على نفسه ، حرصا فى تأنيسى ،

---

(1) القلاية : بناء كالدير .

وأفاض فى شكرى على المسارعة الى أمره . وأنا أواصل فى خلال سكاته المبالغة فى الاعتداد به . ثم قال : يا سيدى أنت مكدود بمن كان معك ، والاستمتاع بمحادثتك لا يتم إلا بالتوصل الى راحتك — وقد كان الأمر على ما ذكر — فاستلقيت يسيرا ، ثم نهضت فخُدِمتُ فى حالتى النوم واليقظة الخدمة التى ألفتها فى دور أكابر الملوك وأجلة الرؤساء . وأحضرنا خادم له ؛ لم أر أحسن منه وجها ؛ طبقا يضم ما يتخذ للعشاء مما خف ولطف . فقال : الأكل منى ياسيدى لحاجة ؛ ومنك للمالحة والمساعدة ؛ فنلنا شيئا . وأقبل الليل فطلع القمر ففتحت مناظر ذلك البيت الى فضاء أدى الينا محاسن الغوطة وحبانا بذخائر رياضها من المنظر الجنانى والنسيم العطرى . وجاءنا الراهب من الأشربة بما وقع اتفاقنا على المختار منه ؛ ثم اقتعدنا غارب اللذة ، وجرينا فى ميدان المفاوضة ؛ فلم يزل يناهبنى نوادر الأخبار وملح الأشعار ، ونخلط ذلك من المزح بأظرفه ، ومن التودد بألطفه ؛ الى أن توسطنا الشراب فالتفت الى غلامه وقال له : يامترف إن مولاك ما ادخر عنا السرور بحضوره ، وما يجب أن ندخر ممكنا فى مسرته ، فامتقع وجه الغلام حياء وخفرا ، فأقسم عليه بحياته وأنا لا أعلم ما يريد ، ومضى فعاد يحمل طنبورا وجلس فقال لى : يا سيدى تأذن لى فى خدمتك؟ فهممت بتقبيل يده لما تداخلنى من عظم المسرة بذلك ، فأصلح الغلام الطنبور وضرب وغنى :

يا مالكى وهو ملكى ... وسالبى ثوب نسكى
زِدْ يقين الهوى فيـ ... ـك عن تعرض شك
لولاك ماكنت أبكى ... الى الصباح وأبكى

فنظر الى الغلام وتبسم فعلمت أن الشعر له . فكدت والله أطير طربا وفرحا بملاحة خلقه ، وجودة ضربه ، وعذوبة ألفاظه ، وتكامل حسنه ؛ فاستدعيت كبيرا فأحضرنا الخادم عدة قطع من فاخر البلور وجيد المحكم فشربت سرورا بوجهه ، وشرب بمثل ما شربت ، ثم قال لى : أنا والله ياسيدى أحب ترفيهك وأن لا أقطعك عما أنت متوفر عليه ، ولكن اذا عرفت الاسم والنسب والصناعة واللقب فلا بد أن تشى ليلتنا بشىء يكون لها طرازا ، ولذكرها معلما . بجذبت الدواة وكتبت ارتجالا وقد أخذ الشراب منى :

وليلةٍ أوسعتنى حسنا ولهوا وأنسا
ما زلت ألثم بدرًا بها وأشرب شمسا
إذ أطلع الدير سعدا لم يبقِ مذ بان نحسا
فصار للروح منى روحا وللنفس نفسا

فطرب على قولى (ألثم بدرا وأشرب شمسا) وجذب غلامه فقبله وقال: ما جهلت ما يجب لك يا سيدى من التوقير وإنما آعتمدت تصديقك فيما ذكرته، فبحياتى إلا فعلت مثل ذلك بغلامك، فآتبعت إيثاره خوفا من آحتشامه، وأخذ الأبيات وجعل يرددها ثم أخذ الدواة وكتب إجازة لها:

ولم أكن لغريمى والله أبذل فلسا
لو آرتضى لى خصمى بدير مران حبسا

فقلت إذًا والله ما كان أحد يؤدى حقا ولا باطلا! وداعبته فى هذا المعنى بما حضر، وعرفت فى الجملة أنه مستتر من دين قد ركبه وقال لى: قد خرج لك أكثر الحديث فان عذرت وإلا ذكرت لك الحال لتعرفها على صورتها، فتبينت ما يؤثره من كتمان أمره، فقلت له يا سيدى كل مالا يتعرف بك نكرة، وقد أغنت المشاهدة عن الاعتذار، ونابت الخبرة عن الآستخبار، وجعل يشرب ويحب علىّ من غير إكراه ولا حث ولا استبطاء الى أن رأيت الشراب قد دبّ فيه، وأكب على مجاذبة غلامه، والفطنة تثنيه فى الوقت بعد الوقت، فأظهرت السكر وحاولت النوم، وجاء الغلام ببردعة ففرشها لى بازاء بردعته فنهضت اليها وقام يتفقد أمرى بنفسه، فقلت له إن لى مذهبا فى تقريب غلامى منى، وآعتمدت بذلك تسهيل ما يختاره من هذه الحال فى غلامه، فتبسم وقال لى بسكره: قد جمع الله لك شمل المسرة كما جمعه لى بك. وأظهرت النوم وعاد يجاذب غلامه بأعذب لفظ، وأحلى معاتبة، ويخلط ذلك بمواعيد تدل على سعة وآنبساط يد، وغلامه تارة يقفل يده، وتارة فمه، وغلبتنى عيناى الى أن أيقظنى هواء السحر فانتبهت وهما متعانقان بما كان عليهما من اللباس، فأردت توديعه، وحاذرت آنتباهه وآنزعاجه،

نخرجت ولقيني الخادم يريد إيقاظه وتعريفه انصرافي ، فأقسمت عليه أن لا يفعل ووجدت غلامي قد بكر بما أركبه كما كنت أمرته ، فركبت منصرفا وعاملا على العود اليه ، والتوفر على مواصلته ، وأخذ الحظ من معاشرته ، ومتوهما أن ما كنت فيه منام لطيبه وقرب أوله من آخره ، واعترضتني أسباب أدت الى اللحاق بسيف الدولة فسرت على أتم حسرة لما فاتني من معاودة لقائه[1] . ولم أزل على أتم قلق وأعظم حسرة واشتد تأسفي على ما سلبته من فراق الفتى ، لا سيما ولم أحصل منه على حقيقة علم ولا يقين خبرة يؤديانني الى الطمع في لقائه الى أن عاد سيف الدولة الى دمشق وأنا في جملته فما بدأت بشيء قبل المصير الى الراهب وقد كنت حفظت اسمه نخرج الى مرعوبا وهو لا يعرف السبب فلما رآني استطار فرحا وأقسم لا يخاطبني إلا بعد النزول والمقام عنده يومي ذلك ، ففعلت فلما جلسنا للحادثة قال : مالى لا أراك تسأل عن صديقك ! قلت والله مالى فكر ينصرف عنه ، ولا أسف يتجاوز ما حرمته منه ، ولا سررت بعودي الى هذه البلدة إلا من أجله ، ولذلك بدأت بقصدك فاذكر لى خبره ، فقال لى : أما الآن فنعم ! هذا فتى من المادرائيين جليل القدر ، عظيم النعمة ، كان ضمن من سلطانه بمصر ضياعا بمال كثير ، نخاش[2] به ضمانه لقعود السعر ، وأشرف على الخروج من نعمته ، فاستتر ، ولما اشتد البحث عنه خرج متخفيا الى أن ورد دمشق بزى تاجر فكان استتاره عند بعض إخوانه ممن أخدمه فأتى عندى يوما إذ ظهر لى وقال لصديقه إنى أريد الانتقال الى هذا الراهب إن كان على مأمونا فذكر له صديقه مذهبي ، وأظهرت السرور بما رغب فيه من الأنس بى وأنا لا أعرفه ، غير أن صديق قد أمرنى بخدمته وحصل فى قلايتى فواصل الصوم فلما كان بعد أيام جاءنا الرسول من عند صديقنا ومعه الغلام والخادم وقد لحقا به ومعهما سفاتج[3] وعليهما ثياب رثة فلما نظر الى الغلام قال : يا راهب قد حل الفطر ، وجاء العيد !

(١) أسقطنا من هذا الموضع قصيدة رائية تغنم بها الببغا ما سلف من حوادث هذه القصة . فليراجعها القارئ فى ص ١٨٠ ج ١ من يتيمة الدهر .

(٢) خاش : من الخوش وهو التنقص ، وقد يكون الأصل "خاس بضمانه" أى غدر .

(٣) السفاتج سندات مالية .

و وثب إليه فاعتنقه وجعل يقبل عينيه ويبكى، ووقف على السفاتج فأنفذها مع درج رقعة منه الى صديقه ٠

فلما كان بعد يومين حمل إليه ألفى دينار وقال له ابتع لنا ما نستخدمه فى هذه الضيعة فابتاع آلة وفرشا، ولم يزل مكبا على ما رأيت الى أن ورد عليه بالبغال والآلات الحسنة، وكتب أهله باجتماعهم الى صاحب مصر وتعريفهم إياه الحال فى بعده عن وطنه لضيق ذات يده عما يطالب به، والتوقيعُ بحطيطة المال عنه مقترن بالكتب ، فلما عمل على المسير قال لغلامه سلِّم جميع ما بقى معك من نفقتنا الى الراهب ليصرفه فى مصالح الدير الى أن نواصل تفقده من مستقرنا ٠ وسار وماله حسرةٌ ولا أسفٌ إلا عليك يقطع الأوقات بذكرك ولا يشرب إلا على ما يغنيه الغلام من شعرك ٠ وهو الآن بمصر على أفضل الأحوال وأجلها ما يخل بتفقدى ولا يغبُّ برى ٠

فتعجلت بعض السلوة بما عرفت من حقيقة خبره، وأتممت يومى عند الراهب وكان آخر العهد به ٠

١١ – أحمد بن يوسف المصرى

١ – فى أوائل سنة ١٩١٥ أرشدنا الأستاذ حسنين مخلوف الى قراءة كتاب المكافأة لأبى جعفر أحمد بن يوسف المصرى ، فاقتنيته وقرأته ، ولكنى وجدته كتابا عاديا لا روح فيه . ثم عدت إليه فى هذه الأيام ، صيف سنة ١٩٣٠ ، وأنا فى باريس ، فدهشت لبعد ما بين الإحساسين : شعورى بتفاهة الكتاب سنة ١٩١٥ وشعورى بنفاسته سنة ١٩٣٠ ، ورجعت أختبر نفسى وأمتحنها لأعرف السر فى هذا البعد المائل بين تقديرين مختلفين أشد الاختلاف نحو كتاب واحد ، فانتهيت الى أن الكتاب هو هو بالطبع لم يتغير لا فى وضعه ولا فى أسلوبه ، ولكنى أنا الذى تغيرت ، ففى سنة ١٩١٥ كنت من المعجبين المفتونين بأسلوب بديع الزمان والخوارزمى والصابى وابن العميد ، وكان كتاب الصنعة المتأنقون أقرب الناس الى نفسى ، وأحبهم الى ، وأبعدهم تأثيرا فى تكوين مشاعرى الفنية والأدبية ، فقد كنت أحفظ عن ظهر قلب مقامات بديع الزمان ومقامات الحريرى ونهج البلاغة ومقادير عظيمة جدا من مختار ما كتب الخوارزمى والصاحب بن عباد وابن زيدون ومن اليهم من الكتاب الذين أرادوا أن يكون النثر فنا خالصا يسامى الشعر ويباريه فى الزخارف والتهاويل ، والوزن والقافية ، لأن أكثر النثر المصنوع مقفى موزون ، وإن لم يجر وزنه وتقفيته على وتيرة واحدة ، وكنت أحفظ كذلك أكثر ما فى زهر الآداب والأمالى والعقد الفريد من خطب الأعراب وأحاديثهم وحكمهم وفقراتهم المأثورة فى الأوصاف والتشبيهات ، فاطمأنت نفسى الى أن النثر الجيد هو النثر الذى يعنى الكاتب ويشقيه فى اختيار الألفاظ والتعابير ، وأن الكاتب البليغ هو الصنع الفنان الذى ترى جهده وصنعه وفنه فى كل لفظة وكل جملة بحيث ترى فى رسالته أو خطبته ما تراه فى الأعمال الفنية الدقيقة من مظاهر البراعة والحذق ودقة النظم ومتانة التراكيب . من أجل ذلك رأيت فى كتاب المكافأة يوم ذاك أثرا ينقصه الفن ويبدو هامدا لا حس فيه ولا روح .

٢ — ثم شاء الله أن أتعمق فى دراسة الأدب العربى والأدب الفرنسى، وأن أُقبل بنوع خاص على ما كتب النقاد الفرنسيون الذين أطالوا القول فى دراسة أسرار البلاغة مقرونة بدرس نفوس الكتّاب وسرائرهم وضمائرهم ومشاعرهم وأحاسيسهم وألوان حياتهم، فعرفت أن هناك جمالا غير جمال الصنعة البراقة التى تهيج الحواس، هناك جمال النفوس الصافية، والأرواح الملهمة والقلوب الحساسة، التى تفيض على العالم من فيض الحكمة والعقل، وتسكب على الوجدان ما يوقظه ويحييه من نمير العطف والحنان. وعرفت أن النثر قد يكون مصنوعا أدق الصنع من دون أن نرى فيه أثرا للسجع والجناس والتورية والمطابقة والازدواج، وأن ما يسمى بالمحسّنات البديعية ليس كل شىء فى صناعة الكتابة، فقد يشق الكاتب فى وضع الجملة وصياغة الأسلوب من غير أن يحس القارئ أنه أمام نثر مصنوع. وهذا النوع من الصنعة أدل على الحذق والمهارة وقوة الطبع وعبقرية الخيال، إن هذا النوع من الصنعة يقنع القارئ بأنه أمام نثر مطبوع لا أثر فيه للجهد والعنت فى تخير الألفاظ ورصف التراكيب، ومثله مثل المناظر الطبيعية، فقد يقف المشاهد أمام زهرة مبرقشة مزخرفة تغلب فيها الخطوط والتصاوير، أو تُعرض عليه سمكة ملونة تلوينا دقيقا يزيغ البصر ويثير الحس، ثم لا يحسب الإنسان أن فى هذه السمكة أو تلك الزهرة فنا وصنعة، لأنه يظنها هكذا خلقت، ولا يدرى أن الطبيعة صنعتها عن عمد وذكاء. وكذلك نقرأ الآثار الأدبية التى تنقصها الصنعة الظاهرة فنحسبها مطبوعة، وذلك خطأ مبين، فكل شاعر يصنع قصيدته، وكل كاتب يصنع رسالته، وكل خطيب يصنع خطبته، والفرق بين المصنوع والمطبوع أن الأول يبدو فيه أثر التكلف ومحاولة الإبداع، أما الثانى فيصدر عن طبيعة سخية لبقة تعودت الإتقان والإجادة، بحيث يظن أنها تبدع ما تبدع بلا كلفة ولا عناء.

٣ — غير أنه ينبغى أن نقيد أن هناك جمهورين من القراء: جمهور المبتدئين الذين تروقهم الصنعة الظاهرة ولا يكادون يفهمون غرائب الصنعة الدقيقة، ولهذا الجمهور الساذج كتّاب يحسنون التلوين والتزيين والتهويل مثلهم مثل الباعة الذين يعرضون على الجمهور الساذج طرائف

الثياب المخططة المبهرجة وهى ثياب ظريفة خلابة لا تكلف صانعيها جهدا كبيرا، ولكنها تروق العامة وتفتنهم وتبدو لهم غاية فى التجويد والإبداع . وهناك الجمهور الثانى جمهور المثقفين ثقافة أدبية عالية، وهؤلاء يفهمون دقائق الفنون الأدبية، ويفرقون بين الصنعة السطحية والصنعة الخفية التى لا يجيدها إلا الأفذاذ القلائل من فحول الكتاب . هذا الجمهور المثقف هو الذى يُشقى الكاتب المتفوق ويحمله على مراعاة الذوق الأدبى والحاسة الفنية، لأنه يعرف كيف تقع الكلمة من الكلمة، وكيف تؤدى الجملة ما وضعت له تأدية صحيحة لا نقص فيها ولا إسراف. والكاتب البليغ حقا هو الذى يضع الألفاظ على قدود المعانى وضعا رشيقا مهندما يفتن العقل والذوق بحيث لا يود القارئ المثقف لو حذفت لفظة أو زيدت لفظة ، ومَثَل هذا الكاتب مَثَل الصيدلى البارع الذى يحسن تركيب الدواء ، فهو شخص مسئول يركب أجزاء الدواء بمقادير معينة محدودة يؤخذ بعضها بالقطارة وبعضها بالميزان، وهو يعلم أن الدواء لو نقص منه جزء ، أو زيد عليه جزء ، لأصبح ضارا أو غير مفيد . ومَثَل الكاتب البليغ مع جمهوره المثقف مَثَل التاجر المتأنق الذى يتخير أجمل الملابس وأدقها صنعا ، فقد تبدو بضاعته عادية لا رونق فيها عند من لا يفرقون بين المركب والبسيط . ولكنها تظهر نفيسة ثمينة عند من ألفت عيونهم وأذواقهم دقائق النسج ، وغرائب الصنع . ومثل هذا التاجر خليقٌ بأن يرضى بالعدد القليل من عشاق الذخائر والأعلاق ، فان فهم النفائس يحتاج الى ثقافة خاصة لا تتاح لكل مخلوق . وكذلك الكاتب المبدع والفنان الذى يدق فنه وتسمو صنعته على كثير من العقول والأذواق يجب أن يطمئن الى أن جمهوره معدود الأفراد فليس له أن ينتظر جماهير كثيرة تصفق له وتستعيده وتشيد بذكره فى الأندية والأسواق، وإلا عاد رجلا عاميا لا إباء له ولا عزة ولا كبرياء؛ فان الخرز مهما راجت سوقه وصنعت منه ملايين العقود لن يصل فى أى ذهن الى مساماة اللؤلؤ المكنون الذى كتب عليه الخمول وظل سجين الأصداف، وفى ذلك عزاء لمن أفردتهم عبقريتهم، وأقصتهم عن الجماهير، فعاشوا فى أوطانهم غرباء .

٤ — كتاب المكافأة طبع سنة ١٩١٤ بمطبعة الجمالية بالقاهرة بعناية الأديب الفاضل أمين عبد العزيز أفندى الذى ظفر بنسخة منه من أحد باعة الكتب بنابلس وقد أهداه الى أستاذنا

البحاثة أحمد زكى باشا، وهو يقع فى ١٢٨ صفحة بالقطع الكبير وعليه بعض تعليقات وفيه أغلاط كثيرة يمكن استدراكها لو طبع مرة ثانية. أما المؤلف فهو أبو جعفر أحمد بن يوسف المصرى، وكان أبوه يوسف بن ابراهيم يكنى أبا الحسن. وكان من جلة الكتّاب بمصر، قال ياقوت: ولا أدرى كيف كان انتقاله اليها عن بغداد. مات أحمد بن يوسف نحو سنة ٣٤٠ ﻫ وله من التصانيف: سيرة أحمد بن طولون وسيرة هارون ابن أبى الجيش، وأخبار غلمان بنى طولون، وكتاب المكافأة، وكتاب أخبار الأطباء. الخ. وكان حسن المجالسة، جيد الكتابة، حسن الشعر، قد خرج من شعره أجزاء. حدثنا عن نفسه قال:

"كان أبو الفياض سوار بن شراعة الشاعر صديقا لى، ومائلا إلىّ. فلما اعتزم على الرجوع الى العراق سألنى أن أكتب له شيئا من شعرى فكتبت له مقدار خمسين ورقة. وكان يستحسنه ويعجب به، فصار الى بغداد وعرضه على جماعة الأحرار، وأحسن وصفى لهم بسلامة مذهبه وطهارة نيته. ودخل محمد بن سليمان مصر وقد ردّ البريد بها الى أبى عبيدالله أحمد بن صالح، فسأل عند دخوله اياها عن أحمد بن يوسف فأحضر أحمد بن يوسف، كاتبا كان لأحمد ابن وصيف ولابن الجصاص بعده، فقال له: تعرف أبا الفياض؟ قال: لا. فقال لهم: ليس هذا الرجل الذى طلبت، فأحضرت، فلما رآنى استشرف الىّ وقال: تعرف أبا الفياض؟ فقلت: ذكرك الله و إياه بكل صالحة! نعم، وكان حالّا لى. فقال: هل أنشدك من شعره:

ظللنا بها نستنزل الدن صفوهُ ونستنزل أقباسا بغير لهيب

فقلت: لا ياسيدى! ولكنى أنشدته إياه من شعرى، فضحك وقال. والله لقد اشتقت الى الدخول الى مصر من أجلك"[1].

ونحن نأسف لأن ضاع شعر أحمد بن يوسف الذى كان ينقل الى مصر سكانَ العراق.

٥ — كتاب المكافأة مصدر عظيم من مصادر الأدب والتاريخ، نعرف منه اتجاه العقول وسيرة النـاس فى مصر فى أواخر القرن الثالث والنصف الأول من القرن الرابع. والمصريون

(١) المكافأة ص ٤٤ و ٤٥

لذلك العهد، كما وصفهم صاحب المكافأة، كانوا يقاسون ألوانا من الظلم والاضطهاد. وكانوا فى أنفسهم مزيجا من العرف والنكر، والخير والشر، والغدر والوفاء، فقد كان فيهم المحسنون والمتصدقون، كما كان فيهم اللصوص وقطاع الطريق. وهذه الحال تذكّر بما كنت أسمع فى طفولتى من أخبار المناسر التى كانت تبيِّت الناس فتنزل عليهم فى هدآت الليل وهم يديرون السواقى فى أطرف الحقول. واللص المصرى فى كتاب المكافأة هو نفسه اللص المصرى الذى كانت أخباره متعة السامرين الى عهد قريب، فهو رجل فاتك جرىء نهاب سفاك، ولكنه مع ذلك رجل ذو مروءة وشهامة يفى بالعهد ولا ينقض الميثاق. واللصوص فى مصر كانت لهم تقاليد تشبه تقاليد الصعاليك من عرب الجاهلية. فالصعاليك كانوا فتيانا ذوى بأس شديد يسوءهم أن تقسم الأرزاق بين الناس قسمة جائرة، وأن تكثر الفروق بين الأغنياء الذين يجدون ولا يشتهون، وبين الفقراء الذين يشتهون ولا يجدون، فكانوا لذلك ينظمون جهودهم، ويغيرون على ما يملك الأغنياء البخلاء، من إبل وشاء. وصاحب المكافأة نفسه يطلق على اللصوص كلمة صعاليك، كأنه كان يلمح ما فى طباع المصريين الناهبين من معنى الثورة على توزيع الأملاك. ولننظر كيف يقول:

"حدثنى محمد بن صالح الغورى قال: كانت لى بضاعة أعود بفضلها على شملى، فافترقت فى معاملات فى الصعيد وخرجت الى من عاملته بجمعتها، وكان مقدارها خمس مائة دينار، وخرجت أريد الفسطاط فى رفقة كثيرة الجمع، فلما كان منتصف طريقنا وافى جمعٌ من الصعاليك فسلب الناس جميعا ودهشت، فرأيت منهم شابا حسن الصورة فقلت له: وآلله ما أملك غير هذا الكيس فارفعه لى عندك. فقال: وأين بيتك بالفسطاط؟ فقلت فى دور عباس بن وليد. فقال: ما اسمك؟ قلت: محمد الغورى. قال امض لشأنك. وجاء منهم من قلع ثيابى وسراويلى، وآنصرفوا عنا، ولم أزد أن سوّغت واحدا منهم جميع ما كان معى، ودخلنا الى الفسطاط ونحن فقراء. فرجع كل واحد منهم الى ما تخلّف له وبقيت ليس معى درهم أنفقه. وإنى لجالس على درجة المسجد بين المغرب وعشاء الآخرة حتى رأيت رجلا قد

وقف بى، فقال لى : هاهنا منزل محمد الغورى؟ قلت أنا هو . ولا وآلله ما آهتديت الى الرجل الذى أعطيته المال لأنه كان عندى أول مال ذاهب ، فقال لى : عنّيتنى! وأخرج الكيس فدفعه الىّ ، فردّت علىّ جدّتى وتطعمت الحياة"[1] .

وتنتهى القصة بأن الغورى دعا اللص الى المبيت عنده، وأنه مضى فى الصباح الى بعض القوّاد يخبره بحديث ذلك اللص الشريف، وأن القائد قال له : الطفْ لى فيه، فوالله لأنوهنّ باسمه ، ولأكافئنه عنك، قال : "فرجعت اليه فأخبرته، فوالله ما آرتاع ولا آضطرب، ومضى معى، فأحسن تلقيه ، وخلع عليه ، وصيره سيارة لعمله ، وضم اليه عدّة وافرة" .

وللقارئ أن يعيّن المعانى النفسية فى الفقرة الأخيرة ، خصوصا عبارة "فرجعت اليه فأخبرته فوالله ما آرتاع ولا آضطرب ومضى معى" فانها تدل على شهامة ذلك اللص، وإيمانه بقوّة شخصيته، وجدارته بالتقدّم الى من يدعوه من كبار القوّاد .

٦٠ — أسلوب أحمد بن يوسف يستحق الدرس والنقد، لأن هذا الكاتب كان دائما يضع اللفظة فى الموضع الذى لا يليق بها غيره ولا تستقر فى مكان سواه . وهو كاتب مقتصد لا يسجع ، ولا يوازن بين الكلمات، ولا يزاوج بين الجمل، كأكثر معاصريه . ولكن هذا الاقتصاد كثير التكاليف : فمن الصعب أن يصل الكاتب إلى غرضه فى عبارات موجزة خالية من شوائب الإسهاب والإطناب ، وأسلوبه مع هذا الاقتصاد شائق أخّاذ يغلب عليه الفن الجميل . ومن العجيب أن هذا الرجل أملك الناس لنفسه وأكثرهم سلطانا على قلمه ، فهو يتحدّث عن أبيه، ويتحدّث عن وقائعه الشخصية، بنفس الأسلوب والروح الذى يتحدّث به عن قوم آخرين . وكان فى مقدوره — لو كان ممن يأخذهم الزهو والعُجب والكبرياء — أن يطيل القول حين يعرض لما وقع له ولأبيه من حوادث آنتصرت فيها المروءة والشرف وكرم العنصر وسماحة النفس . ولكنه ظل فى جميع ما أودعه كتاب المكافأة رجلا عبقريا مالكا لزمام قلمه وكابحا لجماح هواه، فلا تراه يستطيل ولا يتزيد حين يتكلم عما أسدى من

(١) (المكافاة ص ٩٩ و ١٠٠) .

المعروف إلى بعض من عاصره من سلائل الخلفاء والوزراء . وله مع قصده وإيجازه عبارات بارعة تمضى كأروع ما يكون فى التعريض والتلميح ، وإليك قوله فى بعض قصصه يتحدث عن واقعة آنتصر فيها الخلق النبيل :

"ونزل فى حارتنا غلام أمرد تأخذه العين، وكنت أسلم عليه إذا آجتزت به كما أفعل هذا بغيره من جيرتى. فانصرفت يوما إلى منزلى فوجدته قائما على بابه، فدفع إلىّ رقعة يذكر فيها أنه عباسىّ من ولد المأمون ويسألنى برّه، ودخل من كان معى بدخولى، فقضيت شغلى بالجماعة حتى آنصرفوا، ووضعت المائدة بينى وبين العباسى . فأكلنا وهو يتأملنى فلا يجد فىّ شيئا قذره . فلما غسل يده دفعت إليه ثلاثة دنانير، وآعتذرت إليه من تقصيرى فى حقه، وآنصرف وقد رأيت تجيلى فى حماليق عينيه[1]" .

ففى هذه الأسطر القلائل عرض الكاتب مسألة خلقية دقيقة عرضا لا إخلال فيه ولا تطويل . وللقارئ أن يتأمل قوله : " أمرد تأخذه العين" فانى أستجيد هذا التعبير وأفضله على قول الثعالبى فى ثمار القلوب "أمرد تأكله العين" الذى أخذه أحد الشعراء فقال :

ولقد شربتك بالمنى ولقد أكلتك بالضمير

وجملة : "فأكلنا وهو يتأملنى فلا يجد فىّ شيئا قذّره" من الجمل العجيبة التى تؤدى فى قصد وإيجاز ماتؤديه الكنايات البارعة التى تصل بالكاتب إلى غرضه من دون أن يخرج على قوانين الأدب والحياء . وقوله : "وآنصرف وقد رأيت تجيلى فى حماليق عينيه" من العبارات الرائعة القويّة التى لاتقع لغير الكتّاب الموفّقين .

٧ — وفى القصة التى رواها عن أحمد بن أيمن تعابير جيدة، وذلك أن آبن أيمن دخل البصرة إلى أحد التجار فرأى بين يديه آبنين له فى نهاية من النظافة، فقال للتاجر : استجدت الأم لحسن نسلك . فقال التاجر: ما بالبصرة أقبح من أمهما ولا أحب إلىّ منها . ولتلك الأم خبر عجيب خلاصته أن أباها كان عضلها[2] وتعرّض لعداوة خطابها، لسر خفىّ هو أن آبنته كانت

(١) ص ٢١ و ٢٢ (٢) عضلها : منعها من الزواج .

دميمة محرومة من كل سمات الجمال ، وكان يخشى لو زفت أن تطلق ليومها ، فلما تقدم ذلك التاجر يخطبها رأى والد الفتاة أنه أهل للخير وأنه قد يقبلها على دمامة وجهها . فلما دخل بها واجهته بالكلمة الآتية :

” ياسيدى ! إنى سر من أسرار والدى كتمه عن سائر الناس ، وأفضى به إليك ، ورآك أهلا لستره عليه ، فلا تخفر ظنه فيك ، ولو كان الذى يُطلب من الزوجة حسن صورتها دون حسن تدبيرها وعفافها لعظمت محنتى ، وأرجو أن يكون معى منها أكثر مما قصّر بى فى حسن الصورة “ .

ثم وثبت بخاءت بمال فى كيس وقالت :

”ياسيدى ! قد أحل الله لك معى ثلاث حرائر وما آثرته من الإماء ، وقد سوغك تزويج الثلاث وابتياع الجوارى من مال هذا الكيس ، فقد أوقفته على شهواتك ، ولست أطلب منك إلا سترى فقط“ .

وهنا يقول التاجر وقد حلف :

” إنها ملكت قلبى ملكا لم تصل إليه حسنة بحسنها ، فقلت لها جزاءُ ما قدّمتيه ما تسمعيه منى : والله لا أصبت من غيرك أبدا ! ولأجعلنك حظى من دنياى فيما يؤثره الرجل من المرأة . وكانت أشفق الناس وأضبطهم وأحسنهم تدبيرا فيما تتولاه بمنزلى ، فتبينت وقوع الخيرة فى ذلك ، ولحقتنى السنّ : فصارت حاجتى الى الصواب أكثر منها الى الجماع . وشكر الله لى ما تلقيت به جميل قولها ، وحسن فعلها ، فرزقنى منها هذين الآبنين الرائعين لك ، ونحن منقطعون الى جوده فينا ، وإحسانه إلينا[1] “ .

والقارئ حين يتأمل هذه العبارات يجدها بسيطة ، ولكنها قوية الأثر فى النفس ، وأية دقة ، أم أية بلاغة فاتت هذا الكاتب فى مثل قوله : ” استجدت الأم لحسن نسلك “ أو قوله : ” إنى سر من أسرار والدى كتمه عن سائر الناس ، وأفضى به إليك ، ورآك أهلا

---

(١) ص ٤٩ — ٥١

استره عليه، فلا تخفر ظنه فيك " أو قوله : " ولحقتنى السنّ : فصارت حاجتى إلى الصنوابُ أكثر منها الى الجماع " .

هذه العبارات هى أنسب وأدق ما يتخير للحديث عن مثل هذه الشئون التى تمسّ الحياة الزوجيـة ، وهى حياة تبنى على أساس الصـدق والعذل والحب الخالص من شوائب النزق والرعونة والشهوات. فمن البلاغة أن يعبرّ عنها فى قصد و إيجاز بعيدين من طنطنة الإسهاب.

٨ — ومن التعابير المختارة قوله فى أحمد بن كثير الفرغانى الذى عمل المقياس بمصر :

" وكانت معرفته أوفى من توفيقه لأنه ما تم له عمل قط[١] " .

وقوله على لسان محمد بن موسى : " إن قدرة الحر تذهب بحفيظتـه، وقد فزعنا إليـك فى أنفسنا التى هى أنفس أعلاقنا، وما ننكر أنا قد أسأنا، والآعتراف يهدم الآقتراف[٢] " .

وقوله فى وصف حصار إقريطش: " وآشتد الحصار، ونزع السعر، وتحلّق المأكول، وشاع الجهد، ثم زادت المكاره حتى أكل الناس مامات من البهائم جوعا[٣] " .

وقوله على لسان سيدة توفى زوجها بأسوأ حالة وخلف لها بنات :

" فكنت أجاهـد فى مؤونة ولدى ، وإذا وقف أمرى صرت إلى أختى فقلت : أقرضينى كذا وكذا، إستحياء من أن أقول لهـا : هبى لى . ودخل شهر رمضان، فلما مضى نصفه آشتهوا علىّ صبيانى حلوى فى العيـد، فصرت الى أختى فقلت لهـا : أقرضينى دينارا أعمل به للصبيان حلوى فى العيـد ، فقالت : يا أختى تغيظينى بقولك " أقرضـينى " وإذا أقرضتك من أين تعطينى : أمن غلة دورك، أو بستانك؟ لو قلت : هبى لى، كان أحسن . فقلت لهـا : أفضيك من لطف الله تعالى الذى لا يحتسب ، وجوده الذى يأتى من حيث لا يرتقب . فتضاحكت وقالت : يا أختى، هـذا والله من المنى، والمنى بضـائع النـوكى . فانصرفت عنها أجر رجلى إلى منزلى[٤] " .

---

(١) ص ١١٠ (٢) ص ١١١ (٣) ص ١١٣ (٤) ص ١١٦ .

وهى عبارات ساذجة ولكنها تؤدى ما وضعت له تأدية صحيحة تثير العطف وتبعث الحنان .

٩ — وبجانب هذا البيان الرائع توجد عند أحمد بن يوسف عبارات مقتولة باللبس والغموض، من ذلك قوله فى مقدمة المكافأة :

" وقد رأيتك لا تزيد من رغبت اليه فيما تحدوه على برك، وتحثه لما أغفل من أمرك، على نص مكارم من سلف، وترى أنه يهش الى مساجلتهم، فلا يبلغ فى هذا أكثر من إحراز الفضيلة للمرغوب إليه، ولا يوجد فى الراغب فضيلة تحثه على شفيع قصده، ولو عدلت عن مكارم من رغب اليه ، الى حسن مكافأة من أنعم عليه ، لكانت لك ذرائع يمت بها الراغب يوجد المرغوب اليه سبيلا الى الانعام" .

فان الشطر الأخير من هذه الفقرة غارق فى لجة من الإبهام .

وتوجد فى الكتاب عبارات كثيرة يغلب عليها الضعف، وهذا مقتل خطر لأكثر الكتاب الذين لا يصنعون أساليبهم فى تأنق وحذق ، فان الكتاب الذين يغلب عليهم الاستسلام لسجيتهم ولا يتخيرون للكتابة ساعات النشاط والقوة يقعون غالبا فى مهاوى الركاكة والإسفاف. ومهما قيل فى تفضيل الطبع وإيثار ما توحى به النفس فى غير كلفة ولا عناء، فانه لا يزال من الحق أن الطبيعة الخالصة تحتاج الى تهذيب وترتيب، وأحواض الزهر المنسقة المهندمة التى يعنَى بها الجنّانون (١) فى الحدائق والبساتين أفتن وأروع من الزهر المبدّد الذى تلقى به الطبيعة هنا وهناك وفقا لخصب الأرض وجود السماء .

١٠ — وهنا نقطة مهمة لابد من درسها بعناية: ذلك أن مورّخى الأدب متفقون على أن البها زهير أقدم أديب ظهرت فى أدبه ألفاظ وتعابير وأخيلة مصرية. ولكنى رأيت أحمد بن يوسف سبقه الى ذلك بأجيال، والى القارئ البيان .

---

(١) الجنان : البستانى ، وهى كلمة طريفة ، صغناها من كلمة «الجنة» ثم رأينا أحد المتقدمين سبقنا اليها حين قال :

جنان يا جنان إجن من البستان الياسمين
واترك الريحان بحرمة الرحمن للعاشقين

ثم رأينا أن «الجنان» هى كذلك بمعنى البستانى فى اللغة العبرية ، من «الجان» وهى فى العبرية كالجنة فى العربية .

(ا) المصريون، حتى المثقفون منهم ثقافة عالية، يقولون «ست» فى مكان «سيدة» وهى كلمة مصرية قديمة أدخلها أحمد بن يوسف فى لغته الفصيحة مجاراة للغة الحديث[1].

(ب) والذين يعيشون فى الأقاليم المصرية يذكرون المنادى الذى ينادى فى الطرقات قبيل العشاء ليبلغ الناس أوامر الحكومة، ويذكرون كيف يختم نداءه بهذه العبارة «والذى يخالف يستاهل مايجرى عليه» وكلمة «يستاهل» عربية فصيحة مخففة عن «يستأهل» بمعنى يستحق، وفى مثل هذا التعبير يقول ابن يوسف : "فقال أبو العباس : سيعلم ما يجرى منى عليه"[2].

(ج) القاعدة العامة فى النحو أن الفعل يفرد مع الفاعل المثنى والجمع، فتقول : حضر الأفضلان، وحضر الأفضلون، ولا يثنى الفعل ولا يجمع إلا فى لغة ضعيفة يسميها النحاة لغة «أكلونى البراغيث» والعياذ بالله ! ولكن المصريين فى لغة الحديث يطابقون بين الفعل والفاعل فى الإفراد والجمع فيقولون مثلا : حضروا الغائبون. وكذلك نجد ابن يوسف يجارى أحيانا لغة الحديث فيقول : "فلما مضى نصفه اشتهوا علىّ صبيانى خلوى فى العيد"[3].

(د) اللغة الفصيحة تطلق كلمة زوج على الرجل والمرأة بدون إلحاق التاء للدلالة على التأنيث، وفى القرآن الكريم ﴿وأصلحنا له زوجه﴾ ولا يقال «زوجة» إلا فى كتب المواريث، ويذكرون أن الامام الشافعى كان يكره أن يقول «زوجة» فكان يقول «المرأة» إذا اقتضى الحال ذلك . ولكن المصريين فى لغتهم يقولون زوج وزوجة مجاراة للقاعدة العامة التى تفرق بين المذكر والمؤنث بعلامة من علامات التأنيث . وكذلك نجد ابن يوسف يقول : "ولو كان الذى يطلب من الزوجة حسن صورتها ، الخ"[4].

(هـ) ويقول أحمد بن يوسف : "فلما غسل يده دفعت اليه ثلاثة دنانير واعتذرت اليه من تقصيرى فى حقه"[5] وعبارة «قصر فى حقه» لا تزال مستعملة إلى اليوم بين المصريين فى لغة الحديث .

---

(١) أنظر ص ١١٧ و «لغة الحديث» نريد بها لغة التخاطب ويقابلها فى الفرنسية La langue parlée .

(٢) ص ١١٤ (٣) ص ١١٦ (٤) ص ٥١ (٥) ص ٢٢

(و) المصريون يسمون البنت أحيانا «حسنة» بضم الحاء، وكنت أحسبها تحريفا عن حسناء، ولكنى رأيت ابن يوسف يقول "ملكت قلبي ملكا لم تصل اليه حسنة بحسنها" ومن ذلك عرفنا أن كلمة «حسنة» كانت تجرى إذ ذاك على لسان المصريين بمعنى جميلة، وهذه الصفة مهجورة فى اللغة الفصيحة، وأكثر ما تستعمل فى المذكر، ولكن قلما يكون ذلك بدون إضافة، فهم يقولون فتى حسن الوجه، ويندر أن يكتفوا بالصفة من غير تخصيص.

(ز) المصريون يشبعون تاء الخطاب فى مخاطبة المؤنثة فيقولون «فعلتيه» بدلا من «فعلته» ويحذفون النون من «تفعلين» وكذلك نجد ابن يوسف يقول: «جزاء ما قدمتيه ما تسمعيه منى»[1] بدلا من «جزاء ما قدمته ما تسمعينه منى» ويقول «يا أختى تغيظينى»[2] بدلا من «تغيظيننى» وهو نوع من التخفيف فى لغة الحديث أدخله الكاتب فى اللغة الفصيحة.

(ح) المصريون يسمون السفينة «مركبا» وكذلك يسميها ابن يوسف فيقول: "ركبت مركبا أريد الفسطاط من تنيس وحملت فيه تجارة لى ما كنت أملك غيرها". وكلمة مركب فى لغته مذكرة، وهى كذلك عند أكثر البحارة فى النيل، وإن كنت أرى بعض أهل الريف يجرونها مجرى المؤنث خصوصا أهالى سِنتريس.

(ط) المصريون يسمون الكيس الكبير جدا الذى توضع فيه الأمتعة «تليسا» بفتح التاء وتشديد اللام مكسورة. وهذه اللفظة موجودة فى كتاب المكافأة حيث يقول المؤلف: «ثم دعا بتليس من شعر ... الخ»[3].

(ى) كلمة نفر فى اللغه الفصيحة تستعمل غالبا بمعنى الجمع، ففى القرآن الكريم ﴿استمع اليه نفر من الجن﴾. أى جماعة منهم، وفيه أيضا: ﴿وأعز نفرا﴾ بمعنى القوم والقبيل. ولكن المصريين يستعملون كلمة نفر بمعنى شخص، فيقولون خمسة أنفار مثلا، وكذلك نجد ابن يوسف يقول: "فتخفرت بأربعة نفر من القيسية"[4] يريد أربعة أشخاص.

---

(١) ص ٥٢ (٢) ص ١١١ (٣) ص ٨٢ (٤) ص ٢٠

(ك) والمصريون يقولون لمن يغلق الباب من الداخل "أغلقه من عنده" وكذلك يقول ابن يوسف: "دخلت البيت وأغلقته من عندى"[1].

(ل) ويقول ابن يوسف على لسان قابلة أولاد خمارويه بن طولون: "فكنت أجاهد فى مؤونة ولدى، وإذا وقف أمرى صرت إلى أختى فقلت أقرضينى"[2]. وعبارة "وقف أمره" عبارة مصرية تساوى العبارة الجارية فى الريف حين يقولون "وقف الحال" بمعنى ضاق الأمر واشتدّ الكرب. وتقابلها فى اللغة السورية عبارة "مشى الحال" ومنها الأغنية المشهورة "ماشى الحال، ماشى الحال".

١١ — وأحب أن يتنبه القارئ إلى أن ما نسميه عبارات مصرية أو سورية أو يمنية أو مغربية ليس إلا ترديدا لأخيلة عربية صحيحة وردت جملتها فى الشعر البليغ والنثر الفصيح، ولكن غلب بعضها هنا وساد بعضها هناك، بحيث صح أن يقال هذه عبارة مصرية، وتلك عبارة سورية، الخ.

وليس من المنطق فى شىء أن نسد آذاننا مرة واحدة عن اللهجات المتفرّقة فى الأقطار العربية، فان اللغة الفصيحة تحتاج إلى مدد دائم من تلك اللهجات، ومثلها مثل النهر الكبير يحتاج، مع فيض منابعه الأصلية، الى المدد المستمرّ الذى يصل إليه من روافده الصغيرة. وقد يوجد فى اللهجات العامية نوع من الحرية والطلاقة والمرونة فى بعض التعابير، فمن الأوفق أن يتسرب شىء من تلك السهولة الى اللغة الفصيحة لتعود ألين وأسلس، ولتصير أقدر على التوضيح والتفهيم والتبيين.

والواقع أن فصاحة الكلمات وبلاغة التعابير ترجع فى الأكثر الى قبولها من ذوى الطباع السليمة، والأذواق المهذبة، ففى مقدور الكتّاب أصحاب النفوذ فى تكوين الملكات الفنية، والأذواق الأدبية، أن يضيفوا الى قاموس اللغة الفصيحة بعض الكلمات المختارة فى لغة الحديث، حتى تصبح تلك الكلمات بعد حين جزأ من الثروة اللغوية التى نرجو أن نستغنى

---

(١) ص ١٢٢ (٢) ص ١١٦

بها عن الاستعانة ببعض ألفاظ الأجانب وأخيلتهم حين يعرض لنا معنى دقيق يحتاج إلى لغة أقدر وأصرح من لغة القدماء والمحدثين الذين وقفوا عند حدود مارسمت المعاجم والقواميس.

* * *

١٢ — ولكن لأى غرض وضع كتاب المكافأة ؟

يظهر أن أحمد بن يوسف المصرى كان غاية فى نبل النفس، وقوة العقيدة، وطهارة الوجدان . كان مؤمنا أصدق الايمان بعدل الله و رحمته ، وكان يثق ثقة مطلقة بأن المرء مجزى بعمله ، إن خيرا فخير، و إن شرا فشر، وكان فيما يظهر قد عرف من أخيار الناس وأشرارهم طوائف كثيرة مختلفة أرته أنواعا من الجزاء على أعماله الصالحة ، فمنهم الوفى الشكور، ومنهم الغادر الكفور ، لذلك تأصلت فى نفسه الحفيظة والموجدة تجاه الجاحدين الكاندين الذين نسدى إليهم الخير والاحسان ثم نلقى منهم عاديات الغدر والعقوق . ونكاد نلمس فى كلماته جمرات الغيظ كلما مر ذكر الناقضين للعهد والناسين للعروف، حتى لنذكر به تلك الزفرة المرة زفرة يحيى بن طالب حين قال :

يزهدنى فى كل غير صنعته ... الى الناس ما جربت من قلة الشكر

وله فى مقدمة كتابه عبارات حكيمة ، منها قوله :

" إن أشد على الممتحن من محنته ، عدوله فى سعيه عن مصلحته ، وتجنبه الصواب فى بغيته " .

وقوله :

" ولم يؤت الجود من مأتى هو أغمض من مغادرة حسن المكافأة ، ولو أنعمت النظر فيها لوجدتها أقوى الأسباب فى منع القاصد، وحيرة الطالب، ولو كانت توجد مع كل فعل استحقها لآثر الناس قاصديهم على أنفسهم و لجروا على السنن المأثور عنهم " .

١٣ — وقد قسم المؤلف كتابه الى ثلاثة أقسام : الأول المكافأة على الحسن ، والثانى المكافأة على القبيح ، والثالث حسن العقبى . وقد وضع فى القسم الأول إحدى وثلاثين حكاية ،

ختمها بحكاية رجل وقف بين يدى المنصور، وكان من رجال هشام بن عبد الملك ، فكان المنصور يسائله عن سيرة هشام لأنها كانت تعجبه، فكان الرجل يترحّم عند كل جارٍ من ذكره، فأحفظ(١) ذلك حاشية المنصور، فقال له الربيع : "كم تترحم على عدو أمير المؤمنين ؟" فقال الرجل للربيع :

"مجلس أمير المؤمنين، أيده الله، أحق المجالس بشكر المحسن، ومجازاة المجمل، ولهشام فى عنق قلادة لا ينزعها إلا غاسلى" .

فقال له المنصور: وما هذه القلادة؟ قال : قلدنى فى حياته، وأغنانى عن غيره بعد وفاته.

فقال له المنصور : (أحسنت ، بارك الله عليك، وبحسن المكافأة تستحق الصنائع ، وتزكو العوارف) .

ثم أدخله فى خاصته .

واستطرد المؤلف فقال : وقد مثّل بعض الفلاسفة الحسَنَ المكافأة بالحسام الصقيل الذى يحدث له وقوع الشمس عليه انبعاث شعاع منه يجلو غياهب الأمكنة المظلمة، ويكون وفور شعاعه على حسب صقالته .

ووضع فى القسم الثانى إحدى وعشرين حكاية ختمها بحكاية شيخ كان يعرفه فى أيام خمارويه، حلو النادرة، مليح الألفاظ، يعرف بالدفانى، وكان معاشه من التوصل بكتب الولاة الى معامليهم، فحدثه أنه خرج بكتب الى الشرقية فالتقى مع رجل فى زى بعض المانوية من الأطباء، فدعاه المتطبب الى مؤاكلته وأخرج رغيفين مشطورين أعطاه أحدهما ووضع الآخر بين يديه . ثم أخذ كوزا معه ومضى يسعى به، فشرهت نفس الدفانى الى الرغيف الذى كان بين يدى المتطبب فأبدله برغيفه ، وجاء المتطبب بالماء وابتدأ الأكل ، فما ابتلع المتطبب لقمة حتى شخص بصره وتمدد، الى آخر القصة(٢) .

ومهد المؤلف للقسم الثالث بهذه العبارات الفلسفية إذ قال :

---

(١) أحفظ : أغضب . (٢) انظر ص ٨٨ و ٨٩

" وإذ وفينا ما وعدناك به من أخبار المكافأة على الحسن والقبيح، ما رجونا أن يكون ذلك عونا للاستكثار من مواصلة الخير، وتطلّب العارفة فى الحسن، وزجر النفس عن متابعة الشر، وإبعادها عن سَورة الانتقام فى القبيح، وقد قالوا : الخير بالخير، والبادى أخير، والشر بالشر، والبادي أظلم، رأيت أن أصل ذلك، حفظك الله، بطرف من أخبار من ابتُلى فصبر، فكان ثمرة صبره حسن العقبى . لأن النفس اذا لم تعنْ عند الشدائد بما يجدّد قواها تولى عليها اليأس فأهلكها، وقد علم الانسان أن سفور الحالة عن ضدّها حتم لا بد منه، كما علم أن انجلاء الليل يسفر عن النهار . ولكن خور الطبيعة أشدّ ما يلازم النفس عند نزول الكوارث ، فاذا لم تعالَج بالدواء اشتدّت العلة، وازدادت المحنة، والتفكر فى أخبار هذا الباب مما يشجع النفس، ويبعثها على ملازمة الصبر، وحسن الأدب مع الرب عز وجل بحسن الظن فى مواتاة الإحسان عند نهاية الامتحان، والله ولى التوفيق[1] " .

وقد وضع فى القسم الثالث تسع عشرة حكاية، ختمها بحكاية عمرو بن عثمان اذ قال :

" كان لى مجلس فى ديوان الانشاء قليل الجدوى علىّ ، وحالى حال لاتنهض بما يحتاج اليه المقتصد، وقد لزمتنى يمين لا كفارة لها فى ترك النبيذ . فكان جماعة الكتاب يجلسون ما جلس الوزير، وهو يومئذ الفضل بن الربيع، فاذا انصرف الى منزله انصرفوا الى ما عقدوا عليه أمرهم من الاجتماع ، وأقيم وحدى فى الديوان الى أن يغلق، فبكرت اليه فى يوم من الأيام، وجاءت مطرة تطرب الوزير فيها الى الشرب، لتشاغل الرشيد فى دعوة لزبيدة ، فلم يبق فى ديوان الإنشاء غيرى . فانى لجالس حتى دخل الىّ خادم من خاصة الرشيد، فأخذ بيدى وأدخلنى الى الرشيد، فلما مثلت بين يديه قال : اقرأ هذا الكتاب . فقرأته فبينته وأعربته . فقال : أجب عنه بين يدىّ . فأجبت عنه بأحسن معان وأجود لفظ . فقال : اقرأه علىّ، فقرأته . فقال لمسرور الكبير "ألف دينار" فجاء بها . فقال : ادفعها اليه، وقل للفضل : " يصرف اليه ديوان الإنشاء فهو أحق به ممن غادره " ثم قال لى : " خذ هذا

(١) انظر ص ٨٩ و ٩٠

المـال ، وسأنظر لك فى الوقت بعـد الوقت ما يزيد فى آصطناعى لك ، فلا يفسـد الغنى ما أصلحته الفاقة من حسن ملازمتك، وآستزدنى أزدك [(١)] ".

١٤ — ومؤلف المكافأة يعتقد أن المحن والشدائد من أجمل مايهب الله لعباده الذين يعدّهم لعزائم الأمور، ويتمثل فى خاتمة كتابه بقول بزرجمهر: "الشدائد قبل المواهب تشبه الجوع قبل الطعام، يحسن به موقعه ، ويلذ معه تناوله " وكلمة أفلاطون : " الشدائد تصلح من النفس بمقدار ما تصلح من العيش، والترف يفسد من النفس بمقدار ما يصلح من العيش" وقوله : "حافظ على كل صديق أهدته اليك الشدائد، وآلهُ عن كل صديق أهدته اليك النعمة" وقوله أيضا : " الترفه كالليل لا نتأمل فيه ما تصدره ونتناوله والشدّة كالنهار ترى فيها سعيك وسعى غيرك" وقول أردشير : " الشدّة كحل ترى به ما لا تراه بالنعمة " .

١٥ — قلت إن أحمد بن يوسف المصرى كان قوىّ العقيدة، وأضيف الى ذلك أن قوّة عقيدته لم تكن لأنه قرأ فى بعض الكتب أن الله موجود، أو لأنه سمع من هداة القسيسين والأحبار أو العلمـاء والوعاظ أن الله سريع الحساب وأنه بالمؤمنـين رءوف رحيم . لا ، لا ، فذلك إيمان المقلدين، إيمان الذين يقولون إنا وجدنا آباءنا على ملة وإنا على آثارهم مهتدون . ولكن إيمان بعدل الله ورحمته آنبعث من نفس راضتها الحوادث على الاطمئنان الحق الى وجود الله وحنان رفقه، وقسوة جبروته . وآية ذلك أن الأقاصيص التى أودعها كتاب المكافأة أكثرها ممـا شاهده فى عصره، فبعضها وقع له بالذات، وبعضها وقع لأبيه ، وجزء منها وقع لأناس عرفهم بالمجاورة والمعاشرة، سواء أكانوا من عامة الناس أم من حاشية بنى طولون . من أجل هذا نرى إيمان ابن يوسف إيمانا قويا خالصا بعيـدا كل البعد عن الإيمان الرسمى الذى يحرص عليـه من يعيشون باسم الدين فى أقطار الشرق والغـرب، وإن كان ذلك لا يمنع أن يكون فيمن تصلهم بالدين صلات رسمية أبرارٌ ومتقون .

فان كان القارئ فى شوق الى لمحة من ذلك الإيمان القوى، إيمان الرجل الذى عرف ربه كأنه يراه ، فليقرأ قول أحمـد بن يوسف فى خاتمة كتابه "وملاك مصلحة الأمر فى الشـدّة

(١) انظر ص ١٢٥ و ١٢٦ من المكافأة .

شيئان : أصغرهما قوّة قلب صاحبها على ما ينـوبه ، وأعظمهما حسن تفويضه الى مالكه ورازقه، واذا صمد الرجل بفكره نحو خالقه علم أنه لم يمتحنه إلا بما يوجب له مثوبة،أو يمحص عنه كبيرة ، وهو مع هـذا من الله فى أرباح متصلة ، وفوائد متتابعة . فاذا آشتدّ فكره تلقاء الخليقة كثرت رذائله، وزاد تصنعه ، و برم بمقامه فيما قصرعن تأميله ، وآستطال من المحن ما عسى أن ينقضى فى يومه ، وخاف من المكروه ما لعـله أن يخطئه . و إنما تصدق المناجاة بين الرجل و بين ربه لعلمه بما فى السرائر، وتأييـده البصائر، ولله تعالى رَوح يأتى عند اليأس منه يصيب به من يشاء من خلقه . واليه الرغبة فى تقريب الفرج، وتسهيل الأمر، والرجوع الى أفضل ما تطاول اليه السؤال، وهو حسبي ونعم الوكيل" .

* * *

١٦ — وبعد فقد كان كتاب المكافأة عميق الأثرفى نفسى ،وكان قبسا من الهداية أدفع به ظلمات الغواية فى باريس . فهل أستطيع أن أحكم بأن إعجابى بذلك الكتاب هو أيضا مكافأة لمؤلفه رحمه الله، وأن جهده فى وضعه وتنسيقه لم يضع، وأن حرصه على بث الفضيلة والتنفير من الرذيلة لم يضع، وأن إيمـانه بالله عز شأنه لم يضع . وهيهات أن يضيع عند الله شىء، هيهات، هيهات !

كان أحمـد بن يوسف مصريا، وأنا كذلك مصرىّ . لقـد لقى فى مصر بعض الظلم، وأكاد ألقى فيها كل الظلم . كان يحسن الى كثير من الناس، فيفى له من يفى، و يغدر به من يغدر، وأنا فى حدود طاقتى أبذل البر والمعروف ، ثم ألقى من بعض من أحسن اليهم أشـنع ألوان الجحود، وأتلفت الى أصدقائى الأوفياء أعدّهم فأقول: واحد، اثنان، ثلاثة، ثم أغمض عينى من لذعة الكمد الوجيع .

ولكن يبقى لى ذلك الكنز الذى لا ينفـد ولا يفنى ، وذلك المعين الذى لا ينضب ولا يغيض، يبقى لىَ الله الذى يعاملنى بأجمل وأفضل ممـا أستحق، يبقى لىَ الله الذى تلمس يدى وترى عينى آثار رحمته وعدله، وتكاد تصافحه يمناى، وتكاد تصافحه يمناى ، ولو شئت لمضيت فى ترديد هذه الجملة، ولكن أين تقع التعابير من حقائق ما فى القلوب !

" ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب " .

١٢ – عبد الله بن عبد الكريم

عبد الله بن عبد الكريم هذا من الشخصيات الخاملة لا نعرف عنه أكثر مما جاء فى مجموعة التحفة البهية من أنه كان مطلعا على أحوال أحمد بن طولون ومن المرجح أنه أدرك القرن الرابع ، وقد روى حكاية مسجوعة تمثل عواقب الغدر والوفاء ، ورأينا أن نثبتها هنا بنصها وإن كنا لا نستبعد أن يكون دخل عليها شىء من التحوير ، وأهميتها ترجع الى تصويرها لبعض الحوادث فى القصور المصرية فى عهد ضاع أكثر ما وضع عنه من الروايات والأقاصيص ...

حدث عبد الله بن عبد الكريم قال :

" كان أحمد بن طولون وجد عند سقاية طفلا مطروحا فالتقطه ورباه وسماه أحمد وشهر باليتيم فلما كبر ونشأ كان أكثر الناس ذكاء وفطنة وأحسنهم زيا وصورة فصار يرعاه ويعلمه حتى تهذب وتمرس فلما حضرت أحمد بن طولون الوفاة أوصى ولده الأمير أبا الجيش خمارويه به فأخذه اليه فلما مات أحمد بن طولون أحضره الأمير إليه وقال له : أنت عندى بمكانة أرعاك بها ولكن عادتى أنى آخذ العهد على كل من أصرّفه فى شىء إنه لا يخوننى ، فعاهده ، ثم حكّمه فى أمواله ، وقدّمه فى أشغاله ، فصار أحمد اليتيم مستحوذا على المقام ، حاكما على جميع الحاشية الخاص والعام ، والأمير أبو الجيش يحسن إليه كلما رأى خدمته متصفة بالنصح ، ومساعيه متسمة بالنجح ، فركن إليه ، واعتمد فى أسباب بيوته عليه ، فقال له يوما : يا أحمد ، امض الى الحجرة الفلانية ، ففى المجلس بحيث أجلس سبحة جوهر فجئنى بها ، فمضى أحمد ، فلما دخل الحجرة وجد جارية من مغنيات الأمير وحظاياه مع شاب من الفراشين ممن هو من الأمير بمحل قريب ، فلما رآياه خرج الفتى فجاءت الجارية الى أحمد ، وعرضت نفسها عليه ودعته الى قضاء وطره ، فقال لها : معاذ الله أن أخون الأمير ، وقد أحسن الىّ ، وأخذ العهد علىّ ، ثم تركها وأخذ السبحة وانصرف الى الأمير وسلم اليه السبحة وبقيت الجارية شديدة الخوف من أحمد لئلا يذكر حالها للأمير ، فقامت أياما لم تجد من الأمير ما غيّره عليها ، ثم اتفق أن الأمير اشترى جارية

وقدّمها على حظاياه ، وغمرها بعطاياه، وآشتغل بها عمن سواها ، وأعرض لشغفه بها عن كل من عنـده حتى كاد لا يذكر جارية غيرها ، ولا يراها ؛ وكان أوّلا مشـغوفا بتلك الجارية الجائرة، الخائنة الغادرة، العاتية القاهرة، الفاسقة الفاجرة، فلما أعرض عنها آشتغالا بالجديدة المجيـدة ، المسعدة السعيدة، الحامدة المحمودة، الوصيفة الموصوفة، الأليفة المألوفة، الرشيقة المرشوقة، العارفة المعروفة ؛ وصرفت لبهجة محاسـنها وآدابهـا وجهـه عن ملاعبـة أترابها، وشغلته بعذوبة رضابها عن آرتشاف ضرب[1] أضرابها ، وكانت تلك الأولى لحسنها متأمرة على تأميره، لا تخاف من وليه ولا نصـيره ، فكبر عليها إعراضه عنها، ونسبت ذلك الى أحمـد اليتيم، وآطلاعه على ما كان منها . فدخلت على الأمير وقد آرتدت من الكآبة بجلباب مكرها، وأعلنت بالبكاء بين يديه لإتمام كيدها ومكرها، وقالت : ان أحمد اليتيم قد راودنى عن نفسى، فلما سمع الأمير ذلك آستشاط غيظا وغضبا، وهمّ فى الحال بقتله ، ثم عاوده حاكم عقله ، فتأنى فى فعله ، وآستحضر خادما يعتمد عليه، وقال له : اذا أرسلت اليك انسانا ومعه طبق ذهب وقلت لك على لسانه : املأ هذا الطبق مسكا، فاقتل ذلك الانسان وآحمل رأسه فى الطبق، وأحضره مغطى . ثم إن الأمير أبا الجيش جلس لشربه وأحضر عنده ندماءه الخواص وأدناهم لمجلس قربه وأحمـد اليتيم واقف بين يديه ، آمن فى سربه لم يخطر بخاطـره شيء ولا هجس فى قلبه، فلما ثمل الأمير وأخذ منه الشراب قال : يا أحمـد ! خذ هذا الطبق وآمض به الى فلان الخادم وقل له يملؤه مسكا ، فأخذه ومضى، وآجتاز فى طريقه بالمغنين وبقية النـدماء الخواص ، فقاموا اليـه وسألوه الجلوس معهـم فقال : أنا ماض فى حاجة للأمير أمرنى باحضارها فى هذا الطبق . فقالوا : أرسل من ينوب عنك فى إحضارها وخذها أنت وآدخل بها الى الأمير، فأدار عينيه فرأى الفتى الفراش الذى كان مع الجارية فأعطاه الطبق وقال امض الى فلان الخادم وقل له يقول لك الأمير املأ هـذا مسكا، فمضى ذلك الفراش الى الخـادم وذكر له ذلك فقتله وقطع رأسه وغسله وجعله فى الطبق وغطاه وأقبل به فناوله لأحمد اليتيم

---

(١) الضرب بالتحريك : العسل .

وليس عنده علم من باطن الأمر . فلما دخل به على الأمير كشفه وتأمله وقال : ما هـذا ؟ فقص عليـه خبره وقعوده مع المغنين و بقية النـدماء وسؤالهم له الجلوس معهم وما كان من إنفاذه الطبق والرسالة مع الفراش وأنه لا علم عنده غير ما ذكره . قال : أفتعرف لهذا الفراش خبرا يستوجب ما جرى عليه[1] ؟ فقال : أيها الأمير، ان الذى تم عليه بمـا آرتكبه من الخيانة، وقد كنت رأيت الإعراض عن إعلام الأمير بذلك . وأخذ أحمد يحدثه بما شاهده وما جرى له من حديث الجـارية من أوله الى آخره لمـا أنفذه لاحضار السبحة الجوهر، فدعا الأمير بتلك الجـارية واستقرها فأقرت بصحة ما ذكره أحمـد فأعطاه إياها وأمره بقتلها، ففعل، وآزدادت مكانة أحمد عنده وعلت منزلتـه لديه، وضاعف إحسانه اليه، وجعل أزِمَّة جميع ما تعلق به بيديه[2]" .

وقد مُهِّد لهذه القصة بعبارة مسجوعة، وعقِّب عليها بالفقرة الآتية :

" فانظر إلى آثار الوفاء كيف يحمى من المعاطب ، وينجى من قبضة التلف بعـد إمضاء القواضب ، ويفضى بصاحبه الى آرتقاء غوارب المراتب، فهذا الغلام لمـا وفى لمولاه بعهده، وهو بشر مثله وليس فى الحقيقة بعبـده، وآطلع الله عزوجل على صدق نيتـه وقصده، دفع عنه هذه القتلة الشنيعة بلطف من عنـده . فاذا كان العبد مع خالقه ورازقه وافيا فى طاعته بعقده، فكيف لا يفيض عليه من ألطافه ومواهب بره ورفده، ويفتح له من أنواع رحمتـه وأقسام نعمته ما لا ممسـك له من بعـده . ويقال انه ليس شىء أوفى من القمرية اذا مات ذكرها لم تقرب آخر بعده، ولا تزال تنوح عليه الى أن تموت . والله أعلم[3]" .

---

(١) لا تنس أن هذه عبارة مصرية . (٢) ص ١٩٠ — ١٩٢ من التحفة البهية (٣) ص ١٩٢

١٣ – المحسن التنوخي

أرشدنا الى هـذا الكاتب المسيو ماسينيون " صـديق الجميع " كما كتب إلينا فى وصفه المستشرق الهولندى الجليل الدكتور سنوك .

١ – والتنوخى هذا هو المحسن بن على بن محمد المتوفى ببغداد سنة ٣٨٤ ، وكان مولده بالبصرة سنة ٣٢٩، وله من التصانيف كتاب الفرج بعد الشدّة، وكتاب نشوار المحاضرة، أحد عشر مجلدا، كل مجلد له فاتحة بخطبة ، وهو كتاب جيـد ألفه التنوخى فى عشرين سنة أوّلها سنة ٣٦ وآشترط أن لا يضمنه شيئا نقله من كتاب .

قال المستر مارجوليوث فى خاتمة نشوار المحاضرة – وقد آبتدأ طبعه سنة ١٩١٨ وفرغ منه سنة ١٩٢١ – :

" النشوار كلمة فارسـية أصلها نشخوار ، ومعناها جرة الحيوانات المجترة ، وقد آستعملها التنوخى بمعنى الحديث «طيب النشوار والأدب»[١] « حسن النشـوار راوية الأخبـار»[٢] وأما ما ذكر من تاريخ الكتاب فيطابقه ما جرى فيـه ذكره من التواريخ ، فان المؤلف ذكر خبرا سمعه فى سـنة ٣٤٩[٣] ثم أكثر من ذكر حوادث سـنة ٣٦٠[٤] ثم ذكر حادثا حدث سـنة ٣٦١[٥] وأما ما اشـترط من الاقتصار على ما لم يدوّن فى كتاب فكثيرا ما أخل بشرطه . وقـد نبهنا فى مواضع على ورود الحكايات فى (الفرج بعد الشدّة) للؤلف وغيره من الكتب . وأما مازعم من اشتمال الكتاب على ١١ جزءا فيؤكده ما يوجد فى بعض الكتب من حكايات منقولة عن النشوار غير موجودة فى جزئنا . من ذلك ما أورده السـيوطى فى المزهر[٦] وياقوت الرومى فى إرشاد الأريب[٧] والغزولى فى مطالع البدور[٨]. وأما نحن فلم نعثر منه إلا على الجزء الأوّل فى نسخة

(١) ص ٦٢ س ١٦ (٢) ص ٨٦ س ١٤ (٣) ص ١٦ (٤) ص ٢١٦ و ٢٣٥
(٥) ص ٢٧٤ (٦) ج ٢ ص ١٦٣ من الطبعة الأولى . (٧) ج ٦ ص ٦٠ و ١٩٠
(٨) ج ١ ص ٩٤

عددها ٣٤٨٢ من الخطوط العربيـة المحفوظة فى خزانة الكتب الوطنية فى باريس ، قد ذكر الناسخ أنه فرغ من نسخها فى سنة ٧٣٠ وليس فيها مايدل على أنها أوّل جزء من أجزاء عدّة ، وعدد صفحاتها ١٩٣ وهى كاملة الشـكل كثيرة الأغلاط لا سيما فى الأعلام ... وقد حذفنا حكايات ليست بكثيرة لم نر داعيا الى تخليدها " .

٢ ــ هذه كلمة المستر مارجوليوث فى التعليق على ماذكر ياقوت . ونلاحظ أنه فاته حين تكلّم عن مطابقة التواريخ أن يتنبه الى ما نقـله خطأ عن ياقوت حيث دوّن أن كتاب نشوار المحاضرة صنف فى عشرين سنة أولهـا سـنة ٣٦ ، وهو قد ذكر أن التنوخى ولد سـنة ٣٢٩ فعلى هذا يكون المؤلف ابتدأ جمع أصول ذلك الكتاب فى السابعة من عمره ، وهو خطأ مبين وسنصححه بعد قليل .

٣ ــ وحدّثنا المستر مارجوليوث أنه حذف حكايات لم ير داعيا الى تخليدها ، وكنا نودّ لو نُشر الكتاب كاملا لم يحذف منه شىء ، فان التحكم فى أغراض المؤلفين من الأغلاط الشنيعة التى ينبغى أن ينزه عنها أمثال المستر مارجوليوث ، وهو قد صنع مثل هذا الصنيع فى طبع إرشاد الأريب لياقوت المعروف بمعجم الأدباء ، فقد أذكر أنه حذف طائفة من رسائل أبى العلاء المعرى اكتفاء بنشرها فى مجموعة أخرى من مجموعات أكسفورد . فكأنه لا يفكر إلا فى قرائه من المستشرقين .

وهذه المؤاخذة لا تحول دون الأعتراف بفضل هذا الباحث فى نشر الآثار القديمة ، فاليه يرجع الفضل فى إحياء كثير من المراجع المهمة فى الكشف عن معارف الأقدمين .

ونضيف الى ما كتبه عن نشوار المحاضرة ماأخبرنا به المسيو ماسينيون[1] من أن مجلة المجمع العلمى العربى فى دمشـق أخذت تنشر فى أعدادها الأخيرة بقايا قيّمة من أصـول ذلك الكتاب .

---

(١) فى يوليه سنة ١٩٣٠

٤ — وأهمية كتاب نشوار المحاضرة تعرف من مقدمته ، فان المؤلف يحدثنا أنه اتصل بكثير من الناس ممن عرفوا أحاديث الملل، وأخبار الممالك والدول ، ووقفوا على محاسن الأمم ومعايبهم ، وفضائلهم ومثالبهم، وسمعوا أخبار الملوك والكتاب والوزراء، والسادة والبخلاء ، وذوى الكبر والخيلاء، والأشراف والظرفاء، والمحادثين والندماء، والسفهاء والحلماء، والمحدثين والفقهاء، والفلاسفة والحكماء، وأهل الآراء والأهواء، والمتأدبين والأدباء، والمترسلين والفصحاء، والرجاز والخطباء، والعروضيين والشعراء، والنسابين والرواة ، واللغويين والنحاة ، والشهود والقضاة، والأمناء والولاة ، والمتصرفين والكفاة، والفرسان والأمجاد، والشجعان والأنجاد ، والجند والقواد، وأصحاب القنص والاصطياد ، والجواسيس والمتخبرين، والسعاة والغمازين، والوراقين والمعلمين ، والحساب والمحررين، والعمال وأصحاب الدواوين، والأكرة والفلاحين، والمتكلمين على الطرق، والواعظين والقصاص، وأهل الصوامع والخلوات ، والنساك والصالحين، والعباد والمتبتلين، والصوفية والمتواجدين، والأئمة والمؤذنين، والقراء والملحنين، وأهل النقص والمقصرين ، والأغبياء والمتخلفين ، والشطار والمتقين ، وأصحاب العصبية والسكاكين ، وقطاع الطرق والمتلصصين ، وأهل الخسارة والعيارين ، ولعاب النرد والشطرنجيين ، والملاح والمتطايبين ، وأهل النادرة والمضحكين ، والطفيلية والمستطرحين ، والأكلة والمؤاكلين ، والشراب والمعاقرين ، والمغنيات والمغنين ، والرقاصين والمخنثين ، وأهل الهزل والمتخالعين ، والبله والمغفلين ، والمفكرين والموسوسين ، والملحدة والمتنبئين ، والأطباء والمنجمين ، والكحالين والفصادين ، والآسية والمجبرين ، والشحاذين والمجتدين ، والمجدودين والمحدودين والسعاة والمسافرين ، والمشاة والمتغربين ، والسباح والغواصين ، وسلاك البحار والمفازات ، وأهل المهن والصناعات ، والمياسير والفقراء ، والتجار والأغنياء ، والفواضل من النساء ، حرائرهن والإماء ، وخواص الأحجار والحيوانات ، والأدوية والعلاجات ، والأحاديث المفردات ، وطريف المنامات ، وشريف الحكايات ، وغير ذلك من ضروب أحاديث أهل الخير والشر ، والنفع والضر ، وسكان المدر والوبر ، والبدو والحضر ، شرقا وغربا ، وبعدا وقربا .

ثم يقول :

وكان القوم الذين آستكثرت منهم، وأخذت ذلك عنهم، يحكونه فى أثناء مذاكراتهم، وفى عرض مجاراتهم... نفيا للمساكتة، واجترارا للمثافنة[1]، وصلة للمجالسة، وفتحا للمؤانسة، وسيرا لأحاديث الدنيا ماضيها وباقيها، وتواصفا لسير أهلها وما جرى فيها، وتمثيلا بين ما شهدوه منها، وسمعوه عنها، وعانوه من تقلبها، وقاسوه من تصرفها، وأخبروا به من عجائبها، ويوردون كل فن من تلك الفنون على حسب ما تقتضيه المحادثة، وتبعثه المفاوضة، فأحفظ عليهم ذلك فى الحال ... وأستفيده فى أحوال . فلما تطاولت السنون ومات المشيخة الذين كانوا مادة هذا الفن، ولم يبق من نظرائهم إلا اليسير الذى إن مات ولم يحفظ عنه ما يحكيه، مات بموته ما يرويه، ووجدت أخلاق ملوكنا ورؤسائنا لا تأتى من الفضل، بمثل ما يحتوى عليه تلك الأخبار من النبل ... بل هى مضادة لما تدل عليه تلك الحكايات من أخلاق المتقدمين وضرائبهم وطبائعهم ومذاهبهم، حتى أن من بقى من هؤلاء الشيوخ اذا ذكر ما يحفظه من هذا الجنس بحضرة أرباب الدولة ورؤساء الوقت، خاصة ما كان منه متعلقا بالكرم، ودالا على حسن الشيم، ومتضمنا ذكر وفور النعم، وكبر الهمم، وسعة الأنفس، وغضارة الزمان، ومكارم الأخلاق، كذبوا به ودفعوه، وجعلوه فى أقسام الباطل وآستبعدوه، ضعفا عن إتيان مثله، وآستعظاما منهم لصغير ما وصلوا اليه، بالاضافة الى كبير ما احتوى أولئك عليه، وقصورا عن أن تنتج خواطرهم أمثال تلك الفضائل والخصال، أو تتسع صدورهم لفعل ما يقارب تلك المكارم والأفعال . هذا مع أن فى زمانهم من العلماء المحتسبين فى التعليم، والأدباء المنتصبين للتأديب والتفهيم، وأهل الفضل والبراعة، فى كل علم وأدب وجد وهزل وصناعة من يتقدم بجودة الخاطر، وحسن الباطن والظاهر، وشدة الحذق فيما يتعاطاه، والتبريز فيما يعانيه ويتولاه، كثيرا ممن تقدمه فى الزمان، وسبقه بالمولد فى ذلك الأوان، ويقتصر منهم على الإكرام دون الأموال، وقضاء الحاجة دون المغارم والأثقال، مما يرفعون به راسا،

---

(١) المثافنة : المحاورة .

ولا ينظرون اليه إلا آختلاسا ، لفساد هذا العصر ، وتباعد حكمه من ذلك الدهر ، وأن موجبات الدهر فيه متغيرة متنقلة ، والسنن دارسة متبدّلة ، والرغبة فى العلم معدومة ، والهمم باطلة مفقودة ، والاشتغال من العامة بالمعاش قاطع ، ومن الرؤساء بلذاتهم البهيمية قانع .

٥ — وهذه الفقرات التى آقتبسناها من مقدّمة نشوار المحاضرة تصل بنا الى النتائج الآتيـة :

الأولى — يظهر أن المؤلف كان قوى الحس ، دقيق الملاحظة ، فكان لذلك يتعقب الأدباء والشعراء والوزراء ، ومن عدا هؤلاء من مختلف الطبقات ، ويعى كل مايسمع ، ويقيد كل ما يقع له من الأخبار والأشعار والمحاورات والمحادثات ، حتى آستطاع أن يكون نسيج وحده فى هذا النوع من التأليف .

الثانيـة — يظهر أن المؤلف كان خصبا فى لغته وإنشائه الى حدّ بعيـد ، والذى يقرأ مقدمته كاملة يرى كيف كانت مفردات اللغـة ومترادفاتها تنثال عليه آنثيالا ، وإنه ليـذكّر بالجاحظ فى هذا الباب ، ولا يؤخذ عليه إلا شىء يسير من الالتواء حين يباعد مثلا بين الفاعل والمفعول بطائفة من القرائن المتعاطفة المتواصلة بحيث يضطر القارئ الى تأمل ما تقدّم من التراكيب ليظهر له الربط بين أجزاء الجملة التى قد لا تتم أحيانا إلا بعد عدّة سطور ، وربما غلب عليه الإسفاف فى بعض التعابير حين يتعمد السجع ، كقوله فى الكلمة التى آقتبسناها آنفا :
"والاشتغال من العامة بالمعاش قاطع ، ومن الرؤساء بلذاتهم البهيمية قانع" .

الثالثـة — لم يكن التنوخى من المؤلفين الذين يفردون المتقدّمين بالإجادة والإبداع ، ويظنون أنه لا جديد تحت الشمس ، وأن المتقدّم لم يترك شيئا للتأخر ، ولكنه يقرّر أن فى معاصريه من فاقوا الأوّلين ، ويقول : "فقد خرج فى أعمارنا وما قاربها من السنين من مكنون أسرار العلم ، وظهر من دقيق الخواطر والفهم ، ما لعله كان معتاصا على الماضين ، وممتنعا على كثير من المتقدّمين" (١) .

---

(١) ص ٨

الرابعة — لم يكن المؤلف راضياً عن الحكام والأمراء من أهل زمانه فهو يراهم من المتضنين فى طباعهم ومذاهبهم ، ويحكم على أهل عصره بالفساد ، ويرى طباع أهله متغيرة ، ورغبتهم فى العلا معدومة ، وهممهم مفقودة ، ويقول :

"فنحن حاصلون فيما روى من الخبر أنه لا يزداد الزمن إلا صعوبة ، ولا الناس إلا شدة ، ولا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق . وما أحسن ما أنشدنى أبو الطيب المتنبى لنفسه من قصيدة فى وصف صورتنا :

أتى الزمانَ بنوه فى شبيبته فسرّهم وأتيناه على الهرمِ[1]"

ويقول فى مكان آخر من المقدمة :

"وهذه احدى ما انطمست محاسن فى هذه الدول ، ووردت أخبار هؤلاء الملوك ، وخلت التواريخ من عجائب ما يجرى فى هذا الوقت : لأن ذوى الفضل لا يعنون أعمارهم بتشييد مفاخر غيرهم وبشق نتائج خواطرهم ، مع بعدهم من الفائدة ، وخلوهم عن العائدة ، وأكثر الملوك وذوى الأحوال والرؤساء وأرباب الأموال ، لا يجودون عليهم فيجيد هؤلاء لهم نسج الأشعار والخطب ، وحوك الرسائل والكتب ، التى تبقى فيها المآثر ما بقى الدهر الغابر ، فقد بخل هؤلاء ، وثقل هؤلاء ، ورضى كل واحد من الفريقين بالتقصير فيما يجده ، والنقص فيما يعتمده[2]" .

٦ — ويتضح من هذا أن المؤلف كان ينتظر من أمراء عصره أن يمدوه بالمال ويعينوه على التأليف .

وبهذه المناسبة نذكر أن اعتماد شعراء اللغة العربية وأدبائها على رعاية الملوك والأمراء والوزراء لم يكن من البدع الشاذة التى انفرد بها العرب فى العصور القديمة ، بل كان سُنّة شائعة فى الشرق والغرب . ويكفى أن يذكر المرء مثلا بلاط فرانسوا الأول أو لويس الرابع عشر أو فريدريك الثانى ليعرف أن شعراء أوروبا وأدباءها كانوا يعيشون فى رعاية ملوكهم ، .

---

(١) ص ٧ (٢) ص ٨

ويعتمدون على معونات وزرائهم . وقد آنقطعت هذه العادة أو كادت من الشرق والغرب، وآنقبض الملوك والأمراء والوزراء عن تشجيع الكتّاب والشعراء والمؤلفين . ولست أنسب انقطاع هـذه العادة الى تغير الطباع وفساد الزمان، كما فعل التنوخى ، فان عصرنا غير عصره، وإنما أنسبها الى أن الشعراء والكتّاب والمؤلفين قد أخذت خلائقهم تستقيم ،وشرعوا يفهمون أن الأدب أعلى وأرفع من أن يكون صاحبه ملحقا بحواشى الملوك والأمراء . يضاف الى ذلك أن هذا العصر عصر الشعوب لا عصر الملوك . وللأديب المتفوق،والشاعر المبدع،والكاتب البليغ ، ميادين أخرى للشعر والإنشـاء والتأليف هى أجدى وأنفع وأقرب الى الثروة والغـنى والجاه من تلك الصلات الوضيعة التى كانت تخفض رءوس أصحابها أمام سدّات الملوك .

* * *

٧ — أشرنا من قبل الى أن ياقوت ذكر أن التنوخى آبتدأ تأليف نشوار المحاضرة سنة ٣٦ وبينا كيف غاب عن المستر مارجو ليوث أن يمحو هـذا الخطأ المبين، ونعود فنذكر أن المستر مارجوليوث حين غفل عن خطأ ياقوت أخذ يؤيده ويبنى عليـه أن المؤلف ذكر خبرا سمعه سنة ٣٤٩ ثم أكثر من حوادث سنة ٣٦٠ ثم ذكر حادثا حدث سنة ٣٦١

وهذا كله خطأ من حيث الوضع : فان ورود حوادث وقعت بعد سـنة ٣٦ فى صلب الكتاب لا يدل على أنه ألف فى ذلك الحين . والحقيقة أن المؤلف شرع فى وضع كتابه بعـد التاريخ الذى ذكره ياقوت وحاول تأييـده مارجو ليوث بنحو خمس وعشرين سـنة، ولننظر ماذا يقول المؤلف نفسه :

”وآتفق أيضا أننى حضرت المجالس بمدينة السلام فى سـنة ستين وثلثمائة بعد غيبتى عنها سـنين فوجدتها مُحيلة ممن كانت به عامرة ، وبمذاكرته آهلةً ناضرة ، ولقيت بقايا من نظراء أولئك الأشياخ، وجرت المذاكرة فوجدت ما كان فى حفظى من تلك المخاطبات قديما قد قلّ، وما جرى من الأفواه فى معناها قد آختل، حتى صار من يحكى كثيرا مما سمعناه يخلطه بما يحيله ويفسده، ورأيت كل حكاية مما أُنسيته لو كان باقيا فى حفظى لصلح لفن من المذاكرة، ونوع

من نشوار المحاضرة، فأثبتُّ ما بقى علىّ مما كنت أحفظه قديما، واعتقدت إثبات كل ما أسمعه من هذا الجنس، وتلميعه بما يحث على قراءته من شعر لمتأخر من المحدَثين، أو مجيد من الكتّاب والمتادبين، أو كلام منثور لرجل من أهل العصر، أو رسالة ، أو كتاب بديع المعنى أو حسن النظم والنثر، ممن لم يكن فى الأيدى شعره ولا نثره، ولا تكرر نسخ ديوانه، ولا تردّدت معانى إحسانه ، وما فيه من مثل طرىّ أو حكمة جديدة ، أو نادرة حديثة، أو فائدة قريبة المولد، ليعلم أن الزمان قد بقّى من القرائح والألباب، فى ضروب العلوم والآداب، أكثر مما كان قديما أو مثله ، ولكن تقبُّل أرباب تلك الدول للأدب أظهره ونشره، وزُهدُ هؤلاء الأئمة فى هذا الأدب غمره وستره" .

فهذه الفقرة واضحة الدلالة على أن المؤلف لم يشرع فى جمع مواد كتابه إلا بعد سنة ٣٦٠ وإيراده لبعض حوادث سنة ٣٤٩ لايدل على أنه ألفه قبل ذلك كما فصّل مارجوليوث تأييدا لكلام ياقوت[(١)] .

٨ — أما طريقة التنوخى فى التأليف فتتضح من قوله :

" وأوردت ما كتبته مما كان فى حفظى سالفا ، مختلطا بما سمعته آنفا ، من غير أن أجعله أبوابا مبوبة ، ولا أصنفه أنواعا مرتبة ، لأن فيها أخبارا تصلح أن يذاكَر بكلٍ واحد منها فى عدة أماكن، وأكثرها مما لو شغلت نفسى فيه بالنظم والتأليف، والترتيب والتصنيف، لبرد واستثقل ، وكان اذا وقف قارئه على خبر من أوّل كل باب فيه، علم أن مثله باقيه، فقلّ لقراءة جميعه ارتياحه ونشاطه، وضاق فيه توسطه وانبساطه، ولكان ذلك أيضا يفسد بما فى أثنائه من الفضول، والأشعار والرسائل والأمثال والفصول ... بل لعل كثيرا مما فيها لا نظير له ولا شكل ، وهو وحده جنس وأصل ، واختلاطها أطيب فى الآذان وأدخل، وأخفَ على القلوب من الأذان وأوصل[(٢)]" .

(١) الواقع أن ياقوت لم يخطئ حتى يتابعه مارجوليوث على الخطأ ، فقد جاء فى ياقوت أن التنوخى ابتدأ نشوار المحاضرة سنة « ٣٦٠ » فكتبها مارجوليوث «٣٦٠» وانبنى على ذلك توهمه أن التنوخى ابتدأ كتابه سنة « ٣٣٦ » .

(٢) ص ٢٩ و ١٠

ولعل القارئ يتنبه هنا أيضا الى صنعة هذا الكاتب فى إنشائه فهى تمضى به أحيانا الى التهافت والإسفاف . لا سيما اذا لاحظ قوله : "واختلاطها أطيب فى الآذان وأدخل، وأخف على القلوب من الأذان وأوصل" فقد أراد أن يجانس ويوازن بين الآذان والأذان فمضى به ذلك الى الغموض، فضلا عن أنه ليس من المقبول أن يقال : "أخف من الأذان" إذ ليس من سلامة الذوق أن يدّعى المرء أن كلامه أخف على القلوب من كلمة "الله أكبر، الله أكبر" وهى هى الكلمة الباقيـة على الزمان . وتلك هفوة تذكّر بهفوة المتنبي إذ قال :

يترشفن من فمى قطراتٍ هن فيه أحلى من التوحيدِ

والمؤلف ، فى الجملة ، يسلك مسلك الاستطراد فينتقل بالقارئ من قصة الى قصة ، ومن حديث الى حديث ، بلا ترتيب ولا تبويب . وقد صنع هذا الصنيع غير واحد ممن تقدّموه وعاصروه وخلفوه ، وهو منهج له قيمته فى تشويق القارئ ونقله من حال الى حال ، بين الجد والهزل، والحلو والمر ، والقديم والطريف .

٩ — والمؤلف مع ذلك يحدّثنا أنه أراد أن يقـدّم لقرائه "من آداب النفس، ولطافة الذهن والحس، ما يغنيه عن مباشرة الأحوال، وتلقن مثله من أفواه الرجال، ويحنكه فى العلم بالمعاش والمعاد، والمعرفة بعواقب الصلاح والفساد، وما يفضى اليه أواخر الأمور، ويساس به كافة الجمهور، ويجتنبه من المكاره حتى لا يتوغل فى أمثالها ، ولا يتورط بنظائرها وأشكالها، ولا يحتاج معها الى إنفاق عمره فى التجارب، وانتظار ما تكشفه له السنون من العواقب"[1] .

فهو إذن مقتنع باستفادة القارئ من تجارب من سبقوه ، ونحن نوافقـه على ذلك مع تحفظ ، إذ كنا نعتقد أن المرء لا يتمهم جيدا مرامى الحوادث الماضية إلا اذا اتصلت بحوادثه الحاضرة ، ونرى أن الرجل الخالى الذهن من المشاكل العقلية والخلقيـة والوجدانية والاجتماعية يقرأ ما يقع له من تجارب الأولين بذهن خامد، وعقل مشكول، ولب معقول . أما الرجل الذى اصطدم بحوادث دهره ، ومشاكل عصره ، فانه يقرأ أحاديث من سبقوه

(١) ص ٩

بعقل يقظ ، وفكر متنبه ، وقلب حساس ، إذ يرى من يواجهه بحقيقة نفسه ، ويحدّثه عن قلبه ، ويراجع معه مشاكل وجدانه ، ومصاعب إحساسه ، ومن هنا نشأ ما نراه من آختلاف التقدير للأثر الفنىّ الواحد : فكم قصيدة وكم رسالة وكم قصة يبكى لها هذا ويسخر منها ذاك ، والغرض هو هو لم يتغير لا فى وضعه ولا فى مرماه ، وإنما تختلف النفوس والقلوب والعقول بحسب ما تمر به من مختلف الأحداث وشتى الظروف : فهنا قلبٌ هادئ وهناك قلبٌ متردد وهنالك قلبٌ مضطرب . ودليل ذلك أيضا أنك قد تقرأ الرسالة أو القصيدة أو القصة فلا تحرك نفسك ولا تهيج وجدانك ، ثم تعود الى ما قرأته مرة ثانية فى أحوال مخالفة ، وظروف مغايرة ، فترى ذلك الأثر الفنى الذى لم يرعك فى اللحظة الأولى قد راعك وبهرك وشغلك بنفسك وقلبك حين عدت اليه للمرة الثانية . ودليل آخر هو صلاحية النفس فى الشباب لآثار فنية وأدبية لا توافقها فى حال الكهولة ، فللشباب آداب ، وللكهولة آداب ، ومن الخطأ أن يظن أن قيمة الأثر الفنى تقدر بصلاحيته لجميع النفوس ، وقدرته على التأثير فى جميع القراء من شباب وكهول ، ورجال ونساء . ولا يقدِّرُ حقيقة ما نقوله إلا من خبر نفسه ، ودرس مشاكل عقله ووجدانه وقلبه ، وتأمل كيف يكون سكون النفس وآضطرابها ، وكيف يكون شغل القلب وفراغه ، وعرف أن الغرائز الانسانية أهول وأخطر وأفزع من أن يوضع لها مقياس ضابط لما تصلح له على آختلاف النوازع وفى جميع الأجيال .

* * *

١٠ — أشرنا من قبل الى أسلوب التنوخى وصنعته فى الإنشاء ، ونحب أن نعود اليه بشىء من التفصيل .

يعدُّ التنوخى من كبار الكتّاب فى زمانه ، وقد آستجابت له اللغة وطاوعه البيان ، وحسبُ القارئ أن يعرف أنه آنفرد من بين المؤلفين بصياغة كل ما آشتمل عليه كتابه من مختلف الأقاصيص والأسمار والفكاهات . وتلك قدرة عظيمة أن يقصد الكاتب الى كل ما سمعه فيدوّنه فى عبارات فصيحة محبوكة الأطراف ، لا قلق فيها ولا آضطراب . على أنه قد أعطانا نماذج من نثره المصنوع الذى عملت فيه الروية ، وصاغه التدبر ، وأملاه الفن على قلمه البليغ ،

وفى تلك النماذج القليلة تظهر صنعة التنوخى جيدة باهرة ، تشهد له بالحذق وطول الباع ، والى القارئ كتابه الى بعض الرؤساء :

" لا أحوجك الله الى اقتضاء ثمن معروف أسديته ، ولا جعل يدك السفلى لمن كانت عليه هى العليا ، وأعاذك من عز مفقود ، وعيش مجهود ، وأحياك ما كانت الحياة أجمل بك ، وتوفاك اذا كانت الوفاة أصلح لك ، بعد عمر مديد ، وسمو بعيد ، وختم بالحسنى عملك ، وبلّغك فى الأولى أملك ، وسدّد فيها مضطرَبك ، وأحسن فى الأخرى منقلَبك ، إنه سميع مجيب ، جواد قريب[1] " .

وفى ظنى أن هذا الكتاب أغنى مايكون عن الشرح والتعليق ، وللقارىء أن يتأمل قوله : " لا أحوجك الله الى اقتضاء ثمن معروف أسديته " فان هذه الجملة تدلنا على فهم الكاتب لنفوس الكرام ، فانه ليس أصعب ولا أعسر من أن يضطر الكريم الى اقتضاء ثمن المعروف ، لأنه لا ينتظر ثمن المعروف إلا لئام الناس . وانظر بعد ذلك تعرضه فى حكمة ورفق الى الحياة والموت . فانه لم يطلب لرئيسه ما طلب أبو نواس للأمين إذ قال :

يا أمين الله عش أبدا	دم على الأيام والزمن
أنت تبقى والفناء لنا	فاذا أفنيتنا فكن

فتلك أمنية سخيفة أن يدعو الناس بعضهم لبعض بالبقاء والخلود فى دنيا لا بقاء فيها ولا خلود .

واذا مضينا نتعرف الى التعابير الجميلة فى كتاب التنوخى وجدناها كثيرة ، فأى جمال فاته فى قوله :

" ونعوذ بالله من الإدبار ، وتغير النعم ، و إيحاشها بقلة الشكر[1] " .

وللقارئ أن يتأمل كيف تستوحش النعم بقلة الشكر ، فانه تصوير جميل ، آنس الله نعمنا بما يلهمنا من واجب الشكران .

---

(١) ص ٩٧

وآنظر قوله على لسان رجل يخاطب رئيسا آنتهره على البكور اليه :

" ما العجب منك . العجب منى حين ربطت أملى بك ، وأسهرت عينى توقعا للفجر فى البكور اليك ، وأسهرت عيالى وغلمانى ، وتحملت التجشم اليك ، وأنزلت بك حاجتى ، حتى تتلقانى بمثل هذا[1] " .

وعند التنوخى ألفاظ متخيرة قل آستعمالها اليوم ، مع أنها دقيقة الدلالة على معانيها ، من ذلك قوله على لسان ابن الجصاص :

" قمت البارحة فى الظلمة الى الخلاء فما زلت أتلحظ المقعدة حتى وقعت عليها[2] ! "

فان كلمة " أتلحظ " أدق من كلمة " أتلمس " التى كثر آستعمالها اليوم .

وقوله على لسان بعض الخلفاء فى العزم على إنقاذ رجل طالت عطلته ، وخمل ذكره :

" إذا أقبلنا عليه وندبناه لهذا الأمر العظيم تجدد ذكره ، وتطرى أمره[3] " .

فان كلمة " تطرى " تعطى صورة جديدة ، فكأن الجاه الخامل ، يماثل العود الذابل ، وكأن إقبال الدنيا يصنع بالرجل المحدود ، ما يصنع الماء بالعود .

وعند التنوخى مرونة فى التعبير وذلك أهم ما يتحلى به صائغ الكلام . وآنظر قوله :

" فباكرت اسماعيل لحين رآنى قال : هذا وجه غير الوجه الأمسى[4] " .

يريد : هذا وجه غير وجه الأمس ، والنسبة الى الأمس قليلة فى الكلام ، مع أنها أدل على معناها من الإضافة وأصرح فى الأداء .

وآنظر قوله على لسان صديق ينصح صديقه وقد عرض عليه الوالى أن يتقلد القضاء فرفض :

" اتق الله فى نفسك ! ... إنك تعود الى بلدك فيقول أعداؤك : طلب القضاء فلما شوهد وجد لا يصلح فرد[5] " .

---

(١) ص ٢١٤ (٢) ص ١٨ (٣) ص ٢١٣ (٤) ص ١٢٦ (٥) ص ١٢٦

فقد جمعت الجملة الأخيرة صورا عديدة من أدق ما يكون من الإيجاز، والايجاز لا يقع مثل هذا الموقع إلا من كاتب مَرِن يعرف كيف يقود القلم ويسوس الكلام .

ومن مظاهر المرونة قوله :

" فلما رآنى أبوجعفر أكبر ذلك وتهلل وجهه وقال : الى عندى ياسيدى الى عندى[1]" .

ومعروف أن « عند » تنصب على الظرفية ولا تجر إلا بمن . نحو : من عند الله ، بجرها بالى سيرٌ الى الحرية فى التعبير .

١١ — فاذا خلّينا مرونته وتصرفه فى الكلام جانبا ومضينا نستقصى ما أثبته من التعابير العامية وقع لدينا من ذلك شىء كثير . ويجدر بنا فى هذا المقام أن نؤكد ما قلناه فى دراسة أسلوب أحمد بن يوسف المصرى : ونحن نرى أن إدخال بعض التعابير العامية الدقيقة فى اللغة الفصيحة يزيدها ثروة ، والناس لا يلجأون الى العامية إلا حين يرونها أقرب الى تصوير أغراضهم فى بعض الأحيان . والعامية هى عنصر من اللغة الفصيحة دخل فى حكم المبتذَل بكثرة الاستعمال ، والكاتب المجيد يستطيع أن يلقى عليها مسحة من الطرافة والجدّة بحيث يراجعها رونقها القديم . وسنرى فى هذه الدراسة أصول التعابير الجارية على ألسنة الناس ، فان أكثرها كان فصيحا ، فلما كثر تداوُله أضيف ظلما الى لغة العوام وتحاماه كبار الكتّاب .

(ا) من ذلك كلمة «الصورة» بمعنى الحالة ، نجدها على ألسنة التجار والفلاحين فنعدّها عامية ، ولكنها فى كلام التنوخى كانت فصيحة ، وانظر قوله :

" فدخلنا اليها فحين رأته أكرمته ، وبشت به ، وسألته عن خبره فصدقها عن الصورة[2]" .

(ب) والعامة يقولون : «فاتشه» اذا اختبره ليعرف ماعنده من سر أو كفاية ، ويقولون « كسّبه » بتشديد السين اذا فتح له باب الكسب ، وقد وقعت هاتان اللفظتان فى قول التنوخى :

" فلزمه وفاتشه فوجده كاتبا فاستخدمه وكسّبه مالا عظيما[3]" .

---

(١) ص ٢٧١ (٢) ص ١٩١ (٣) ص ٣٥

(ج) ونحن نتهيب أن نكتب « شال المائدة » بمعنى رفعها ؛ لأن القاموس لا ينص إلا على شال به إذا رفعه، والعامة يقولون بدون تحرج «شالوا الطعام» بمعنى رفعوه . فلننظر كيف وقع هذا التعبير منذ عشرة قرون فى قول التنوخى :

" ما تسمح نفسى بطريق التشعيب على هذا الحب، شيلوه [1] " .

وقوله :

" وقام أبو جعفر، وقمنا، وشيلت المائدة [2] " .

وقوله : " فشالنى الجيران الى منزلى [3] " .

(د) والعامة يقولون : " اخرج برا " أى الى الخارج، وقد ورد هذا التعبير فى قول التنوخى :

" فاخرج الى برا حتى أصعد أكلمك من فوق [4] " .

(هـ) وفى الأقاليم المصرية تكثر كلمة "روزنة" وهى الفتحة فى السقف أو فى الحائط، وأكثر الكتاب يتحامون هذه اللفظة ظنا منهم أنها عامية مع أنها موجودة فى كلام التنوخى إذ يقول :

" فخرج وجلس ينتظر أن تخاطبه من روزنة فى الدار الى الشارع [5] " .

(و) وكلمة " بطال " كثيرة الوقوع فى لغة التخاطب، ولكن قلما يستعملها الكتاب . وكانت قديما مستعملة فى اللغة الفصيحة ، وحكاها التنوخى فقال على لسان أحمد بن محمد المدائنى يحاور بعض الصوفية :

" أخبرنى اذا كنت شيخا فى معناك، حلسا فى ذات نفسك ، فأصاب يافوخك تقطيع يعرقب خرزك على سبيل العلم، وكنت تحت الارادة، هل يضر أوصافك شىء من تعطفك بحبل القدرة، يا بطال ! [6] " .

(١) ص ١٤١ (٢) ص ٢٣٢ (٣) ص ١٥٢ (٤) ص ٩١
(٥) ص ٩١ (٦) ص ٥٤

(ز) والعامة يستعملون كلمة "أذية" بمعنى إيذاء، وقد وقعت فى كلام التنوخى إذ قال :
" فأردت أذية ابن الحارث "[(١)] .

(ح) وكلمة "صبية" بمعنى فتاة كانت مستعملة فى اللغة الفصيحة، وقد هجرت اليوم ، وقد جاء فى كلام التنوخى على لسان عريب :
"رو هاتين الصبيتين الشعر"[(٢)] .

(ط) وعوام مصر يقولون " جرف الأموال " بمعنى انتهبها ، وهى كذلك فى نشوار المحاضرة[(٣)] فى قصة وقعت فى مصر .

(ى) والعوام يستخفون حذف نون الرفع فى " يفعلون " و" تفعلين " والتنوخى يجرى ذلك فى اللغة الفصيحة فيقول :
" فبعثت فى جمعها والرسل تكدنى بالاستعجال، والقهارمة يستبطئونى "[(٤)] .

(ك) وكلمة "ست" بمعنى سيدة، كانت مستعملة فى اللغة الفصيحة، وكان ظنى أنها لم تستعمل إلا فى مصر، حيث يقدر أنها كلمة مصرية قديمة ، ولكنى رأيتها قد استعملت كذلك فى بغداد، واليك الشواهد الآتية :
"فقلت لها يا ستى إنى قد عملت أبياتا أشتهى أن تصنعى فيها لحنا"[(٥)] .
" كنت مملوكا روميا فمات مولاى فعتقنى فحصلت لنفسى رزقا برسم الرجالة وتزوجت بستى زوجة مولاى، وقد علم الله أنى لا أتزوجها إلا لصيانتها، لا لغير ذلك "[(٦)] .
"فقال لها يوما : بالله يا ستى غنى"[(٧)] .

والمسيو مرسيه يرجح أن كلمة "ستى" مخففة عن "سيدتى" لا أنها منقولة عن "ست" المصرية بدليل استعمالها فى بغداد ، ولست أرى ما يمنع أن تكون انتقلت الى بغداد عن طريق المصريين .

---

(١) ص ١٣٩ (٢) ص ١٣٢ (٣) انظر ص ٢٦٢ (٤) ص ١٤٣
(٥) ص ١٣٢ (٦) ص ٢٤٦ (٧) ص ٥٥

(ل) والعوام يقولون : " ما علينا من فلان " وهى فى الأصل عبارة فصيحة، وانظر قول التنوخى :

"فدخل عليه غلمانه فقالوا : يا سيدنا ! الوزير مجتاز فى شارعنا . فقال : ما علينا منه !"[1].

(م) والعامة يقولون أحيانا : " هاتم " فى مكان " هاتوا " وقد وقعت فى كلام التنوخى على لسان المعتضد :

"هاتم أعمدة الخيم الكبار الثقال"[2] — "هاتم فلانا الطبيب"[3] .

وفى موطن آخر : "هاتم فلانا الكاتب"[4] .

وما نريد أن نسرف فى الاستقصاء، وفيما أسلفناه ما يكفى للإبانة عن مرونة التنوخى وقدرته على التصرف فى فنون الكلام ، وفى هذه الشواهد مقنع لمن يريد أن يعرف كيف تطورت التعابير، وكيف امتزج العامى بالفصيح .

* * *

١٢ — بقى علينا أن نشير الى بعض ما اشتمل عليه نشوار المحاضرة من طرائف الأخبار، وهو كما قدمنا يرجع الى عدة ألوان، منها الحلو والمر، والجد والهزل. فمن خير ما فيه من الجد ما كتب المؤلف خاصا بالحسن بن على بن زيد المنجم اذ قال بعد كلام :

"فكنت اذا جئته — وهو إذ ذاك على غاية الجلالة وأنا فى حد الأحداث — اختصنى، وكان يعجبه أن يقرظ فى وجهه، فأفاض قوم فى مدحه، وذكر عمارته للوقوف والسقايات، وإدارة الماء فى دنابة المسرقان[5] وتفريقه مال الصدقات على أهلها ، وذنبت[6] معهم فى ذلك فقال لى هو : يا بنى ! أرباب هذه الدولة اذا حدثوا عنى بهذا وشبهه قالوا : المنجم انما يفعل هذا رياء، وما أفعله إلا لله تعالى، وان كان رياء فهو حسن أيضا، فلم لا يراوءن بمثل هذا الرياء ؟ ولكن الطباع خست حتى الحسد أيضا، كان الناس قديما اذا حسدوا رجلا

(١) ص ٢١٤ (٢) ص ٧٤ (٣) ص ١٤١ (٤) ص ٤٥ (٥) المسرقان : نهر بخوزستان، والدنابة بالضم وتكسر طرف الوادى . (٦) على الصواب : ذهبت معهم فى ذلك .

على يساره حرصوا على كسب المال حتى يصيروا مثله ، واذا حسدوه على علمه تعلموا حتى يضاهوه، واذا حسدوه على جوده بذلوا حتى قيل[1] إنهم أكرم منه... فالآن لما ضعفت الطباع، وصغرت النفوس ، وعجزوا عن أن يجعلوا أنفسهم مثل من حسدوه فى المعنى الذى حسدوه عليه ، عدلوا الى تنقص المبرز، فان كان فقيرا سعوا[2] على فقره، وان كان عالما خطَّئوه، وان كان جوادا قالوا هذا متاجر بجوده وبخّلوه، واذا كان فعّالا للخير قالوا هذا مراء[3]" .

ففى هذه الفقرات تحليل دقيق لطبائع الناس، ونرى المنجم مع حبه لحسن السمعة وبُعد الصيت يذكر أنه يعمل ما يعمل ٱبتغاء مرضاة الله . والواقع أن الموفَّقين لعمل الخير قلما يسلمون من حب المدح والثناء ، والطبيعة البشرية أضعف من أن تقبل على الخير المطلق ، فكل محسن يحب أن يذكر إحسانه بالجميل، مهما أخلص لله، وعلى الجماهير أن تفهم ذلك، وأن لا تضن على المحسنين بمظاهر التبجيل، فانه لا شىء أقتل لنوازع الخير فى نفوس الكرماء من نكران الصنيع، وقد أفصح عن هذا يحيى بن طالب إذ قال :

يزهِّدنى فى كل خير صنعتهُ ... الى الناس ما جربت من قلة الشكرِ

ونرى المنجم بعد ذلك يعود الى نقد طباع الناس فيذكر أنها خست وضعفت ، وأن رذائلهم كان فيها قديما شىء من النفع ، حين كان الحسد يحملهم على مباراة من يحسدون فى ميادين العلم والسخاء والمال. فقد كان الحسد من البواعث على الجد والتحصيل، ثم خبت ناره، وصار علالة يتلهى بها ضعفاء العزائم وصغار النفوس .

١٣ — ومن طرائف الأقاصيص الجدّية مانقله مرويا عن وهب بن منبه أنه كان فى عهد بنى إسرائيل خمار يسافر بخمر له ، ومعه قرد، وكان يمزج الخمر بالماء نصفين ، ويبيعه بسعر الخمر، والقرد يشير اليه أن لا تفعل ، فيضربه، فلما فرغ من بيع الخمر وأراد الرجوع الى بلده ركب البحر وقرده معه، ونُخرُج فيه ثيابه والكيس الذى جمعه من ثمن الخمر، فلما سار فى البحر

(١) حتى قيل : كذا فى الأصل وظاهر أن السياق يستوجب « حتى يقال » .

(٢) عابها شنعوا . (٣) ص ١٣ و ١٤

استخرج القـرد الكيس من موضعه ، ورقى الدقل وهو معه حتى صار فى أعلاه ، ورمى الى المركب بدرهم والى البحر بدرهم ، فلم يزل ذلك دأبه حتى قسم الدراهم نصفين ، فما كان بحصة الخمـر رمى به الى المركب بجمعه صاحبـه ، وما كان بحصة المـاء رمى به الى البحر فهلك ، ثم نزل عن الدقل (١) .

ونشير أولا الى أن هذه الأقصوصة تخرج عن شرط نشوار المحاضرة ، وإن لم يشر المؤلف الى ذلك ، فان من المؤكد أن أخبار وهب بن منبه وأكثر الاسرائيليات كانت دونت قبـل القرن الرابع .

ومغزى هـذه الأقصوصة واضح : فان واضـعها يريد أن يقرر فى الأذهان أن فكرة الخير والشر والحرام والحلال لا تخفى على أحد ، وأنها مفهومة عند القرود ، فى وقت لم يكن فيـه من يرى أن القرد أصل الانسان ، أو هو إنسان فاته الترقى والنهوض ، والأقصوصة ظريفة فى وضعها وفى الخيـال الذى صبّت فيه ، ولا سيما اذا لا حظنا ان عند القرد جوانب مضيئة فى ذهنه ، وأن له من الشمائل الانسانيـة نصيبا غير قليل ، وفى الأقصوصـة تسجيل لطرائق اليهود فى جمع المـال عن طريق المكسب الخبيث ، وكذلك يفعلون .

١٤ — ومن الأخبار الدالة على قوة النفس أن أخا بابك الخرمى المـازيار قال له لمـا أُدخلا على المعتصم . يا بابك ! انك قـد عملت ما لم يعمله أحد ، فاصبر الآن صبرا لم يصبره أحد . فقال له : سترى صبرى ! فلما صارا بحضرة المعتصم أمر بقطع أيديهما وأرجلهما بحضرته ، فبدىء ببابك فقطعت يمناه ، فلما جرى دمه مسـح به وجهه كله حتى لم يبق من حلية وجهه وصورة سحنته شيء ، فقـال المتعصم : سـلوه لم فعل هذا ؟ فسئل فقـال : قولوا للخليفة : إنك أمرت بقطع أربعتى وفى نفسـك قتلى ، ولا شك أنك لا تكويها وتدع دمى ينزف الى أن تضرب عنق ، فخشيت أن يخرج الدم منى فتبيق فى وجهى صفرة يقـدّر لأجلها من حضر

---

(١) ص ١٠٠

أنى قد فزعت من الموت، وأنها لذلك لا من خروج الدم،فغطيت وجهى بما مسحته عليه من الدم حتى لا تبين الصفرة .

فقال المعتصم : لولا أن أفعاله لا توجب العفو عنه لكان خقيقا بالاستبقاء لهذا الفضل وأمر بامضاء أمره فيه : فقطعت أربعته ثم ضربت عنقه، وجعل الجميع على بطنه وصب عليه النِّفط وضرب بالنار، وفعل مثل ذلك بأخيه فما كان فيهما من صاح أو تأوه[1] .

وأمثال هذه الأخبار تفسر لنا السر فى عنف الثورات التى كانت تهدد الحكومات الاسلامية، فقد كانت هناك مطامع ، وكانت هناك عزائم أقسى من الصخر وأمضى من السيوف،وفى أخبار تلك النفوس الطاغية ما يفسر لنا أيضا كيف كانت الحكومات الاسلامية تعتمد دائما على قادة من الطغاة المستبدين ، فانه لا يفلُّ الحديد إلا الحديد ، ولكل عراقٍ حجاج !

١٥ — وفى نشوار المحاضرة أخبار كثيرة عن أريحية الوزراء وسخائهم، من ذلك ما نقل المؤلف عن أبيه أنه سمع القاضى أبا عمر يقول :

عرض إسماعيل القاضى وأنا معه على عبيد الله بن سليمان رقاعا فى حوائج الناس فوقّع فيها، فعرض أخرى وخشى أن يكون قد ثقل عليه فقال له : إن جاز أن يتطوّل الوزير أعزه الله بهذا . فوقَّع له . فعرض أخرى وقال : إن أمكن الوزير أن يجيب إلى هذا . فوقّع له . فعرض أخرى وقال : إن سهل على الوزير أن يفعل ذلك . فوقع له . فعرض أخرى وقال شيئا من هذا الجنس ، فقال له عبيد الله : يا أبا إسحاق ! كم تقول إن أمكن وإن جاز وان سهل؟ من قال لك إنه يجلس هذا المجلس ثم يتعذر عليه فعلُ شيء على وجه الأرض من من الأمور فقد كذبك، هات رقاعك كلها فى موضع واحد . قال : فأخرجها اسماعيل من كمه وطرحها بحضرته فوقع فيها . وكانت مع ما وقع فيه قبل الكلام نحو ثمانين رقعة[2] .

---

(١) ص ٧٥ (٢) ص ٤٦

وفى مثل هـذا الخبر إن صحت تفاصيله ما يبين كيف تضعضعت الحكومات الاسلامية وتداعت فى زمن قليل ، فقد كان الوزراء مفتونين بالمجد الكاذب والحمد المصنوع .

ولا ننس أن أمثال هذه الرقاع التى كان يمضيها الوزراء بلا تردد كانت ترجع الى الاستجداء وكان الوزراء يعرفون أن أتباعهم يستفيدون من قضـاء حوائج الناس ، وفى نشوار المحاضرة نصوص تدل على أن الرشوة كانت شيئا مفهوما فى مكاتب الوزراء[1] .

١٦ — وشيوع الرشوة بين طبقات الحكام يفسر لنا غوامض التاريخ الإسلامى ، فقد أكثر المؤرخون القول فى نكبة البرامكة مثلا وردوها الى أصول أكثرها صحيح ، ولكن أكبر الأسباب فيما أفترض هو إقبال ذوى الحاجات على البرامكة ، وكان لذلك الإقبال ربح مستور يجهله بعض الناس و يعرفه الرشيد . ولهذا السبب عينـه نرى كيف كان الخلفاء يستصفون أموال عمالهم ووزرائهم حين يغضبون عليهم ، وكانت مصادرة أموال الحكام المغضوب عليهم لا تجـد من يتفزع لها من الجمهور الذى كان يعرف أنها جمعت من الحرام .

ونستطيع أن نفهم من هذا كيف كان فريق من ذوى الدين والمروءة ينفر من المناصب العمومية ، وخاصـة منصب القضاء . وأهل العصر الحـاضر لا يفهمون هذا حق الفهم : لأن رقابة الجمهور عن طريق الصحافة كبحت كثيرا من جشـع الحكام والوزراء ، وكشفت عورات كثير من المنافقين الذين يدعون نقاء الأيدى والسرائر ، والله بمـا يضمرون عليم !

١٧ — ومن طريف ما فى نشوار المحاضرة حديث القاضى أبى يوسف مع زوجته حين كان فقيرا ، فقد نقل أن أبا يوسف صحب أبا حنيفة لتعلم العلم على فقر شديد ، فكان ينقطع بملازمته عن طلب المعاش ، فيعـود الى منزل مختل ، وأمر قلّ ، فطال ذلك ، وكانت امرأته تحتال له ما يقتاته يوما بيوم ، فلما طال ذلك عليها خرج الى المجلس وأقام فيه يومه ، وعاد ليلا فطلب ما يأكل ، فجاءته بغضّارة مغطاة ، فكشفها فاذا فيها دفاتر ، فقال : ما هذا ؟ قالت : هـذا ما أنت مشغول به نهارك أجمع ، فكل منه ليلا ! فبكى وبات جائعا ، وتأخر من غد عن المجلس

(١) أنظر ص ٤٣ و ٤٥ و ٤٦

حتى آحتال ما أكلوه، فلما جاء الى أبي حنيفة سأله عن تأخره فصدقه، فقال : ألا عرفتنى فكنت أمدك ؟ ولا يجب أن تغتمّ، فإنه إن طال عمرك فستأكل بالفقه اللوزينج بالفستق المقشور. قال أبو يوسف : فلما خدمت الرشيد وآختصصت به قُدّمتْ بحضرته يوما جامة لوزينج بفستق، فحين أكلت منها بكيت وذكرت أبا حنيفة، فسألنى الرشيد عن سبب ذلك فأخبرته .

وهذا الحديث من أظرف ما يتأسى به طلبة العلم الذين يرجون أن يغنيهم الله بعد فقر، ويرفعهم بعد خمول .

وقد ذكر التنوخى السبب الذى آتصل به أبو يوسف بالرشيد[1]، فأرانا أن أبا يوسف كان يتلطف بعض الشيء فى فتاويه ليخرج أميره من بعض المحرجات. وهذا بالطبع جانب ضعيف من أبي يوسف ومن الرشيد، ولكن أين نحن من أولئك الناس! أولئك قوم كانوا يشعرون بمعانى الحلال والحرام، ويلتمسون لضمائرهم وسائل الهدوء فى ظلال التأويلات . أما أهل العصر الحاضر فقد آنصرفوا عن آستفتاء الفقهاء فيما يحزبهم من أزمات الضمائر والقلوب، وصار أكثر الناس لا يبالى ماحرمت الشرائع وما حللت من مختلف الشئون، وعاد الأمر كله الى القوانين الوضعية، بحيث لا خطر على الجانى إلا أن يؤخذ، ولا عاصم لصاحب الحق إلا أن يكون بيده عهد مكتوب !

١٨ — ويظهر من نشوار المحاضرة أن المتقدمين كانوا يستكثرون أن يكون للقضاة هوى وتشبيب، فقد جاء فيه أن أبا إسحاق الزجاج قال :

”كنا ليلة بحضرة القاسم بن عبيد الله وهو وزير فغنت جاريته بدعة :

أدلّ فأكرم به من مدلّ ومن ظالم لدمى مستحلّ

اذا ما تعزز قابلتُه بذل وذلك جهد المقلّ

---

(١) ص ١٢٤ و ١٢٥

فأدت فيه صنعة حسنة، فطرب القاسم عليه طربا شديدا، واستحسن الصنعة والشعر، وأفرط فى وصف الشعر، فقالت بدعة : يا مولاى ! إن لهذا الشعر خبرا أحسن منه . قال : ما هو ؟ قالت : هو لأبى حازم القاضى ! قال : فعجبنا من ذلك مع شدّة تقشف أبى حازم وورعه وتقبضه . فقال لى الوزير : بالله يا أبا إسحاق بكّر الى أبى حازم واسأله عن هذا الشعر وسببه ، فباكرته وجلست حتى خلا وجهه ولم يبق إلا رجل بزىّ القضاة عليه قلنسوة ، فقلت له : بيننا شىء أقوله على خلوة . فقال : قل، فليس هذا ممن أكتم ، فقصصت عليه الخبر، وسألته عن الشعر والسبب، فبتسم وقال : هذا شىء كان فى الحداثة قلته فى والدة هذا (وأومأ الى القاضى الجالس فاذا هو ابنه) وكنت اليها مائلا، وكانت لى مملوكة ولقلبى مالكة، فأما الآن فلا عهد لى بمثله منذ سنين ، ولا عملت شعرا منذ دهر طويل، وأنا أستغفر الله مما مضى . قال : فوجم الفتى وخجل حتى ارفضّ عرقا . وعدت الى القاسم فأخبرته فضحك من خجل الابن وقال : لو سلم من العشق أحد لكان أبو حازم[1] !

والفكرة فى ذاتها مقبولة، فان العشق والتشبيب من ألوان المرح التى قضى العرف باستهجان صدورها من القضاة . على أن عواطف الحب كانت تهتاج كثيرا من قضاة المسلمين ، وكتب الأدب مملوءة بأخبارهم فى هذا الباب . من أجل ذلك أرجح أن عجب ذلك الوزير وأصحابه من غزل أبى حازم لم يكن مصدره أنه قاض لا يصح أن يتغزل، وإنما كان لأن أبا حازم اشتهر بالتقى والتصون حتى صار من المستغرب أن ينسب اليه حب أو تشبيب . أما خجل الابن فمصدره فيما أظن أن أباه صرح بأن أمه كانت مملوكة له ، وأنه تزوجها طاعة للهوى .

١٩ — وفى نشوار المحاضرة أخبار تدل على أن الغناء لم يكن من العمل المقبول ، بحيث كان القيان يحتجن الى التوبة إن كتب الله لهن التوفيق . وفى ذلك يقول المؤلف :

" أخبرنى من أثق به أن ابراهيم بن المدبر قال : كنت أتعشق عريب دهرا طويلا ، وأنفق عليها مالا جليلا، فلما قصدنى الزمان، وتركت التصرف ولزمت البيت ، كانت هى

---

(١) ص ٥٠ و ٥١

أيضا قد أسنّت وتابت من الغناء وزمنت، فكنت جالسا يوما اذ جاء بوابى وقال : طيار عريب بالباب، وهى فيه تستأذن . فعجبت من ذلك وآرتاح قلبى اليها، فقمت حتى نزلت بالشط فاذا هى جالسة فى طيارها، فقلت : يا ستى! كيف كان هذا؟ قالت : اشتقت اليك، وطال العهد، فأحببت أن أجدده وأشرب عندك اليوم! قلت : فآصعدى . قالت : حتى تجىء محفتى، قال : فاذا بطيار لطيف قد جاء وفيه المحفة، فأجلستْ فيها وأصعدتها الخدم، وتحدّثنا ساعة، ثم قدم الطعام فأكلنا، وأحضر النبيذ فشربتُ وسقيتها فشربتْ، وأمرتْ جواريها بالغناء، وكان معها منهن عدّة محسنات طياب حدّاق، فتغنين أحسن غناء وأطيبه، فطربت وسررت، وقد كنت قبل ذلك بأيام عملت شعرا، وأنا مولع فى أكثر الأوقات بترديده وإنشاده، وهو :

إن كان ليلك نوما لا آنقضاء لهُ   فان جفنىَ لا تدْنى لتغميضِ
كأن جنبىَ فى الظلماء تقرضهُ   على الحشية أطراف المقاريض
أستودع الله من لا أستطيع لهُ   شكوى المحبة إلا بالمعاريض

فقلت لها : ياستى ! إنى قد عملت أبياتا أشتهى أن تصنعى فيها لحنا . فقالت : ياأبا إسحاق! مع التوبة ؟ قلت لها : فآحتالى فى ذلك " الى آخر الحديث[1] .

والواقع أن الغناء كان موضع خلاف عند علماء المسلمين، ولهم فى إباحته وتحريمه أقاويل نجد صداها عند الغزالى مثلا فى كتاب الإحياء . وكره الغناء والتحرز من مصاحبة المغنين والمغنيات قد تغلغل فى كثير من البيئات الإسلامية، وكان فى فقهاء الإسلام من يقول بتكسير آلات الموسيقا والطرب، وقد شرحت ذلك ونقدته فى كتاب (الأخلاق عند الغزالى) ويكفى أن أشير هنا الى أن ثورة الوهابيين على الموسيقا وآلاتها ليس إلا بعثا لما كان يراه كثير من فقهاء الأقدمين . فالفكرة قديمة، وإنما تتطور وتتحول من وضع الى وضع وفقا لتطور الظروف وتحول الأذواق .

(١) أنظر ص ١٣١ — ١٣٣

١٤ – حكاية أبى القاسم البغدادى

١ — مؤلف هذه الحكاية هو أبو المطهر الأزدى محمد بن أحمد ، وهو رجل يذكر قليلا جدا فى المجموعات الأدبية ، ولم نستطع الوصول الى معرفة أخباره فى كتب التراجم ، ولكن المسيو ميتس (Mez) هدانا فى المقدمة الألمانية التى صدّر بها طبعته لهذه الحكاية الى أن الأزدى كان يعيش فى صميم القرن الرابع .

والظاهر أنه ولد فى الربع الأخير من القرن الثالث فقد كان فى سنة ٣٠٦ من الفتيان الماجنين ، بدليل قوله : "ولعهدى بهذا الحديث سنة ست وثلثمائة ، وقد أحصيت أنا وجماعة بالكرخ أربعمائة وستين جارية ، فى الجانبين ، وعشر حرائر وخمسة وسبعين من الصبيان البدور يجمعون من الحسن والحذق والظرف ، ما يفوت حدود الوصف ، هذا سوى ما كنا لا نظفر بهم ولا نصل اليهم لعزتهم وحرسهم ورقبائهم ، وسوى من كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء والضرب إلا اذا نشط فى وقت ، أو ثمل فى حال ، وخلع العذار فى هوى قد حالفه وأضناه ... الخ"[1] .

وفى مكان آخر يتحدث عن مجلس أنس قضاه مع ابن الحجاج وأبى محمد اليعقوبى وأبى الحسن بن سكرة[2] ، وهم من أعيان القرن الرابع ، عاش أولهم الى سنة ٣٩١ وثالثهم الى سنة ٣٨٥ فحكاية أبى القاسم البغدادى وضعت بلا ريب فى أواسط القرن الرابع .

٢ — وليست حكاية أبى القاسم التى وضعها أبو المطهر الأزدى إلا فنونا من القول أراد بها وصف المجون وتصوير الماجنين من أهل بغداد وأصفهان . فهى ليست قصة بالمعنى المعروف ، ولكنها مجلس واحد يطّرد فيه القول من فن الى فن فى دعابة وظرف . و(أبو القاسم

(١) ص ٨٧ (من حكاية أبى القاسم البغدادى) . (٢) ص ٨٨

البغدادى) بطل القصة رجل جمع أدوات النصب والاحتيال والنفاق . وهو يشبه من بعض الوجوه أبا الفتح الاسكندرى فى مقامات بديع الزمان : فانا نراه يدارى أهل المجلس وينافقهم فيلبس ثوب التقى والصلاح ، حتى اذا رآهم على استعداد للهزل انقلب لاعبا متمردا عارفا بغرائب الخلاعة والمجون [1] .

ولنعط الكلمة للؤلف ليحدثنا عن منهج كتابه :

"... بعد حمد الله والثناء عليه بما هو أهله والصلاة على سيدنا محمد النبي وآله والسلام، أما الذى أختاره من الأدب فالخطاب البدوى والشعر القديم العربى، ثم الشوارد التى افترعتها خواطر المتأخرين من أعلام الأدباء، والنوادر التى اخترعتها قرائح المحدثين من أعيان الشعراء، هذا الذى أحصله من أدب غيرى وأقتنيه وأتحلى به وأدعيه وأرويه من ملح ماتنفسوا به وتنافسوا فيه، ويصدق شاهدى عليه أشعار لنفسى دونتها، ورسائل سيرتها، ومقامات حضرتها . ثم إن هذه حكاية عن رجل بغدادى كنت أعاشره برهة من الدهر فيتفق منه ألفاظ مستحسنة ومستخشنة، وعبارات [عن] أهل بلده مستفصحة ومستفيضحة ، فأثبتها خاطرى لتكون كالتذكرة فى معرفة أخلاق البغداديين على تباين طبقاتهم، وكالأنموذج المأخوذ عن عاداتهم، وكأنها قد نظمتهم فى صورة واحدة يقع تحتها نوعهم، وتشترك فيها أشخاص ذلك النوع على أحد واحد بحيث لا يختلفون فيه إلا باختلاف المراتب، وتفاوت المنازل، ولعلى صرت فى ذلك كما قال أبو عثمان الجاحظ فى فصل من كلامه :

(١) ولنلاحظ أن شخصية أبى القاسم وشخصية أبى الفتح من الشخصيات الخرافية ، وصدورها على طريق التكنية اون من التفخيم أو التمليح ، والكنية ظاهرة عربية ، ولايشترط فيها أبوة فقد يكنى الصبى أحيانا وهو لم يستحق أن يكون أبا ، وربما ولد له فسمى ولده بغير ما كنى به ، وتكنية الصغير تفاؤل له بالحياة وطول العمر والولد ، وتكنية الكبير تعظيم له عن التسمية باسمه ، وقد تجعل العرب للرجل الكنية والكنيتين والثلاث على مقدار جلالته فى النفوس (راجع نقد النثر ص ٤٢ و ٤٣) .

وفى معجم الأدباء لياقوت — ص ١٨٨ ج ٥ — فى أخبار الكسائى كلام صريح فى الافتخار بالكنية وعيب التكنية فى مجالس الخلفاء ، لما فى ذلك من مظاهر الزهو والخيلاء .

وقد عرضنا للتكنية بكلام مفصل فى الجزء الثانى ص ٢٨٨ ، ٢٨٩

"وإنا مع هذا نجد الحاكية من الناس يحكى ألفاظ سكان اليمن مع مخارج كلامهم لايغادر من ذلك شيئا ؛ وكذلك تكون حكايته للغربى والخراسانى والأهوازى والسندى والزنجى ، نعم حتى تجده كأنه أطبع منهم، فأما إذا حكى كلام الفأفاء فكأنه قد جمع كل طُرفة فى كلام كل فأفاء فى الأرض فى لسان واحد، كما أنك تجده يحاكى الأعمى بصورة ينشئها بوجهه وعينيه وأعضائه لاتكاد تجد من ألف أعمى واحدا يجمع ذلك كله، فكأن هذا الحاكى قد جمع ما هو مفترق فيهم، وحصر جميع طرف حكايات العميان فى أعمى واحد . ولقد كان فلان[1] يقف بباب الكرخ بحضرة المكارين فينهق فلا يبقى حمار مريض ولا هرم حسير ولا متعب بهير إلا نهق ، وقد يسمع نهيق الحمار على الحقيقة فلا ينبعث له ولا يتحرك لحركته لصوت هذا الحاكى ، وكأنه قد جمع جميع النغم التى تناسب نهيق الحمار فجعلها نهيق حمار واحد، فارتاحت لسماع ذلك نفوس جميع الحمير . ولذلك زعمت الأوائل أن الانسان انما قيل له العالَم الصغير سليل العالَم الكبير لأنه يصور بيده كل صورة، ويحكى بفمه كل صوت، ولأنه يأكل النبات كما تأكل البهائم، ويأكل اللحم كما تأكل السباع ، ويأكل الحب كما تأكل الطيور ، ولأن فيه أشكالا من جميع أجناس الحيوان" .

وإذ قدمت هذه الجملة فأقول : هذه حكاية مقدرة على أحوال يوم واحد من أوله الى آخره، أو ليلة كذلك، وانما يمكن استيفاؤها واستغراقها فى مثل هذه المدة، فمن نشط لسماعها ولم يعد تطويل فصولها وفضولها كلفة على قلبه، ولا لحنا يرد فيها من عباراتهم قصور معرفة يعيّرنى بها، لا سيما مع انتهائه منها الى الحكاية البدوية الأدبية التى أردفتها بها، ومع قول أحد البلغاء (ملح النادرة فى لحنها، وحلاوتها فى قصر متنها، وحرارتها فى حسن منطقها) كلفت له من البسط جهده المتعب علىّ وغيره الممتع له[2] . ثم إن لى قدمة شوط أستعيره وأستغيره من شعر أبى عبد الله بن الحجاج وهو قوله :

---

(١) هو فى البيان والتبيين (أبو دبوبة الزنجى) ص ٣٩ ج ١

(٢) فى هذه العبارة ركاكة وغموض .

يا سيدى، دعوةَ مَن شعرهُ　　　يجرى على العادة والعرف
لا بد أن يغفل عن لفظة　　　طريفة يأتى بها سخفى

٣ — وهذه المقدمة تبين غرض المؤلف : فهو يريد وصف الحياة فى بغداد لعهده، وسياق الحكاية صريح فى أنه قصد الى وصف جانب خاص هو جانب العبث والمجون . والطريف فى منهج المؤلف هو شعوره بأهمية تدوين العادات والألفاظ ، وإشارته الى أن اللحن قد يكون أصرح من الفصاحة فى عرض الملح والفكاهات، وأن السخف قد يكون وسيلة الى طريف الألفاظ فى بعض الأحيان .

وأكثر ألفاظ البغداديين فيما دونه أبو المطهر غير قاموسية، أعنى أنها لم تدون فى المعاجم . وأبو المطهر يقصد اليها قصدا : فهو رجل مثقف العقل يجرى فى درس اللغة على منهاج . من ذلك ما أنطق به المحدِّث :

— يا أبا القاسم، تعرف شيئا من السباحة ؟

فيجيب :

— يا أحمق ! يا سوادىّ لا يحسن أن يركب البقر ، وتركى لا يحسن أن ينزع القوس ! أنا والله أسبح من الضفدع ومن التنين ! أعرف من السباحة أنواعا لم يحسنها قط ، سمك ولا بط ، أعرف منها الشق والذرع والغمر والاستلقاء والتزاور والشكابى والطاووس والعقربى والمقرفص والموزون والكامل والطويل والمقيد . كان أستاذى فى جميعها ابن الطوا والزنابيرى .

وفى هذا الحوار يعلمنا أبو المطهر أسماء العوم، وهى أسماء لا نجد شرحها كاملا فى القواميس ، ولا نجد فى أهل زماننا من يعرف ما لها من مداول . وقد تكون أسماء العوم فى أندية الرياضة المصرية مما يمت الى لغات أجنبية .

ولا يقف أبو المطهر عند هذا . بل يُنطق المحدِّث بألفاظ الملاحين فيقول :

— يا أبا القاسم، أريد أن أعرف شيئا من ألفاظ الملاحين وأحوالهم .

فيقـــول :

— يحتاج أن نعـرف ألوان المراكب من السفن والسـميريات ، والمراكب العاليات ، والزبازب ، والكمندوريات ، والبالوع ، والطيطاب ، والجدى ، والجاسوس ، والورحيات ، والقوارب ، والخيطيات ، والشلملى ، والجعفريات[1] .

وللحديث بقية فيها استقصاء لألفاظ الملاحين ، وهى خطة تذكر بما صنعه المسيو كولان Colin عين عاشر الملاحين المصريين ليعرف الألفـاظ الفنية لأجزاء السفن المصرية . فانظر كيف سبق أبو المطهر صاحبنا كولان بعشرة قرون !

ويتصل بهذا تدوينه لمظاهر الحضارة فى بغداد ، فقد سخر من أهل أصبهان اذ يجد السالك محـال كريهة الأسماء مثل : «موضع المجذومين» و « درب الصم » و «دروب العمى» ويقول : «هل أرى عندكم من أرباب الصناعات والمهن مثل من أرى ببغداد من الوراقين ، والخطاطين ، والخياطين ، والخراطين ، والزرادين ، والمزوقين ، والطباخين ، والطحانين ، ومن لا يحصى عددا من الحذاق المعجزين[2] ؟ » .

٤ — ولأبى المطهر صور فنية يقصد اليها رغبة فى الدعابة ، من ذلك قوله فى وصف منـافق :

«ويقبل خلال الأحاديث على من يليه من اليمين فيفاوضة ويتسمع من أحاديثه ويستهش لما ويقول :

ياسيدنا ، ذا والله ليس كلام البشر ، انما هو سحر يوله القلوب والأسماع ، كلام والله كبرد الشراب ، وبرد الشباب ، بل كالنعيم الخاضر ، والشباب الناضر ، قطع الزهر ، وعقد السحر ، ما هو إلا كالبشرى بالولد الكريم ، الى سمع الشيخ العقيم ، حسن الديباجة ، صافى الزجاجة ، حلو المساغ ، يعافى به المريض ، ويجبر به المهيض ، يقود سامعه الى السجود ، ويجرى مجرى المـاء

---

(١) راجع ص ١٠٧ و ١٠٨ (٢) ص ٢٤

فى العود، قد آتسع له بحمد الله مَشرَع الإطناب، وآنفرج عنه مسلك الإسهاب، فهو ينثر الدر على الدر .

فيقول الذى على يساره : فى أى شىء أنتم ؟ فيغمز اليه بعينه ويقبل عليه ويقول :

ياسيدنا ! أنا فى محنة صلعاء بلا طاقة شعر، فى كلام أثقل من الجندل، وأمرّ من الحنظل، هذيان المحموم، وسوداء المهموم، لمثله يتسلى الأخرس عن كلمه، ويفرح الأصم بصممه . كلام والله يصدى الخاطر، إن لم يُعِش الناظر . كلام تتعثر الأسماع من حزونته، وتتحير الأوهام من وعورته، لامساغ له فى الأسماع، ولا قبول من الطباع .

ثم يلتفت الى اليمين فينشده صاحبه الذى يليه شعرا فيقول :

أعيذه بالله ! ما أصفى نظره، وأنق درره، وأغزر بحره، وأحكم نحته ونجره[١] ... لو جُعل خلعة على الزمان لتحلى بها مكاثرا، وتجلى فيها مفاخرا . شعر والله يختلط بأجزاء النفس، الآذانُ والله تصير أصدافا لهذا الدر .

ويلتفت عنه ثانيا الى اليسار فيقول :

ياسيدنا ! أما كنت تسمع ذا الشعر البارد العبارة، الثقيل الآستعارة، وتلك الإشارة الفاترة! ياسيدنا، بلا حلاوة ولا طراوة . ليس إلا إقواء وإيطاء وأخطاء . لو شعر، أعزه الله، بالنقص لما شعر !

ثم يقبل على اليمين ثالثا ويأخذ فى تقريظه ويقول :

سيدنا بحمد الله كريم الأخلاق والأطواق، المجد لسان أوصافه، والشرف نسب أسلافه، ما ورث المحاسن عن كلالة، ولا ظفر بها عن ضلالة . شجرة طيبة أصلها فى الماء، وفرعها فى السماء، ثم هو بحمد الله فى الكرم والجود بحر لا يظمأ وارده، ولا يمتنع بارده، لو أن البحر قدره، والسحاب مده، والجبال ذهبه، لقصرت عما يهبه، وفى العلم البحر المد لسبعة أبحر، كأنما يوم بحمد الله منه أعمار سبعة أنسر . شجرة فصل عودها أدب، وأغصانها علم، وثمرتها

(١) فى الأصل (نجره) بالحاء المهملة .

عقل، هذا بحمد الله مع خُلق كنسيم الأنوار، على صفحات الأشجار، فى نفحات الأسحار، خلائق فى ذكاء الخلوق[1]، وشمائل فى صفاء الشَّمول، أذكى من حركات الريح بين الريحان، جِد كعلق[2] الجَـد، وهزل كحديقـة الورد، سـبحة ناسك، وتفاحة فاتك، وعشرة يكاد ماؤها يقطر، وصحوها من الغضارة يمطر. ثم المنظر الذى تبهر وضاءته العيون، متبرقع والله ببديع الجمال، متعوذ من عين الكمال، متخلل مخائل الأمثـال. أحلى والله من الوبل، على المحل، الخَلق وضىء، والخُلق رضىء، والفضل مضىء[3]. محاسن أنا والله منها فى روضة وغدير، بل فى جنة وحـــرير.

ويلتفت الى من يليه ويقول على العادة فى النفاق والخبث:

ذا والله سخنة عين، عصارة لؤم، فى فؤاد خبث، كالكمأة لا أصل لهـا ثابت، ولا فرع نابت، لو قُذِف والله الليـل بلؤمه اطفئت أنوار نجومه. لايبضّ حجره، ولا يثمر شجره، حجة لا تروى، وزند لا يورى، قالب جهل مستور بثوب، يعثر فى عنان جهله، ويتساقط فى ذيول خُرقه، صخرة خلقاء لا تستجيب للرتق، وحية صماء لا تتسمع الى الرقى، كأنى اذا ناظرته أسفر منه عَودا، وأهز طودا، ثقيل الطلعة، بغيض التفصيل والجملة. يحكى ثقل الحديث المعاد، ويمشى على العيون والأكباد، هو والله فى العين قذاة، وبين النعل والأخمص حصاة. كأن وجهه على الحقيقة هول. المطلع النحس يطلع من جبهته، والخل يقطر من وجنته، وجه يشق على العين، وكلام لا يسوغ فى الأذن، ما كنت أدرى والله أيحدِّث أم يحدث، مدخل أكله أمذر[4] من مخرج ثفله، لا يفرق والله بين محساه ومفساه ... الخ[5]".

وأوّل ما يلاحظ فى هذه الصورة كثرة القسم. وكان ذلك لعهد المؤلف من طبيعة البغداديين. والصورة عادية من حيث السياق: فليس فيهـا تحليل لطبيعة المنافق غير هـذا الوضع البسيط وهو التلون والتقلب، والظهور بوجهين، وتلك أظهر ما فى شيم المنافقين.

---

(١) الخلوق بفتح الخاء الطيب. (٢) فى الأصل (علو) بالغين المعجمة. (٣) مضىء وخفف للسجع.

(٤) أمذر: أخبث، وبيضة مذرة: فاسدة (٥) راجع ص ١١٣ و ١١٥

وليس لأبى المطهر يدٌ فى تلوين هذه الصور : فهى جملة من المحامد والمقابح جمعها من ألفاظ معاصريه ، وكنا أشرنا فى النص الفرنسى الى أنه آقتبسها من كتب الثعالبى ، ويظهر لنا الآن أن الثعالبى هو الذى آعتمد على أبى المطهر فى نظم هذه الصورة الفنية .

٥ — ومن هذا الباب ما كتبه فى وصف الثقيل :

«يا أول ليلة الغريب ، اذا بعد عن الحبيب ، يا طلعة الرقيب ! يا يوم الأربعاء فى آخر صفر ، يا لقاء الكابوس فى وقت السحر ! يا خراجا بلا غلة ، يا سفرا مقرونا بعلة ! يا أخلق من طيلسان ابن حرب ، يا أشأم على نفسه من ضرطة وهب ! يا أبغض من قدح اللبلاب فى كف المريض ، وأنكر من نظر المفلس فى وجه الغريم البغيض ! يا أنتن من الكنيف فى سحر الصيف ، وأثقل من طلعة البغيض على الضيف ! يا وجه المستخرج فى يوم السبت ، يا إفطار الصائم على الخبز البحت ! يا أبرد من الشمال فى كانون ، وأوسخ من فراش الجرب المبطون ! يا أقذر من ذباب على جعس[1] رطب ، وأحقر من قملة فى أذن كلب ! يا أقذر من جفنة الدباغين ، وأنتن من ريح القصابين ! يا أبلد من حضيض الحمام ، وأنتن من حانوت الحجام ! يا أقذر من طين السماكين ! يا أوحش من شخص الظالم فى عين المظلوم ، وأكره من صوت البوم اذا صك سمع المحموم ! يا أبرح من غم الدَّين ، وأشد من وجع العين ، وأوحش من بكرة يوم البين ! يا ليلة المسافر فى كانون الآخر ، على أكاف بائس ، وبرد قارس ! يا أذل من ناسج برد ، ودابغ جلد ، وراكب قرد ، وسائس عرد ! يا أثقل من طفيلى يعربد على الندماء ، ويقترح أنواع الغناء ، ويتشهى بعد أكل الغداء والعشاء ، ألوان الصيف فى الشتاء ، مجشما للساقى ، قاطعا على المغنى ، يواثب ويدنى[2] . يا أشد على الأحرار من تطاول الحجاب ، وعبوس البواب ، وجفاء الحجاب ، وسوء المنقلب والإياب ! يا أشد من كربة صاحب المتاع الكاسد ، وأضيق من قلب الكاشح الحاسد ، وأكرب من الاستماع الى المغنى البارد ! يا أكره من هجرات الصديق ، ومن النظر الى زوج الأم على الريق ، ومضيق الطريق ، بل من سوء القضاء ، وجهد البلاء ، وشماتة الأعداء ،

---

(١) الجعس : الرجيع . (٢) فى رسائل الخوارزمى : «يزنى» .

وحسد القرباء ، وملازمة الغرماء[1] ، وخيانة الشركاء ، وملاحظة الثقلاء ، وملابسة السفهاء ، ومساءلة البخلاء ، ومعاداة الشعراء[2] » .

وقد شرنا فى النص الفرنسى الى أن هذه الصورة منقولة عن رسالة للخوارزمى ، ونرجح الآن أن الخوارزمى هو الذى حاكى أبا المطهر فى وصف الثقيل ، لأن الخوارزمى مات سنة ٣٨٣ أو ٣٩٣ وأبو المطهر كان شابا ماجنا فى سنة ٣٠٦ فمن المستبعد أن يكون عاش طويلا بعد انتصاف القرن الرابع[3] .

وقد عدنا فوازنا بين الرسالتين : رسالة أبى المطهر ورسالة الخوارزمى فوجدناهما تتوافقان فى ألفاظ وتختلفان فى ألفاظ . وفى العبارات المتقاربة تظهر الدقة فى جانب الخوارزمى ، فأبو المطهر يقول :

"يا أنتن من الكنيف ، فى سحر الصيف"

والخوارزمى يقول :

"يا كنيف السجن فى الصيف"

وهى عبارة أقذر وأشنع .

ورسالة الخوارزمى طويلة جدا ، ولكن هيهات أن يصل الى ما وصل اليه أبو المطهر من الإفحاش والإقذاع فانه نثر أهاجيه فى كتابه نثر الشوك . وهذه الأهاجى البشعة من مظاهر الحضارة فى بغداد ، ونعيذ القارئ أن يدهش من ذلك ، فان الحضارات تقتضى فنونا من المناقب والمثالب لا تستطيعها البداوات . وعيوب أصحاب الحرف والصناعات ، ورذائل المترفين ومساوى الموسرين لا تُعرف إلا فى الحواضر المزهرة ، ومن أجل ذلك اتخذنا أهاجى أبى المطهر عنوانا على قوة الحضارة فى بغداد .

---

(١) فى الأصل (القرباء) . (٢) راجع ص ١٢٠ .

(٣) وقد ورد وصف الثقيل على هذا النحو أيضا فى تربيع الزمان (أنظر المقامة الدينارية ص ٧٩ ، ٨٠ طبع استامبول) .

وهل يستطيع البدوى أن يفهم كيف تكون القذارة فى جفنة الدباغين، وريح القصابين، وطين السماكين ؟ هيهات ! فتلك وأمثالها بلايا لا يعرفها إلا الحضريون !

٦ — ومن طريف الصور ما جرى به قلمه فى وصف الجمال ، وهو كأهل عصره يتحدث عن جمال النساء وجمال الغلمان، ففى الفن الأول يقول :

"وذكاء البغداديين ومجونهم أكثر من أن يحصى وأشهر من أن يذكر، فما ظنك بخرعوبة من بنات الملوك قد جمعت الذكاء مع الملاحة، والفطنة مع الصباحة ... قد أطر الفتاء[1] شاربها ، وزوى الإباء حاجبها ، ورخم ألفاظها ، وفتر النعيم الحاظها ، وأرهف الظرف أعطافها، وألانت النعمة أطرافها ، ولذ للراشف مقبلها، واغتص بالبرنى مخلخلها، واطرد ماء النعيم بين رياض وجنتها، وترقرق جريال الشباب على صفحاتها، وتورد من صبغ الحياء خدها، واهتز من نضارة الصبا قدها ، وشخص للطراوة نهدها، وارتجت من الشحم روادفها، وتشربت أنوار الحسن سوالفها، ثم أعيدت ساخطة على محبها، وقد قطب التيه جبينها، وشمخت النخوة بعرنينها، وطفقت تعدد عليه ذنوبه بأناملها المترفة، وتأبى قبول معاذيره المزخرفة، حتى إذا انتهى عاشقها فى الاستكانه والخضوع، وبل أكمامه بسوارب الدموع، أقرت متبسمة عن شتيت الدر، ونضحت بلطيف كلامها على ذلك الحرى والحر . ثم أقبلت نرجستاها تدمعان رحمة لعاشقها المبتلى، فترى والله حباب الدموع، أوخمر الخجل، ونفسا تموت فتحييها بزاد من القبل، وتجشمت بعد ذلك زيارة فى ملاءة من الظلام، ووافته وهو سادر فى ساعة الأحلام، وقد سرى أمامها أرج المسك الفتيق ، وعبق الجو منها بريا الراح العتيق، وانثنت متمايلة وقد بل البهر غلائلها، وفتر الأين[2] مفاصلها، وأرعد الوجد فرائصها، وغمز المشى أخماصها، وجعلت تمتن عليه بإلمامها، وتدعى فضل غرامها، وتناسمه من

---

(١) الفتاء : طراءة السن ، قال الشاعر :

اذا عاش الفتى سبعين عاما * فقد ذهب البشاشة والفتاء

وفى الأصل (الفناء) وهو تحريف . (٢) الأين : التعب .

أحاديثها بما هو أقر لعينه، وأشهى الى نفسه، من طول بقائها، و بلاغ نعائها، تدوى بألحاظها، وتداوى بألفاظها، تردى بمقلتها، وتحيي بقبلتها[١]... الخ

وفى الفن الثـانى يقول :

"كم تشغلني يا أبله، وتسألني عن الأباطيل، وتقطع كلامى بما لا يفيدك؟ ما أرى والله على رأس أحدكم غلاما نظيفا غنج الحركات، حلو الشمائل، خنث الأعطاف، بابلىّ الطرف، يمشي بخصر دقيق، وردف ثقيل، غنت عليه المناطق، ودل على حسن صنعة الخالق، خده جلّنار[٢]، وعيناه نرجس، وشاربه زمرّد، وشفتاه مرجان أو عقيق، وثغره در وريقه رحيق كأنه دينار منقوش، أو جرعة عسل ... لو جذب عصو منـه آنفطر، أرقّ من نسيم الهواء، وألذ من المـاء بعد الظمأ، كأنه طاقة ريحان، أو غصن بان، أو قضيب خيزران، أو طاقة آس ريان، كأن جبينه هـلال، وكأن حاجبه خط بقلم، كأن عينيه عينا جؤذر، وكأن أنفه حدّ سيف، وكأن وجنته الخمر، أولون الراح، أوحمـرة التفاح. أحسن من نَور زهر الربيع البـاكر على الغصن الروىّ. أحسن من الروض الممطور. كأن شاربه طراز بنفسج على ورد جنىّ ... كأن شاربه زئبرالخـز الأخضر، وعذاره طراز المسك الأذفر، على الورد الأحمـر، اذا تكلم يكشف حجاب الزمرد والعقيق، عن الدر الأنيق ... كأن فمه حلقة خاتم، وكأن ثغره البرد، أو أقحوان تحت غمامة. كأن فاه الخمر، نبت فيه الدر، كان عنقه إبريق فضة ... كأنما لبس بدنه قشور الدر، كأنه فضة قد مسها ذهب، كأن بطنه قبطية، وساقه بَردية، وقدمه لسان حية. كأن وجهه الشمس، وكأنه دارة القمـر، وكأنه المشترى، وكأنه الزهرة، وكأنه الدرّة، وكأنه الغمامـة. أطهر من المـاء الزلال، وألذ من معانقة الخيال، وأزهر من النـار، وأزكى من الأرض التى تنبت البنفسج، ... كالظبي الغرير، والقمر المنـير، والغصن النضير، والمهاة على الغدير... الخ[٣]".

(١) (ص ٧٦، ٧٧). (٢) الجلنار : زهر الرمان، وهو فارسى معرب.

(٣) ص ٦٥ و٦٦

وهذه الصورة أيضا منقولة عن معاصريه من كتاب القرن الرابع ، ودليل ذلك أنها خلت من الرباط الوثيق الذى يجمع بين أواصر الإنشاء المتين . فهى أوصاف حشرت حشرا ، ولم تكلف الكاتب إلا التقاطها من أزاهير الأسجاع ، بحيث يصعب التمييز بين ما نقله وما ابتدعه . وإن كنا نجد جودة القصص فى مثل قوله يصف غلام ابن عرس :

"كان اذا حضر ألق إزاره وقال لأهل المجلس : اقترحوا واستفتحوا ، فانى ولدكم ، بل عبدكم ، أخدمكم بغنائى ، وأساعدكم على رخصى وغلائى ، من أرادنى مرة واحدة أردته ألف مرة ، ومن أحبنى رياء أحببته إخلاصا ، ومن مات لى مت عليه . لِمَ أبخل عليكم بحسنى وظرفى ؟ ولِمَ أتعسر عليكم ؟ وانما خلقت لكم ! ولِمَ أتطاول عليكم ؟ وأنا غدًا مضطر اليكم ، اذا بقل وجهى ، وتدلى سبالى ، وتولى جمالى ، وتكمش خدى ، وتعوج قدى . حاجتى والله اليكم غدا أشد من حاجتكم الىّ اليوم . لحا الله سوء الخلق ، وشراسة الطباع ، وقلة الرعاية والحفاظ ..."[1] الخ .

٧ — وقد وصف الخمر فى أماكن متفرقة من حكايته أظهرها ما جاء فى صفحة ١٠٩ وصفحة ١٣٢ وهى كذلك صفات نجدها عند معاصريه ، فلا موجب لعرضها فى هذا الفصل ، ونشير الى أننا استظرفنا وصفه للخمر بأنها " أرق من دين أبى نواس "[2] !

وهو مأخوذ من قول أبى نواس نفسه فى وصف الصهباء :

عتقت فى الدن حتى * هى فى رقة دينى

٨ — وقد يلقاك أبو المطهر بنظرات فلسفية يعلل بها غلبة المجون على الناس ، فقد وصف أحد المؤلفين فى زمانه بأنه كان اذا سمع غناء تمرغ فى التراب ، وهاج ، وأزبد ، ونعر ، واستعر ، وعض بنانه ، وركل برجله ، ولطم وجهه ألف لطمة فى ساعة . وهنا يسأل السامرون :

---

(١) ص ٥٨ . (٢) وجاء فى ١٣٢ «نشاط الشراب يطوى على ما فيه من الخطأ» نشاط تحريف ، وصوابه (بساط) و «متابعة الأبطال ، تترك الشيوخ كالأطفال» والأبطال ، محرفة والصواب (الأرطال) و «يأخذ من ثقلهم ، ويضحك من عقلهم» و (ثقلهم) محرفة ، والصواب (نقلهم) .

— يا أبا القاسم ! كل هذا يجرى لسماع غناء ؟

فيقـــول :

— هذه صورة اذا آستولت على أهل مجلس وجدت لها عدوى لا تملك ، وغاية لا تدرك : لأنه قلّ ما يخلو الانسان من صبوة ، أو صبابة ، أو حسرة على فائت ، أو فكر فى متمنًّى ، أو خوف من قطيعة ، أو رجاء لمنتظر ، أو حزن على حال . فالناس كأنهم على جديلة واحدة فى هـــذه الحـــال (١) .

٩ — وقـــد عرض لفكاهات البغداديين ونوادرهم فى غير موضع ، وهى فى الأكثر فكاهات ماجنة لا تحسن روايتها فى هذا الكتاب ، ولا بأس من ايراد هاتين النادرتين :

استعرض رجل جارية مليحة وتوقف عن شرائها لعرج كان بها فقالت : ان كنت تريد جملا تحج عليه فما أصلح لك ، وان كنت تريد جارية للمتعة فالعرج لا يمنعك من ذلك (٢) .

وقال آخر لجارية : ليتك أمسيت تحتى ! فقالت : نعم ياسيدى ، مع ثلاثة أُخَر (٣) ! أى اذا كان على الجنازة .

وفى الكتاب قصص كثيرة عن مجون أهل بغداد وخلاعة مغنيهم وقيانهـم ، وأوصاف سابغة لسهراتهم ومجالس لهوهم وأنسهم . ذلك كله بأسلوب جميل جذاب يحمل الفارغين على تشهى اللهو والمجون . وكأنما أراد المؤلف أن يجعل تلك القصة مرجعا لأكثر المعانى الهزلية ، فلم يترك بابا من أبواب الدعابة إلا طـرقه ، ولم يدع معنى من معانى الخـلاعة إلا ألم به . وأحسبه حشر فى كتابه أقذر ما روى من الشعر المـاجن الخليع .

ولهذا النوع من التأليف قيمته على أى حال ، فهو لون من ألوان الأدب تحتاج اليه النفس فى ساعات الملال .

١٠ — وفى الكتاب ألفاظ لا تزال حية على ألســنة عوام المصريين ، كقول شاعر فى وصف ثقيل :

(١) ص ٧٨ و ٧٩ . (٢) ص ٧٥ . (٣) ص ٧٦ .

يا كل شىء وَحِش مهـولِ يارأس خـنزير ووجه غولِ[1]

والشاهد فى (شىء وحش) .

وقول آخر :

ياسفل الناس وأو باشهم من بين صفعان الى ضارط[2]

والشاهد فى (أوباش) وهى مقلوبة عن (أوشاب) .

وقول أبى القاسم :

" ياسفل العالم ! اذا أسكرتمونى فمن يزنى حينئذ بأم هذا الديوث الذى أنا فى داره " .

وقول شاعر :

و يك ستى كلمينى قبل أن أُبصر مُشْله[3]

وعوام المصريين يقولون : " فلان عليه حتة لسان " يعنون أن له لسانا طويلا ، أى ثرثاراً . ومثل هذا التعبير ورد فى بيت ماجن تقبح روايته فى مثل هذا الكتاب .

١١ — وجملة القول ان كتاب أبى المطهر الأزدى سخيف، ولكنه مع سخفه ظريف، والمؤلف خليق بأن يوصف بما رواه لأحد الشعراء :

شيخٌ سخيفٌ ولكن يأتى بسخفٍ مليح

وهناك قصيدة رائية لأبى دلف الخزرجى من شعراء القرن الرابع اسمها القصيدة الساسانية[4] وهى فى الشعر كحكاية أبى القاسم فى النثر كلتاهما تصف أخلاق الأوباش وتحكى ألفاظهم . ومراجعةُ هذين الأثرين مفيدةٌ لمن يعنيه أن يعرف ما أهملت المعاجم من ألفاظ الجماهير السوقية . وبكل مدينة أحياء ماجنة تنفرد بألفاظ وتعابير تمثل ما فيها من شواذ الأخلاق، وفى القاهرة اليوم ناس يسمون (أولاد البلد) لهم كنايات وإشارات لا يفهمها الخواص ، كالذى يقع لأهل (Belleville) من أحياء باريس .

---

(١) ص ١١٩ (٢) ص ١٢٤ (٣) ص ١٢٦

(٤) تجد هذه القصيدة مشروحة فى يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٧٦ — ١٩٢

الفهرس المفصل (١)

نقد النثر الفني

(١) ليس الغرض من هذا الفهرس استقصاء موضوعات الكتاب ، ولكن الغرض إرشاد القارئ الى أهم الموضوعات التى عرض لها المؤلف بالنقد والتحليل .

البـاب الأول

تطـــور النـــثر من عصر النبوة الى القرن الرابع

١ — النثر الجاهلى

الباب الثانى

خصائص النثر فى القرن الرابع

١ — خصائص نثرية

٢ — السجع والازدواج

البـاب الثـالث

كتاب الأخبـار والأقاصيص

٥ — أخبار ابن دريد

٦ — حكايات ابن الأنبارى

٧ — التوابع والزوابع

تصـــحيحات(١)

صفحة	سطر	الخطــأ	الصــــواب
٧٧	٦	الفَـــول	القَـــول
٨١	١٤	من عمك غيره	من عمّك خيره
٨٣	١٧	من اغنفر	من اغتفر
٨٤	١	خطـــيرة	حظـــيرة
٩٧	١٩	عبـــوب	عيـــوب
١٠١	٢٣	ولن يصيرها	ولن يضيرها
١٢٠	١٢	كتابه	كاتبـــه
١٣٩	٦	يقـــلق	يعـــلق
١٥٦	٧	أتى	انى
٢١٣	٢١	كوته	كرته
٣٠٧	١٣	فى كل غير .	فى كل خير

(١) صحح هذا الكتاب بعناية شديدة . ولكن ذلك لم يصل به الى العصمة من الخطأ ، وقد رأينا تصحيح ما رأيناه من الأغلاط . وان كنا على ثقة من أن القارئ الفطن لن يغيب عنه المعنى لكلمة ينقصها إعجام أو يشوبها تحريف .

وقد نظرنا فى الجزء الثانى فلم نجد فيه إلا أغلاطا يسيرة جدا يدركها القارئ بدون توقيف ، فلم نر موجبا لاثباتها هناك .



كَمُلَ طبع الجزء الأول من كتاب "النثر الفنى فى القرن الرابع"
بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الخميس ١٦ شوّال سنة ١٣٥٢
(أول فبراير سنة ١٩٣٤) م

محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب المصرية

الأخلاق عند الغزالى

قُدِّم هذا الكتاب الى الجامعة المصرية ، ونوقش أمام الجمهور فى ١٥ مايو سنة ١٩٢٤ ونال به المؤلف شهادة العالمية بدرجة « جيّد جدّا » ولقب دكتور فى الآداب .

يقع هذا الكتاب فى ٤٣٤ صفحة ، وبه كثير من الرسوم التاريخية التى تمثل طائفة من المعالم القديمة ، وبه مقدّمة بديعة بقلم الكاتب الفيلسوف الدكتور منصور فهمى . وهذا الكتاب ضرورى جدا لمن يحب الوقوف على فلسفة الأخلاق، وعلى العصر الذى عاش فيه الغزالى، والمصادر التى آستقى منها آراءه الفلسفية، والفرق بين الخير والشر، والكفر والإيمان، والشك واليقين ، والجبر والآختيار ، وما الى ذلك من المباحث الهامة التى حار فى فهمها الباحثون، وخبط أكثرهم فيها خبط عشواء .

وفى هذا الكتاب باب ممتع فى الموازنة بين الغزالى وبين الفلاسفة المحدَثين، حيث تناول المؤلف بالنقد والتحليل آراء ديكارت ، وبسكال، وهوبس، وبوتلير، وكارليل، وسبينوزا، وجسندى، ومالبرانش . . وفيه كذلك صورة لآراء علماء العصر فى الغزالى : كالدكتور منصور فهمى، والشيخ على عبد الرازق، ومحمد بك جاد المولى، والأستاذ عبده خير الدين، والشيخ عبد العزيز شاويش، والكونت دى جالارزا، والشيخ عبد الوهاب النجار، والشيخ حسين والى، والشيخ عبد الباقى سرور، والشيخ يوسف الدجوى .

وقد قامت حول هذا الكتاب ضجة عنيفة، فمن الواجب أن يطلع عليه أهل العلم ليقفوا على كنه ما فيه من آثار حرية الفكر والرأى .

مؤلفات زكى مبارك

١ — الأخلاق عند الغزالى .

٢ — La Prose Arabe au IVe siècle de l'Hégire

٣ — البدائع .

٤ — شرح الرسالة العذراء Étude sur La Lettre Vierge

٥ — حب ابن أبى ربيعة وشعره (الطبعة الثالثة) .

٦ — ديوان زكى مبارك .

٧ — الموازنة بين الشعراء .

٨ — مدامع العشاق (الطبعة الثانية) .

٩ — ذكريات باريس .

١٠ — تحقيق نسب « كتاب الأم » .

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٦١/١٩٣٢/٣٠٠٠)